http://www.shamela.ws
تم إعداد هذا الملف آليا بواسطة المكتبة الشاملة

إذن : فأخبار الغيب في القرآن إما خَرْقٌ لزمان ماضٍ أو خرق لزمان الحال ، وإما خرق الزمان ومكان الاستقبال .

ونحن نعلم أن القرآن كان ينزل والمسلمون ضعاف ، لا يستطيعون حماية أنفسهم ، ولا أحد يجير على أحد ، ويتجه النبي صلى الله عليه وسلم إلى الطائف ليعرض الإسلام على أهلها ، لعلَّه يلتمس لهم مجيراً من أهل الطائف؛ ولكنه صلى الله عليه وسلم لا يجد إلا الإيذاء والإعراض ، ويوصي بعضاً من صحابته أن يهاجروا إلى الحبشة .

وفي ظل كل هذه الأزمات ، ينزل قول القرآن : { سَيُهْزَمُ الجمع وَيُوَلُّونَ الدبر } [القمر : 45] .

حتى إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه يستاءل : أيُّ جمع هذا الذي يهزم ، ونحن غير قادرين على حماية أنفسنا؟ ثم تأتي غزوة بدر ويشهد عمر هزيمة وفرار مقاتلي قريش؛ فيرى رأي العين صدق ما جاء به الوحي من قبل .

وهكذا تأكد الجميع أن القرآن الكريم غير مُفترىً ، فكيف يُتَّهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه افتراه؟

وإذا كان هذا القرآن مفترىً ، فلماذا لا تفترون مثله؟ وفيكم الشعراء والبلغاء والخطباء؟! ولم يقل محمد صلى الله عليه وسلم أنه بليغ أو خطيب أو شاعر ، ولم يطلب القرآن الكريم منهم أن يأتوا بواحد مثل محمد صلى الله عليه وسلم ، لا صلة له بالبلاغة أو الفصاحة ، بل يطلب منهم أن يأتوا بالفصحاء كلهم ، ويدعوهم أن يقولوا مثل آية واحدة من القرآن .

وإن قالوا : إن ما جاء به هو السحر ، وإن محمداً ساحر قد سحر العبيد والضعاف ، وأدخلهم في الإسلام ، فلماذا لم يسحركم محمد؟

إن بقاءكم من غير سحر يدل على أن إطلاقكم كلمة السحر على ما جاء به دعوى كاذبة .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَتَفْصِيلَ الكتاب لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ العالمين } [يونس : 37] .

فالقرآن قد جاء فيه تفصيل كل الأحكام الصالحة إلى قيام الساعة ، أما الكتب السابقة على القرآن فكان تضم الأحكام المناسبة لزمانها ، ولأمكنة نزولها .

وهو كتاب { لاَ رَيْبَ فِيهِ } أي : لا شك فيه ، يكشف الكفار ، ويفضح أرتيابهم وكذبهم ، فَهُمْ

قد اعترفوا بعظمة القرآن وقالوا : { لَوْلاَ نُزِّلَ هذا القرآن على رَجُلٍ مِّنَ القريتين عَظِيمٍ } [الزخرف : 31] .

إذن : فهم قد عرفوا أن القرآن لا عيب فيه ، ولا ريب ، حتى من الكافرين به .

ويأتي الرد على قولهم بالافتراء ، في قول الحق سبحانه : { أَمْ يَقُولُونَ افتراه قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ }

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (38)

وقد سبق هذا المجيء بالتحدي أسبابُ عجزهم عن النجاح في التحدي؛ لأن الآية السابقة تقرر أن الكتب السماوية السابقة تُصَدِّق نزول القرآن الكريم ، وبينها وبين القرآن تصديق متبادل .

فهم مهزومون فيه قبل أن ينزل .

ويقول الحق سبحانه وتعالى : { قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ } [يونس : 38] .

وقد جاء التحدي مرة بالكتاب في قول الحق سبحانه :

{ قُل لَّئِنِ اجتمعت الإنس والجن على أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هذا القرآن لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً } [الإسراء : 88] .

ولم يستطيعوا ، فنزلت درجة التحدي؛ وطالبهم أن يأتوا : { بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ } [هود : 13] .

فلم يستطيعوا الإتيان بعشر سور ، فطالبهم أن يأتوا بسورة تقترب ولو من بعيد من أسلوب القرآن ، فلم يستطيعوا { فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ } [البقرة : 23] .

فكيف إذن من بعد كل ذلك يدَّعون أن محمداً صلى الله عليه وسلم قد افترى القرآن ، وهو صلى الله عليه وسلم لم تكن له صلة بالأساليب البلاغية أو الفصاحة؟!

لقد دعاكم أن تأتوا بكل الفصحاء والبلغاء ليفتروا ، ولو سورة من مثله ، ووضع شرطاً فقال : { وادعوا مَنِ استطعتم مِّن دُونِ الله } [يونس : 38] .

لأن الله سبحانه وتعالى هو القادر الوحيد على أن يُنزل قرآناً؛ لذلك دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدعوا الشركاء؛ وذلك حتى لا يقول الكفار وبعضهم من أهل اللجاجة : سندعوا الله؛ ولذلك يأتي القرآن بالاستثناء { وادعوا مَنِ استطعتم مِّن دُونِ الله إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ } [يونس : 38] . وهم بطبيعة الحال غير صادقين في هذا التحدي .

والله سبحانه وتعالى حين يرسل رسولاً إلى قوم؛ ليعلِّمهم منهجه في حركة الحياة ، إنما يريد سبحانه أن تؤدي حركة الحياة إلى الغاية المطلوبة من الإنسان الخليفة في الأرض؛ ولذلك يأتي الرسول من جنس المرسل إليهم؛ ليكون أسوة لهم؛ لأن الرسول إن جاء مَلَكاً لما صحَّت الأسوة ، بل لا بد أن يكون بشراً .

والحق سبحانه لا يرسل أي رسول إلا ومعه بينة ودليل صدق على أنه رسول يبلّغ عن الله تعالى .
والبينة لا بد أن تكون من جنس نبوغ القوم ، فلا يأتي لهم بمعجزة في شيء لم يعرفوه ولم يألفوه؛ حتى لا يقولوا : لو تعلمنا هذا لجئنا بمثل ما جاء .
وقد جاء القرآن ليثبت عجزهم عما نبغوا فيه من صناعة الكلام؛ شعراً ونثراً وخطابة .
وكان القرآن هو معجزة رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوم فصحاء يعقدون للشعر أسواقاً ، ويعلّقون الفائز من هذا الشعر على جدران الكعبة شهرة له وشهادة به .
إذن : فهم أصحاب دراية بصناعة الكلام ، وجاءت المعجزة مع الرسول صلى الله عليه وسلم من جنس ما نبغوا فيه؛ لتتحداهم .

والتحدي يستدعي استجماع قوة الخصم؛ ليرد على هذا المتحدي ، فإذا عجز مع التحدي ، يصير العجز ملزماً .
وقد تحدى الحق سبحانه العرب جميعاً بالقرآن كله : { قُل لَّئِنِ اجتمعت الإنس والجن على أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هذا القرآن لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً } [الإسراء : 88] .
فلم يستطيعوا أن يأتوا بمثله ، فتدرَّج القرآن معهم في التحدي فطلب منهم ما هو أقل من ذلك ، وهو أن يأتوا بعشر سور مثله في قوله تعالى : { قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ } [هود : 13] .
ثم تحداهم بالإتيان بمثل سورة من القرآن .
وعند التأمل نجد أن الأسلوب الذي جاء بطلب سورة كان على لونين : فمرة يقول : { بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ } [يونس : 38] .
ومرة يقول : { بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ } [البقرة : 23] .
وكل من اللونين بليغ في موضعه ف { بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ } [يونس : 38] تبين أن المثلية هنا محققة ، أي : مثل ما جاء من سورة القرآن . وقوله : { بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ } [البقرة : 23] .
أي : سورة من مثل محمد صلى الله عليه وسلم في أنه لم يجلس إلى معلِّم ، ولم يقرأ ، ولا عُرف عنه أنه تكلم بالبلاغة في أي فترة من مراحل حياته قبل الرسالة .
وقال الحق سبحانه : { قُل لَّوْ شَآءَ الله مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ } [يونس : 16] .
إذن : { بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ } [البقرة : 23] .
أي : مثل محمد صلى الله عليه وسلم الذي لم يتعلم وكان أمياً ، ولكن لماذا يأتي هذا اللون من التحدي؟
لأنهم قالوا عن القرآن :

{ أَسَاطِيرُ الأولين اكتتبها فَهِيَ تملى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً } [الفرقان : 5] .
بل واتهموه في قمة غفلتهم أنه يتعلم من رجل كان بمكة ، فيلفتهم القرآن إلى أن الرجل الذي قالوا إنه معلم للرسول صلى الله عليه وسلم كان أعجمياً غير عربي ، يقول الحق سبحانه : { لِّسَانُ الذي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وهذا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ } [النحل : 103] .
ويريد الحق سبحانه أن يصنفهم ، فيقول بعد ذلك : { بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ }

بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (39)

وهذا الصنف من الناس الذين { كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ } [يونس : 39] ، وهم من أخذتهم المفاجأة حين حُدِّثوا بشيء لا يعرفونه ، والناس أعداء ما جهلوا؛ فكذبوا ما جاء به رسول الله صلىلله عليه وسلم من القرآن قبل أن يتبينوا جمال الأداء فيه ، ونسق القيم العالية ، وإذا ما سنحت لهم فرصة يتبينون فيها جمال الأداء ، ودقة الإعجاز فهم يتجهون إلى الإيمان .
ومثال ذلك : عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقد كان كافراً ثم علم أن أخته وزوجها قد أسلما؛ فذهب إليها في منزلها وضربها ، فأسال دمها ، وسيل الدم من أخت بضربة أخيها مثير لعاطفة الحنان ، وهذا ما حدث مع عمر؛ فهدأت موجة عناده ، فاستقبل القرآن بروح لا عناد فيها؛ فذهب فآمن برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان من قبل ذلك ممن : { كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ } [يونس : 39] أي : لم يعرفوا مراميه ، وبمجرد أن سمعوا عن رسالته صلى الله عليه وسلم فجأة ، اتهموه بالكذب والعياذ بالله .
ولذلك اقرأ قول الحق سبحانه : { وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حتى إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ العلم مَاذَا قَالَ آنِفاً } [محمد : 16] .
وهذا يدل على أنهم لم يفهموا ما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم من القرآن ، وتأتي الإجابة من الحق سبحانه وتعالى : { قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ والذين لاَ يُؤْمِنُونَ في آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى } [فصلت : 44] .
إذن : فالقرآن هدى لمن تتفتح قلوبهم للإيمان ، أما القلوب المليئة بالبغض لقائله وللإسلام؛ فهؤلاء لا يمكن أن يصح حكمهم .
وإن أراد أي منهم حكماً صحيحاً فليُخرجْ من قلبه ما يناقض ما يسمع ، ثم عليه أن يستقبل الأمرين؛ ولسوف يدخل قلبه الأقوى حجة ، وهو الإسلام .
إذن : فمن امتلأ قلبه بعقيدة كاذبة؛ لا يمكن له أن يهتدي .
{ بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ } [يونس : 39] .
والتأويل هو ما يرجع الشيء إليه ، وهذا يوضح لنا أن هناك أقضية من القرآن لم يأت تفسيرها

بعد ، ستفسرها الأحداث ، وقد يقول القرآن الكريم قضية غيبية ، ثم يأتي الزمن ليؤكد هذه القضية ، هنا نعرف أن تأويلها قد جاء .

وهؤلاء القوم قد كَذَّبوا من قبل أن يأتي لهم التأويل ، وكان عدم مجيء التأويل هو السبب في تأخر بيان الحق في المسألة لتأخر زمنه .

وعلى سبيل المثال ، ها هو ذا عمار بن ياسر صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قامت المعركة بين معاوية بن أبي سفيان والإمام علي رضي الله عنه وَقاتَلَ عمَّار في صف عليّ ، وقُتِل .

هنا تنبه الصحابة إلى تأويل حديث من رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال :

« ويح عمار . . تقتله الفئة الباغية » .

وهكذا جاء تأويل حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما تحقق في الواقع ، وكان هذا سبباً في انصراف بعض الصحابة عن جيش معاوية .

وهنا يقول الحق سبحانه : { وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ } [يونس : 39]

أي : أن التأويل لم يظهر لهم بعد .

ومن أدوات النفي : « لم » مثل قولنا : « لم يَجيءْ فلان » ، ونقول أيضاً : « لما يجيء فلان » ، والنفي في الأولى جزم غير متصل بالحاضر ، كأنه لم يأت بالأمس .

أما النفي ب « لما » فيعني أن المجيء مُنْتف إلى ساعة الكلام ، أي : الحاضر ، وقد يأتي من بعد ذلك؛ لأن « لما » تفيد النفي ، وتفيد توقُّع الإثبات .

والحق سبحانه يقول : { قَالَتِ الأعراب آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ ولكن قولوا أَسْلَمْنَا } [الحجرات : 14] .

وهؤلاء القوم من الأعراب قالوا : { آمَنَّا } رغم أنهم راءوا المسلمين وقلدوهم زيفاً ونفاقاً ، ولم يكن الإيمان قد دخل قلوبهم بعد ، وحين سمعوا قول الحق سبحانه : { وَلَمَّا يَدْخُلِ الإيمان فِي قُلُوبِكُمْ } [الحجرات : 14] .

قالوا : الحمد لله؛ لأن معنى ذلك أن الإيمان سوف يدخل قلوبهم .

وكذلك قول الحق سبحانه : { أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الجنة وَلَمَّا يَعْلَمِ الله الذين جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصابرين } [آل عمران : 142] .

فحين سمعوا ذلك قالوا : إذن : وثقنا أنه سيأتي علم الله سبحانه بنا كمجاهدين وصابرين .

وهكذا نعرف أن { لَمَّا } تعني أن المنفي بها متوقع الحدوث . والتأويل كما نعلم هو مرجع الشيء .

وقد جاء في القرآن الكثير من الأخبار لم تكن وقت ذكرها بالقرآن متوقعة ، أو مظنة أن توجد . وحين وُجدت ولا دخل لبشر في وجودها ، فهذا يعني أن قائل هذا الكلام قد أخذه عَمَّن يقدر

على أن يوجد ، مثلما جاء في خبر انتصار الروم على الفرس رغم هزيمة الروم .
قال الحق سبحانه :
{ غُلِبَتِ الروم * في أَدْنَى الأرض وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأمر مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ المؤمنون * بِنَصْرِ الله } [الروم : 25] .
جاء هذا الخبر وانتظر المسلمون تأويله ، وقد جاء تأويله طبقاً لما أخبر القرآن .
أو أن التأويل سيأتي في الآخرة ، وما يؤول الأمر في التكذيب سيعلمونه من بعد ذلك .
والحق سبحانه يقول : { وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ على عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ } [الأعراف : 52 53] .
هم ينتظرون ما يؤول إليه القرآن وما يؤولون إليه ، إن كان في الدنيا فنصر أهل القرآن ، وإن كان في الآخرة ، فهذا قول الحق سبحانه :
{ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الذين نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بالحق فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الذي كُنَّا نَعْمَلُ } [الأعراف : 53] .
هذا هو التأويل الذي كذَّبه البعض من قبل .

إذن : فالتأويل : إما أن يكون لمن بقي من الكفار فيرى ما أخبره به القرآن وقد جاء على وفق ما أخبر به نبيٌّ لا يملك أن يتحكم في مصائر الأشياء ، وتأتي على وفق ما قال .
فكأن محمداً صلى الله عليه وسلم كان يجازف بأن يقول كلاماً لا يتحقق؛ فينصرف عنه الذين آمنوا به ، ولكنه صلى الله عليه وسلم لم يقل إلا ما هو واثق ومطمئن من وقوعه؛ لأن الخبر به جاء من لدن عليم خبير .
وإما أن التأويل أيضاً يأتي في الآخرة .
وهنا قال الحق سبحانه : { بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ } [يونس : 39] .
والحق سبحانه هنا يلفت رسوله صلى الله عليه وسلم إلى أن ما حدث معه قد حدث مع رسل من قبله ، فقال سبحانه في نفس الآية : { كذلك كَذَّبَ الذين مِن قَبْلِهِمْ فانظر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظالمين } [يونس : 39] .
أي : انظر لموكب الرسل كلهم من بدء إرسال الرسل ، هل أرسل الله رسولا ونصر الكافرين به عليه؟ . . لا ، لقد كانت الغلبة دائماً لرسل الحق عز وجل مصداقاً لقوله سبحانه : { كَتَبَ الله لأَغْلِبَنَّ أَنَاْ ورسلي } [المجادلة : 21] .
وعرفنا ما حدث للظالمين ، فمنهم من أغرقه الله ، ومنهم من خسف به الأرض ، ومنهم من أخذه بالصيحة .
إذن : فالتأويل واضح في كل مواكب الرسل التي سبقت رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وإذا

كان كل قوم من الظالمين قد نالوا ما يناسب رسالة رسولهم ، فسينال القوم الظالمين الكافرين برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ما يناسب عمومية رسالته صلى الله عليه وسلم .

وحين يقول الحق سبحانه : { فانظر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظالمين } [يونس : 39] لا بد لنا أن نعرف معنى الظلم ، إنه نقل الحق لغير صاحبه ، والحقوق تختلف في مكانتها ، فهناك حق أعلى ، وحق أوسط ، وحق أدنى .

فإذا جئت للحق الأدنى في أن تنقل الألوهية لغير الله سبحانه وتعالى فهذا قمة الظلم ، والحق سبحانه يقول : { إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } [لقمان : 13] .

لأن في هذا نقل الألوهية من الله سبحانه إلى غيره ، ويا ليت غيره كان صاحب دعوة بينه وبين الله تعالى ، لا ، فليس ذلك المنقول له الألوهية بصاحب دعوة ، بل تطوَّع الظالم من نفسه بذلك ، واتخذ من دون الله شريكاً لله ، وفي هذا تطوع بالظلم بغير مُدَّع .

وهَبْ أن الله تعالى قال : لا إله إلا أنا ، فإما أن القضية صحيحة ، وإما أنها غير ذلك ، فإن افترض أحد معاذ الله عدم صحتها ، فالإله الثاني كان يجب أن يعلن عن نفسه ، ولا يترك غيره يسمع له ويعلن عنه ، وإلا كان إلهاً أصمَّ غافلاً ، ولكن أحداً لم يعلن ألوهيته غير الله سبحانه ، ؛ لذلك تثبت الألوهية الواحدة للإله الحق سبحانه وتعالى .

وقد بيَّن لنا الحق سبحانه : لا إله إلا أنا ، أنا الخالق ، أنا الرازق . ولم يصدر عن أحد آخر دعوى بأنه صاحب تلك الأعمال ، إذن : فقد صَحَّت الدعوى في أنه لا إله إلا الله .

والدرجة التالية في الظلم هي الظلم في الأحكام ، فإذا حكم أحد بحلِّ الربا فهذا ظلم في قضية كبيرة ، ولكن إن حكم قاض على مدين بأن يردَّ الدَّين فقط فهذا عدل؛ وكذلك القاضي الذي يظلم في أحكامه إنما ينقل حقوق الناس إلى غيرهم .

إذن : فالظلم يأخذ درجات حسب الشيء الذي وقع فيه الظلم .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { وَمِنهُمْ مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَّن لاَّ يُؤْمِنُ }

وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ (40)

والكلام هنا في الذين كذَّبوا ، فكيف يقسِّم الله المكذبين وهم بتكذيبهم لا يؤمنون إلى قسمين : قسم يؤمن ، وقسم لا يؤمن؟

ونحن نعلم أن الإيمان عمل قلوب ، لا عمل حواس ، فنحن لا نطَّلع على القلوب ، والحق سبحانه يعلم مَنْ مِنْ هؤلاء المكذبين يخفي إيمانه في قلبه .

إذن : فمن هؤلاء من يقول بالتكذيب بلسانه ويخفي الإيمان في قلبه ، ومنهم من يوافق تكذيبه بلسانه فراغُ قبله من الإيمان ، ومن الذين قالوا : إن هذا القرآن افتراء إنما يؤمن بقلبه أن محمداً

رسول من الله ، وصادق في البلاغ عن الله ، ولكن العناد والمكابرة والحقد يدفعونه إلى أن يعلن عدم الإيمان .

وكذلك منهم قسم آخر لا يؤمن ويعلن ذلك .

إذن : فالمقسم ليس هو الإيمان الصادر عن القلب والمعبِّر عنه باللسان ، ولكن المُقسِّم هو إيمان بالقلب غير مُعبَّر عنه ، ولم يصل إلى مرتبة الإقرار باللسان .

والذي جعل إيمان بعضهم محصوراً في القلب غير مُعبَّر عنه باللسان هو الحقد والحسد والكراهية وعدم القدرة على حكم النفس على مطلوب المنهج .

وبعض العرب حين أعلن لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقولوا : لا إله إلا الله؛ فيضمن لهم السيادة على الدنيا كلها . ورفضوا أن يقولوا الكلمة؛ لأنهم يعلمون أنها ليست كلمة تقال : بل فهموا مضمون ومطلوب الكلمة ، وعرفوا أن « لا إله إلا الله » تعني : المساواة بين البشر ، وهم يكرهون ألاَّ تكون لهم السيادة والسيطرة في أقوامهم .

وهذا يدل أيضاً على أن الحق سبحانه قد شاء أن يبدأ الإسلام في مكة ، حيث الأمة التي تعلن رأيها واضحاً؛ ولذلك نجد أن النفاق لم ينشأ إلا في « المدينة » ، أما في مكة ، فهم قوم منسجمون مع أنفسهم ، فهم حين أعلنوا الكفر لم يعانوا من تشتت المَلَكَات ، لكن المنافقين في المدينة وغيرها هم الذين كانوا يعانون من تشتت الملكات ، ومنهم من كان يلعب على الطرفين ، فيقول بلسانه ما ليس في قلبه .

ولذلك يُعزِّي الحق رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم ويُسَرِّي عنه وبين له : إياك أن تحزن لأنهم يكذبونك؛ لأنك محبوب عندهم وموقَّر ، فيقول الحق سبحانه : { قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الذي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ } [الأنعام : 33] .

أي : أنك يا محمد مُنزَّه عن الكذب؟

ويقول الحق سبحانه : { ولكن الظالمين بِآيَاتِ الله يَجْحَدُونَ } [الأنعام : 33] .

أي : أنه سبحانه يحملها عن رسوله صلى الله عليه وسلم ؛ لأن الحق سبحانه يعلم أن رسوله أمين عند قومه ، وهم في أثناء معركتهم معه ، نجد الواحد منهم يستأمنه على أشيائه النفيسة .

والذين آمنوا برسالته صلى الله عليه وسلم ولم يعلنوا إيمانهم ، والذين لم يؤمنوا ، هؤلاء وأولئك أمرهم موكول إلى الله تعالى؛ ليلقوا حسابهم عند الخالق سبحانه؛ لأنه سبحانه الأعلم بمن كذَّب عناداً ، ومن كذَّب إنكاراً .

والحق سبحانه هو الذي يُعذِّب ويُعاقِب ، وكل إنسان منهم سوف يأخذ على قَدْر منزلته من الفساد؛ لذلك يُنهي الحق سبحانه الآية بقوله : { وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بالمفسدين } [يونس : 40] .

والمفسد كما نعلم هو الذي يأتي إلى الشيء الصالح فيصيبه بالعطب؛ لأن العالَم مخلوقٌ قبل تدخُّل

الإنسان على هيئة صالحة ، وصنعة الله سبحانه وتعالى لم يدخل فيها الفساد إلا بفعل الإنسان المختار ، وصنعة الله تؤدي مهمتها كما ينبغي لها .

وأنت أيها الإنسان إن أردت أن يستقيم لك كل أمر في الوجود ، فانظر إلى الكون الأعلى الذي لا دخل لك فيه ، وستجد كل ما فيه مستقيماً مصداقاً لقول الحق سبحانه :

{ والسمآء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الميزان * أَلاَّ تَطْغَوْاْ فِي الميزان * وَأَقِيمُواْ الوزن بالقسط وَلاَ تُخْسِرُواْ الميزان } [الرحمن : 79] .

أي : أتقِنوا أداء مسئولية ما في أيديكم وأحسنوه كما أحسن الله سبحانه ما خلق لكم بعيداً عن أياديكم ، والمطلوب من الإنسان إذن أن يترك الصالح على صلاحه ، إن لم يستطع أن يزيده صلاحاً؛ حتى لا يدخل في دائرة المفسدين .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ }

وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (41)

وهذه آية تضع الاطمئنان في قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يَقُل الله سبحانه : « إذا كذَّبوك » بل قال : { إِن كَذَّبُوكَ } [يونس : 41] وشاء الحق سبحانه أن يأتي بالتكذيب في مقام الشك ، وأتبع ذلك بقوله للنبي صلى الله عليه وسلم : { فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ } [يونس : 41] أي : أبْلِغْهم : أنا لا أريد أن أحْمِلكم على ما أعمل أنا ، إنما أريد لكم الخير في أن تعملوا الخير ، فإن لم تعملوا الخير؛ فهذا لن يؤثر في حصيلتي من عملي .

وبذلك يتضح لنا أن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يُجازَى على عدد المؤمنين به ، بل بأداء البلاغ كما شاءه الله سبحانه .

وقد شاء الحق سبحانه أن ينقل محمد صلى الله عليه وسلم الخير إلى أمته ، فإن ظلوا على الشر؛ فهذا الشر لن يناله لأن خير البلاغ بالمنهج يعطيه صلى الله عليه وسلم خيراً ، لأنه يطبّقه على نفسه ، وشر الذين لا يتبعونه إنما يعود عليهم؛ لأن الذين يتأبون على الاستجابة لأي داعٍ إنما يظنون أن الداعي سوف يستفيد .

والبلاغ عن الله ، إنما يطبقه الرسول صلى الله عليه وسلم منهجاً وسلوكاً ويُجازَى عليه .

فلا يجوز الخلط في تلك المسائل { لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ } [يونس : 41] .

ثم يقول الحق سبحانه على لسان رسول صلى الله عليه وسلم : { أَنتُمْ برائون مِّمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَاْ برياء مِّمَّا تَعْمَلُونَ } [يونس : 41] .

وكلمة { برياء } تفيد أن هناك ذنباً ، وهذا القول الحق فيه مجاراة للخصوم ، وشاء الحق سبحانه أن يُعلِّم رسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين أدب الحوار والمناقشة ، فيقول : { وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لعلى هُدًى أَوْ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ } [سبأ : 24] .

أي : أننا الرسول ومعه المؤمنون وأنتم أيها الكافرون إما على هدى ، أو في ضلال . والرسول صلى الله عليه وسلم موقن أنه على هدى وأن الكافرين على الضلال ، ولكنه يجاريهم؛ عدالة منه صلى الله عليه وسلم ومجاراة لهم .

كذلك يعلّمه ربه سبحانه أن يقول : { قُل لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا } [سبأ : 25] .

أي : أنه يبين لهم : هَبُوا أنِّي أجرمتُ فأنتم لن تُسألوا عن إجرامي ، ومن أدب الرسول صلى الله عليه وسلم شاء له الحق سبحانه أن يقول : { وَلاَ نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ } [سبأ : 25] .

ولم يقل : « ولا نُسأل عما تُجرمون » . وكذلك شاء الحق سبحانه أن تأتي هنا في هذه الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها : { أَنتُمْ بريائون مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَاْ برياء مِّمَّا تَعْمَلُونَ } [يونس : 41] .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ }

وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ (42)

وكلمة « مَنْ » تطلق وقد يراد بها المفرد ، وقد يراد بها المفردة ، وقد يراد بها المثنى ، وقد يراد بها الجمع ، ومرة يطابق اللفظ فيقول سبحانه : { وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ } [الأنعام : 25] .

ومرة يقصد المعنى فيقول : { وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُونَ } [يونس : 42] .

لأن { مَّن } صالحة للموقعين .

والسماع كما نعلم هو استقبال الأذن للصوت ، فإن كان صوتاً مُبْهماً كأصوات الحيوانات أو أصوات الأعواد ، فهذه الأصوات لا تفيد إلا ما تفيده النغمة في الجسم من هزة أو ارتجاج .

وإما أن يكون الصوت له معنى تواضُعيٌّ ، كاللغات المختلفة التي يتخاطب بها الناس في البلدان المختلفة ، فإن تكلمتَ بالإنجليزية في بلد يتكلم أهله بهذه اللغة فهموك وفهمت عنهم . هذا هو معنى التواضع في اللغة ، أي : أن المتكلم والسامع على درجة . واحدة من الاتفاق على اللغة .

والنبي صلى الله عليه وسلم عربي يتحدث بلسان عربي مبين لقوم من العرب ، فما العائق عن السمع إذن؟

إن العائق عن السمع نفض الأذن لما يأتي من جهة الخصم ، والسماع كما نعلم هو استشراف المخاطب إلى ما يفهم من المتكلم ، فإن لم يوجد عند المخاطب استشراف إلى أن يسمع ، فالكلام يُقال ولا يصل .

إذن : لا بد للسامع من حالة الاستشراف إلى فهم ما يقوله المتكلم . وكما يقول المثل : « إذن من طين وأخرى من عجين » . أو كما تقول المزحة أن واحداً مال على أذن صديق له وقال : « أريد أن أقول لك سِراً » فاقترب الصديق مستشرفاً سماع السر ، فقال الرجل : « أريد مائة جنيه كقرض »؛ فقال الصديق : « كأني لم أسمع هذا السر » .

إذن : فالكلام ليس مجرد صوت يصل إلى الأذن ، لكن لا بد من استشراف نفسي للتقلي .

وهم لا يملكون هذا الاستشراف؛ لذلك قال الحق سبحانه : { أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصم } [يونس : 42] أي : كان سمعهم لا يسمع .

ومثال ذلك : أننا نجد المدرس الذي يشرح الدرس للتلاميذ ، وبين التلاميذ من يستشرف السمع؛ ولذلك يفهم الدرس ، أما الذي لا يستشرف فكأنه لم يسمع الدرس .

وهم قد فاتوا الصُّمَّ؛ لأن الأصم قد يفهم بالحركة او الإشارة أو لغة العين ، ولكن هؤلاء لا يسمعون ولا يعقلون { أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصم وَلَوْ كَانُواْ لاَ يَعْقِلُونَ } [يونس : 42] .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { وَمِنهُمْ مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ }

وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ (43)

والرؤى أيضاً تحتاج إلى استشراف ، وأن يُقْبِل المرء على ما يريد أن يراه ، وأحياناً لا يكون الرائي مستشرفاً؛ لأن قلبه غير متجه للرؤية .

وسئُل واحد : إنك تقول : من رأى فلاناً الصالح يَهْده الله . فردَّ عليه السامع متسائلاً : كيف تقول ذلك؟! فردَّ القائل : لقد رأى أبو جهل خيراً من هذا ، ومع ذلك ظل كافراً . فردَّ السامع : إن أبا جهل لم يَرَ محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكنه رأى يتيم أبي طالب .

وهكذا شرح الرجل أن أبا جهل لم ينظر إلى محمد صلى الله عليه وسلم على أنه رسول؛ لأنه لو نظر إليه بهذا الإدراك لتسللت إليه سكينة الإيمان وهَيبة الخشوع وجلال الورع .

ونحن قد نلقى رجلاً صالحاً في بشرته أدْمة أو سواد ، وصلاحه يضيء حوله ، وله أسْر من التقوى ، وجاذبية الورع .

ولو أن أبا جهل رأى محمداً صلى الله عليه وسلم على أنه رسول لتغيَّر أمره .

وها هو « » فضالة « يحكى عن لحظة أراد فيها أن يقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يطوف بالبيت عام الفتح ، فلما اقترب منه؛ قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ماذا كنت تحدِّث به نفسك؟ قال : لا شيء ، كنت أذكر الله . قال : فضحك النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : استغفِر الله ، ثم وضع يده على صدر فضالة » .

وساعة سمع فضالة هذا ، ورأى محمداً صلى الله عليه وسلم وهو يقول ذلك القول ، قال : ما كان أبغض إليَّ من وجهه ، ولكني أقبلت عليه فما كان أحَبَّ إليَّ في الأرض كلها من وجهه .

هذا هو السماع ، وهذا هو البصر ، وكلاهما السمع والبصر أكرم المتعلقات وأشرفها؛ لأن السمع هو وسيلة الاستماع لبلاغ الله عنه ، والإنسان قبل أن يقرأ لا بد له من أن يكون قد سمع .

والمقصود هنا بالعمى في قول الحق سبحانه : { أَفَأَنْتَ تَهْدِي العمي وَلَوْ كَانُواْ لاَ يُبْصِرُونَ } [

يونس : 43] هو عمى البصيرة .
ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { إِنَّ الله لاَ يَظْلِمُ الناس شَيْئاً }

إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (44)

كلمة « الله » هي اسم عَلَمٍ على واجب الوجود المتصف بكل صفات الكمال التي عرفناها في أسماء الله الحسنى التسعة والتسعين ، وإن كان لله تعالى كمالات لا تتناهى؛ لأن الأسماء أو الصفات التي يحملها التسعة والتسعون اسماً لا تكفي كل كمالات الله سبحانه ، فكمالاته سبحانه لا تتناهى .
ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم :
« أسألك بكل اسم سمَّيت به نفسك ، أو علَّمته أحداً من خَلْقك ، أو استأثرت به في علّم الغيب عندك » .
وإن سأل سائل : ولماذا يستأثر الله سبحانه ببعض من أسمائه في علم الغيب؟
أقول : حتى يجعل لنا الله سبحانه في الآخرة مزيداً من الكمالات التي لم نكن نعرفها؛ ولذلك نجد الحق سبحانه يفتح على رسوله صلى الله عليه وسلم « من محامده وحُسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه على أحد قبله » .
وهذا بعض من فيض لا ينفد من آفاق اسم عَلَمٍ على واجب الوجود ، وصفات علم واجب الوجود ، والتسعة والتسعون اسماً التي نعلمها هي اللازمة لحياتنا الدنيا ، ولكننا سنجد في الآخرة صفات كمال أخرى ، وكلمة « الله » هي الجامعة لكل هذه الأسماء ، ما عرفناها؛ وما لم نعرفها .
والإنسان منا حين يُقبل على عمل ، فهذا العمل يتطلب تكاتُفَ صفات متعددة ، يحتاج إلى قدرة ، وعلم ، وحكمة ، ولُطْف ، ورحمة ، وغير ذلك من الصفات ، فإن قلت : باسم القويّ؛ فأنت تحتاج إلى القوة ، وإن قلت باسم القادر؛ فأنت تحتاج إلى القدرة ، وإن قلت : باسم الحليم؛ فأنت تحتاج إلى الحِلْم ، وإن قلت : باسم الحكيم؛ فأنت تحتاج إلى الحكمة ، وإن قلت : « باسم الله » فهي تكفيك في كل هذا وغيره أيضاً؛ ولذلك يكون بدء الأعمال ب « بسم الله » ، فإذا احتجت إلى قدرة وجدتها ، وإن احتجت إلى غِنَىً وجدته ، وإن احتجت إلى بَسْطٍ وجدته .
وكل صفات الكمال أوجزها الحق سبحانه لنا في أن نقول : « بسم الله » . وحين تبدأ عملك باسم الله؛ فأنت تُقِرُّ بأن كل حَوْلٍ لك موهوب من الله ، والأشياء التي تنفعل لك ، إنما تنفعل باسم الله ، وكل شيء إنما يسخر لك باسم الله ، وهو القائل :
{ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ * وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ } [يس : 7172] .

ولو لم يذلِّل الله لنا الأنعام والأشياء لتنفعل لنا ما استطعنا أن نملكها ، بدليل أن الله تعالى قد ترك أشياء لم يذللها لنا حتى نتعلَّم أننا لا نستطيع ذلك ، لا بعلْمنا ، ولا بقُدْرتنا ، إنما الحق سبحانه هو الذي يُذلِّل .

فأنت ترى الطفل في الريف وهو يسحب الجمل ، ويأمره بالرقود؛ فيرقد ، ويأمره بالقيام؛ فيقوم .

أما إن رأينا ثعباناً فالكثير منا يجري ليهرب ، ولا يواجهه إلا من له دُرْبة على قتله . والبرغوث الصغير الضئيل قد يأتي ليلدغك ليلاً ، فلا تعرف كيف تصطاده؛ لأن الله لم يذلِّه لك .

وكذلك الثمرة على الشجرة إذا قطفتها قبل نضجها تكون غير مستساغة ، أما إن قطفتها بعد نضجها فأنت تستمتع بطعمها ، ثم تأخذ منها البذرة لتعيد زراعتها ، وتضمن بقاء النوع ، بل إن الثمرة تسقط من على الشجرة حين تنضج وكأنها تنادي من يأكلها .

وكذلك الإنسان حين يبلغ ، أي : يصبح قادراً على أن ينجب غيره ، فيكلّفه الله بعد ذلك بالتكاليف الإيمانية؛ لأنه لو كلَّفه قبل ذلك ثم طرأتْ عليه مشاكل المراهقة؛ فقد لا يستطيع أن يتحمل التكليف .

ولذلك شاء الحق سبحانه أن يخلق من عدم ، وأن يربِّي حتى يكتمل الإنسان ، ثم حدَّد التكليف من لحظة البلوغ ، ووضع شرط اكتمال العقل والرشد ، وألا توجد آفة أو جنون .

ولا أقوى من الله سبحانه يمكن أن يُكلِّف لتفعل غير ما يريد الله؛ لذلك شاء الحق سبحانه أن يكتمل للإنسان الرشد ساعة التكليف ، أم المجنون فلم يكلفه الله سبحانه ، وكذلك يسقط التكليف عن المُكْرَه؛ لأن التكليف في مضمونه هو اختيار بين البدائل ، وهذه منتهى العدالة في التشريع .

وأنت حين تستقبل التكليف عليك ألا تنظر إلى ما تأخذه منك العبادات ، لأنها لا تأخذ من حريتك ، بل تحترم أنت حرية الآخرين ، ويحترمون هم حريتك ، فإن حرَّم عليك أن تسرق ، فهو سبحانه قد حماك بأن حرَّم على جميع الخلق أن يسرقوا منك .

إذن : فالقيد قد جاء لصالحك .

وهَبْ أنك أطلقت يدك في الناس ، فماذا تصنع لو أطلقوا هم أياديهم فيما تملك؟

وحين حرَّم عليك التكليف أن تنظر إلى محارم غيرك ، فهو قد حرم على الغير أن ينظروا إلى محارمك .

وحين أمرك أن تزكِّي ، فهو قد أخذ منك؛ ليعطي الفقير من المال الذي استخلفك الله فيه .

فلا تنظر إلى ما أخذ منك ، بل انظر إلى ما قد يعود عليك إن أصابك القدر بالفقر ، والشيء الذي تستشعر أنه يؤخذ منك فالله سبحانه يعطيك الثواب أضعافاً كثيرة .

وبعد ذلك انظر إلى حركة الحياة ، وانظرْ إلى ما حَرَّم الله تعالى عليك من أشياء ، وما حلَّل لك غير ذلك؛ فستجد المباح لك أكثر مما منعك عنه .

إذن : فالتكليف لصالحك .

ثم بعد كل ذلك : أيعود شيء مما تصنع من تكاليف عل الحق سبحانه؟ لا .

أيعطيه صفة غير موجودة؟

لا؛ لأن الحق سبحانه قد خلقنا بكل صفات كماله ، وليس في عملنا ما يزيده شيئاً .

إذن : فمن المصلحة أن تطبّق التكاليف لأنها تعود عليك أنت بالخير .

وانظر مثلاً إلى الفلاح في الحقل ، إنه يحرث الأرض ، وينقل السماد ، ويبذر ، ويروى ويتعب ، وبعد ذلك يستريح في انتظار الثمار .

وأنت حين تنفِّذ تكاليف الحق سبحانه فأنت تجد العائد ، وأنت ترى في حياتك أن الفلاح الكسول يصاب بحسرة يوم الحصاد ، فما بالنا بحساب الآخرة .

والفلاح الذي يأخذ من مخزنة إردبّاً؛ ليزرعه ، وهو في هذه الحالة لا ينقص مخزنه؛ لأنه سيعود بعد فترة بخسمة عشر إردبّاً .

وهكذا من ينفِّذ التكاليف يعود عليه كل خير؛ ولذلك أقول : انظر في استقبالات منهج الله تعالى فيما تعطيه ، لا فيما تأخذه .

وهكذا ترى أنه لا ظلم؛ لأننا صنعة الله ، فهل رأيتم صانعاً يفسد صنعته؟

إذن : فالصانع الأعلى لا يظلم صنعته ولا يفسدها أبداً ، بل يُحسِّنها ويعطيها الجمال والرونق؛ لذلك يقول الحق سبحانه : { إِنَّ الله لاَ يَظْلِمُ الناس شَيْئاً ولكن الناس أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } [يونس : 44] .

أي : أن الناس هم الذين يظلمون أنفسهم ، ومن الظلم جَحْد الحق ، وهذا هو الظلم الأعلى ، ومن الظلم أن يعطى الإنسان نفسه شهوة عاجلة؛ ليذوق من بعد ذلك عذاباً آجلاً ، وهو بذلك يحرم نفسه من النعيم المقيم ، وهو حين يظلم نفسه يكون قد افتقد القدرة على قياس عمره في الدنيا ، فالعمر مهما طال قصير ، وما دام الشيء له نهاية فهو قصير .

والحق سبحانه وتعالى حين يخاطب الناس ، فهو قد نصب لهم آيات باقية إلى أن تقوم الساعة ، وكلهم شركاء فيها ، وهي الآيات الكونية ، وبعد ذلك خَصَّ كل رسول بآية ومعجزة ، وأنزل منهجاً ب « افعل » و « لا تفعل » ، وبيَّن في آيات الكتاب ما المطلوب فعله ، وما المطلوب أن نمتنع عنه ، وترك لك بقية الأمور مباحة .

والمثال الذي أضربه دائماً : هو التلميذ الذي يرسب آخر العام ، هذا التلميذ لم تظلمه المدرسة ، بدليل أن غيره قد نجح؛ لذلك لا يصح أن يقال : إن المدرسة أسقطت فلاناً ، ولكن الصحيح

أن نقول : إن فلاناً قد أسقط نفسه ، وأن زميله قد أنجح نفسه ، ودور المدرسة في ذلك هو إعلان النتيجة .

ومن الظلم أيضاً أن يستكثر الظالم نعمة عند المظلوم ، فيريد أن يأخذها منه ، ولا يمكن أن يكون الحق سبحانه وتعالى ظالماً يستكثر نِعَم عباده؛ لأنه مُنزَّه عن ذلك؛ فضلاً عن أن خَلْقه ليس عندهم نِعَم يريدها هو ، فهو الذي أعطاها لهم؛ ولذلك لا يأتي منه سبحانه أي ظلم ، وإنْ جاء الظلم فهو من الإنسان لنفسه .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يلبثوا إِلاَّ سَاعَةً }

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (45)

فهذه الدنيا التي يتلهف عليها الإنسان ، ويأخذ حظه فيها ، وقد ينسى الآخرة ، فإذا ما قامت القيامة فأنت تشعر كأنك لم تمكث في الدنيا إلا ساعة ، والساعة هي الساعة الجامعة التي تقوم فيها القيامة ، ولكن الساعة في الدنيا هي جزء من الوقت ، ونحن نعلم أن اليوم مقسَّم لأربع وعشرين ساعة ، وأيضاً تُطلق الساعة على تلك الآلة التي تُعلَّق على الحائط أو يضعها الإنسان على يده ، وهي تشير إلى التوقيت .

والتوقيت ثابت بمقدار الساعة والدقيقة والثانية منذ آدم عليه السلام وإلى من سوف يأتون بعدنا ، ولكن التوقيت يختلف من مكان إلى آخر ، فتشير الساعة في القاهرة مثلاً إلى الثانية ظهراً ، وتكون في نيويورك السابعة صباحاً ، وتشير في بلد آخر إلى الثالثة بعد منتصف الليل ، ولا تتوحد الساعة بالنسبة لكل الخلق إلا يوم القيامة .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

{ وَيَوْمَ تَقُومُ الساعة يُقْسِمُ المجرمون مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ } [الروم : 55] .

وهم إذن يُفاجَأون أن دنياهم الطويلة والعريضة كلها مرَّتْ وكأنها مجرد ساعة ، وهكذا يكتشفون قِصَر ما عاشوا من وقت ، ولا يقصتر الأمر على ذلك ، بل إنهم لم ينتفعوا بها أيضاً فهي مدة من الزمن لم تكن لها قيمة .

والحق سبحانه يقول :

{ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يلبثوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلاَ غٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ القوم الفاسقون } [الأحقاف : 35] .

أي : أن الدنيا تمر عليهم في لهو ولعب ومشاغل ، ولم يأخذوا الحياة بالجد اللائق بها؛ فضاعت منهم وكأنها ساعة .

ولذلك يقول الحق سبحانه هنا :

{ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يلبثوا إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النهار } [يونس : 45] .

ويوم الحشر ينقسم الناس قسمين : قسم مَنْ كانوا يتعارفون على البر ، وقسم مَنْ كانوا يتعارفون على الإثم ، فالذين تعارفوا في الحياة الدنيا على البر يفرحون ببعضهم البعض ، وأما الذين تعارفوا في الحياة الدنيا علىالإثم فهم يتنافرون بالعداء ، والحق سبحانه هو القائل : { الأخلاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ المتقين } [الزخرف : 67] .

وكذلك قال في الذين تعارفوا على الإثم :

{ إِذْ تَبَرَّأَ الذين اتبعوا مِنَ الذين اتبعوا } [البقرة : 166] .

هم سيتعارفون على بعضهم البعض ، ولكن هذه المعرفة لا تدوم ، بل تنقلب إلى نكران ، فالواحد منهم لا يريد أن يرى مَنْ كان سبباً في أن يؤول إلى هذا المصير ، وتعارفهم سيكون تعارف تعنيف .

ويقول الحق سبحانه :

{ قَدْ خَسِرَ الذين كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ الله } [يونس : 45] .

وساعة تسمع كلمة « خسر » فاعرف أن الأمر يتعلق بتجارة ما ، والخسارة تعنى : أن يفقد الإنسان المتاجر إما جزءاً من رأس المال ، أو رأس المال كله .

ومراحل التجارة كما نعرف إما كسب يزيد رأس المال المتاجَر فيه ، وإما الأَّ يكسب التاجر ولا يخسر؛ لكنه يشعر بأن ثمن عمله ووقته في هذه التجارة قد ضاع ، وكل ذلك يحدث في الصفقات .

ونجد الحق سبحانه وتعالى يصف العملية الإيمانية في الدنيا بقوله :

{ ياأيها الذين آمَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ على تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بالله وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ الله بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ } [الصف : 1011] .

ويقول سبحانه :

{ إِنَّ الذين يَتْلُونَ كِتَابَ الله وَأَقَامُواْ الصلاة وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلاَنِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ } [فاطر : 29] .

والتجارة تعتمد على أنك لا تُقبل على عقد صفقة إلا إذا غلب على ظنك أن هذه الصفقة سوف تأتي لك بأكثر مما دفعت فيها .

ولذلك يقول الحق سبحانه عن الصفقات الخاسرة :

{ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فَمَا رَبِحَتْ تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ } [البقرة : 16] .

ويقول أيضاً :

{ وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انفضوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِماً } [الجمعة : 11] .

وشاء الحق سبحانه أن يجعل معنى التجارة واضحاً ومعبّراً عن كثير من المواقف؛ لأن التجارة تمثّل جماع كل حركة الحياة؛ فهذا يتحرك في ميدان؛ لينفع نفسه ، وينفع غيره ، وغيره يعمل في ميدان آخر؛ فينفع نفسه ، وينفع غيره .

وبهذا يتحقق نفع الإنسان من حركة نفسه وحركة غيره ، وهو يستفيد من حركة غيره أكثر مما يستفيد من حركته هو ، ومن مصلحة أي إنسان أن يحسّن كل إنسان حركته؛ فيرتاح هو؛ لأن ما سوف يصل إليه من حركة الناس سيكون جيد الإتقان .

والتجارة تحمل أيضاً الوساطة بين المنتج والمستهلك .

ولذلك حين أراد الله سبحانه أن نستجيب لأذان الجمعة قال :

{ ياأيها الذين آمنوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاَةِ مِن يَوْمِ الجمعة فاسعوا إلى ذِكْرِ الله وَذَرُواْ البيع ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ } [الجمعة : 9] .

ولم يقل الله سبحانه : اتركوا الزراعة أو اتركوا الصناعة ، أو اتركوا التدريس ، بل اختار من كل حركات الحياة حركة البيع؛ لأن فيه تجارة ، والتجارة هي الجامعة لكل حركات الحياة .

والتاجر وسيط بين منتج ومستهلك وتقتضي التجارة شراءً وبيعاً ، والشراء يدفع فيه التاجر ثمناً ، أما في البيع فهو يأخذ الثمن ، والغاية من كل شيء أن يتموَّل الإنسان .

لذلك فالبيع أفضل عند التاجر من الشراء ، فأنت تشتري شيئاً وأنت كاره له ، لاحتياجك إليه ، ولكنك عند بيع البضاعة تشعر بالسعادة والإشراق ، ولأن الشراء فيه أخذ ، والبيع فيه عطاء ، والعطاء يرضي النفس دائماً؛ لأن ثمرة الصفقة تأتيك في لحظتها .

وإن كنت مزارعاً فأنت تُعِدّ الأرض ، وتحرثها ، وتبذر البذور ، وترويها ، وتُشَذِّب النبات ، وتنتظر إلى أن ينضج الزرع ، وكذلك تقضي الكثير من الوقت في إتقان الصنعة إن كنت صانعاً ، لكن البيع في التجارة ياتي لك بالكسب سريعاً ، فكأن ضَرْبَ المثل في التجارة ، جاء من أصول التجارة بالبيع ولم يأت بالشراء .

إذن : لا بد أن نعتبر أن دخولك في صفقة الإيمان تجارة ، تأخذ منها أكثر من رأسمالك ، وتربح ، أما إن تركت بعضاً من الدِّين؛ فأنت تخسر بمقدار ما تركت ، بل وأضعاف ما تركت .

وأنت في أية صفقة قد تعوّض ما خسرت فيما بعد ، وإن استمرت الخسارة فإن أثرها لا يتجاوز الدنيا ، ويمكن أن تربح بعدها ، وإذا لم تربح ، فسيضيع عليك تعبك فقط؛ ولأن الدنيا محدودة الزمن؛ فخسارتها محتملة ، أما الخسارة في الزمان غير الموقوت الزمن الدائم فهي خساة كبيرة؛ لأن الآخرة ليس فيها أغيار كالدنيا ، وأنت في الآخرة : إما في جنة ذات نعيم مقيم ، وفي هذا ربح وكسب كبير ، وإما إلى نار ، وهذه هي الخسارة الحقيقة .

والخسران الحقيقي أن يكذِّب الإنسان ، لا بنعيم الله فقط ، ولكن بلقاء الله أيضاً .

يقول الحق سبحانه :

{ قَدْ خَسِرَ الذين كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ الله } [يونس : 45] .

أي : أن الله سبحانه لم يكن في بالهم ، وهو حين تقوم الساعة يجدون الله سبحانه وتعالى أمامهم .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

{ والذين كفروا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظمآن مَآءً } [النور : 39] .

والسراب كما نعلم يراه السائر في الصحراء ، وهو عبارة عن انعكاس للضوء؛ فيظن أن أمامه ماء ، ولكن إن سار إليه الإنسان لم يجده ماء ، وهكذا شبَّه الحق سبحانه عمل الكافر بمن يسير في صحراء شاسعة ، ويرى السراب؛ فيظنه ماءً ، لكنه سراب ، ما إن يصل إليه حتى ينطبق عليه قول الحق سبحانه :

{ حتى إِذَا جَآءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ الله عِندَهُ } [النور : 39] .

أي : أنه يُفاجأ بوجود الله سبحانه وتعالى ، فيوفيه الله حسابه .

ولذلك فالذي يكفر بالله ويعمل ما يفيد البشر ، فإنه يأخذ حسابه ممن عمل له ، ولا يُحسب له ذلك في الآخرة ، وتجد الناس يُكرّمونه ، ويقيمون له التماثيل أو يمنحونه الجوائز وينطبق عليه قول الرسول صلى الله عليه وسلم :

« فعلتَ ليقال ، وقد قيل » .

وهنا يقول الحق سبحانه عن الذين كَذّبوا بلقاء الله تعالى :

{ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ } [يونس : 45] .

أي : لم يكونوا سائرين على المنهج الذي وضعه لهم خالقهم سبحانه؛ هذا المنهج الذي يمثِّل قانون الصيانة لصنعة الله تعالى ، وقد خلق الله سبحانه الإنسان لمهمة ، والله سبحانه يصون الإنسان بالمنهج من أجل أن يؤدي هذه المهمة .

والهداية هي الطريق الذي إن سار فيه الإنسان فهو يؤدي به إلى تحقيق المهمة المطلوبة منه؛ لأن الحق سبحانه قد جعله الخليفة في الأرض .

ومن لا يؤمن برب المنهج سبحانه وتعالى ولا يطبق المنهج فهو إلى الخسران المبين ، أي : الخسران المحيط .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الذي نَعِدُهُمْ }

وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ (46)

وقول الحق سبحانه : { وَإِمَّا } مكونة من « إن » و « ما » مدغومتين ، وهنا يبين لنا الحق سبحانه أنه يعد الذين كذبوا رسوله صلى الله عليه وسلم بالعذاب والهوان والعقاب والفضيحة .

أي : يا محمد ، إما أن ترى ما قلناه فيهم من خذلان وهوان ، وإما أن نتوفينَّك قبل أن ترى هذا في الدنيا ، ولكنك ستراه في الآخرة حين تشاهدهم في الهوان الأبدي الذي يصيبهم في اليوم الآخر .

وفي هذا تسرية لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقول الحق سبحانه :

{ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ } [يونس : 46] أي : أن نريك ما وعدناهم من الخذلان والهوان في هذه الحياة ، وإن لم تره في الحياة الدنيا فلسوف ترى هوانهم في الآخرة ، حيث المرجع إلى الله تعالى؛ لأنه سبحانه سيصيبهم في أنفسهم بأشياء فوق الهوان الذي يُرى في الناس؛ كحسرة في النفس ، وكبْت للأسى حين يرون نصر المؤمنين .

أما الذي يُرى فهو الأمر الظاهر ، أي : الخذلان ، والهزيمة ، والأسى ، والقتل ، وأخْذ الأموال ، وسَبْي النساء والأولاد ، أو غير ذلك مما سوف تراه فيهم بعد أن تفيض روحك إلى خالقها فسوف ترى فيهم ما وعدك الله به .

وأنت لن تحتاج إلى شهادة من أحد عليهم ، لأنه سبحانه : { شَهِيدٌ على مَا يَفْعَلُونَ } [يونس : 46] .

وكفاك الله سبحانه شهيداً : { وكفى بالله شَهِيداً } [النساء : 79] .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ }

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (47)

والحق سبحانه لا يظلم أحداً ، ولا يعذب قوماً إلا بعد أن يكفروا بالرسول الذي أرسله إليهم ، وهو سبحانه القائل :

{ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ } [فاطر : 24] .

وهو سبحانه القائل أيضاً :

{ لَّمْ يَكُنْ رَّبُّكَ مُهْلِكَ القرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ } [الأنعام : 131] .

فلا تجريم ولا عقوبة إلا بنص وببيان لتجريم هذا الفعل أو ذاك ، بإرسال الرسل؛ حتى لا يحتج أحد بأنه لم يصل إليه شيء يحاسب بمقتضاه .

والحق سبحانه هنا يبيّن أن لكل أمة رسولاً يتعهدها بأمور المنهج .

وقد خلق الحق سبحانه كل الخلق ، وكانوا موحّدين منذ ذرية آدم عليه السلام ثم اقتضت الأحداث أن يتباعدوا ، وانتشروا في الأرض ، وصارت الالتقاءات بعيدة ، وكذلك المواصلات ، وتعددت الآفات بتعدد البيئات .

ولكن إذا تقاربت الالتقاءات ، وصارت المواصلات سهلة ، فما يحدث في الشرق تراه في لحظتها

وأنت في الغرب ، فهذا يعني توحُّد الآفات أو تكاد تكون واحدة؛ لذلك كان لا بد من الرسول الخاتم صلى الله عليه وسلم ، أما في الأزمنة القديمة ، فقد كانت أزمنة انعزالية ، تحيا كل جماعة بعيدة عن الأخرى؛ ولذلك كان لا بد من رسول لكل جماعة؛ ليعالج داءات البيئة ، أمَا وقد التقت البيئات ، فالرسول الخاتم يعالج كل الداءات .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

{ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بالقسط وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ } [يونس : 47] .

وقد حكى التاريخ لنا ذلك ، فكل رسول جاء آمن به البعض ، وكفر به البعض الآخر ، والذين آمنوا به انتصروا ، ومَنْ كفروا به هُزِمُوا .

أو أن الآية عامة { وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ } أي : تُنادي كل أمة يوم القيامة باسم رسولها ، يا أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، ويا أمة موسى ، ويا أمة عيسى . . . إلخ .

والحق سبحانه يقول :

{ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ على هؤلاء شَهِيداً * يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الذين كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ الرسول لَوْ تسوى بِهِمُ الأرض وَلاَ يَكْتُمُونَ الله حَدِيثاً } [النساء : 4142] .

إذن : فالحق سبحانه هنا يبيّن أن لكل أمة رسولاً جاءها بالبلاغ عن الله ، وقد آمن به مَنْ آمن ، وكفر به مَنْ كفر ، وما دام الإيمان قد حدث وكذلك الكفر فلا بد من القضاء بن المؤمنين والكافرين .

لذلك يقول الحق سبحانه :

{ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بالقسط وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ } [يونس : 47] .

وما دام في الأمر قضاء ، فلا بد أن المؤمن يَعتبر الكافر منازعاً له ، وأن الكافر يَعتبر المؤمن منازعاً له ، ويصير الأمر قضية تتطلب الحكم؛ لذلك يقول الحق سبحانه :

{ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بالقسط وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ } [يونس : 47] .

أي : يُقضي بينهم بالعدل ، فالمؤمنون يتقصَّى الحق سبحانه حسناتهم ويزيدها لهم ، أما الكافرون فلا توجد لهم حسنات؛ لأنهم كفروا بالله الحق؛ فيوردهم النار ، وهم قد أبلغهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سيأتي يوم يُسألون فيه عن كل شيء ، فاستبعدوا ذلك وقالوا :

{ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَ آبَآؤُنَا الأولون } [الصافات : 1617] .

لقد تعجبوا من البعث وأنكروه ، لكنهم يجدونه حتماً وصدقاً .

ويشاء الحق سبحانه أن يُدخل عليهم هذه المسألة دخولاً إيمانياً ، فيقول : { أَفَعَيِينَا بالخلق الأول } [ق : 15] .

فأنتم إذا متُّم وتحلَّلتم في التراب ، أيعجز الله سبحانه أن يخلقكم من جديد؟ لا؛ إنه سبحانه

القائل :

{ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأرض مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ } [ق : 4] .

أي : أنه سبحانه يأمر العناصر الخاصة بكل إنسان أن تتجمَّع كلها ، وليس هذا بعسير على الله الذي خلقهم أولاً .

وهم كَذَّبوا واستنكروا واستهزأوا بمجيء يوم القيامة والبعث ، وبلغ استهزاؤهم أن استعجلوا هذا اليوم ، وهذا دليل جهلهم ، وكان على الواحد منهم أن يفر من هول ذلك اليوم .

ولذلك يقول الحق سبحانه بعد ذلك على ألسنتهم : { وَيَقُولُونَ متى هذا الوعد }

وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (48)

هذا الإنكار والتكذيب والاستهزاء هو منطق المشركين والملحدين في كل زمان ومكان ، وفي العصر القريب قاله الشيوعيون عندما قاموا بثورتهم الكاذبة ، وذبحوا الطبقة العليا في المجتمع بدعوى رفع الظلم عن الفقراء .

وإذا ما كانوا قد آمنوا بضرورة الثواب والعقاب ، فمن الذي يحكم ذلك؟ هل الظالم يحكم على ظالم ، فتكون النتيجة أن الظالم سيهلك بالظالم ، وقد حدث ، فأين الشيوعيون الآن؟

لماذا لم يلتفتوا إلى أن لهذا الكون خالقاً يعاقب من ظلموا من قبل ، أو من يظلمون من بعد؟

إنهم لم يلتفتوا؛ لأنهم اتخذوا المادة إلهاً ، وقالوا : لا إله ، والحياة مادة ، فأين هم الآن؟

وإن كنتم قد تملّكتم في المعاصرين لكم ، وادعيتم أنكم نشرتم العدل بينهم ، فماذا عن الذين سبقوا ، والذين لحقوا؟

هم إذن لم يلتفتوا إلى أن الله سبحانه وتعالى قد شاء ألا يموت ظالم إلا بعد أن ينتقم الله منه .

وهم لم يلتفتوا إلى أن وراء هذه الدار داراً أخرى يُجازَى فيها المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته .

وكان المنطق يقتضي أن يؤمن هؤلاء بأن لهذا الكون إلهاً عادلاً ، ولا بد أن يجيء اليوم الذي يجازى فيه كل إنسان بما عمل ، ولكنهم سخروا مثل سخرية الذين كفروا من قبلهم ، وجاء خبرهم في قول الله سبحانه على ألسنتهم : { وَيَقُولُونَ متى هذا الوعد إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ } [يونس : 48] .

ولكن وعد الله حق ، ووعد الله قادم ، ومحمد صلى الله عليه وسلم رسول من الله ، يبلغ ما جاء من عند الله تعالى ، فرسول الله صلى الله عليه وسلم لا يملك لنفسه شيئاً .

ولذلك يقول القرآن بعد ذلك : { قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً }

قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (49)

والرسول صلى الله عليه وسلم يبرِّىء نفسه من كل حَوْل وطَوْل ، ويعلن ما أمره الحق سبحانه أن يعلنه ، فهو صلى الله عليه وسلم لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرّاً؛ لأن النفع أو الضر بيد خالقه سبحانه ، وهو سبحانه وتعالى خالقكم ، وكل أمر هو بمشيئته سبحانه .

وهذه الآية جاءت ردّاً على سؤالهم الذي أورده الحق سبحانه في الآية السابقة : { وَيَقُولُونَ متى هذا الوعد إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ } [يونس : 48] .

لقد تساءلوا بسخرية عن هذا الوعد بالعذاب ، وكأنهم استبطأوا نزول العذاب تَهكُّماً ، وهذا يدل على أن قول الحق سبحانه :

{ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بالقسط وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ } [يونس : 47] .

هذه الآية لم تنزل ليوم القيامة ، بل نزلت لتوضح موقف مَنْ كفروا برسول الله صلى الله عليه وسلم والذين قالوا بعد ذلك :

{ متى هذا الوعد إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ } [يونس : 48] .

وهذا يعني أنهم قالوا هذا القول قبل أن تقوم القيامة ، والآية التي توضح أن لكل أمة رسولاً تؤيدها آيات كثيرة ، مثل قوله سبحانه :

{ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حتى نَبْعَثَ رَسُولاً } [الإسراء : 15] .

وكذلك قول الحق سبحانه :

{ لَّمْ يَكُنْ رَّبُّكَ مُهْلِكَ القرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ } [الأنعام : 131] .

وكذلك قول الحق سبحانه :

{ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُواْ رَبَّنَا لولا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً } [طه : 134] .

وكل ذلك يؤيد أن الرسول المرسل إلى الأمة هو الرسول الذي جاء بمنهج الله تعالى ، فآمن به قوم ، وكذَّب به آخرون ، وقضى الله بين المؤمنين والكافرين بأن خذل الكافرين ونصر المؤمنين .

وإن استبطأ الكافرون الخذلان فلسوف يرونه؛ ولذلك أمر الحق سبحانه رسول الله صلى الله عليه وسلم :

{ قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً } [يونس : 49] .

أي : أنكم إن كنتم تسألون محمداً صلى الله عليه وسلم عن الضر والنفع ، فهو صلى الله عليه وسلم مبلّغ عن الله تعالى ، ولا يملك لنفسه ضَرّاً ولا نفعاً ، فضلاً عن أن يملك لهم هم ضَرّاً أو نفعاً ، وكل هذا الأمر بيد الله تعالى ، ولكل أمة أجلٌ ينزل بالذين كفروا فيها بالعذاب ، ويقع فيها القول الفصل .

وقول الحق سبحانه :

{ إِلاَّ مَا شَآءَ الله لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ } [يونس : 49] .

يفيدُ أن مشيئة الله هي الفاصلة ، ويدل على أن النبي والناس لا يملكون لأنفسم الضر أو النفع؛

لأن الإنسان خُلِق على هيئة القَسْر في أمور ، وعلى هيئة الاختيار في أمور أخرى ، والاختيار هو في الأمور التكليفية مصداقاً لقوله سبحانه : { فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ } [الكهف : 29] .

وأنت حُرٌّ في أن تطيع أو أن تعصي ، وكل ذلك داخل في نطاق اختيارك ، وإن صنع الإنسان طاعة ، فهو يصنع لنفسه نفعاً ، وإن صنع معصية ، صنع لنفسه ضَرّاً .

إذن : فهناك في الأمور الاختيارية ضر ونفع .

ومثال ذلك : من ينتحر بأن يشنق نفسه ، فهو يأتي لنفسه بالضر ، وقد ينقذه أقاربه ، وذلك بمشيئة الله سبحانه .

إذن : ففي الأمور الاختيارية يملك الإنسان بمشيئة الله الضر أو النفع لنفسه ، والله سبحانه يبين لنا أن لكل أمة أجلاً ، فلا تحددوا أنتم اجال الأمم؛ لأن آجالهم استئصالاً ، أو عذاباً هي من عند الله سبحانه وتعالى .

والعباد دائماً يعجلون ، والله لا يعجل بعجلة العباد ، حتى تبلغ الأمور ما أراد سبحانه ، فالله تعالى مُنزَّه أن يكون موظفاً عند الخلق ، بل هو الخالق الأعلى سبحانه وتعالى .

وهو سبحانه القائل :

{ سَأُوْرِيكُمْ آيَاتِي فَلاَ تَسْتَعْجِلُونِ } [الأنبياء : 37] .

وهو سبحانه القائل :

{ وَيَدْعُ الإنسان بالشر دُعَآءَهُ بالخير وَكَانَ الإنسان عَجُولاً } [الإسراء : 11] .

إذن : فالحق سبحانه يؤخِّر مراداته رحمة بالخَلْق ، وإذا جاء الأجل فهو لا يتأخر عن ميعاده ، ولا يتقدم عن ميعاده .

لذلك يقول الحق سبحانه :

{ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ } [يونس : 49] .

وقوله سبحانه : { يَسْتَقْدِمُونَ } ليست من مدخلية جواب الشرط الذي جاء بعد { إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ } [يونس : 49] .

لأن الجواب هو : { فَلاَ يَسْتَأْخِرُونَ } .

فهم لا يستقدمون قبل أن يحين الأجل .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتاً }

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ (50)

وهذا رَدٌّ شافٍ على استعجالهم للعذاب ، فإن جاءكم العذاب فَلْنَرَ ماذا سيكون موقفكم .
وهُمْ باستعجالهم العذاب يبرهنون على غبائهم في السؤال عن وقوع العذاب .
وقول الحق سبحانه : { أَرَأَيْتُمْ } . أي : أخبروني عما سوف يحدث لكم .
وشاء الحق سبحانه أن يأتي أمر العذاب هنا مبهماً من جهة الزمان فقال سبحانه :
{ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتاً أَوْ نَهَاراً } [يونس : 50] .
والبيات مقصود به الليل؛ لأن الليل محل البيتوتة ، و النهار محل الظهور .
والزمن اليومي مقسوم لقسمين : ليل ، ونهار .
وشاء الحق سبحانه إبهام اليوم والوقت ، فإن جاء ليلاً ، فالإنسان في ذلك الوقت يكون غافلاً نائماً في الغالب ، وإن جاء نهاراً ، فالإنسان في النهار مشغول بحركة الحياة .
والحق سبحانه يقول في موضع آخر :
{ أَفَأَمِنَ أَهْلُ القرى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَآئِمُونَ } [الأعراف : 97] .
ويقول سبحانه :
{ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ القرى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ } [الأعراف : 98] .
ولو نظرت إلى الواقع لوجدت أن العذاب يأتي في الليل وفي النهار معاً ، لأن هناك بلاداً يكون الوقت فيها ليلاً ، وفي ذات الوقت يكون الزمن نهاراً في بلاد أخرى .
وإذا جاء العذاب بغتة ، وحالوا إعلان الإيمان ، فلن ينفعهم هذا الإيمان؛ لأن الحق سبحانه يقول فيمن يتخذ هذا الموقف :
{ آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ المفسدين } [يونس : 91] .
فإن جاءكم العذاب الآن لما استقلتم منه؛ لأنه لن ينفعكم إعلان الإيمان ، ولن يقبل الله منكم ، وبذلك يصيبكم عذاب في الدنيا ، بالإضافة إلى عذاب الآخرة ، وهذا الاستعجال منكم للعذاب يضاعف لكم العذاب مرتين ، في الدنيا ، ثم العذاب الممتد في الآخرة .
ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ }

أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلْآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (51)

أي : إذا ما وقع العذاب فهل ستؤمنون؟
إن إعلان إيمانكم في هذا الوقت لن يفيدكم ، وسيكون عذابكم بلا مقابل .
إذن : فاستعجالكم للعذاب لن يفيدكم على أي وضع؛ لأن الإيمان لحظة وقوع العذاب لا يفيد .
ومثال ذلك : فرعون حين جاءه الغرق { قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إله إِلاَّ الذي آمَنَتْ بِهِ بنوا إِسْرَائِيلَ } [يونس : 90] .
ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ }

ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (52)

وهذا إخبار عن العذاب القادم لمن كفروا ويلقونه في اليوم الآخر ، فهم بكفرهم قد ظلموا أنفسهم في الدنيا ، وسيلقون العذاب في الآخرة ، وهو { عَذَابَ الخلد } أي : عذاب لا ينتهي .

وينهي الحق سبحانه الآية بقوله : { هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ } .

أي : أن الحق سبحانه لم يظلمهم ، فقد بلغهم برسالة الإيمان عن طريق رسول ذي معجزة ، ومعه منهج مفصَّل مؤيَّد ، وأمهلهم مدة طويلة ، ولم يستفيدوا منها؛ لأنهم لم يؤمنوا .

إذن : فسيلقون عذاب الخلد ، وقد جاء سبحانه هنا بخبر عذاب الخلد؛ لأن عذاب الدنيا موقوت ، فيه خزي وهوان ، لكن محدوديته في الحياة يجعله عذاباً قليلاً بالقياس إلى عذاب الآخرة المؤبد .

وجاء الحق سبحانه بأمر عذاب الخلد كأمر من كسبهم ، والكسب زيادة عن الأصل ، فمن يتاجر بعشر جنيهات ، قد يكسب خمسة جنيهات .

وهنا سؤال : هل الذي يرتكب معصية يكسب زيادة عن الأصل؟

نعم؛ لأن الله سبحانه حرَّم عليه أمراً ، وحلله هو لنفسه ، فهو يأخذ زيادة في التحليل ، وينقص من التحريم وهو يظن أنه قد كسب بمفهومه الوهمي الذي زين له مراد النفس الأمارة ، وهذا يعني أنه ينظر إلى واقع اللذة في ذاتها ، ولا ينظر إلى تبعات تلك اللذة ، وهو يظن أنه قد كسب ، رغم أنه خاسر في حقيقة الأمر .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه : { وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ }

وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (53)

وهم قد قالوا من قبل : { متى هذا الوعد } [يونس : 48] .

وهم هنا قد عادوا للتساؤل . { وَيَسْتَنْبِئُونَكَ } أي : يطلبون منك النبأ . والنبأ هو الخبر المتعلق بشيء عظيم ، وهم يطلبون الخبر منك يا رسول الله ويتساءلون : أهو حق؟

وكلمة « حق » هنا لها معطيات كثيرة؛ لأن { هُوَ } يمكن أن تعود على أصل الدين قرآناً؛ ونبوَّة ، وتشريعاً ، وهي كلمة تحمل التصديق بأن القرآن حق ، والتشريع حق ، والنبوة لمحمد صلى الله عليه وسلم حق ، والقيامة والبعث حق ، والكلام عن العذاب في الدنيا بخذلانهم ونصرة المؤمنين عليهم حق .

إذن : فقولهم : { وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ } [يونس : 53] لها أكثر من مرجع ، كأنهم سألوا : هل القرآن الذي جئت به حق؟

وهل النبوة التي تدَّعيها حق؟

وهل الشرائع التي تقول : إن الله أنزلها كمنهج بحكم حركة الإنسان حق؟

وهل القيامة والبعث حق؟

وهل العذاب في الدنيا حق؟

إنها كلمة شاملة يمكن أن تؤول إلى أكثر من معنى .

ويأتي الجواب من الله تعالى :

{ قُلْ إِي وربي إِنَّهُ لَحَقٌّ } [يونس : 53] .

وأنت حين يستفهم منك أحد قائلاً : هل زيد موجود؟ فأنت تقول : نعم موجود . ولا تقول له : والله إن زيداً موجود؛ لأنك لن تؤكد الكلام لمن يسألك؛ لأنه لا ينكر وجود زيد .

إذن : فأنت لن تؤكد إجابةً ما إلا إذا كان هناك في السؤال شبهة إنكار .

إذن : فأنت تستدل من قول الحق سبحانه :

{ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ } [يونس : 53] على أن سؤالهم يحمل معاني الإنكار والاستهزاء؛ ولذلك جاء الجواب ب « أي » وهو حرف جواب يعني : « نعم » ، وتأتي « أي » دائماً مع القسم .

ولكل حرف من حروف الجواب مقام ، فهناك « بلى » وهي تأتي في جواب سؤال منفي ، في مثل قوله تعالى :

{ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بلى } [الأعراف : 172] .

وقول الحق سبحانه هنا : { إِي وربي } [يونس : 53] .

تعني : نعم وأقسم بربي إنه لحق . وأنت لا تُقسم على شيء إلا إذا كان السائل عنده شبهة إنكار ، وتأتي ب « إن » لمزيد من هذا التأكيد .

ومثال ذلك في قوله سبحانه :

{ واضرب لَهُمْ مَّثَلاً أَصْحَابَ القرية إِذْ جَآءَهَا المرسلون * إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ اثنين فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فقالوا إِنَّآ إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ } [يس : 1314] .

وماذا كان رد من بُعث اليهم الثلاثة؟

{ قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ الرحمن مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ } [يس : 15] .

هكذا كان إنكار المكذبين للرسل الثلاثة شديداً . فقال لهم الرسل :

{ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ } [يس : 16] .

فكان قولهم هذا مناسباً لإنكار الكافرين الشديد .

إذن : فالتأكيد في أسلوب المسئول إنما يأتي على مقدار الإنكار ، فإن لم يكن هناك إنكار؛ فلا يحتاج الأمر إلى تأكيد .

أما إذا صادف الكلام إنكاراً قليلاً ، فالتأكيد يأتي مرة واحدة .

وإن صادف الكلام لجاجة في الإنكار جاء التأكيد مرتين .

أما إذا ما صادف الكلام تبجُّحاً في الإنكار فالتأكيد يأتي ثلاث مرات .

وقد علَّم الحق سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم هنا أن يرد على استنبائهم بأن يقول لهم : { إِي وربي إِنَّهُ لَحَقٌّ } [يونس : 53] .

وهنا يقسم الرسول صلى الله عليه وسلم بالرب؛ لأن الرب هو من كلَّفه ، ثم يؤكد { إِنَّهُ لَحَقٌّ } لأن سؤالهم تضمَّن الإنكار والاستهزاء .

وما دام قد قال : { إِي وربي إِنَّهُ لَحَقٌّ } فهم إن لم يؤمنوا فسوف يلقون العذاب؛ لأنه ليس هناك مَنْجَى من الله تعالى ، ولن تُعْجِزوا الله هرباً ، ولن تعجزوه شفاعة من أحد ، ولن تعجزوه بيعاً ، ولن تعجزوه خُلَّة تتقدم لتشفع لكم .

ثم يأتي قوله سبحانه في نهاية الآية :

{ وَمَآ أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ } [يونس : 53] .

وقد أراد الحق سبحانه أن يفسر لمحة من الإعجاز ، ذلك أن الله سبحانه وتعالى من الممكن أن يقبل شفاعة الشافعين ، ومن الممكن أن يقبل الفداء؛ ولذلك جاء الإيضاح في الآية التالية ، فيقول سبحانه : { وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الأرض }

وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (54)

وساعة ياتي العذاب فالإنسان يرغب في الفرار منه ، ولو بالافتداء .

وانظر كيف يحاول الإنسان أن يتخلص من كل ما يملك افتداء لنفسه ، حتى ولو كان يملك كل ما في السموات وما في الأرض .

ولكن هل يتأتى لأحد غير الله سبحانه أن يملك السموات والأرض؟

طبعاً لا .

إذن : فالشر لا يتأتَّى . وهَبْ أنه تأتَّى ، فلن يصلح الافتداء بملك ما في السموات وما في الأرض؛ لأن الإنسان الظالم في الدنيا قد أخذ حق الغير ، وهذا الغير قد كسب بطريق مشروع ما أخذه الظالم منه ، والظالم إنما يأخذ ثمرة عمل غيره ، ولو صحَّ ذلك لتحوَّل البعض إلى مغتصبين لحقوق الغير ، ولأخذوا عرق وكدح غيرهم ، ولتعطلت حركة الحياة .

ولذلك إن لم يردع الله سبحانه وتعالى الظالم في الدنيا قبل الآخرة لاستشرى الظلم ، وإذا استشرى الظلم في مجتمع ، فالبطالة تنتشر فيه ، ويحاول كل إنسان أن يأخذ من دم وعرق غيره ، وبهذا يختلّ ميزان العدل وتفسد حركة الحياة كلها .

وهَبْ أن الظالم أخذ مُلْك الدنيا كلها ، وأراد أن يفتدى به نفسه ساعة يأتي العذاب ، ويفاجأ بأن كسبه من حرام لا يُقْبَل فداءً ، أليس هذا هو الخسران الكبير؟ وهذه ظاهرة موجودة في دنيا الناس .

وهَبْ أن واحداً ارتشى أو اختلس أو سرق ، ويفاجئه القانون ليمسكه من تلابيبه فيقول : خذوا ما عندي واتركوني . ولن يقبل القائمون على القانون ذلك . وإن كان مثل هذا التنازل يحدث في (الجمارك) فنرى من يتنازل عن البضائع المهربة مقابل الإفراج عنه ، هذا ما يحدث في الدنيا ، لكنه لن يحدث في الآخرة .

وفي سورة البقرة يقول الحق سبحانه :

{ واتقوا يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ هُمْ يُنْصَرُونَ } [البقرة : 48] .

وقال الحق سبحانه في آية أخرى :

{ واتقوا يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ } [البقرة : 123] .

وقال بعض المشككين أن الآيتين متشابهتان ، ولم يلتفتوا إلى أن كل آية تختلف عن الأخرى في التقديم للعدل ، والتأخير للشفاعة .

والبلاغة الحقَّة تتجلَّى في الآيتين؛ لأن القارىء لصَدْر كل آية منهما ، والفاهم للمَلَكه اللغوية العربية أن عَجُز كل آية يناسب صدرها .

ومن يقرأ قول الحق سبحانه :

{ واتقوا يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ } [البقرة : 48] .

يرى أنه أمام نفسين : النفس الأولى هي التي تقدِّم الشفاعة ، والنفس الثانية هي المشفوع لها . والشفاعة هنا لا تُقبل من النفس الأولى الشافعة ، وكذلك لا يُقبل العدل .

وفي الآية الثانية لاتُقبل الشفاعة ولا العدل من النفس المشفوع لها ، فهي تحاول أن تقدم العدل أولاً ، ثم حين لا ينفعها تأتي بالشفيع .

وهكذا جاء التقديم والتأخير في الآيتين مناسباً للموقف في كل منهما .

وهنا يقول الحق سبحانه :

{ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الأرض لاَفْتَدَتْ بِهِ } [يونس : 54] .

وفي هذا القول تعذُّرِ ملْك النفس الواحدة لكل ما في الأرض ، ولو افترضنا أن هذه النفس ملكته فلن تستطيع الافتداء به؛ وتكون النتيجة هي ما يقوله الحق سبحانه :

{ وَأَسَرُّواْ الندامة لَمَّا رَأَوُاْ العذاب } [يونس : 54] .

أي : أخفوا الحسرة التي تأتي إلى النفس ، وليس لها ظاهر من انزعاج لفظي أو حركي .
إن كلاّ منهم يكتم هَمَّه في قبله؛ لأنه ساعة يرى العذاب ينبهر ويُصعَق ويُبهَت من هول العذاب ، فتجمد دماؤه ، ولا يستطيع حتى أن يصرخ ، وهو بذلك إنما يكبت ألمه في نفسه؛ لأن هول الموقف يجمِّد كل دم في عروقهم ، ويخرس ألسنتهم ، ولا يستطيع أن ينطق؛ لأنه يعجز عن التعبير الحركي من الصراخ أو الألم .
ونحن نعلم أن التعبير الحركي لون من التنفيس البدني ، وحين لا يستطيعه الإنسان ، فهو يتألم أكثر .
هم إذن يُسرُّون الندامة حين يرون العذاب المفزع المفجع ، والكلام هنا عن الظالمين ، وهم على الرغم من ظلمهم ، فالحق سبحانه يقول : { وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بالقسط وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ } [يونس : 54] .
وهؤلاء رغم كفرهم واستحقاقهم للعذاب يلقون العدل من الله ، فَهَبْ أن كافراً بالله بمنأى عن الدين ظلم كافراً آخر ، أيقف الله سبحانه من هذه المسألة موقفاً محايداً .
لا؛ لأن حق خَلْق الله سبحانه الكافر المظلوم يقتضى أن يقتص الله سبحانه له من أخيه الكافر الظالم؛ لأن الظالم الكافر ، إنما ظلم مخلوقاً لله ، حتى وإن كان هذا المظلوم كافراً .
ولذلك يقضي الله بينهم بالحق ، أي : يخفِّف عن المظلوم بعضاً من العذاب بقدر ما يثقله على الظالم .
هذا هو معنى { وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ } لأنها تتطلب قضاء ، أي : عدم تحيز ، وتتطلب الفصل بين خصومتين .
ويترتب على هذا القضاء حكم؛ لذلك يبين لنا الحق سبحانه أنهم وإن كانوا كافرين به إلا أنه إن وقع من أحدهم ظلم على الآخر ، فالحق رب الجميع وخالق الجميع ، كما أعطاهم بقانون الربوبية كل خير مثلما أعطى المؤمنين ، فهو سبحانه الذي أعطى الشمس ، والماء ، والهواء ، وكل وسائل الرزق والقُوت لكل الناس مؤمنهم ، وكافرهم فإذا ما حدث ظلم بين متدينين بدين واحد ، أو غير متدينين ، فلا بد أن يقضي فيه الحق سبحانه بالفصل والحكم بالعدل .
ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { ألا إِنَّ للَّهِ مَا فِي السماوات والأرض }

أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (55)

و « ألا » في اللغة يقال عنها « أداة تنبيه » وهي تنبه السامع أن المتكلم سيقول بعدها كلاماً في غاية الأهمية ، والمتكلم كما نعلم يملك زمام لسانه ، بحكم وضعه كمتكلم ، لكن السامع يكون في وضع المُفاجَأ .
وقد يتكلم متكلم بما دار في ذهنه ليبرزه على لسانه للمخاطب ، ولكن المخاطب يفاجأ ، وإلى

أن ينتبه قد تفوته كلمة أو اثنتان مما يقوله المتكلم .

والله سبحانه وتعالى يريد ألاَّ يفوت السامع لقوله أي كلمة ، فأتى بأداة تنبيه تنبه إلى الخبر القادم بعدها ، وهو قول الحق سبحانه :

{ إِنَّ للَّهِ مَا فِي السماوات والأرض } [يونس : 55] .

هكذا شاء الحق سبحانه أن تأتي أداة التنبيه سابقة للقضية الكلية ، وهي أنه سبحانه مالك كل شيء ، فهو الذي خلق الكون ، وخلق الإنسان الخليفة ، وسخَّر الكون للإنسان الخليفة ، وأمر الأسباب أن تخضع لمسببات عمل العامل؛ فكل من يجتهد ويأتي بالأسباب؛ فهي تعطيه ، سواء أكان مؤمناً أو كافراً .

وإذا خدمت الأسبابُ الإنسانَ ، وكان هذا الإنسان غافلاً عن ربه أو عن الإيمان به ، ويظن أن الأسباب قد دانت له بقوته ، ويفتن بتلك الأسباب ، ويقول مثلما قال قارون :

{ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُ على عِلْمٍ عندي } [القصص : 78] .

فالذي نسي مسبِّب الأسباب ، وارتبط بالأسباب مباشرة ، فهو ينال العذاب ، إن لم يكن في الدنيا ففي الآخرة؛ فكأن الحق سبحانه ينبههم : تَنَبَّهوا أيها الجاهلون ، وافهموا هذه القضية الكبرى : { إِنَّ للَّهِ مَا فِي السماوات والأرض } [يونس : 55] .

فإياك أيها الإنسان أن تغترَّ بالأسباب ، أو أنك بأسبابك أخذت غير ما يريده الله لك ، فهو سبحانه الذي أعطاك وقدَّر لك ، وكل الأسباب تتفاعل لك بعطاء وتقدير من الله عز وجل .

وفي أغيار الكون الدليل على ذلك ، ففكرك الذي تخطِّط به قد تصيبه آفة الجنون ، والجوارح مثل اليد أو القدم أو اللسان أو العين أو الأذن قد تُصاب أيٌّ منها بمرض؛ فلا تعرف كيف تتصرف .

وكل ما تأتي فيه الأغيار؛ فهو ليس من ذاتك ، وكل ما تملكه موهوب لك من مسبِّب الأسباب .

فإياك أن تنظر إلى الأسباب ، وتنسى المسبِّب؛ لأن لله ملك الأشياء التي تحوزها والأدوات التي تحوز بها؛ بدليل أنه سبحانه حين يشاء يسلبها منك ، فتنبه أيها الغافل ، وإياك أن تظن أن الأسباب هي الفاعلة ، بدليل أن الله سبحانه وتعالى يخلق الأسباب؛ ثم يشاء ألا تأتي بنتائجها ، كمن يضع بذور القطن مثلاً ويحرث الأرض ، ويرويها في مواعيدها ، ثم تأتي دودة القطن لتأكل المحصول .

إذن : فمردُّ كل مملوك إلى الله تعالى .

واعلمْ أن هناك مِلْكاً ، وإن هناك مُلْكاً ، والمِلْك هو ما تملكه؛ جلباباً؛ أو بيتاً ، أو حماراً ، إلى غير ذلك ، أما المُلْك فهو أن تملك من له مِلْك ، وتسيطر عليه ، فالقمة إذن في المُلْك .

وانظر إلى قول الحق سبحانه :

{ قُلِ اللهم مَالِكَ الملك تُؤْتِي الملك مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ الملك مِمَّنْ تَشَآءُ } [آل عمران : 26] .

إذن : فالمُلك في الدنيا كله لله سبحانه .

وكلمة « ألا » جاءت في أول الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها لتنبّه الغافل عن الحق؛ لأن الأسباب استجابت له وأعطته النتائج ، فاغترَّ بها ، فيجعل الله سبحانه الأسباب تختلف في بعض الأشياء؛ ليظل الإنسان مربوطاً بالمسبِّب .

ويقول الحق سبحانه في نفس الآية :

{ أَلاَ إِنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ } [يونس : 55] .

والوعد إن كان في خير فهو بشارة بخير يقع ، وإن كان بِشَرٍّ فهو إنذار بشرّ يقع؛ ويغلب عليه كلمة « الوعيد » .

إذن : ففي غالب الأمر تأتي كلمة « وعد » للأثنين : الخير والشر ، أما كلمة « وعيد » فلا تأتي إلا في الشر .

والوعد : هو إخبارٌ بشي سيحدث من الذي يملك أن يُحْدِث الشيء .

وإنفاذ الوعد له عناصر : أولها الفاعل ، وثانيها المفعول ، وثالثها الزمان ، ورابعها المكان ، ثم السبب .

والحدث يحتاج إلى قدرة ، فإن قلت : « آتيك غداً في المكان الفلاني لأكلمك في موضوع كذا » فماذا تملك أنت من عناصر هذا الحدث؛ إنك لا تضمن حياتك إلى الغد ، ولا يملك سامعك حياته ، وكذلك المكان الذي تحدد فيه اللقاء قد يصيبه ما يدمّره ، والموضوع الذي تريد أن تتحدث فيه ، قد يأتي لك خاطر ألا تتحدث فيه من قبل أن يتم اللقاء .

وهَبْ أن كل العناصر اجتمعت ، فماذا تملك أنت أو غيرك من عناصر الوعد؟ لا شيء أبداً .

ولذلك يعلّم الله سبحانه خَلْقه الأدب في إعطاء الوعود ، التي لا يملكونها ، فيقول سبحانه :

{ وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَاْىءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذلك غَداً * إِلاَّ أَن يَشَآءَ الله } [الكهف : 2324] .

وحين تقدِّم المشيئة فإن حدث لك ما يمنع إنفاذ الوعد فلن تكون كذاباً .

وهكذا يعلّمنا ربنا صيانة أخبارنا عن الكذب ، وجعلنا نتكلم في نطاق قُدراتنا ، وقُدراتنا لا يوجد فيها عنصر من عناصر الحدث ، لكن إذا قال الله سبحانه ، ووعد ، فلا رادّ لما وعد به سبحانه؛ لأنه منزَّه عن أن يُخْلف الميعاد؛ لأن عناصر كل الأحداث تخضع لمشيئته سبحانه ، ولاَ تتأبَّى عليه ، ووعده حق وثابت .

أما أنت فتتحكم فيك الأغيار التي يُجريها الحق سبحانه عليك .

وهَبْ أنك أردت أن تبني بيتاً ، وقلت للمهندس المواصفات الخاصة التي تريدها في هذا البيت ، لكن المهندس لمي يستطع أن يشتري من الأسواق بعضاً من المواد التي حددتها أنت ، فأنت إذن

قد أردت ما لا يملك المهندس تصرُّفاً فيه .

لكن الأمر يختلف بالنسبة للخالق الأعلى سبحانه؛ فهو الذي يملك كل شيء ، وهو حين يَعد يصير وَعْدُه محتَّم النفاذ ، ولكن الكافرين ينكرون ذلك؛ ولذلك قال الله سبحانه :

{ ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ } [يونس : 55] .

أي : أنهم لا يعلمون هذه الحقيقة ، فقد سبق أن قالوا :

{ متى هذا الوعد } [يونس : 48] .

أو أن { أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ } تعني : أن الإنسان يجب ألاَّ يضع نفسه في موعد دون أن يقدِّم المشيئة؛ لأنه لا يملك من عناصر أي وعد إلا ما يشاؤه الله تعالى .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ }

هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (56)

ونحن نعلم أن حركة الحياة ، والمِلْك والمُلْك ، هي فروع من الأحياء ، وهو سبحانه حَيٌّ؛ لأنه مالك الأصل ، وهو القادر على أن يميت ، وكل ما يصدر عن الحياة يسلبه الله سبحانه بالموت فهو مالك الأشياء ، والأسباب التي تُنتج الأشياء ، ولا يفوته شيء من وعد ولا وعيد ، ونحن نحيا بمشيئته سبحانه ، ونموت بمشيئته سبحانه ، فلن نفلت منه .

لذلك قال سبحانه : { وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } فمن لا يعتبر بأمر الأحياء؛ عليه أن يرتدع بخوف الرجعة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { ياأيها الناس قَدْ جَآءَتْكُمْ مَّوْعِظَةٌ }

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (57)

والخطاب هنا للناس جميعاً؛ لأن الحق سبحانه حين يخاطب المؤمنين بقوله تعالى :

{ يَاأَيُّهَا الذين آمَنُواْ } [البقرة : 104] .

فهذا خطاب لمن آمن بالمنهج .

والحق سبحانه وتعالى يخاطب الناس كافّةً بأصول العقائد ، مثل قول الحق سبحانه :

{ ياأيها الناس اتقوا رَبَّكُمُ } [النساء : 1] .

أما المؤمنون فسبحانه يكلّفهم بخطابه إليهم ، من مثل قول الحق سبحانه :

{ ياأيها الذين آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصيام } [البقرة : 183] .

ومثل قول الحق :

{ ياأيها الذين آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ القصاص فِي القتلى } [البقرة : 178] .

أي : أن خطابه سبحانه للمؤمنين يكون دائماً في الأحكام التي يخطاب بها المؤمنين ، أما في أصول العقائد والإيمان الأعلى بالواجد الموجِد ، فهذا يكون خطاباً للناس كافة .

والحق سبحانه يقول هنا :

{ ياأيها الناس قَدْ جَآءَتْكُمْ مَّوْعِظَةٌ } [يونس : 57] .

والأية هنا تصوِّر الموعظة وكأنها قد تجسَّدت وصار لها مجيء ، رغم أن الموعظة هي كلمات ، وأراد الله تعالى بذلك أن يعطى للموعظة صورة الحركة التي تؤثّر وتحضُّ على الإيمان .

والموعظة هي الوصية بالخير والبعد عن الشر بلَفْظٍ مؤثّر ، ويقال : فلان واعظ متميز ، أي : أن كلامه مستميل وأسلوبه مؤثر وجميل ، والموعوظ دائماً أضعف من الواعظ ، وتكون نفس الموعوظ ثقيلة ، فلا تتقبل الموعظة بيسر إلا ممن يجيد التأثير بجمال الكلمة وصدق الأداء؛ لأن الموعوظ قد يقول في نفسه : لقد رأيتني في محل دونك وتريد أن ترفعني ، وأنت أعلى مني . فإذا قدَّر الواعظ هذ الظرف في الموعوظ فهو يستميل نفسه .

ولنتذكر الحكمة التي تقول : « النصح ثقيل ، فلا تجعلوه جَدَلاً ، ولا ترسلوه جَبَلاً ، واستعيروا له خِفَّةالبيان »؛ وذلك لتستميل أذن السامع إليك فتأتي له بالأسلوب الجميلَ المقنع الممتع الذي يعجبه ، وتلمس في نفسه صميم ما ترغب أن يصل إليه .

والموعظة تختلف عن الوصية؛ لأن الوصية عادة لا تتأتى إلا في خلاصة حكمة الأشياء ، وهَبْ أن إنساناً مريضاً وله أولاد ، وحضرته الوفاة ، فيقولم بكتابة وَصِيَّته ، ويوصيهم بعيون المسائل .

والحق سبحانه يقول هنا :

{ قَدْ جَآءَتْكُمْ مَّوْعِظَةٌ } [يونس : 57] .

والموعظة إما أن تسمعها أو تفرضها ، ولأنها موعظة قادمة { مِّن رَّبِّكُمْ } فلا بد من الالتفات والانتباه ، وملاحظة أن الحق سبحانه قد اختص الموعظة بأنها من الرب ، لا من الإله؛ لأن الإله يريدك عابداً ، لكن الرب هو المربِّي والكفيل ، وإن كفرت به .

وهذه الموعظة قادمة من الرب ، أي : أنها من كمالات التربية ، ونحن نعلم أن متعلقات الربوبية تتوزع مابين قسمين : القسم الأول هو مقوِّمات الحياة التي يعطيها الحق سبحانه من قُوت ورزق وهذه المقومات للمؤمن ، وللكافر والقسم الآخر هو مقومات القيم التي ترسم منهج حركة الحياة ، وهذه للمؤمن فقط .

إذن : فالموعظة هي نوع من التربية جاءت من ربكم المأمون عليكم؛ لأنه هو الذي خَلَق من عَدَم وأمَدّ من عُدْم ، ولم يختص بنعمة الربوبية المؤمنين فقط ، بل شملت نعمته كل الخلق .

إذن : فالموعظة تجيء ممن يُعطي ولا ينتظر منك شيئاً ، فهو سبحانه مُنزَّه عن الغرض؛ لأنه لن ينال شَيئاً منك فأنت لا تقدر على شيء مع قدرته سبحانه .

والموعظة القادمة بالمنهج تخصُّ العقلاء الراشدين؛ لأن حركة العاقل الراشد تمر على عقله أولاً ، ويختار بين البدائل ، أما حركة المجنون فهي غير مرتَّبة ولا منسَّقة ، ولا تمر على عقله؛ لأن عقله مختل الإدراك وفاقد للقدرة على الاختيار بين البدائل .

ولكن لماذا يُفسِد العاقل الاختيار بين البدائل؟

إن الذي يفسد حركة اختيار العاقل هو الهوى ، والهوى إنما ينشأ مما في النفس والقلب؛ ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها :

{ قَدْ جَآءَتْكُمْ مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي الصدور } [يونس : 57] .

أي : أنه سبحانه قد أنزل عليكم ما يشفي صدوركم من غِلّ يؤثر في أحكامكم ، وحقد ، وحسد ، ومكر ، ويُنقِّي باطن الإنسان؛ لأن أي حركة من حركات الإنسان لها نبع وجداني ، ولا بد أن يُشفى النبع الوجداني؛ ليصحَّ؛ حتى تخرج الحركات من الجوارح وهي نابعة من وجدان طاهر مُصفّى وسليم؛ وبذلك تكون الحركات الصادرة من الإنسان سليمة .

ولذلك قال الحق سبحانه :

{ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي الصدور وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ } [يونس : 57] .

وجاءت كلمة « الشفاء » أولاً ، لتبيّن أن الهداية الحقَّة إلى الطريق المستقيم تقتضي أن تُخْرِج ما في قلبه من أهواء ، ثم تدلَّه إلى المنهج المستقيم .

وإن سأل سائل عن الفارق بين الشفاء والرحمة؟ نجيب : إن الشفاء هو إخراج لما يُمْرِض الصدور ، أما الرحمة فهي اتْباع الهداية بما لا يأتي بالمرض مرة أخرى ، وأقرأ إن شئت قول الحق سبحانه :

{ وَنُنَزِّلُ مِنَ القرآن مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ } [الإسراء : 82] .

وهكذا يتبيَّن لنا أثر الموعظة : شفاء ، وهدى ، ورحمة ، إنها تعالج ليس ظواهر المرض فقط ، ولكن تعالج جذور المرض .

إذن : فشفاء الصدور يجب أن يتم أولاً؛ لذلك نجد الطبيب الماهر هو من لا ينظر إلى ظواهر المرض فقط ليعالجها ، ولكنه يبحث عما خلف تلك الظواهر ، على عكس الطبيب غير المدرَّب العَجُول الذي يعالج الظاهر دون علاج جذور المرض .

ومثال ذلك : طبيب الأمراض الجلدية غير الماهر حين يرى بثوراً؛ فهو يعالجها بما يطمسها ويزيلها مؤقَّتاً ، لكنها تعود بعد قليل ، أما الطبيب المدرَّب الفاهم فهو يعالج الأسباب التي تُنتج البثور ، ويزيلها بالعلاج الفعَّال؛ فيقضي على أسباب ظهورها .

وفي القرآن الكريم نجد قصة ابتلاء سيدنا أيوب عليه السلام ، فقد قال له الحق سبحانه :

{ اركض بِرِجْلِكَ هذا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ } [ص : 42] .

أي : اضربْ برجلك ذلك المكان يخرجْ لك منه ماء بارد ، تغتسل منه؛ فيزيل الأعراض الظاهرة ، وتشرب منه ليعالج أصل الداء .

إذن : فالموعظة وكأنها تجسَّدت ، فجاءت من ربكم المأمون علكيم شفاءً حتى تعالج المواجيد التي تصدر عنها الأفعال ، وتصبح مواجيد سليمة مستقيمة ، لا تحلُّل فيها ، وهدى إلى الطريق الموصِّل إلى الغاية الحقَّة ، ورحمة إن اتبعها الإنسان لا يُصَابُ بأيِّ داءٍ ، وهذه الموعظة تؤدي إلى العمل المقبول عند الله سبحانه .

ولكن إنْ صحَّتْ لك الأربعة النابعة من الموعظة : الشفاء ، والهدى ، والرحمة والعمل الصالح ، فإيّاك أن تفرح بذلك؛ ففوق كل ذلك فضل الله عليك؛ ولذلك يقول الحق سبحانه : { قُلْ بِفَضْلِ الله وَبِرَحْمَتِهِ }

قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (58)

وأنت وكل المؤمنين مهما عملوا في تطبيق منهج الله ، فكلُّنا بعبادتنا لن نؤدي حَقَّ النعم الموجودة عندنا قبل أن نُكَلَّف ، وعلينا أن نتدبَّر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لن يدخل أحدكم الجنة بعمله » . قالوا : ولا أنت يا رسول الله؟ قال : « ولا أنا إلا أنْ يتغمَّدني الله برحمته » .

إذن : فإن افتخر إنسان بطاعته لله ، فهذه الطاعة تعود على العبد في دنياه ، وهو لن يؤدي بطاعته حق كل النعم التي أسبغها الله عليه .

ومثال ذلك : إن العبد لا يُكلَّف إلا عند البلوغ ، أي : في سنّ الخامسة عشر تقريباً ، فإ نظر إلى النعم التي أسبغها الله تعالى عليه حتى وصل إلى هذه السِّنِ ، فهو لن يحصيها ، فما بالنا بالنعم التي تغمرنا في كل العمر ، وحين يجازينا الحق في الآخرة ، فهو لا يجازينا بالعدل ، بل يعاملنا بالفضل .

إذن : إياك أن تقول : أنا تصدَّقتُ بكذا ، أو صلّيت كذا؛ حتى لا تورثك استجابتك لمنهج الله غروراً بعملك التعبُّديّ ، وتذكَّر القول المأثور : « رُبَّ معصية أورثتْ ذُلاً وانكساراً ، خيرٌ من طاعةٍ أورثتْ عِزّاً واستكبارا » .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَّآ أَنزَلَ الله لَكُمْ }

قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ (59)

إن تمتع الإنسان في الحياة بالمُلْك والمِلْك ، فكل ذلك يحتاج إلى استبقاء الحياة بالرزق الذي يهبُنَا الحق سبحانه إيّاه ، وكذلك استبقاء النوع بالتزواج بين الذكر والأنثى .

ولكن الرزق الذي يستبقي الحياة لا بُدَّ أن يكون حلالاً؛ لذلك حدَّد لنا الحق سبحانه وتعالى

المحرَّمات فلا تقربها ، وأنت عليك بالالتزام بما حدَّده الله ، فلا تدخل أنت على ما حلّل الله لتحرِّمَه؛ لأن الحق سبحانه حدَّد لك من الطعام ما يستبقي حياتك ويعطيك وقوداً لحركة الحياة ، فعاملْ نفسك كما تعامل الآلة التي تصنعها ، فأنت تعطي كل آلة الوقود المناسب لها لتؤدي مهمتها ، كذلك جعل الله سبحانه لك المواصفات التي تنفعك وتستفيد منها وتؤدي حركات الحياة بالطاقة التي يمدّك بها ما حَلَّله الله لك .

وكذلك حرَّم الله عليك ما يَضُرُّك .

وإياك أن تقول : ما دامت هذه الأشياء تضرّني فلماذا خلقها الله؛ لأن عليك أن تعرف أن هناك فارقاً بين رزق مباشر ، ورزق غير مباشر ، وكل ما في الكون هو رزق ، ولكنه ينقسم إلى رزق مباشر تستفيد منه فوراً ، وهناك رزق غير مباشر .

ومثال ذلك : النار ، فأنت لا تأكل النار ، لكنها تُنضِج لك الطعام .

إذن : فهناك شيء مخلوق لمهمة تساعد في إنتاج ما يفيدك .

والحق سبحانه قد حلّل لك على سبيل المثال لحم الضأن والماعز ، والإبل والبقر وغيرها ، وحرَّم عليك لحم الخنزير ، فلا تسألْ : لماذا خلق الله الخنزيرَ؛ لأنه خَلقه لمهمةٍ أخرى ، فهو يلملم قاذورات الوجود ويأكلها ، فهذا رزق غير مباشر ، فاتركه للمهمة التي أراده الله لها .

وبعض الناس قد حرَّم على نفسه أشياء حلَّلها الله تعالى ، وهم بذلك يُضيّقون على أنفسهم ، ويظن البعض أنه حين يحلّل ما حرَّم الله أنه يوسِّع على نفسه ، فيأمر الحق سبحانه رسول صلى الله عليه وسلم أن يقول :

{ أَرَأَيْتُمْ مَّآ أَنزَلَ الله لَكُمْ مِّن رِّزْقٍ } [يونس : 59] .

أي : أخبِروني ما أنزل الله لكم من رزق ، وهو كل ما تنتفعون به ، إما مباشرةً ، وإما بالوسائط ، فكيف تتدخلون بالتحليل والتحريم ، رغم أن الذي أنزل الرزق قد بيَّن لكم الحلال والحرام؟!

وكلمة { أَنزَلَ } تفيد أن الرزق كله قادم من أعلى ، وكل ما ترونه حولكم هو رزق ، تنتفعون به مباشرة ، أو بشكل غير مباشر ، فالمال الذي تُشترى به أغلب الأرزاق لا يأكله الإنسان ، بل يشتري به ما يأكله .

وكلمة { أَنزَلَ } تعني : أوْجَدَ ، وخلق مِنْ أعلى ، وما دام كل شيء قد وُجد بمشيئة مَنْ هو أعلى من كل الوجود ، فكل شيء لصالحك مباشرة أو بوسائط .

ولا تأخذ كلمة { أَنزَلَ } من جهة العلوّ الحسية ، بل خُذها من جهة العلوِّ المعنوية ، فالمطر مثلاً ينزل من أعلى حسيّاً ، ويختلط بالأرض فيأخذ النبات غذاءه منها ، والرزق بالمطر ومن الأرض مُقدَّر ممّن خَلَق ، وهو الأعلى سبحانه .

وقد قال الحق سبحانه :

{ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بالبينات وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الكتاب والميزان لِيَقُومَ الناس بالقسط وَأَنزَلْنَا الحديد فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ } [الحديد : 25] .

نعم ، فقد أنزل الحق سبحانه منهجه على الرسل عليهم السلام لتصلح حياة الناس ، وأنزل الحديد ايضاً ، هذا الذي نستخرجه من الجبال ومن الأرض .

إذن : فالمراد هنا بالإنزال ، أي : الإيجاد ممن هو أعلى منك لصالحك أيها الإنسان .

وما دام الحق سبحانه هو الذي أنزل الرزق ، وبيَّن الحلال والحرام ، فلماذا تُدخِلون أنوفكم في الحلال والحرام ، وتجعلون بعض الحلال حراماً ، وبعض الحرام أو كُلَّ الحرام حلالاً؟ لماذا لا تتركون الجَعْل لمن خَلَق وهو سبحانه أدْرى بمصلحتكم؟

{ قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ } [يونس : 59] .

أي : هل أعطاكم الله سبحانه تفويضاً في جَعْلِ الحلال حراماً ، والحرام حلالاً؟ { أَمْ عَلَى الله تَفْتَرُونَ } [يونس : 59] أي : على الله تتعمدون الكذب .

وقد جاء الحق سبحانه بالحلال والحرام ليبيّن لنا مدى قُبح السلوك في تحريم ما أحلّ الله ، وتحليل ما حرَّم الله .

ويشير الحق سبحانه في إجمال هذه الآية ، إلى آيات أخرى فَصَّلت الحرام ، وسبق أن تناولناها بخواطرنا ، مثل قوله تعالى :

{ مَا جَعَلَ الله مِن بَحِيرَةٍ وَلاَ سَآئِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ ولكن الذين كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ على الله الكذب وَأَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ } [المائدة : 103] .

والبَحيرة كما ذكرنا هي الناقة التي أنجبتْ خمس بُطونٍ آخرها ذَكَر ، وكانوا يشقُّون أذنها ، ويعلنون أنها قامت بواجبها ويتركونها سائمة غير مملوكة ، لا يركبها أحد ، ولا يحمل عليها أحد أيَّ حِمْل ، ولا يحلبها أحد ، ولا يجزّ صوفها أحد ، ثم يذبحها خُدَّام الآلهة التي كانوا يعبدونها ، وسَمَّوها « بَحيرة » ، لأنهم كانوا يشقون آذانها علامةً على أنها أدَّتْ مهمتها .

أما السائبة فهي غير المربوطة؛ لأن الربط يفيد الملكية ، وكان الواحد منهم إذى شفي من مرض أو أراد شيئاً وَهَبَ أن يجعل ناقةً لخدَّام الأصنام ، واسمها سائبة ، وهي أيضاً لا تُركب ، ولا تُحلب ، ولا يُحمل عليها ، ولا أحد يتعرَّض لها .

والوصيلة : هي الأنثى تلدها الناقة في بطن واحدة مع ذكر ، فيقولون : « وَصَلَتْ أخاها »؛ فلا يذبحونه للأصنام من أجل أخته .

{ وَلاَ حَامٍ } والحام : هو الفَحْل الذي يحمي ظهر نفسه بإنجاب عشرة أبْطُن ، فلا يركبه أحد بعد ذلك ، ولا يُحمَل عليه ، ويترك لخدَّام الأصنام .

هذه هي الأنعام المحلَّلة التي حرَّموها على أنفسهم ، بينما يأكلها خُدَّام الأصنام ، وفي ذكر عدم

تحريم تلك الأنعام رأفة بهم .

وهناك أيضاً قول الحق سبحانه :

{ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مَّنَ الضأن اثنين وَمِنَ المعز اثنين قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأنثيين أَمَّا اشتملت عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأنثيين نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * وَمِنَ الإبل اثنين وَمِنَ البقر اثنين قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأنثيين أَمَّا اشتملت عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأنثيين أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّاكُمُ الله بهذا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى عَلَى الله كَذِباً لِيُضِلَّ الناس بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ الله لاَ يَهْدِي القوم الظالمين }

[الأنعام : 143144] .

إذن : فقد حَرَّموا بعضاً مما أحلَّ الله لهم ، وقالوا ما أورده القرآن :

{ وَجَعَلُواْ للَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الحرث والأنعام نَصِيباً فَقَالُواْ هذا للَّهِ بِزَعْمِهِمْ وهذا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلاَ يَصِلُ إِلى الله وَمَا كَانَ للَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلى شُرَكَآئِهِمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ } [الأنعام : 136] .

وأجمل الحق سبحانه كل ذلك في قوله الحق :

{ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَّآ أَنزَلَ الله لَكُمْ مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِّنْهُ حَرَاماً وَحَلاَلاً قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى الله تَفْتَرُونَ } [يونس : 59] .

وهكذا تدخَّلوا في تحريم بعض الحلال وحلَّلوا بعضاً من الحرام ، وفي هذا تعدٍّ ما كان يجب أن يقترفوه؛ لأن الحق سبحانه هو خالقهم ، وهو خالق أرزاقهم ، وفي هذا كذب متعمَّد على الله سبحانه .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { وَمَا ظَنُّ الذين يَفْتَرُونَ عَلَى الله الكذب }

وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (60)

وهذه الآية توضح أن كل أمر بحساب ، فالذين يفترون على الله الكذب سيجدون حسابهم يوم القيامة عسيراً ، فالحق سبحانه منزّه عن الغفلة ، ولو ظنوا أنه لا توجد آخرة ولن يوجد حساب ، فهم يخطئون الظن .

ولو استحضروا ما أعدَّه الله لهم من العذاب والنكال يوم القيامة لما فعلوا ذلك ، ولكنهم كالظَّان بأن الله سبحانه وتعالى غافل عن أفعالهم ، وكأنها أفعال لا حساب عليها ، ولا كتابة لها ، ولا رقيب يحسبها :

ثم يقول الحق سبحانه :

{ إِنَّ الله لَذُو فَضْلٍ عَلَى الناس ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ } [يونس : 60] .

إن الله سبحانه متفضِّل على كل خَلْقه وأنتم منهم بأشياء كثيرة؛ فلم تحرمون أنفسكم من هذا الفضل؟! ولو شكرتم الله تعالى على هذال التفضل لزاد من عطائكم ، لكنكم تنسون الشكر .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْآنٍ }

وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (61)

والخطاب هنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، أي : ما تكون يا محمد في شأن . والشأن : هو الحال العظيم المتيمز الذي يطرأ على الأمر .

ونحن في حياتنا اليومية نقول : ما شأنك اليوم أو ما حالك؟ وهنا يجيب السامع بالشيء الهام الذي حدث له أو فعله ، ويتناسى التافة من الأمور .

ولذلك يصف الله تعالى نفسه فيقول :

{ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ } [الرحمن : 29] .

أي : لا تظنوا أن ربنا سبحانه وتعالى خلق النواميس والقوانين ، وقال لها : اعملي أنتِ ، لا فهو سبحانه كل يوم في شأن .

ولذلك حين سئل أحد العلماء : ما شأن ربك الآن؛ وقد صَحَّ أن القلم قد جَفَّ؟ فقال : « أمور يبديها ولا يبتديها » .

أي : أنه سبحانه قد رسم كل شيء ، وجعل له زماناً ليظهر ، فهو سبحانه قيُّوم ، أي : مُبَالغ في القيام على مصالحكم؛ ولذلك يطمئننا سبحانه وقد جعل الليل لنومنا وراحتنا بأنه سبحانه قيوم لا تأخذه سِنَةٌ ولا نوم ، وهو يراعينا .

فالحديث في الآية التي نحن بصددها موجَّه لرسول الله صلى الله عليه وسلم :

{ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ } [يونس : 61] .

وشأن رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يهتم به ليس المأكل ولا المشرب ، إنما المهم بالنسبة له هو بلاغ الرسالة بالمنهج ب « افعل و » لا تفعل « .

{ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْآنٍ } [يونس : 61] .

و » منه « هنا بمعنى اللام ، أي : ما تتلو له ، وتعني تأبيداً لآيات القرآن .

وهناك في موضع آخر من القرآن يقول الحق سبحانه :

{ مِّمَّا خطيائاتهم أُغْرِقُواْ } [نوح : 25]

أي : أغرقوا لأجْل خطيئاتهم .

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها نفهم ما تكون في شأن وما تتلو لأجل هذا الشأن من

قرآن ، فالنبي صلى الله عليه وسلم في شأن هام هو الرسالة ، ويتلو من القرآن تأبيداً لهذا الشأن وهو البلاغ بالمنهج .

ويدخل في هذا الشأن ما فوّض رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه حسب قول الحق سبحانه : { وَمَآ آتَاكُمُ الرسول فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فانتهوا } [الحشر : 7] .

ومثال ذلك : تحديد كيفية الصلاة وعدد ركعات كل صلاة ، وكذلك نِصَاب الزكاة ، وهذه أمور لم يأت بها القرآن تفصيلاً ، ولكن جاءت بها الأحاديث النبوية .

إذن : فهناك تفويض من الحق للرسول صلى الله عليه وسلم ليكتمل البلاغ بمنهج الله ، بنصوص القرآن ، وبتفويض الله تعالى له أن يشرّع .

إذن : فكل شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم إما بلاغ عن الله بالنص القرآني ، وإما تطبيق فعليّ للنص القرآني بالحديث النبوي ، وبالأسوة التي تركها لنا صلى الله عليه وسلم في سُنَّته .

والحُجَّة على الحُكم أي حُكم يأتي بها القرآن ، فإن كانت الأحكام غير صادرة من الله مباشرة ، فيكفي فيها أنها صدرت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بتفويض من الله تعالى ليشرّع .

وبذلك نردُّ على المنافقين الذين إذا حُدِّثوا بشيء من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : قالوا : « بيننا وبينكم كتاب الله » وهدفهم أن يردُّوا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فِعْلاً ، أو قولاً أو إقراراً .

ثم ينقل الحق سبحانه الخطاب من المفرد إلى الجماعة فيقول جَلَّ شأنه :

{ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً } [يونس : 61] .

وفي هذا انتقال للسامعين للقرآن ، والمبلِّغ إليهم هذا المنهج ، فكل عمل إنما يشهده الحق سبحانه .

والعمل هو مجموع الأحداث التي تصدر عن الإنسان ، فكل حدث يصدر من الإنسان ولو بِنيَّة القلب يسمَّى عملاً؛ لأن عمل القلوب هو النية . ولكن إذا صدر الحدث من اللسان كان قولاً ، وإذا صدر الحدث من بقية الجوارح كان فعلاً .

وهكذا ينقسم العمل إلى قسيمن : قول ، وفعل .

وقد اختُصَّ حدث اللسان باسم القول؛ لأن أصل مستندات التكليف كلهم قولية .

ثم يقول الحق سبحانه : { إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ } أي : تسرعون إلى العمل بنشاط وحيوية وإقبال مما يدل على حسن الاستجابة للمنهج فور أن يبلِّغه الرسول صلى الله عليه وسلم .

والإقبال على العمل التكليفي بهذا الشوق ، وتلك اللهفة ، وحسن الاستقبال ، وإخلاص الأداء ، كل هذه المعاني يؤول إليها قول الحق سبحانه : { إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ } كما يفيض ماء الإناء إذا امتلأ لينزل . أي : أن تقبلوا علىأعمال التكليف بسرعة وانصباب وانسكاب .

وقد قال الحق سبحانه : { فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ } [البقرة : 198] .
أي : شَرَعْتُم في الذهاب مسرعين؛ لأنكم أدَّيتم نُسُكاً أخذتم منه طاقة ، وتقبلون بها على نُسُك ثانٍ .
إذن : فالحق سبحانه يشهد كل عمل منكم ، لكن ماذا عن النيَّات وما يُبيَّت فيها من خواطر .
ها هو الحق سبحانه يخبرنا أن كل شيء مهما صغر واختفى فهو معلوم ومحسوب .
يقول الحق سبحانه :
{ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأرض وَلاَ فِي السمآء وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذلك ولا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ } [يونس : 61] .
أي : كل أمورك ، وأمور الخلق ، والمخلوقات كلها معلومة لله تعالى ، ومكتوبة في كتاب مبين واضح ، فلا أحد بقادر على أن يختلس حركة قلب ، أو يختلس حركة ضمير ، وكملة « يعزب » تعني : يغيب ويختفي .
والحق سبحانه يخبرنا أنه لا يضيع عنده جزاء أي عمل أو نية مهما بلغ العمل أو النية أدنى درجة من القِلَّة .
ولم يوجد عند العرب ما يضرب به المثل على الوزن القليل إلا الذَّرَّة ، وهي النملة الدقيقة الصغيرة جِدّاً ، ثم أطلقت الذرة على الهَبَاء الشائع في الجو ، ويمكنك أن ترى هذا الهَبَاء إن جلست في حجرة مظلمة مغلقة ، ثم دخلها شعاع من ضوء ، هنا ترى هذا الضوء وهو يمر من الثقب وكأنه سهم ، وترى مكوِّنات هذا السهم من ذرات الهباء المتحركة الموجودة في الجو ، تلك الذرات التي لا تراها وأنت في الضوء فقط أو في الظلام فقط ، ولكن التناقض بين الضوء والظلام يُبرزها .

وأنت لا تدرك الشيء ولا تحسه لأمرين : إما لتناهيه في الصغر ، وإما لتناهيه في الكبر؛ فلا تحيط به ، وحين تقدم العلم التطبيقي اخترعوا المَجَاهر التي تُكبِّر الشيء المتناهي في الصغر آلاف ، أو ملايين المرات .
وأنت لو وضعت جلدك تحت عدسة المجهر فسترى فجوات وكأنها آبار لم تكن تراها أو تحسها من قبل؛ لأنها بلغت من الدقة والصِّغر بحيث لا تستطيع عيناك أن تدركها ، فإن رأيتها بالمجهر كَبُرَت فترى فجوات وتعاريج وعُلُوّاً وانخفاظاً مهما كان الجلد الذي تراه تحت المجهر ناعماً .
وكذلك أنت لا تقدر على إدراك الشيء الضخم ، وقد تفصل بينك وبين الشيء الكبير مسافة؛ فتراه أصغر من حجمه ، وكلما ابتعد صَغُرَ ، فأنت إذا رأيت مثلاً رجلاً طويلاً على مسافة كبيرة ، فأنت تراه وكأنه طفل صغير ، وكلما اقترتب منه زاد طوله في عينيك .
إذن : لا الضخامة ولا البُعد ولا القِلَّة تمنع من علم الحق سبحانه لأي شيء .

وقد خاطب الحق سبحانه العرب بأصغر ما عرفوه ، وهو الذرة ، أي : النملة الصغيرة .
وأنت إذا وطأتَ نملة في أرض رملية فهي لا تموت ، بل تدخل في فجوات الرمل ، وتجد لنفسها طريقاً إلى سطح الأرض مرة أخرى .
قد بيَّن الحق سبحانه هذه المسألة حين تحدَّث عن سليمان عليه السلام في وادي النمل ، فقال تعالى :
{ قَالَتْ نَمْلَةٌ ياأيها النمل ادخلوا مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ } [النمل : 18] .
لأنهم لا يرونهم؛ لحجمهم المتناهي في الصغر .
وهكذا يعطينا الحق سبحانه بياناً عن كل أمة في الحياة ، وأن من بينهم جنوداً يحرسون بيقظة ، فالنملة قامت بإنذار قومها من سليمان وجنوده ، لأنهم لن يروا النمل الصغير .
إذن : الذَّرُّ إما أن يكون النمل الصغير ، وإما أن يكون الذرَّات الهبائية .
وأراد الله سبحانه أن يضرب لنا مثلاً بإحاطة علمه في أنه لا يعزب عنه مثقال ذرة .
ويعزب ، أي : يغيب ، ويقال : « هذا البئر ماؤه عازب » ، أي قادم من عمق بعيد ، ويحتاج استخراجه إلى دَلْوٍ وحبال طويلة .
ونسمِّي الرجل الذي يبعد عن أهله « عَزَب » .
وقول الحق سبحانه : { وَمَا يَعْزُبُ } . أي : لا يبعد ولا يغيب عنه أصغر شيء ولا أكبر شيء .
يقول سبحانه ذلك؛ ليطمئننا أن كل خاطرة من خواطر الإنسان إنما يشهدها الله ، ويَعْلَمُها ، وهو المُجَازِي عليها .
وإن استطاع إنسان أن يُعمِّي على قضاء الأرض ، فلن يستطيع أن يُعمِّي على قضاء السماء .

ومسألة الذرَّة والصغر يقول عنها الحق سبحانه :
{ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ } [الزلزلة : 78] .
هذا للمتساوِي في الثقل والوزن ، أما إن كان أصغر من الذرة ، فقد ذكره الحق سبحانه هنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها فقال :
{ وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذلك ولا أَكْبَرَ } [يونس : 61] .
وعلى زمن نزول القرآن الكريم لم يكن أحد يعرف أن هناك ما هو أصغر من الذرة ، وكنا جميعاً حتى ما قبل الحرب العالمية الأولى لا نعلم أن هناك شيئاً أصغر من الذرة ، وكان العلماء يعتقدون أن الذرة هي الجزء الذي لا يتجزَّا؛ لأنها أصغر ما يقع عليه البصر ، فضرب الله مثلاً بالأقل في زمن نزول القرآن .
ولما تقدم العلم بعد الحرب العالمية الأولى واخترعت ألمانيا آلةً لتحطيم الذرة قيل عنها : إنها آلة

تحطيم الجوهر الفرد . أي : الشيء الذي لا ينقسم ، وهذه الآلة مكونة من اسطوانتين مثل اسطوانتي عَصَّارة القصب ، والمسافة بين الاسطوانتين لا تكاد تُرَى ، وحين حَطَّمت ألمانيا ما قيل عنه « الجوهر الفرد » تحول إلى ما هو أقل منه ، وتفتَّتت الذرّة .

وقد جعل الحق سبحانه المقياس في الصغر هو الذرة .

وحين اخترعت ألماينا تلك الآلة توجَسّ المتصلون بالدين وخالوا أن يقال : إن الحق سبحانه لم يذكر ما هو أقل من الذرة ، ولكنهم التفتوا إلى الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها ، فقرأوا قول الحق سبحانه :

{ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأرض وَلاَ فِي السمآء وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذلك ولا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ } [يونس : 61] .

و { وَمَا يَعْزُبُ } أي : لا يبعد أو يغيب { عَن رَّبِّكَ } أي : عن عِلْمه { مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ } . أي : وزن ذَرَّة .

وقديماً قلنا : إن البعض يقول : إن « من » قد تكون حرفاً زائداً في اللغة ، كقولنا : « ما جاءني مِنْ رجل » وتعرب كلمة « من » : حرف جر زائد ، و « رجل » : فاعل مرفوع بالضمة الظاهرة التي منع من ظهورها اشتعال المحلّ وهو « اللام » بحركة حرف الجر الزائد .

ولكن في كلام الله لا يوجد حرف زائد ، ف « مِنْ » في قوله : { مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ } . أي : من بداية ما يقال له « مثقال » .

ويقول الحق سبحانه في آية أخرى .

{ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لاَ تَأْتِينَا الساعة قُلْ بلى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الغيب لاَ يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السماوات وَلاَ فِي الأرض } [سبأ : 3] .

وكلمة { وَرَبِّي } مُقْسَمٌ به ، وحرف « الواو » هو حرف الجر ، ولم يأت هنا بالشهادة ، وجاء بالغيب ، ولم يأت بعلم الغيب في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها .

وعالم الشهادة ، تعني : أنه عَالِمٌ بكل ما يشهد ، ويظن البشر أنها غير مُحَاطٍ بها لعظمتها؛ أو لأن الله غيب فلا يرى إلا الغيب ، لكن الحق سبحانه يرى ويعلم الغيب والشهادة .

لقد قال الحق كلمة « مقال ذرة » ثلاث مرات :

مرة حين قال سبحانه : { فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ } [الزلزلة : 7] .

ومرة حين قال هنا :

{ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأرض وَلاَ فِي السمآء } [يونس : 61] .

وجاء ب « من » هنا ليبين أنه لا يغيب عن الله تعالى من بداية ما يقال له « مثقال » .

وقال الحق سبحانه في موضع آخر :

{ لاَ يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السماوات وَلاَ فِي الأرض } [سبأ : 3] .

وجاء بالسموات أولاً ، وجاء في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها بالأرض أولاً ، وهو في الآيتين يتكلم عن علمه للغيب ، فيأتي بمثقال الذرة ويقدِّم السماء ويأتي بها مفردة ، ثم يأتي بما هو أقل من الذرة ويقدِّم الأرض .

وهذا كله من إعجاز أساليب القرآن التي أراد البعض من المستشرقين أن يعترضوا عليها ، وكانت جميع اعتراضاتهم نتيجة لعجزهم عن امتلاك مَلَكة الأداء البياني .

وإنْ عرضنا الرد على تساؤلاتهم نجد أن الحق سبحانه قَدَّم الأرض في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها؛ لأنه سبحانه يتكلم عن أهل الأرض :

{ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ } [يونس : 61] .

وجاء أيضاً بالسماء ، وهي السماء الدنيا التي يراها أهل الأرض .

أما الآية الأخرى فهو سبحانه يقول :

{ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لاَ تَأْتِينَا الساعة قُلْ بلى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الغيب لاَ يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السماوات وَلاَ فِي الأرض } [سبأ : 3] .

والكلام هنا عن الساعة ، وعلمها عند الله تعالى ، ولم تنزل من السموات إلى السماء الدنيا حتى نقول للمكلَّفين في الأرض : قوموا ها هي الساعة .

ولذلك جاء الحديث هنا عن السموات أولاً؛ لأن علم الساعة عند ربِّي ، ولن ينزل إلا بمشيئته سبحانه .

وهكذا جاء كل أسلوب لا بإجمال المعنى ، ولكن بدقة جزئياته ، فتكلم في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها ، وآية سبأ عن العلم والذرَّة ، والسماء والأرض ، وكل آية جاءت الكلمات فيها بتقديم أو تأخير يناسب مجالها .

ثم يقول الحق سبحانه : { إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ } [يونس : 61] .

ولنا أن نلتفت إلى أن الاستثناء هنا لا يُخْرِج ما قبله ، بل كل شيْ مكتوب في الكتاب المبين ، ونحن في الدنيا نجد الإنسان إن كان له دَين عند آخر فهو يحتفظ بالوثائق المكتوبة التي تُسجِّل ما له وما عليه . ولكن ، أيحتفظ الحق سبحانه بأعمالنا ونيَّاتنا مكتبوة كحجة له ، أم حجة لنا؟

إنه سبحانه يعلم أزلاً كل أعمالنا ، ولكنه يُسجِّل لنا بالواقع تلك الأعمال والنيات؛ لنعلم عن أنفسنا ماذا فعلنا؛ لتنقطع حجة من أساء إذا وقع به العقاب .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { ألا إِنَّ أَوْلِيَآءَ الله }

أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (62)

وجاءت هذه الآية بعد كلامه الحق عن نفسه سبحانه بأنه عالم الغيب ، ولا يخفى عليه شيء ، وشاء الله سبحانه بذلك أن يعلّمنا أنه قد يفيض على بعض خلقه فيوضات الإمداد على قَدْر رياضات المرتاضين ، فَهَبْ أن الله قد امتن عليك بنفحة ، فإياك أن تقول إنها من عندك ، بل هي من عند عالم الغيب سبحانه الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء .

وعلى ذلك فلا يقال : إن فلاناً قد عَلِم غيباً لأنه وليٌّ لله ، بل لنقل : « إن فلانا مُعَلَّمُ غَيْبٍ »؛ لأن الغيب ما غاب عن الناس ، وما يغيب عنك ولا يغيب عن غيرك فهو ليس غيباً مطلقاً .

ومثال ذلك : الرجل الذي سُرق منه شيء ، هو لا يعرف أين يوجد الشيء الذي سُرق منه ، ولكنه اللص يعرف ، وكذلك من ساعد اللص وأخفاه وأخفى له المسروقات ، كل هؤلاء يعلمون ، وأيضاً الجن الذين كانوا في نفس مكان السرقة يعلمون ، وهذا ليس غيباً مطلقاً .

وأيضاً أسرار الكون التي كانت غيباً موقوتاً ، مثل جاذبية الأرض ، والسالب والموجب في الكهرباء ، وتلقيح الرياح للسحاب لينزل الماء ، كل ذلك كان غيباً في زمن ما ، ثم شاء الحق سبحانه فحدَّد لكل أمرٍ منها ميعادَ كشفٍ ، فصارت أموراً مشهورة .

وقد شاء الحق سبحانه ذلك؛ ليعمل الإنسان ويجتهد ليكشف أسرار الكون .

ومن العجيب أن الباحث قد يعمل من أجل كشف معين ، فيصادف كشفاً آخر؛ لأن الله تعالى قد أذن لذلك الكشف الذي كان غيباً أن يولد ، وإن لم يبحث عنه أهل الأرض .

ومن اكتشف « البنسلين » رأى العفن الأخضر حول بعض المواد العضوية فبحث عن أسرار ذلك ، واكتشف « البنسلين » .

و « أرشميدس » الذي اكتشف قانون الطفو ، واستفادت منه صناعات السفن والغواصات ، وكل ما يسير في البحر ، وقد اكتشاف قانون الطفو صدفة .

إذن : ففي الكون غيب قد يصير مَشْهَداً ، إما بمقدِّمات يتابعها خَلْقُ الله بالبحث ، وإما أن تأتي صدفة في أثناء أي بحث عن شيء آخر .

ومثال ذلك : عصر البخار الذي بدأ من رجل رأى إناء مُغَطّى يغلي فيه الماء ، فضل غطاء الإناء يرتفع ليُخرج بعضاً من البخار ، وانتبه الرجل إلى أن البخار يمكن أن يتحول إلى طاقة تجرّ العربات التي تسير على عَجَل ، وهكذا جاء عصر البخار .

إذن : فميلاد بعض من أسرار الكون كان تنبيهاً من الله تعالى لأحد عباده لكي يتأمل؛ ليكتشف سِرّاً من تلك الأسرار .

وأغلب أسرار الكون تم اكتشافها صدفة ، لنفهم أن عطاء الله بميلادها دون مقدمات من الخَلْق أكثر مما وُصِل إليه بالعطاء من مقدمات الخلق .

ولذلك تجد التعبير الأدائي في القرآن عن لويَ الغيب ، تعبيراً دقيقاً لنفهم أن هناك غيباً عن

الخلق جميعاً وليست له مقدمات ، ولا يشاء الله سبحانه له ميلاداً ، واستأثر الله بعلمه؛ فلا يعلمه إلا هو سبحانه .

يقول الحق سبحانه :

{ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَآءَ } [البقرة : 255] .

هذا هو الغيب الذي يكشفه الله سبحانه لهم ، إما بالمقدمات ، أو بالصدفة ، وقد نسب المشيئة له سبحانه ، والإحاطة من البشر ، وهذا هو غيب الابتكارات .

أما الغيب الآخر الذي لا يعلمه أحد إلا هو سبحانه ولا يُجَلِّيه إلا الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيقول الحق عنه :

{ عَالِمُ الغيب فَلاَ يُظْهِرُ على غَيْبِهِ أَحَداً * إِلاَّ مَنِ ارتضى مِن رَّسُولٍ } [الجن : 2627] .

إذن : فالحق سبحانه يفيض من غيبه الذاتي على بعض خَلْقه ، والقرآن الكريم فيه الكثير من الغيب ، وأفاضة الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم ، وتحققت الأحداث كما جاءت في القرآن .

والحق سبحانه يهب بعضاً من خلقه بعضاً من فيوضاته ، وقد أعطى الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بعضاً من الهِبَات وحدَّد من يعطيه بعضاً من الغيب :

{ إِلاَّ مَنِ ارتضى مِن رَّسُولٍ } [الجن : 27] .

وهي ليست للحصر؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم أسوة ، وقال فيه الحق سبحانه :

{ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ الله أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ الله واليوم الآخر وَذَكَرَ الله كَثِيراً } [الأحزاب : 21] .

ومن يعمل بعمل الرسول صلى الله عليه وسلم ويقتدي به؛ يهبه الله تعالى هِبةً يراها الناس فيعرفون أن مَنْ يتّبع الرسول صلى الله عليه وسلم كقدوة يعطيه الله سبحانه الهبات النوارنية ، ولكن هذه الهِبَة ليست وظيفة ، وليست (دُكَاناً) للغيب ، بل هي مِنْ عطاءات الله تعالى .

وانظر إلى دقة القرآن حين يقول :

{ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغيب لاَ يَعْلَمُهَآ إِلاَّ هُوَ } [الأنعام : 59] .

أي : أنه سبحانه لم يُعْطِ مفتاح الغيب لأحد ، والوليّ من أولياء الله إنما يأخذ الهبة منه سبحانه ، لكن مفتاح الغيب هو عند الله وحده .

وعندما نتأمل قول الحق سبحانه :

{ ألا إِنَّ أَوْلِيَآءَ الله لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ } [يونس : 62] .

نجد أن كلمة « وليّ » من وَلِيَهُ ، يليه ، أي : قريبٌ منه ، وهو أول مَفزَع يفزع إليه إن جاءه أمر

يحتاج فيه إلى معاونة من غيره ، وإن احتاج إلى نصرة فهو ينصره ، وخيره يفيض على مَنْ والاه .
ومَنْ يقْرُب عالماً يأخذ بعضاً من العلم ، ومَنْ يقرب قويّاً يأخذ بعضاً من القوة ، ومَنْ يقرب غنيّاً ، إن احتاج ، فالغني يعطيه ولو قَرْضاً .
إذن : فالوَاليّ هو القريب الناصر المُعِين المُوالِي .
وتطلق « الولي » مرةً لله سبحانه ، وقد قال القرآن :
{ فالله هُوَ الولي } [الشورى : 9] .
لأنه سبحانه القريب من كل خَلْقه ، عكس الخَلْق الذين يقتربون من بعضهم أو يتباعدون حسب إمكاناتهم ، أما الله سبحانه وتعالى فهو الوليّ المُطلَق ، فقُربه مِنْ خَلْقٍ لا يبعده عن خَلقٍ ، ولا يشغله شيء عن شيء ، فهو الوليّ الحقُّ ، وهو سبحانه يقول :

{ هُنَالِكَ الولاية لِلَّهِ الحق } [الكهف : 44] .
فمن يحتاج إلى الولاية الحقَّة فَليلجأ إلى الله ، وهو سبحانه يُفيض على الأوفياء لمنهجه من الولاية .
ونجد التعبير القرآني الدقيق :
{ الله وَلِيُّ الذين آمَنُواْ } [البقرة : 257] .
فهو سبحانه يقرب من عباده المؤمنين ، والمؤمنون يقربون من الله تعالى في قول الحق سبحانه :
{ ألا إِنَّ أَوْلِيَآءَ الله } [يونس : 62] .
إذن : فالولاية المطلقة لله ، وإنْ قُيِّدت بشيء مضافٍ ومضافٍ إليه ، فهي مرة تكون من المؤمنين لله ، ومرة تكون من الله للمؤمنين .
والحق سبحانه لا تحكمه قوانين؛ فبطَلاقة قُدرته سبحانه إذا رأى في إنسانٍ ما خَصْلة من خير ، فيكرمه أولاً ، فيصير هذا العبد طائعاً من بعد ذلك .
وتسمع من يقول : إن فلاناً قد خُطف من المعصية أي : أنه كان عاصياً ، ثم أحب الله تعالى خَصْلة خيرٍ فيه ، فهداه .
ومثال ذلك : الرجل الذي سقى كلباً ، بل احتال ليسقيه بأن ملأ خُفَّه بالماء من البئر ليروي ظمأ الكلب؛ فغفر الله سبحانه وتعالى له سيئاته .
هذا الرجل لم يكن ليروي الكلب نفاقاً للكلب ، ولكن لأن الرجل شعر بالعطف على كائن ذي كبد رطبة .
إذن : فليست المسائل عند الله تعالى آلية أو ميكانيكية ، بل طلاقة قُدرته سبحانه تقدّر كل موقف كما قدَّرتْ اختلاف الخَلْق ، ولذلك قال سبحانه :
{ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السماوات والأرض واختلاف أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ } [الروم : 22] .

فليس عند الله تعالى قالب يضع فيه الخلق ، بل سبحانه يخلق الطويل والقصير والسمين والرفيع والأشقر والزنجي ، وهذا بعضٌ من طلاقة قدرته سبحانه ، وبرحمته سبحانه قرب من خَلْقه الذين آمنوا أولاً ، وقربه سبحانه منهم : { يُخْرِجُهُمْ مِّنَ الظلمات إِلَى النور } [البقرة : 257] .

فمن يتبع المنهج يأخذ النور ، فإذا علم الله سبحانه عمله بمنهجه فهو سبحانه يُقرّبه قُرْباً أكثر فيعطيه هبةً اصطفائية يراها الذين حوله وقد يقتدون به .

والحق سبحانه يريد من المؤمن الأدب مع خَلْق الله ، فإذا علم سيئةً عن إنسان فعليه أن يسترها ، لأن الحق سبحانه يحب السَّتْر ويحب من يَستر .

وأنت قد تكره إنساناً تعلم عنه سيئةً ما ، وقد تكره كل حسنة من حسناته ، فيريد الله ألاّ يحرمك من حسنات مَنْ له سيئة فيسترها عنك لتأخذ بعضاً من حسناته ، ويأمرك الحق ألاّ تحتقر هذا المسيء؛ لأنه قد يتمتع بخَصْلة خير واحدة ، فيكرمه الله سبحانه من أجلها أولاً ، ثم يطيعه هذا العبد ثانياً .

والحق سبحانه يقول في الحديث القدسي :

« يا ابن آدم أنا لك محبٌّ فبحقّي عليك كن لي مُحِبّاً » .

ويقول الله سبحانه في حديث قدسي :

« أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه إذا ذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإنْ ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم » .

وفي هذا القول يضع مسئولية القُرب من الله في يد الخَلْق ، ويضيف الحق سبحانه :

« وإن تقرَّب إليَّ شبراً تقرَّبتُ إليه ذراعاً ، وإن تقرب إليَّ ذراعاً تقربت إليه باعاً ، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة » .

ومن يريد أن يأتيه الله هرولة فليذهب إلى الله ماشياً .

إذن : فالإيمان بالله يسلِّم المؤمن مفتاح القرب من الله .

ومن يكن من أصحاب الخُلُق الملتزمين بالمنهج يُقرّبْه الله منه أكثر وأكثر .

إذن : فمن الناس مَنْ يصل بطاعة الله إلى كرامة الله ، ويدق على باب الحق ، فينفتح له الباب ، ومن الناس مَنْ يصل بكرامة الله أولاً إلى طاعة الله ثانياً .

ولله المثل الأعلى : أنت كواحد من البشر قد يدق بابك إنسانٌ يحتاج إلى لقمة أو صدقة فتعطيه ، وهناك إنسان آخر تحب أنت أن تعطيه ، وعندما تعطيه يطيعك من منطلق الإحسان إليه ، فما بالنا بعطاء الحق لعباده؟

إذن : فمنهم مَنْ يصل بكرامة الله إلى طاعة الله ، ومنهم من يصل بطاعة الله إلى كرامة الله ، وحين يصل الإنسان إلى القرب من الله ، ويقرب الله من العبد ، هنا يكون العبد في معية الله ، وتفيض

عليه هذه المعية كثيراً .

وقد قال أبو العلاء المعري لمحبوبته :

أنت الحبيبُ ولكني أعوذ بِهِ ... من أن أكون حبيباً غير محبوبِ

أي : أنه يستعيذ بالله من أن يكون محباً لمن يرفض حبّه ، ولكن محبة الله تختلف عن محبة البشر ، وسبحانه لا يعامل محبيه كذلك ، فأنت حين تحب الله يقرّبك أكثر وأكثر ، ويسمَّي ذلك « المصافاة » ، فإذا أفاض الله سبحانه على بعض خَلْقه هِباتٍ من الكرامات فعلى العباد الذين اختصهم الحق سبحانه بذلك أن يُحسنوا الأدب مع الله ، وألا يتبجَّح واحد منهم متفاخراً بعطاء الله سبحانه له .

فالمباهاة بالكرامات تضيعها ، ويسلبها الحق سبحانه من الذي يتبجَّح بها ويتفاخر ويتباهى ، فمن تظاهر بالكرامة ليس له كرامة .

إذن : فالحق سبحانه يريد أن يكون العبد دائماً في معيّيته ، وهو سبحانه الذي بدأ وبيَّن بالآية الواضحة أنه سبحانه وليّ المؤمنين؛ ولذلك سيخرجهم من الظلمات إلى النور . فقال :

{ الله وَلِيُّ الذين آمَنُواْ يُخْرِجُهُمْ مِّنَ الظلمات إِلَى النور } [البقرة : 257] .

ونحن نعلم أنه سبحانه يأتي بالمحسَّات ليبيّن المعنويات؛ لأن إلْفَ الإنسان أولاً بالمحسَّات ، وهي أقرب إلى تقريب المراد ، فحين يضرب الحق سبحانه لنا المثل بالكفر والإيمان ، يصف الكفر بالظلمة ، والإيمان بالنور ، إنما يريد الحق أن يجعل لك المراد واضحاً موصولاً بمفهومك .

وإذا كنا نتجنَّب معاطب الظلمات الحسية ، أليس الأجدر بها أيضاً أن نتجنب معاطب الظلمات المعنوية ، إن الظلمة الحسية تستر الأشياء فلا نرى الأشياء ، وقد نرتطم بأضعف شيءٍ فنحطِّمه أو نصطدم بأقوى شيء فيحطمنا .

إذن : فَحَجْب المرائي يسبِّب الكوارث ، أما حين يأتي النور؛ فهو يبيّن ملامح الأشياء فتسير على هُدىً وأنت مطمئن .

وهَبْ أنك في مكان مظلم ويوجد شيء آخر في مكان منير ، فأنت في الظلمة ترى مَنْ يوجد في النور ، وهذه مسألة لم يفطن لتفسيرها علماء ما قبل الإسلام ، حيث كانوا يظنون أن الرؤية إنما تحدث من انتقال شعاع من عين الرائي إلى المرئيّ ، حتى جاء « الحسن بن الهيثم » العالم الإسلامي واكتشف قوانين الضوء ، وكشف خطأ ما سبقه من نظريات ، وحدَّد أن المرئي هو الذي يصدر منه شعاع إلى الرائي ، وإذا ما كان المرئي في ظُلمةٍ فلن يراه أحد ، ولو كان هناك شعاع يخرج من الرائي؛ لرأى الإنسان في الظلام .

إذن : أول ولاية من الله للمؤمنين أنه سبحانه يخرجهم من الظلمات إلى النور ، والظلمة المعنوية أقوى من الظلمة الحسية ، وكذلك النور المعنوي أقوى من النور الحسّي ، فعالَمُ القيم قد يكون

أقوى من عالم الحس؛ لأن الجبر في عالم الحسّ يمكن أن يحدث ، أما في عالم القيم فهو أمر شاق؛ ولذلك قال الشاعر :

جراحاتُ السنانِ لها التئامُ ... ولا يلتامُ ما جَرَحَ اللسانُ

ويقول الحق سبحانه في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها :

{ ألا إِنَّ أَوْلِيَآءَ الله لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ } [يونس : 62] .

و « ألا » كما أوضحنا من قبل أداة تنبيه من المتكلَم للمخاطب حتى لا تفوته كلمة واحدة مما يجيء في الخطاب .

وقوله سبحانه : { لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ } [يونس : 62] . أي : لا خوف عليهم من غيرهم { وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ } [يونس : 62] أي : أن الحزن لن يأتي منهم ، والخوف يكون من توقع شيء ضار لم يقع حتى الآن ، ولكنه قد يحدث في المستقبل .

وفي حياتنا اليومية نجد الأب يمسك بيد ابنه في الزحام خوفاً عليه ، وقد ترى وليّاً من أولياء الله وقد أصيب ابنه في حادث أو مات الابن ، تجد الوليّ في ثبات لأنه يعلم حكمة الله في قضائه ، فلا تتطوع أنت بالخوف عليه .

إذن : فالخوف يأتي من المستقبل ، وهو أمر مرتقب ، أما الحزن فهو إحساس يحدث على شيء فات .

والحق سبحانه يقول :

{ لِّكَيْلاَ تَأْسَوْاْ على مَا فَاتَكُمْ } [الحديد : 23] .

والحزن على ما فات عبث؛ لأن ما فات لا يعود .

وأولياء الله تعالى لا خوف عليهم؛ لأنهم دائماً بصدد معرفة حكمة الله ، ومَنْ لا يعرف حكمة الله تعالى في الأشياء قد يقول : « إن فلاناً هذا مسكين »؛ لأنك لا تعرف ماذا جرى له .

وأما الحزن فهو مشاعر قلبية يريد الله من المؤمن أن تمر على باله .

وقد قال صلى الله عليه وسلم حين افتقد ابنه : « وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون » ولكنه حزن الوَرَع الذي يتجلَّى في قوله صلى الله عليه وسلم :

« إن العين تدمع ، والقلب يحزن ، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا » .

وبين الله سبحانه لنا شروط الولاية فيقول : { الذين آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ }

الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (63)

والإيمان هو الأمر الاعتقادي الأول الذي يُبنى عليه كل عمل ، ويقتضي تنفيذ منهج الله ، الأمر في الأمر ، والنهي في النهي ، والإباحة في الإباحة .

والتقوى كما علمنا هي اتقاء صفات الجلال في اله تعالى ، وأيضاً اتقاء النار ، وزاد رسول الله

صلى الله عليه وسلم في صفات من تصدر عنه التقوى؛ لأنها مراحل ، « فقال صلى الله عليه وسلم يصف المتقين :

» هم قوم تحابُّوا بروح الله على غير أرحام بينهم ، ولا أموال يتعاطونها ، فوالله إن وجوههم لنور ، وإنهم لَعلَى نور « .

وقد سئُل عمر رضي الله عنه عن المتقين فقال : » الواحد منهم يزيدك النظر إليه قُرباً من الله « .

وكأنه رضي الله عنه يشرح لنا قول الحق سبحانه :

{ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السجود } [الفتح : 29] .

وساعة ترى المتقي لله تُسَرُّ وتفرح به ، ولا تعرف مصدر هذا السرور إلا حين يقال لك : إنه ملتزم بتقوى الله ، وهذا السرور يلفتك إلى أن تقلده؛ لأن رؤياه تذكِّرك بالخشوع ، والخضوع ، والسكينة ، ورقَّة السَّمْت ، وانبساط الأسارير .

والواحد من هؤلاء ينظر إلى الكون ولا يجد في هذا الكون أي خَلَل ، بل يرى كل شيء في موضعه تماماً ، ولا يرى أي قُبح في الوجود ، وحتى حين يصادف القبح ، فهو يقول : إن هذا القبح يبيّن لنا الحُسْن ، ولولا وجود الباطل ومتاعبه لما عشق الناسُ الحقّ ، وهكذا يصير الباطل من جنود الحق .

إن وجود الشرّ يدفع الناس إلى الخير؛ ولذلك يقال : كُنْ جميلاً في دينك تَرَ الوجود جميلاً؛ لأنك حين ترى الأشياء وتقبل قدر الله فيها ، هنا يفيض الله عليك بهبات من الفيض الأعلى ، وكلما تقرَّبت إلى الله زاد اقتراب الله سبحانه منك ، ويفيض عليك من الحكمة وأسرار الخلق .

ومثال ذلك : العبد الصالح الذي آتاه الله من عنده رحمة وعلَّمه من لدنه علماً ، هذا العبد يعلّم موسى عليه السلام ، فحين قارن بين خَرْق العبد الصالح لسفينة سليمة ، ولم يكن يعلم أن هناك حاكماً ظالماً يأخذ كل سفينة غَصْباً؛ ولذلك ناقش موسى العبد الصالح ، وتساءل : كيف تخرق سفينة سليمة؟ وهنا بيَّن له العبد الصالح أن الملك ا لظالم حين يجد السفينة مخروقة فلن يأخذها ، وهي سفينة يملكها مساكين .

وحين قَتل العبدُ الصالح غلاماً ، كان هذا الفعل في نظر موسى جريمة ، ولم يعلم سيدنا موسى ما علمه العبد الصالح أن هذا الولد سوف يسيء إلى أهله ، وأمر الله العبد الصالح بقتله قبل البلوغ حتى لا يفتن أهله ، وسوف يدخل هذا الولد الجنة ويصير من دعاميص الجنة .

ويقال : إن من يموت من قبل البلوغ ليس له مسكن محدّد في الجنة ، بل يذهب حيث يشاء؛ فهو كالطفل الصغير الذي يدخل قصراً ، ولا يطيق البقاء في مكان واحد ، بل يذهب هنا وهناك ، وقد يذهب إلى حيث سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أو أبو بكر الصديق ، أو عند أي صحابي جليل .

وأيضاً حين دخل سيدنا موسى عليه السلام مع العبد الصالح إلى قرية واستطعما أهلها فرفضوا أن يطعموهما وطلب الطعام . هو أصدق ألوان السؤال فأبى أهل القرية أن يطعموهما ، وهذا دليل الخسَّة واللؤم؛ فأقام العبد الصالح الجدار الآيل للسقوط في تلك القرية .

ولم يكن سيدنا موسى عليه السلام قد علم ما علمه العبدُ الصالح من أن رجلاً صالحاً قد مات وترك لأولاده كنزاً تحت هذا الجدار ، وبناه بناية موقوتة بزمن بلوغ الأبناء لسن الرشد؛ فيقع الجدار ليحد الأبناء ما ترك لهم والدهم من كنز ، ولا يجرؤ أهل القرية اللئام على السطو عليه .

إذن : هذه هباتٌ من فيض الحق سبحانه على عباده الصالحين ، وهو سبحانه وتعالى يجعل مَثَل هؤلاء العباد كالصواري المنصوبة التي تهدي الناس ، أو كالفنار الذي يهدي السفن في الظلمة .

ويقول الحق سبحانه : { لَهُمُ البشرى فِي الحياة الدنيا }

لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (64)

والبُشرى : من البِشْر والبشارة والتبشير ، وكلها مأخوذة من البشرة ، وهي الجلد؛ لأن أي انفعال في باطن النفس الإنسانية إنما ينضح على البشرة ، فإذا جئت للإنسان بأمر سارٍّ تجد أثر هذا السرور على أساريره ، وإن جئت للإنسان بخبر سيِّء تجد الكدر وقد ظهر على بشرته ، فالبشرة هي أول منفعل بالأحداث السارة أو المؤلمة .

وحين يقال : « بشرى » فهذا يعني كلاماً إذا سمعه السامع يظهر على بشرته إشراق وسرور؛ لأنه كلام مبشِّر بخير .

وحين « سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البشرى ، قال : » إنها الرؤية الصالحة تُرى للمؤمن أو يراها « ، وقال صلى الله عليه وسلم : » إنها جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة « .

وقد أوحي للنبي صلى الله عليه وسلم بالرؤيا ستة أشهر ، وأوحي إليه في اليقظة ثلاثة وعشرين عاماً ، فإذا نسبت الستة أشهر إلى الثلاثة والعشرين عاماً ، تجد أن الستة أشهر تمثل جزءاً من ستة وأربعين جزءاً .

والرؤيا ليست هي الحُلْم؛ لأن الرؤيا هي شيء لم يشغل عقلك نهاراً ، وليس للشيطان فيه دخل .

والمثل العامي يقول : » الجوعان يحلم بسوق العيش « فإن كان ما يراه الإنسان في أثناء النوم له علاقة بأمر يشغله ، فهذا هو الحلم ، وليس للرؤيا ، وإن كان ما يراه الإنسان في أثناء النوم شيئاً يخالف منهج الله ، فهذه قذفة من الشيطان .

إذن : فهناك فارق بين الرؤيا والحلم ، وأضغاث الأحلام .

البشرى إذن هي الرؤيا الصالحة ، أو هي المقدمات التي تُشْعر خَلْق الله بهم فتتجه قلوب الناس إلى هؤلاء الأولياء ، وقد تجد واحداً أحبه الله تعالى في السماء ، » فيقول الله سبحانه وتعالى

لجبريل عليه السلام : « إني أحب فلاناً فأحبَّهُ . قال : فيحبه جبريل ، ثم ينادي جبريل في السماء فيقول : إن الله يَحب فلاناً فأحِبُّوه ، فيحبه أهل السماء . قال : ثم يُوضع له القبول في الأرض » .

وساعة تراه مكتوباً له القبول ، فالكل يُجمعون على أن في رؤيتهم لهذا المحبوب من السماء سَمْتاً طيباً ، وهذه هي البشرى .

أو أن البشرى تأتي لحظة أن يأتي مَلَكُ الموت ، فيُلْقي عليه السلام ، ويشعر أن الموت مسألة طبيعية ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

{ الذين تَتَوَفَّاهُمُ الملائكة طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادخلوا الجنة بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } [النحل : 32] .

أو ساعة يبيضُّ الوجه حين يأخذ الإنسان من هؤلاء كتابه بيمينه ، وهذه بشرى في الدنيا وفي الآخرة .

والحق سبحانه يقول : { إِنَّ الذين قَالُواْ رَبُّنَا الله ثُمَّ استقاموا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الملائكة أَلاَّ تَخَافُواْ وَلاَ تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بالجنة التي كُنتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي الحياة الدنيا وَفِي الآخرة وَلَكُمْ فِيهَا مَا تشتهي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ }

[فصلت : 3031] .

إذن : فهؤلاء الأولياء يتلقون من فيوضات الله عليهم بواسطة الملائكة ويتميزون عن غيرهم؛ لأن الواحد منهم قد يفرض على نفسه نوافل فوق الفروض؛ لأن الفروض هي أقل القليل من التكاليف .

وقد يرى واحد منهم أن القيام بالفروض لا تناسب مع حبه لله تعالى؛ فيزيد من جنسها على ما فرض الله ، ويصلّي بدلاً من خمسة فروض عشرة أخرى نوافل ، أو يصوم مع رمضان شهراً أو اثنين ، أو يصوم يومي الاثني والخميس من كل أسبوع .

وهذا دليل على أنه وجد أن الفروض قليلة بالنسبة لدرجة حبه لله تعالى ، وأن الله تعالى يستحق أكثر من ذلك ، وهذا معناه أن مثل هذا العبد قد دخل في مقام الود مع الله تعالى ، وهنا يفيض الله سبحانه وتعالى عليه بما يشاء ، وينال من رضوان الله ما جاء في الحديث القدسي :

« من عادى لي وليّاً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضته عليه ، وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورِجْلَهُ التي يمشي عليها ، وإن سألني لأعطينَّه ، ولئن استعاذني لأعيذنَّه ، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن ، يكره الموت وأنا أكره مساءته » .

وهكذا تختلف المقاييس بين عبد يحب الله تعالى ويؤدي فوق ما عليه ، وعبد آخر يقوم بالتكاليف وحدها .

ويُنهي الحق سبحانه الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها بقوله :

{ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ الله ذلك هُوَ الفوز العظيم } [يونس : 64] .

وما دام الحق سبحانه قد قال : { لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ الله } فلن تجد أحداً قادراً على ذلك ، كما أن الخلق مقهورون كلهم يوم القيامة؛ ومَنْ كان يبيح له الله تعالى أن يملك شيئاً في الدنيا لم يعد مالكاً لشيء ، بدليل أن الكل سيسمع قول الحق سبحانه :

{ لِّمَنِ الملك اليوم لِلَّهِ الواحد القهار } [غافر : 16] .

وما دام الحق سبحانه قد وعد ببشرى الدنيا وبشرى الآخرة ، فلا تبديل لما حكم به الله ، فلا شيء يتأبَّى على حكم الله تعالى ، والوعد بالبُشريات في الدنيا وفي الآخرة فوز عظيم مؤكد .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { وَلاَ يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ العزة للَّهِ جَمِيعاً }

وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (65)

تجيء هذه الآية بعد أن بيَّن الله سبحانه وتعالى اعتراضات الكفار ، وإيذاءهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتكذيبهم له وقولهم فيه ما قالوه ، وفيما قالوه ما أحزنه صلى الله عليه وسلم ؛ لذلك طلب منه الحق سبحانه ألاَّ ينفعل لما قالوه انفعال الحزين ، فقد قالوا : ساحر ، وكاذب ، ومُفْتَرٍ ، ومجنون ، وقد نفى عنه الحق سبحانه كل ما قالوه ، فلو كان محمد صلى عليه وسلم ساحراً فلماذا لم يسحرهم هم أيضاً ، وهل للمسحور إرادة مع الساحر؟!

إذن : كَذَّبَ قولَهم في أنه صلى الله عليه وسلم سحر عبيدَهم وأولادَهم .

وقالوا : مجنون ، ولم يكن في سلوكه صلى الله عليه وسلم أدنى أثر من جنون ، وفنَّد أقوالهم هذه بقوله سبحانه :

{ ن والقلم وَمَا يَسْطُرُونَ * مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ * وَإِنَّ لَكَ لأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ * وَإِنَّكَ لعلى خُلُقٍ عَظِيمٍ } [القلم : 14] .

فالمجنون لا يكون على خُلُق عظيم أبداً .

وحين قالوا : إنه افترى القرآن ، تحداهم أن يأتوا بسورة من مثل ما قال ، وعجزوا عن ذلك رغم أنهم مرتاضون للشعر والأدب والبيان .

وقول الحق سبحانه :

{ وَلاَ يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ } [يونس : 65] لأن أقوالهم لا حصيلة لها من الوقوف أمام الدعوة؛ لأن { العزة للَّهِ جَمِيعاً } [يونس : 65] والعزة هي القوة ، والغلبة ، ويقال : هذا الشيء عزيز ، أي : لا يوجد مثله ، وهو سبحانه العزيز المُطْلَق؛ لأنه لا إله إلا هو لا يُغلَب ولا يُقهَر .

وتلحظ حين تقرأ هذه الآية وجود حرف « الميم » فوق كلمة { قَوْلُهُمْ } وتعني : ضرورة الوقف هنا .

ولسائل أن يقول :

كيف يلزم الوقف هنا مع أن القرآن الكريم مبنيٌّ على الوصل؛ وآخر حرف في كل سورة تجده مُنوَّناً ، وليس في القرآن ما يُلزم الوقف للقارىء؟

وأقول رَدّاً على هذا التساؤل : إن العلماء حين لاحظوا ضعف مَلَكة اللغة؛ جاءوا بهذا الوقف ليتفهم القارىء الذي لا علم له بالبيان العربي كيف يقرأ هذه الآية ، فهَبْ أن واحداً لا يملك فطنة الأداء ، فينسب { إِنَّ العزة للَّهِ جَمِيعاً } [يونس : 65] إلى { وَلاَ يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ } [يونس : 65] . ويخطىء الفهم ، ويظن معاذ الله أن العزة لله هي أمر يُحزِن النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لذلك جاء العلماء بالوقف هنا لندقِّق القراءة ونُحْسِن الفهم .

ولذلك علينا أن نقرأ { وَلاَ يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ } [يونس : 65] ثم نتوقف قبل أن نتابع القراءة { إِنَّ العزة للَّهِ جَمِيعاً } [يونس :ِ65] ؛ وبهذا نفهم المعنى : يجب ألاَّ تحزن يا محمد؛ لأن أقوالهم لن تغيّر في مجرى حتمية انتصارك عليهم .

ويريد الحق سبحانه هنا أن يطمئن رسوله صلى الله عليه وسلم في أمر محدد ، هو أنه صلى الله عليه وسلم مهمته هي البلاغ فقط ، وليس عليه أن يُلزمهم بالإيمان برسالته والتسليم لمنهجه .

وبيّن له الحق سبحانه : أنهم إذا ما صدُّوا بعد بلاغك ، فلا تحزن مما يقولون؛ فأقوالهم لا يقوم عليها دليل ، ولا تنهض لها حُجَّة ، وقد جاء فيهم قول الحق سبحانه :

{ وَجَحَدُواْ بِهَا واستيقنتهآ أَنفُسُهُمْ } [النمل : 14] .

وأقوالهم لن تقف في سبيل دعوتك ، وسيُتمُّ الله نوره ، ولا يوجد أعز من الله سبحانه وتعالى ، ولن يجير أحد على أحداً ، فهو سبحانه يُجير ولا يُجار عليه .

وإذا كانت العزة هي القهر والغلبة ، وقد تكون عزة حُجّة ، وقد تكون عزة حلْف ، وقد تكون عزة حكمة ، وكل واحد من خلق الله سبحانه قد توجد له عزة مجالٍ ما أو محيط ما ، لكن العزة لله سبحانه شاملة مطلقة في كل محيطٍ وفي كل مجال ، شاملة لكل شيء وأي شيء .

ولماذا لم يأت الحق سبحانه بأسلوب القَصْر في هذه الآية؟

أي : أن تأتي الصفة للموصوف وتنفيها عما عداه؛ كأن نقول : « لزيدٍ مالٌ ليس لغيره » . وإذا قدمنا الجار والمجرور وهو المتعلّق فنقول : « لفلانٍ كذا » ، وهذا يعني ان غير فلانٍ ليس له كذا .

وإنْ قلنا : « فلان له كذا » فيصح أن نقول : « ولفلانٍ كذا ، ولفلانٍ كذا ، ولفلانٍ كذا » .

أما إذا قلت : « لفلان كذا » فمعناها : امتناع أن يكون لغير فلان شيء من مثل ما قلت .

وهنا يقول الحق سبحانه : { إِنَّ العزة للَّهِ جَمِيعاً } [يونس : 65] وجاء بالتأكيد ولم يأت لها بأسلوب القصر الذي يعطي العزة لله سبحانه وينفيها عن غيره؛ لأنه لا يوجد لهذه الآية مناهض ، وهو كلام ابتدائي يخبر به الله سبحانه خبراً كونياً بأن العزة لله جميعاً .

وما دام الحق سبحانه هو الذي يقول ذلك وهو خالق الخلق فلن تأتي قضية كونية تناقضها ، ولو وجدت معاذ الله قضية كونية تناقضها ، فالآية لن تكون صادقة . وهذا لم ولن يحدث أبداً مع آيات الحق سبحانه؛ لأنه هو خالق الكون ، وهو مُنزل الآيات؛ فلا يمكن أن يحدث تناقض أبداً بين الكون وكلام خالق الكون سبحانه وتعالى :

وقد حدث أن ادعى بعضهم العزة لنفسه وقالوا :

{ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى المدينة لَيُخْرِجَنَّ الأعز مِنْهَا الأذل } [المنافقون : 8] .

وكان مغزى قولهم هو ادعاء العزة لأنفسهم ، وادعاء الذلة للمؤمنين .

إذن فالعزة قد ادُّعيت ، وما دامت قد ادعيت فلماذا لم تأت بأسلوب القصر؟

نقول : لا ، لقد شاء الحق سبحانه أن يقول :

{ وَلِلَّهِ العزة وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ } [المنافقون : 8] .

فالعزة لله لا تتعداه ، ولكنه سبحانه شاء أن تكون عزة رسوله صلى الله عليه وسلم وعزة المؤمنين من باطن عزة الله تعالى .

وقول الحق سبحانه هنا :

{ إِنَّ العزة للَّهِ جَمِيعاً } أي : في كل ألوانها هي لله سبحانه وتعالى ، إن كانت عزة حكمه فهو الحكيم ، وإنْ كانت عزة القبض على الأمور فهو العزيز ، وإن كانت عزة الحلْم فهو الحليم ، وإنْ كانت عزة الغضب والانتقام فهو المنتقم الجبّار ، وكلُّ ألوان العزة لله تعالى :

{ هُوَ السميع العليم } [يونس : 65] .

وما دامت العزة هي الغلبة والقهر ، فالله سبحانه يسمع من يستحق أن يُقهر منه ، وما دام الأمر فيه قول فهو يجيء بالسمع ، وإنْ كان فيه فعل ، فهو يأتي بصفة العليم ، فهو السميع لما يُقال والعليم بما يُفعل .

ونحن نعلم أن المنهيَّ عنه هنا هو : { وَلاَ يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ } [يونس : 65] .

لذلك كان المناسب أن يقال : { هُوَ السميع } أولاً .

ويريد الحق سبحانه أن يدلّل على هذه القضية دلالة كونية في آيات الله تعالى في الكون ، وليس في الوجود أو الكون مَنْ يقف أمامه سبحانه؛ لذلك لا بد أن نلحظ أن قانون « العزة لله جميعاً » محكوم بأن لله تعالى ما في السموات وما في الأرض .

لذلك يقول الحق سبحانه بعد ذلك : { ألا إِنَّ للَّهِ مَن فِي السماوات }

أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (66)

فالحق سبحانه إذن لن يَخرج كائنٌ مَنْ كان عن ملكه .

وساعة تجد الحق سبحانه يبيّن الشيء وضده ، فهو يأتي بالقانون والإطار { للَّهِ ما فِي السماوات وَمَا فِي الأرض } [البقرة : 284] .

ومثال ذلك : حين تبع قوم فرعون موسى عليه السلام وقومه ، قال أصحاب موسى : { إِنَّا لَمُدْرَكُونَ } [الشعراء : 61] .

قالوا ذلك؛ لأنهم رأوا البحر أمامهم ، فشاء الحق سبحانه أن يبيّن لهم أن البحر لن يعوق مشيئته سبحانه ، ولم ينفلت البحر من قوة الله تعالى؛ لأن لله ما في السموات وما في الأرض ، والبحر منها؛ لذلك انفلق البحر ، فكان فِرْقٍ كالطود العظيم .

فلا شيء يخرج عن مُلكه سبحانه تعالى؛ ولذلك يأتي الحق سبحانه بالنقيض ، فبعد أن جعل الحق سبحانه لهم مسلكاً في البحر ، وكل فرْق كالطود العظيم ، ويظل البحر مفلوقاً فيدخل قوم فرعون فيه .

والحق سبحانه يقول لموسى عليه السلام : { واترك البحر رَهْواً إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ } [الدخان : 24] .

فيأمر الحق سبحانه البحر أن يعود كما كان؛ فيغرق قوم فرعون بعد أن أنجى الله سبحانه وتعالى موسى عليه السلام ومن معه ، فأهلك وأنجى بالشيء الواحد؛ لأنه سبحانه له ما في السموات وما في الأرض ، وليبيّن الحق سبحانه لنا أنه لا شيء في كون الله تعالى يقوم مقام عزته سبحانه أبداً .

وهناك مثال آخر : حين يقول نوح عليه السلام لابنه : { يابني اركب مَّعَنَا } [هود : 42] .

فيردّ الابن قائلاً :

{ سآوي إلى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ المآء } [هود : 43] .

وهذا كلام صحيح من ناحية أن الجبل يعلو مستواه عن مستوى المياه ، ولكن ابن نوح نسي أن لله تعالى جنداً آخر هو الموج؛ فكان من المغرَقين .

صحيح أن ابن نوح فطن إلى أن السفينة سوف تستوي على « الجدوى » ، وأن من يركبها لن يغرق ، وكذلك من يأوي إلى الجبل العالي ، لكنه لم يفطن إلى الموج الذي حال بينه وبين الجبل؛ فكان من المغرقين .

إذن : فكل كائن هو مؤتمر بأمر الله تعالى ، وما دامت العزة لله جميعاً فمصداقها أن لله تعالى ما في السموات وما في الأرض ، وليس هناك كائن في الوجود يتأبَّى على أن يكون جندياً من جنود

الحق سبحانه ، فيكون جندياً للإهلاك ، وجندياً للنجاة في نفس الوقت .

وقول الحق سبحانه هنا : (ألا) نعلم من أن (ألا) أداة تنبيه للسامع فلا يؤخذ على غرَّة ولا تفوته حكمة من حكم الكلام ، وينتبه إلى أن هناك خطاباً عليه أن يجمع عقله كله ليحسن استقبال ما في هذا الخطاب .

ويقول الحق سبحانه :

{ ألا إِنَّ للَّهِ مَن فِي السماوات وَمَنْ فِي الأرض } [يونس : 66] .

ولقائل أن يقول : هناك كثير من الكائنات غير العاقلة ، وقوله هنا { مَن } مقصود به الكائنات العاقلة؟

ولنا أن نتساءل للرَّدِّ على هذا القائل :

وهل هناك أي شيء في الوجود لا يفهم عن الله؟

طبعاً لا ، والله سبحانه وتعالى هو القائل عن الأرض :

{ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أوحى لَهَا } [الزلزلة : 45] .

إذن : فكل الكائنات في عُرف الاستقبال عن الله سبحانه سواء ب « مَنْ » أو ب « ما » ، وكل من في الوجود يفهم عن الله .

ونلحظ أن الحق سبحانه يأتي مرة بالقول : { وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السماوات والأرض طَوْعاً وَكَرْهاً } [آل عمران : 83] .

ومرة يقول الحق سبحانه : { ألا إِنَّ للَّهِ مَن فِي السماوات وَمَنْ فِي الأرض } [يونس : 66] .

كما جاء في هذه الآية التي نحن بصددها الآن .

شاء الحق سبحانه ذلك ، لأن هناك جنساً في الوجود يوجد في السماء ويوجد في الأرض ، وهم الملائكة المُدَبِّرَات أمْراً ، هؤلاء هم المقصودون بأن لله ما في السموات والأرض .

ولله سبحانه وتعالى أيضاً جنس في السموات لا يوجد في الأرض وهم الملائكة المهيمون العالين ، وليس لهم وجود على الأرض ، كما أن لله تعالى جنوداً في الأرض ليس لهم وجود في السماء ، فإن لا حظنا الملائكة المدبرات أمراً ، نجد أن قول الحق سبحانه :

{ للَّهِ ما فِي السماوات وَمَا فِي الأرض } [البقرة : 284] .

مناسب لها .

وإن لا حظنا أن لله ملائكة مهيمين في السماء ، وجنوداً في الأرض لا علاقة لهم بالسماء يكون مناسباً لذلك قول الحق سبحانه :

{ ألا إِنَّ للَّهِ مَن فِي السماوات وَمَنْ فِي الأرض } [يونس : 66] .

وما دام كل شيء في الكون مملوكاً لله تعالى فلا شيء يخرج عن مراده سبحانه ، فلا يوجد مثلاً

غار يدخله كائن فراراً من الله؛ لأنه سبحانه قادر على أن يسد الغار ، وإن شاء الله سبحانه أن يساعد من دخل الغار فهو تعالى يعمي بصر من يرقب الغار .

إذن : فلن يجير شيء على الله تعالى ، وستظل له صفة العزة لا يخدشها خادش من وجود الله في الكون .

ثم يقول الحق سبحانه :

{ وَمَا يَتَّبِعُ الذين يَدْعُونَ مِن دُونِ الله شُرَكَآءَ } [يونس : 66] .

ومعنى اتباعهم شركاء كأن هناك شركاء ، رغم أن الأصل والحقيقة ألاَّ شركاء له سبحانه .

إذن : فهم يتبعون غير شيء؛ والدليل على ذلك موجود في طي القضية ، فهم يبعدونهم من دون الله تعالى ، ومعنى العبادة أن يطاع أمر وينهى نهي ، وما يعبدونه من أشياء لا أوامر لها ولا نواهي؛ فليس هناك منهج جاءوا به .

إذن : فلا ألوهية لهم .

إذن : فالأصل ألا شركاء لله تعالى ، ولو كان له شركاء لأنزلوا منهجاً ولأوجدوا أوامر ، وكان لهم نواهٍ؛ لأن الذي يقول : « اعبدني » إنما يحدد طريقة وأسلوب العبادة . وهاتوا واحداً من الذين تتبعونهم وتدعون لهم يكون له منهج ، ولن يستطعيوا ذلك ، ولاحق سبحانه هو القائل :

{ قُلْ لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لاَّبْتَغَوْاْ إلى ذِي العرش سَبِيلاً } [الإسراء : 42] .

أي : أننا لو افترضنا أن هناك آلهة ولها مظهر قوة كالشمس التي تضيء والقمر الذي ينير ، والمطر الذي ينزل من السماء ، والملائكة التي تدبّر الأمر ، لو صدَّقنا أن كل هؤلاء آلهة ، فهم سيبحثون عن الإله الواحد الأحد؛ ليأخذوا منه القوة التي ظننتم أنها لهم .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

{ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إله بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ سُبْحَانَ الله عَمَّا يَصِفُونَ } [المؤمنون : 91] .

إذ لو كان هذا الأمر صحيحاً لكانت هناك ولايات إليهة .

ولذلك قال الحق سبحانه :

{ أولئك الذين يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إلى رَبِّهِمُ الوسيلة } [الإسراء : 57] .

وهم قالوا إنهم يعبدون الملائكة ، وعليهم أن يعلموا أن الملائكة نفسها تعبد الله سبحانه وتعالى ، وما دام لا يوجد شركاء لله لتتبعوهم؛ إذن : فأنتم تتبعون الظن .

لذلك جاء قول الحق سبحانه :

{ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظن وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ } [يونس : 66] .

ونحن نجد الذين أولعوا بأن يُوجِدوا في القرآن ظاهر تعارض ليشكِّكوا فيه ، قالوا : إن هذه الآية

مثال على ذلك؛ فيقولون : في بداية الآية يقول : { وَمَا يَتَّبِعُ الذين يَدْعُونَ مِن دُونِ الله شُرَكَآءَ } [يونس : 66] .

فينفي أن المشركين يتبعون شركاء لله ، ثم يأتي في آخر الآية فيقول إنهم يتَّبعون الظن والخرص ، ففي أولها ينفي الاتباع ، وفي آخرها يثبته .

وهذا جهل ممن قال بهذا وادعى أن هناك تناقضاً في الآية ، فالله سبحانه ينفي أن يكون ما يدعوه هؤلاء المشركون شركاء لله في ملكه ، فللَّه من في السموات ومن في الأرض ، ولكنه يثبت أنهم يتَّبعون الظن والخرص والتخمين .

ونقول : ما هو الظن؟ وما هو الخرص؟

إن الظن حكم بالراجح كما أوضحنا من قبل في النسب من أن هناك نسبة إنْ لم تكن موجودة فهي مشكوك فيها ، أو نسبة راجحة ، أو أن نسبة تساوي فيها الشك مع الإثبات ، فإنْ كان الشك مساوياً للإثبات فهذا هو الشك . وإن رجحت ، فهذا هو الظن . أما المرجوح فنسميه وهماً .

الظن إذن حكم بالراجح . والخَرْص : هو التخمين ، والقول بلا قاعدة أو دليل .

والحق سبحانه يقول هنا :

{ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظن وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ } [يونس : 66] .

والقرآن حين يوجه خطاباً فهو يأتي بالخطاب المستوعب لكل ممكن ، وهو سبحانه حكم عليهم هنا أنهم يتَّبعون الظن والخرص .

ونحن نعلم أن الكافرين قسمان : قسم يُعْلم حقيقة الشيء ، ولكنه يغيّر الحقيقة إلى إفك وإلى خَرْص ، وقسم آخر لا يعرف حقيقة الشيء ، بل يستمع إلى من يعتقد أنه يعرف .

إذن : فهناك مُتَّبِع بكسر الباء وهناك مُتَّبَع بفتح الباء المُتَّبَع بفتح الباء يعلم أن ما يقوله هو كلام ملتوٍ ، يشوّه الحقيقة ويزينها ، أما المتّبع بكسر الباء فيظن أنه يتبع أناساً عاقلين أمناء فأخذ كلامهم بتصديق .

إذن : فالمتبع (بكسر الباء) يكون الظن من ناحيته ، أما المتبع (فتح الباء) فيكون الخَرْصو الكذب والافتراء من ناحيته؛ ولذلك يقول لنا الحق سبحانه :

{ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الكتاب إِلاَّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ } [البقرة : 78] .

هؤلاء إذن يصدّقون ما يقال لهم؛ لأنهم أميُّون ، والكلام الذي يقال لهم راجح ، وهم لو فكروا بعقولهم لما انتهوا إلى أنه كلام راجح .

أما الآخرون فيقول فيهم الحق سبحانه :

{ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الكتاب بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هذا مِنْ عِنْدِ الله لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً } [

البقرة : 79] .

وهؤلاء هم الذين يأتي منهم الخَرْص والإفك وقول الزور والبهتان .

إذن : فالكفار إن كانوا من الأميين فهم من أهل الظن ، وينطبق عليهم قول الحق سبحانه : { إن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظن } [يونس : 66] .

وإن كانوا من القادة والرؤساء فهؤلاء هم من ينطبق عليهم قول الحق سبحانه : { وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ } [يونس : 66] .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { هُوَ الذي جَعَلَ لَكُمُ اليل لِتَسْكُنُواْ فِيهِ }

هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (67)

وشاء الحق سبحانه بعد أن بيَّن الإيمان والمؤمنين ، وما يمكن أن يدَّعيه الكافرون في نبيّ الرسالة ، وبعد أن بيَّن المنهج ، ها هو سبحانه يأتي بالكلام عن آياته سبحانه في الكون تأييداً للمطلوب بالمجود .

فالمطلوب أن نؤمن برسول يبلِّغ منهجاً عن الله؛ ليكون هذا المنهج نافعاً لنا ، وإنْ أراد أحد دليلاً على ذلك فلينظر إلى الآيات التي وجدت للإنسان من قبل أن يُكلِّف ، أهي في مصلحته أم غير مصلحته؟

وما دامت الآيات الموجودة في الكون والمسخَّرة للإنسان تفيد الإنسان في حياته ، فلماذا لا يشكر من أعطاه كل تلك النعم ، وقد أعطى الحق سبحانه وتعالى الإنسان من قبل التكليف الكثير من النعم ، وفور أن يصل إلى البلوغ يصير مكلَّفاً .

إذن : فالله سبحانه لم يكلِّف أحداً إلا بعد أن غمره بالنعم النافعة له باعتقاد من العبد وصدق من الواقع .

فإذا ما جاء لك التكليف ، فَقِسْ ما طُلِب منك على ما وُجِد لك ، فإذا كنت تعتقد أن الآيات الكونية التي سبقت التكليف نافعة لك قبل أن يطلب منك « افعل كذا » و « لا تفعل كذا »؛ فَخُذْ منها صدقاً واقعاً يؤيد صدق ما طُلِب منك تكليفاً ، فكما نفعك في الأولى ، فالحق سبحانه سينفعك باتباعك التكليف ، واستقبلْ حركة الحياة على ضوء هذا التكليف؛ لتسعد .

ونحن نعلم أن الأصل في الإنسان أن يرتاح أولاً ليتحرك ، ثم يتعب ، ثم يرتاح؛ ولذلك نجد التكاليف قد جاءت على نفس المنوال ، فقد أراحك الحق سبحانه إلى سن البلوغ وأخذت نعم الله تعالى وتمتعت بها إلى سن البلوغ ، ارتحت اختياراً ، وارتحت في مراداتك ، ثم تجيء « افعل » و « لا تفعل » لتلتزم بما يُصْلِح لك كل أحوالك .

وإذا كان التكليف سيأخذ منك بعضاً من الجهد ، فهناك فاصل زمني للراحة ، وأنت في حياتك تجد وقتاً للراحة ، ووقتاً للحركة ، والراحة تجعلك تسعى بنشاط إلى الحركة ، والحركة تأخذ منك

الجهد الذي تحب أن ترتاح بعده .
إذن : فالحركة تحتاج للراحة ، والراحة تحتاج للحركة .
وجاء الحق سبحانه إلى الفترة الزمنية المسماة « اليوم » ، فبيَّن لنا أنه كما قسَّم الوجود الإنساني إلى مرحلتين :
الأولى : هي ما قبل البلوغ ولا تكليف فيها .
والثانية : هي ما بعد البلوغ وفيها التكليف .
فقد قسَّم الله سبحانه أيضاً « اليوم » إلى وقت للراحة ووقت للحركة ، فقال الله تعالى { هُوَ الذي جَعَلَ لَكُمُ اليل لِتَسْكُنُواْ فِيهِ والنهار مُبْصِراً } [يونس : 67] .
فكما خلق سبحانه لنا اليوم وفيه وقت للراحة ، ووقت للحركة ، كذلك شرع الحق سبحانه منهج الدين؛ لتستقيم حركة الحياة؛ لأن الإنسان الخليفة في الأرض لا بد أن يتحرك ، لا بد أن تكون حركته على مقتضى « افعل كذا » و « لا تفعل كذا » ، وما لم يَرِدْ فيه « افعل » و « لا تفعل » فهو مباح؛ إن شاء فعله ، وإن شاء لم يفعله .

وكل فعل ، وكل نهي يتطلب حركة ، وإياك أن تتصور أن النهي لا يتطلب حركة؛ لأنك تتحرك في أمر ما ثم يأتيك قرار التوقف ، وقد تتوهم أن التوقف لا يحتاج إلى حركة؛ لأنه سلبك ملكة القيام بما تعمل ، ولكنك تنسى أن هناك حركة داخلية ، وهي الدوافع التي كانت تلح عليك أن تقوم بما تشتهيه نفسك ولا يواكب منهج الله ، وأنت تكبت تلك الدوافع وتكبح جماحها؛ لأن الله سبحانه قد أمرك بذلك .
وما دامت هناك حركة فلا بد أن يأتي منها تعب؛ لذلك جعل الله تعالى لك حقّاً في الراحة .
وكذلك عُمْر الإنسان ، لم يكلِّف الله تعالى الإنسان إلا بعد البلوغ ، وترك له الفترة الأولى من عمره دون تكليف منه وحساب ، لكنه سبحانه لم يقطع عنه التكليف في تلك المرحلة بتاتاً ، وإنما منع حسابه على ما « يفعل » أو « لا يفعل » ، وترك مسئولية التدريب على التكليف للأب مثلاً ، فالأب يقول لابنه : « لا تكذبْ » فإن كذب؛ فالأب يعاقبه ، وهكذا يكون الأمر من الوالد ، والنهي للولد والأمر والنهي يتطلب ثواباً أو عقاباً .
ويبيّن لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الأمر فيقول : « مروا أولادكم بالصلاة لسبع سنين ، واضربوهم عليها لعشر سنين » .
والذي يأمرهنا الابن بالصلاة هو الأب ، وهو أيضاً الذي يعاقب على ترك الصلاة ، وهو الذي يثيب ابنه إن أراد أن يجعل الصلاة محبوبة للابن ، وأن يجعل للابن انساً بالعبادة .
وحين يكلِّف الأب ابنه بالصلاة ، فالابن يطيع؛ لأن الأب هو الذي يقضي حاجات الابن ، ويحقق له مصالحه ، والابن يعلم أن والده لن يكلفه إلا بما يحقق تلك المصالح ، وهو يفعل ذلك؛

لأنه يحبه؛ لذلك جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمر والنهي من النافع للابن؛ لتوجد حيثية قبول في النفس .

وما إن يأت البلوغ فيكون التكليف من الله والأمر من الله ، والثواب والعقاب منه سبحانه .

إذن : فالأمر والنهي قبل البلوغ يأتيان من الأب؛ ليتعود الإنسان استقبال الأمر والنهي من ربه ورب أبيه .

وإذا كانت الحياة والسير فيها على ضوء منهج الله يقتضي حركة في « افعل » و « لا تفعل » فلا بد أن يحتاج الإنسان إلى راحة من الحركة ، لذلك يبيّن لنا الله سبحانه أنه جعل في « اليوم » ليلاً ونهاراً ، ولكلٍّ مهمة ، فإياك أن تضع مهمة شيء مكان شيء آخر؛ حتى لا ترتبك الأمور ، ولكن الظروف قد تضطرك إلى ذلك ، فهناك من يسهر للحراسة ، وهناك من يسهر للعمل في المخابز ، أو إعداد طعام الإفطار للناس؛ ولذلك فهناك احتياط قدري ، فقال الحق سبحانه في آية ثانية :

{ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بالليل والنهار وابتغآؤكم مِّن فَضْلِهِ } [الروم : 23] .

لأن الحق سبحانه قد علم أزلاً أن هناك مصالح لا يمكن إلا أن تكون ليلاً ، فالذي يعمل ليلاً يرتاح نهاراً ، ولو أن الآية جاءت عمومية؛ لقلنا لمن ينام بالنهار : لا ، ليس هذا وقت السكن والراحة .

ولكن شاء الحق سبحانه أن يضع الاحتياطيَّ القدريَّ؛ ليرتاح من يتصل عمله بالليل .

وهنا يقول الحق سبحانه :

{ هُوَ الذي جَعَلَ لَكُمُ اليل لِتَسْكُنُواْ فِيهِ } يونس : 67] .

ونحن نعلم أن هناك فارقاً بين « الخَلْق » ، و « الجَعْل » ، و « المِلْك ، والمثال على الخلق : أنه سبحانه خَلَق الزمن ، ثم جاء لهذا الزمن ليجعل منه ليلاً ونهاراً .

إذن : فالجعل هو توجيه شيء مخلوق لمهمة .

ومثال ذلك ولله المثل الأعلى وهو منُزَّه عن أي تشبيه أو مثل :

تجد صانع الفخَّار وهو يمسك بالطين؛ ليجعل منه إبريقاً ، فهو يصنع الطين أولاً بأن يخلط الماء بالتراب ويعجنها معاً ، ثم يجعل من الطين إبريقاً أو اصُصَ زرع أو زهرية ورد ، وهو بذلك إنما يحوِّل مخلوقاً إلى شي له مهمة .

والزمن كله لله سبحانه ، جعل منه قسم الليل ، وقسم النهار ، مثلما خلق الإنسان ، ووجَّه جزءاً منه؛ ليجعله سمعاً ، وجزءاً آخر؛ ليجعله بصراً ، وجزءاً آخر؛ ليصير مخاً ، وجزءاً آخر؛ ليكون رئة ، كل ذلك مأخوذ مما خلقه الحق سبحانه .

أي : أنه سبحانه جعل أشياء مما خلق أصلاً؛ لتؤدي مهمة للمخلوق .

وفي حياتنا ولله المثل الأعلى نجد من يغزل من القطن خيوطاً ، وهناك من ينسج من تلك الخيوط قماشاً ، وبعد ذلك نجد من يأخذ هذا القماش؛ ليجعل منه جلباباً أو بنطلوناً أو قميصاً أو لحافاً .

إذن : فالجعل هو أخذ من شيء مخلوق لمهمة . والخلق قد يترتب عليه مِلْك ، والجعل أيضاً قد يترتب عليه مِلْك؛ فمن عمل قِدْراً من الطين هو مالكه ، ومن جعل من الطين إبريقاً إنما يملكه . وهكذا نجد الخَلْق والجَعْل قد يترتب عليهما ملكية ما ، لكن الملكية المنسحبة بعد الخلق والجعل تجعلك تنتفع بالأشياء وقد لا تملكها؛ لذلك نجد قول الحق سحبانه :

{ أَمَّن يَمْلِكُ السمع والأبصار } [يونس : 31] .

والحق سبحانه خلق لنا الأنعام ، وذلَّلها لنا ، وملَّكها لنا ، وإذا قال الحق سبحانه : » مِلْك « فملكيته سبحانه لا تنتهي لأحد أبداً سواء من الخلق أو الجعل ، بل يَظل مملوكاً؛ ولذلك قلنا : إن نقل الأعضاء هو تحكُّم فيما لا يملكه المخلوق ، بل يملكه الخالق سبحانه وتعالى .

يذكر الحق سبحانه الليل والنهار فيقول :

{ هُوَ الذي جَعَلَ لَكُمُ اليل لِتَسْكُنُواْ فِيهِ والنهار مُبْصِراً } [يونس : 67] .

وكان مقتضى الكلام أن يقول :

جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار لتتحركوا .

وشاء سبحانه أن يأتي هنا بالأداء القرآني المعجز فقال : { والنهار مُبْصِراً } .

فهل النهار هو الذي يُبصر أم نحن؟

هل النهار مُبصِر أم مُبصَر فيه؟

وقديماً لم يكونوا قد وصلوا إلى الحقيقة العلمية التي وصلنا إليها الآن ، فقد كانوا يعتقدون أن الضوء يخرج من العين إلى المرئي فتراه ، إلى أن جاء « الحسن بن الهيثم » العالم العربي المسلم ، وأوضح بالتجربة أن الضوء إنما ينعكس من المرئي إلى العين ، بدليل أن المرئي إن كان في النور وأنت في الظلام ، فأنت تراه وإذا كان الأمر بالعكس فانت لا تراه .

إذن : فقد سبق القرآن كل النظريات ، وبيَّن لنا أن النهار إنما يأتي بالضوء فينعكس الضوء من الكائنات والموجودات إلى العين فتراه .

إذن : فالنهار هو المبصر؛ لأنه جاء بالضوء اللازم لانعكاس هذا الضوء من المرائي إلى العيون .

ونحن نجد القرآن حين يتعرض لليل والنهار يقول :

{ وَمِنْ آيَاتِهِ ايل والنهار } [فصلت : 37] .

ويقول :

{ وَجَعَلْنَا اليل والنهار آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ آيَةَ اليل وَجَعَلْنَآ آيَةَ النهار مُبْصِرَةً } [الإسراء : 12] .

وهي مبصرة كما أثبت الحسن بن الهيثم العالم المسلم ، وإن كانت في ظاهر الامر مُبْصَرٌ فيها .
ويعطي لنا الحق سبحانه تجربة حية مع موسى عليه السلام ، وذلك في قوله سبحانه لموسى عليه السلام :
{ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ ياموسى * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا على غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أخرى * قَالَ أَلْقِهَا ياموسى * فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تسعى } [طه : 1720] .
وشاء الحق سبحانه ذلك؛ ليتعرف موسى بالتجربة على ما سوف يحدث من عصاه أمام فرعون ، ثم أمام السحرة ، ثقة منه سبحانه أن موسى حين يراها تنقلب إلى حية أمام عينيه لأول وهلة سوف يفزع؛ فيطمئنه الحق سبحانه بقوله :
{ خُذْهَا وَلاَ تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأولى } [طه : 21]
وكانت المرة الأولى لتحوُّلِ العصا إلى حية ، هي تجربة للاستعداد؛ حتى لا يجزع موسى عليه السلام أو يخاف لحظة أن يمر بالتجربة العملية ، وحتى يقبل على تقديم المعجزة وهو واثق تمام الثقة أمام فرعون .
ثم قال الحق سبحانه لموسى عليه السلام :
{ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ } [النمل : 12] .
والجيب : هو المكان الذي تنفذ منه الرقبة في الجلباب ويسمى (القبة) ، فلا يظن أحد أن الجيب المقصود هنا هو مكان وضع النقود؛ لأن مكان وضع النقود قديماً كان يوجد من داخل الجلباب ، مثل جيب (الصديري) الذي يرتديه أهل الريف ، وقد سُمِّي الجيب الذي نضع فيه النقود جيباً؛ لأن اليد لا تذهب إلى الجيب إلا إذا دخلت في الفتحة التي تخرج منها الرقبة .
وقد قال الحق سبحانه لموسى عليه السلام :
{ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سواء }

[النمل : 12] .
ويخبره الحق سبحانه :
{ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إلى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً فَاسِقِينَ * فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً } [النمل : 1213] .
هكذا كانت الآيات مبصرة وكأنها تقول للعين : أبصريني .
وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق سبحانه :
{ هُوَ الذي جَعَلَ لَكُمُ اليل لِتَسْكُنُواْ فِيهِ والنهار مُبْصِراً } [يونس : 67] .
ولم يقل : لتتحركوا فيه ، بل جاء بما يضمن سلامة الحركة ، فقال سبحانه : { مُبْصِراً } لأن الضوء الذي ينعكس على الأشياء هو الذي يحفظ للإنسان سلامة الحركة .

ولكن البعض من الناس في زماننا يستخدمون نعمة الكهرباء في الإسراف في السهر ، وحين يأتي الليل يسهرون حتى الصباح أمام جهاز (التلفزيون) أو (الفيديو) أو في غير ذلك من أمور الترفيه ، ثم ينامون في النهار ، وينسون أن الليل للرقود ، والنهار للعمل . وقد ثبت أن للضوء أثراً على الأجسام ، فالضوء يؤثر في الكائن الحي ، وقد سبق النبي صلى الله عليه وسلم ذلك الاكتشاف بزمان طويل وقال :

« أطفئوا المصابيح إذا رقدتم »؛ وذلك حتى لا ينشغل الجسم بإشعاعات الضوء التي تتسبب في تفاعلات كيماوية في الجسم .

لذلك أقول دائماً : خذوا الحضارة بقواعد التحضير لها؛ لأننا يجب أن نتيح للفلاح أن يذهب إلى حقله والعامل إلى مصنعه؛ لأن السهر ضار ، وإذا ادَّعى الإنسان أنه هو الذي تحضَّر ، فليحترم قيمة العمل الذي يصنع الحضارة؛ لأن الآلة التي يسهر لمراقبتها ومشاهدتها هي إنتاج أناس يلتزمون بقواعد الحضارة؛ واحترام قيمة العمل في النهار ، وقيمة الترفيه في الوقت المخصص .

نحن نسيء استخدام أدوات الحضارة ، فالزمن الذي وفَّرته الثلاجة للزوجة؛ حتى لاتقف في المطبخ نصف النهار لتعد الطعام ، وصارت تطهو وجبات ثلاثة أيام وتحفظها في الثلاجة ، وتستخدم الغسالة الكهربائية فتنهي الغسيل في ساعة من الزمن ، لكن بقية الوقت يضيع أمام (التلفزيون) ولا تلتفت إلى تربية الأبناء .

وهكذا يسيء البعض استخدام الآلات المتحضرة ، وفي هذه الإساءة نوع من التخلف ، فإذا أخذنا الحضارة بمنطقية فهذا هو التحضر .

وعلى سبيل المثال : أقول لمن يركب سيارة : إياك أن تسرع بها في طريق متربة حتى لا يثور الغبار ويملأ صدور الناس بالحساسية .

وإياك أن تهمل صيانة سيارتك حتى لا يفسد الموتور؛ ويخرج العادم الضار بصحة الناس والبيئة ، فلا يسافر الإنسان في الطريق المتربة أو بسيارة غير جيدة الصاينة؛ فيصيب صدور الناس بالمرض ، ويصيب الزروع ويفسد الهواء .

ويجب ألاَّ نأخذ الحضارة بتلصص ، إنما علينا أن نرتقي إلى مدارجها بصيانة أساليبها؛ لأن من لا يأخذ الحضارة بقواعدها هو من يتخلف رغم تقدُّم الآلة ، فتصير الآلة أكثر تحضُّراً منه .

إذن : فإن أخذنا كل أمر بمهمته فحن نحقق الراحة لأنفسنا ولغيرنا .

ولذلك قلنا في تفسير قول الحق سبحانه :

{ واليل إِذَا يغشى * والنهار إِذَا تجلى } [الليل : 12] .

وإن بدا للإنسان أن هناك تعارضاً بين غشيان الليل (أي : تغطيته للمرئيات) وتجلّي النهار (أي : كشف المرئيات) فهذا ليس تعارضاً ، بل هو التكامل؛ لأن حركة النهار تتولد من الليل ، وراحة الليل تتولد من النهار .

ثم يقول الحق سبحانه :

{ وَمَا خَلَقَ الذكر والأنثى } [الليل : 3] .

وهذا الخلق للذكر والأنثى هو للتكامل ، لا للتناقض ، هكذا جاء الحق سبحانه بنوعين :

الأول : هو الزمن ليلاً ونهاراً .

والثاني : هو الإنسان ذكراً وأنثى .

ويقول الحق سبحانه : { إِنَّ سَعْيَكُمْ لشتى } [الليل : 4] .

أي : أن حركتكم هي الموصِّلة إلى غايتكم ، والحركات شتى (أي : مختلفة) ، سواء في الليل أو النهار أو للذكر أو للأنثى ، فإن خلطنا الحركة وعبثنا بأنظمة الحياة ، فالحياة ترتبك ، ونعاني من مرارة التجربة إلىأن تتعقد الأمور ، فنبحث لها عن حلول .

وقد نادينا أن تعمل المرأة نصف الوقت لتعطي البيت بعضاً من الوقت ، أو أن تعتني بالبيت إن كان لها ما يكفيها من دخل ، أو كان لزوجها ما يكفي لحياة الأسرة ، ولكن أحداً لم يلتفت إلى ذلك إلا بعد مرارة التجارب .

وهناك مثال آخر : في قول البعض أن الليل في تلك البلاد المتحضِّرة لا ينتهي وأنت تجد السهر هناك حتى الصباح ، وعندما أسمع مثل هذا القول أقول : إن هذا ليس في مصلحة سكان تلك البلاد؛ لأن الليل يجب أن يكون سباتاً لتأتي الحركة المنتجة في النهار .

إذن : فالآفة أن تنقل مهمة نوع إلى مهمة نوع آخر ، سواء أكان في الزمان أو في الإنسان ، واقرأ جيداً قول الحق سبحانه :

{ إِنَّ سَعْيَكُمْ لشتى } [الليل : 4] .

فكل فرد من أفراد الكون له مهمة وله سعي يختلف عن سعي الآخرين .

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها يُنهي الحق سبحانه الآية فيقول :

{ إِنَّ فِي ذلك لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ } [يونس : 67] .

ولقائل أن يقول : لم يقل « إن في ذلك لآيات لقوم يبصرون » .

ونقول : لننتبه إلى أن الحق سبحانه حين يتكلم عن زمان فهو يبيّن في هذا الزمان مهمته ، وهو القائل في صدر الآية ووسطها :

{ جَعَلَ لَكُمُ اليل لِتَسْكُنُواْ فِيهِ والنهار مُبْصِراً } [يونس : 67] .

فالعلَّة في هذه الآية هي سكون الليل ، لا حركة النهار ، والعين في الليل لا تؤدي مهمتها ، بل السمع هو الذي يؤدي مهمته .

والحق سبحانه هو القائل :

{ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ الله عَلَيْكُمُ اليل سَرْمَداً إلى يَوْمِ القيامة مَنْ إله غَيْرُ الله يَأْتِيكُمْ بِضِيَآءٍ أَفَلاَ تَسْمَعُونَ } [القصص : 71] .

أي : أن أحداً لن يستطيع الحركة في مثل هذا الليل السرمدي ولا أحد سيتبيَّن شيئاً .

والحق سبحانه هو القائل :

{ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ الله عَلَيْكُمُ النهار سَرْمَداً إلى يَوْمِ القيامة مَنْ إله غَيْرُ الله يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفلاَ تُبْصِرُونَ } [القصص : 72] .

إذن : فقد جاء الحق سبحانه في آية الليل بالسمع ، وجاء في آية النهار بالأبصار ، وبعد أن تكلم الله سبحانه عن مجال الحركة بالنهار والراحة في الليل ، يأتي الكلام عن الينبوع الذي يجب أن تَصْدُرَ عنه الحركة أو السكون ، وهو ضرورة الامتثال لأمر إله واحد حتى لا تصطدم حركتك بآمر إله آخر يقول ما يناقض حركة الإله الأول .

وكما تتحرك في النهار ، وترتاح في الليل لا بد أن تكون حركتك صادرة عن أمر واحد ، هذا الأمر الواحد صادر من الآمر الواحد ، وهو الله تعالى الذي تعبده بلا شريك ، ومن يقول بغير ذلك إنما يربك حركة الحياة .

والله سبحانه يقول :

{ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إله بِمَا خَلَقَ } [المؤمنون : 91] .

ولذلك يقول الله سبحانه بعد ذلك : { قَالُواْ اتخذ الله وَلَداً سُبْحَانَهُ }

قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (68)

ونفس نص الآية الكريمة يكذِّبهم فيما يدَّعونه .

ومثال ذلك : أنك حين تقول : « اتخذ فلان بيتاً » أي : أن فلاناً له ذاتية سابقة على اتخاذه للبيت ، وبها اتخذ البيت ، فإذا قيل : { اتخذ الله وَلَداً } [يونس : 68] .

فهذا اعتراف منهم بكمال الله تعالى وذاتيته قبل أن يتخذ الولد .

وهم قد اختلفوا في أمر هذا الولد ، فمنهم من قال : إن الملائكة هن بنات الله وكذَّبهم الحق سبحانه في ذلك ، ومنهم من قال : عزير ابن الله وهم اليهود وقد كذَّبهم الله سبحانه في ذلك ، وطائفة من المسيحيين قالوا : إن المسيح ابن الله ، وكذَّبهم الحق سبحانه في ذلك .

ثم ما الداعي أن يتخذ الله الولد؟

هل استنفد قوته حتى يساعده الولد؟!

وهل يمكن أن يضعف سبحانه معاذ الله فيمتد بقوة الولد أو يعتمد عليه؟!

مثلما يقال حين يواجه شيخٌ شاباً ، ويعتدي الشاب على الشيخ ، فيقال للشاب : احذر؛ إن لهذا الشيخ ولداً أقوى منك؛ فيرتدع الشاب ، أو أن يقول الشيخ للشاب : إن أبنائي يفوقونك في القوة ، وفي هذا اعتداد بالأولاد .

ويريد الحق سبحانه أن يغفل كل هذه الدعاوي ولتكون حركة الحياة متماسكة متلازمة ، لا متعارضة ولا متناقضة؛ لذلك ينبغي أن يكون المحرِّك إلهاً واحداً تصدر منه كل الأوامر ، فلا تعارض في تلك الأوامر؛ لأن الأوامر إن صدرت عن متعدد فحركة الحياة تتصادم بما يبدد الطاقة ويفسد الصالح .

ولذلك لا بد أن يكون الأمر صادراً من آمر واحد يُسْلَّم له كل أمر ، وهذا الإله منزَّه عن كل ما تعرفه من الأغيار ، فله تنزيه في ذاته؛ فلا ذات تشبه ذاته ، ومنزَّه في صفاته؛ فلا صفة تشبه صفته ، ومنزَّه في أفعاله؛ فلا فعل يشبه فعله .

وحتى نضمن هذه المسألة لا بد أن يكون الإله واحداً ، ولكن بعضاً من القوم جعلوا لله شركاء ، ومن لم يجعل له شريكاً ، توهَّم أن له ابناً وولداً .

ونقول لهم :

إن كلمتكم : { اتخذ الله وَلَداً } [يونس : 68] ترد عليكم؛ لأن معنى اتخاذ الولد أن الألوهية وُجِدَت أولاً مستقلة ، وبهذا الألوهية اتخذ الولد .

ومن المشركين من قال : إن الملائكة بنات الله .

فردَّ عليهم الحق سبحانه :

{ أَلَكُمُ الذكر وَلَهُ الأنثى * تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضيزى } [النجم : 2122] .

والكمال كله لله سبحانه فهو كمال ذاتي؛ ولذلك يأتي في وسط الآية ويقول تعالى :

{ سُبْحَانَهُ هُوَ الغني } [يونس : 68] .

وسبحانه تعني : التنزيه ، وهو الغني أي : المستغني عن مُعِين كما تستعينون أنتم بأبنائكم ، وهو دائم الوجود؛ فلا يحتاج إلى ابن مثل البشر ، وهم أحداث تبدأ وتنتهي؛ لذلك يحبون أن يكون لهم أبناء كما يقول الشاعر :

ابني يا أنا بعد ما أقَضي ... ويقال : « من لا ولد له لا ذِكْر له » ، كأن الإنسان لما علم أنه يموت لا محالة أراد أن يستمر في الحياة في ولده .

ولذلك حين يأتي الولد للإنسان يشعر الإنسان بالسرور والسعادة ، والجاهل هو من يحزن حين تلد له زوجته بنتاً؛ لأن البنت لن تحمل الاسم لمن بعدها ، أما الولد والحفيد فيحملان اسم الجد ، فيشعر الجد أنه ضمن الذِّكْر في جيلين .

إذن : فاتخاذ الولد إما استعانة وإما اعتداد ، والحق سبحانه غنيٌّ عن الاستعانة ، وغني عن الاعتداد؛ لأنك تعتد بمن هو أقوى منك ، وليس هناك أقوى من الله تعالى ، وهو سبحانه لا يحتاج لامتداد؛ لأنه هو الأول وهو الآخر ، وعلى ذلك ففكرة اتخاذ الولد بالنسبة لله تعالى لا تصح على أي لون من ألوانها .

ولذلك يقول الحق سبحانه مرادفاً لتلك الفكرة : { سُبْحَانَهُ } لأنها تقطع كل احتمالات ما سبقها ، ويُتْبِع ذلك بقوله : { هُوَ الغني } لأنه غني عن اتخذا الولد ، وغني عن كل شيء ، وقوله : { سُبْحَانَهُ } تنزيه له ، والتنزيه : ارتفاع بالمُنَزَّه عن مشاركة شيءٍ له في الذات أو الأفعال .

وإذا ورد شيء هو لله وصفٌ ولخَلْقه وصفٌ ، فإياك أن تأخذ هذه الصفة مثل تلك الصفة .

فإن قابلت غنياً من البشر ، فالغني في البشر عَرَضٌ ، أما غنى الله تعالى ففي ذاته سبحانه .

وأنت حي والله سبحانه حي ، ولكن أحياتك كحياته؟ لا؛ لأن حياته سبحانه لم يسبقها عدم ، وحياتك سبقها عدم ، وحياته سبحانه لا يلحقها عدم ، وأنت يلحق حياتك العدم .

والله موجود وأنت موجود ، لكن وجوده سبحانه وجود ذاتيٌّ ، ووجودك وجود عَرَضِيٌّ .

وإذا قال الحق سبحانه :

إن له سبحانه وتعالى يداً { يَدُ الله فَوْقَ أَيْدِيهِمْ } [الفتح : 10] .

فلا يمكن أن تكون يد الله سبحانه مثل يدك؛ لأن ذاته سبحانه ليست كذاتك ، وصفاته سبحانه ليست كصفاتك ، وهو سبحانه القادر الأعلى ، ولا يمكن أن يكون مقدوراً لأحد .

ولذلك حين يتجلَّى الله سبحانه لخلقه ، فسوف يتجلى بالصورة التي تختلف عن كل خيال العبد ، وهذه الصورة تختلف من عبد إلى آخر ، ولو كانت الصورة التي يتجلى بها الله سبحانه مقدوراً عليها لكان معنى ذلك أن هناك ذهناً بشرياً قد قدر على الإحاطة بها . وما خطر ببالك فالله سبحانه بخلاف ذلك؛ لأن ما خطر بالبال مقدور عليه لأنه خاطر ، والله سبحانه لا ينقلب أبداً إلى مقدور عليه .

وأنت حين تأتي بمسألة في الحساب أو الهندسة مثلاً ، وتعطيها لتلميذ ويقوم بحلها ، فمعنى ذلك أن عقله قد قدر عليها ، أما إن جئت لتلميذ في المرحلة الإعدادية مثلاً بمسألة هندسية مقررة على طلبة كلية الهندسة؛ فعقله لن يقدر عليها .

إذن : لو أن الإنسان قد أدرك شيئاً عن الله غير ما قاله الله لا نقلب الإله إلى مقدور عليه ، والحق سبحانه مُنَزَّه عن ذلك؛ لأنه القادر الأعلى الذي لا ينقلب أبداً إلى مقدور .

لذلك يعلِّمنا الحق سبحانه أن نقول تنزيهاً لله تعالى كلمة { سُبْحَانَهُ } ، وهو التنزيه الواجب عن كل شيء يخطر ببال الإنسان عن الله تعالى ، وهذه السبحانية أو هذا التنزيه هو صفة ذاتية في

الله تعالى ، قبل أن يوجد شيء ، وبعد أن خَلَق الخَلْق ، فعلى كل المخلوقات تنزيهه ، وبدأ الخلق في التسبيح .

والتسبيح فعل مستمر لا ينقطع ولا ينقضي؛ لذلك تجد استدلالات القرآن في السور التنزيهية تؤكد ذلك ، فيقول الحق سبحانه :

{ سُبْحَانَ الذي أسرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ المسجد الحرام إلى المسجد الأقصا الذي بَارَكْنَا حَوْلَهُ } [الإسراء : 1] .

وإياك أن تظن أن محمداً صلى الله عليه وسلم قد سرى بقرار من نفسه ، بل الذي أسرى به هو الحق سبحانه ، فلا تظن أن المسافة يمكن أن تمنع مشيئة الحق المطلقة ، ولا المكان ، ولا الزمن؛ لأن الفعل منسوب لله تعالى ، ولا يمكن أن نقيس فعلاً منسوباً لله تعالى بقياس الزمان أو المكان ، أو حسب قانون الحركة النسبية ، لأن الحق سبحانه له طلاقة القدرة ، وأنت بشر مجرد حادث محدود الزمان والمكان .

وأنت إذا سِرْت من هنا إلى الإسكندرية مثلاً على قدميك فستقطع المسافة في أسابيع ، وإن امتطيت دابة فقد تأخذ في الوصول إلى الإسكندرية أياماً ، وإن ركبت سيارة فسوف تقطع المسافة في ساعتين ، وإن ركبت صاروخاً ، فستصل خلال دقائق .

أي : أنك كلما زادت قوة أداة الوصول قَلَّ زمن الوصول ، وهذا موجز نظرية الحركة ، وإذا كان الذي أسرى هو الله سبحانه ، وهو قوة القوى ، لذلك لا يمكن أن يقاس بالنسبة لمشيئة قوة أخرى ، أو أن يقاس الأمر ببُعد أو قُرْب المكان أو كيفية الزمان الذي تعرفه .

وإياك أن تفهم أن إسراء الله تعالى مثل إسرائك؛ لأن الفعل إنما يأخذ قوته من الفاعل ، وما دام الفاعل هو الله سبحانه فلا أحد بقادر أن يَحُدَّ أفعاله بزمن .

وقد استهل الحق سبحانه سورة الإسراء بالسبحانية وآياتها الأولى تتكلم في أدق شيء تكلم فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذاته بأنه قد أسْرِيَ به ، وبذلك أثبت بحادث الإسراء حقيقة المعراج ، وأن الناموس قد خُرِق له ، وحدَّثنا عما نعلم لنصدِّق حديثه عما لا نعلم ، وحتى نقيس ما لا نعلم على ما نعلم ، فيتأكد لنا صدقه صلى الله عليه وسلم في حديثه عما لا نعلم .

كلمة « سبحانه » إذن هي للتنزيه ، وهي لله تعالى أزلاً قبل أن يَخلق الخَلق ، فقد شهد سبحانه لذاته أنه إله واحد ، ثم شهدت الملائكة ، ويتكرر التسبيح من كل المخلوقات التي أوجدها الله سبحانه .

وأنت تجد سور القرآن الكريم التي جاء فيها التسبيح مؤكدة أنه سبحانه مُنزَّه ، وله التسبيح من قبل أن يخلق الخلق ، ثم خلق الخلق؛ ليسبِّحوا ، ففي سورة الحديد يقول سبحانه :

{ سَبَّحَ للَّهِ مَا فِي السماوات والأرض } [الحديد : 1] .

ويقول سبحانه في سورة الحشر :

{ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض } [الحشر : 1] .

فهل سبَّح كل من في السموات ومن في الأرض مرة واحدة وانتهى الأمر؟ لا؛ لأن الله سبحانه يقول :

{ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض الملك القدوس } [الجمعة : 1] .

ويقول سبحانه في سورة التغابن :

{ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض لَهُ الملك وَلَهُ الحمد وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [التغابن : 1] .

إذن : فالسبحانية لله أزلاً ، وسبَّح ويسبّح الخَلْق وكل الوجود بعد أن خلقه الله سبحانه ، سموات وأرض وما فيهما ومن فيهما ، وما بقى إلا أنت أيها الإنسان فسبِّحْ باسم ربك الأعلى .

وفي الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق سبحانه :

{ قَالُواْ اتخذ الله وَلَداً سُبْحَانَهُ } [يونس : 68] .

وعلة التسبيح والتنزيه عن أن يكون له ولد تأتي في قوله تعالى : { هُوَ الغني } ؛ لأن اتخاذ الولد إنما يكون عن حاجة ، إما استعانة ، وإما اعتماداً ، وإما اعتداداً ، وإما امتداداً ، وكل هذه أمور باطلة بالنسبة له سبحانه ، وهو الحق الأعلى ، وهو سبحانه القائل في آية أخرى :

{ وَقَالُواْ اتخذ الله وَلَداً سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السماوات والأرض كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ } [البقرة : 116] .

والقنوت معناه : الإقرار بالعبودية لله تعالى والخضوع له وإطاعته .

ويقول سبحانه في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها :

{ إِنْ عِندَكُمْ مِّن سُلْطَانٍ بهاذآ أَتَقُولُونَ عَلَى الله مَا لاَ تَعْلَمُونَ } [يونس : 68] .

و « إنْ » قد تأتي للنفي في مثل قول الحق سبحانه :

{ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللائي وَلَدْنَهُمْ } [المجادلة : 2] .

وفي قول الحق سبحانه هنا :

{ إِنْ عِندَكُمْ مِّن سُلْطَانٍ بهاذآ } [يونس : 68] .

أي : ليس عندكم حُجَّة تدل على أن الله تعالى اتخذ ولداً .

ولذلك يُنهي الحق سبحانه الآية بقوله :

{ أَتَقُولُونَ عَلَى الله مَا لاَ تَعْلَمُونَ } [يونس : 68]

أي : أنكم لا تملكون إعلاماً من الله تعالى بذلك ، فلا إعلام عن الله إلا من الله ، وليس لأحد

أن يُعْلِم عن ربه ، فهو سبحانه من يُعْلِم عن نفسه .
ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { قُلْ إِنَّ الذين يَفْتَرُونَ عَلَى الله الكذب لاَ يُفْلِحُونَ }

قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (69)

والحق سبحانه وتعالى حينما يتكلم عن الإيمان وثمرته ونهايته ياتي بالفَلاَح كنتيجة لذلك الإيمان ، فهو سبحانه القائل :
{ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا } [الشمس : 9] .
وهو سبحانه القائل :
{ قَدْ أَفْلَحَ المؤمنون } [المؤمنون : 1] .
ويقول أيضاً :
{ أولئك هُمُ المفلحون } [الأعراف : 157] .
وكلها من مادة « الفلاح » وهي مأخوذة من الأمر الحسي المتصل بحياة الكائن الحي ، فمقومات وجود الكائن الحي : نَفَس ، وماء ، وطعام ، والتنفس يأتي من الهواء الذي يحيط بالأرض ، والماء ينزل من السماء أو يُستنبط مما تسرب في باطن الأرض . والطعام يأتي من الأرض ، وكل ما أصله من الأرض يُستخرج بالفلاحة .
لذلك نقول : إن الفلاَحة هي السبب الاستبقائي للحياة ، فكما يُفْلِح الإنسان الأرض ، ويشقها ويبذر فيها البذور ، ثم يرويها ، ثم تنضج وتخرج الثمرة ، ويقال : أفلح ، أي : أنتجت زراعته نتاجاً طيباً .
وشاء الحق سبحانه أن يمسِّي الحصيلة الإيمانية الطيبة بالفلاح .
وبيَّن لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الدنيا مزرعة الآخرة ، فإن كنت تريد ثمرة فابذل الجهد .
وإياك والظن أن الدين حينما يأخذ منك شيئاً في الدنيا أنه يُنْقِص ما عندك ، لا ، بل هو يُنمِّي لك ما عندك .
والمثل الذي أضربه دائماً ولله المثل الأعلى نجد الفَلاَّح حين يزرع فداناً بالقمح ، فهو يأخذ من مخزنه إردباً؛ ليستخدمه كبذور في الأرض ، ولو كانت امرأته حمقاء لا تعرف أصول الزراعة ستقول له : « أنت أخذت من القمح ، وكيف تترك عيالك وأنت تنقصهم من قوتهم؟ »
هذه المرأة لا تعلم أنه أخذ إردبَّ القمح المُخَزَّن؛ ليعود به بعد الحصاد عشرة أو خمسة عشر إردّباً من القمح .
كذلك مطلوب الله سبحانه في الدنيا قد يبدو وكأنه ينقصك أشياء ، لكنه يعطيك ثمار الآخرة ويزيدها .

إذن : فالفلاح مادة مأخوذة من فلح الأرض وشقها وزرعها لتأخذ الثمرة .

وكما أنك تأخذ حظك من الثمار على قدر حظك من التعب ومن العمل ، فذلك أمر الآخرة وأمر الدنيا .

ومثال ذلك : الفلاح الذي يحرث الأرض ، ويحمل للأرض السماد على المطية ، ثم يستيقظ مبكراً في مواعد الري ، تجد هذا الفلاح في حالة من الانشراح والفرح في يوم الحصاد ، وأمره يختلف عمن يهمل الأرض ويقضي الوقت على المقهى ، ويسهر الليل أمام التلفزيون ، ويأتي يوم الحصاد ليحزن على محصوله الذي لم يحسن زراعته .

وقول الحق سبحانه :

{ إِنَّ الذين يَفْتَرُونَ عَلَى الله الكذب لاَ يُفْلِحُونَ } [يونس : 69] .

أي : هؤلاء الذي يقولون عن الله تعالى أو في الله تعالى بغير علم من الله ، هم الذين لا يفلحون .

وأوضحت من قبل أن كل ما يتعلق بالله تعالى لا يُعْلَم عنه إلا عن طريق الله . لكن ما الذي يحملهم على الافتراء؟

نعم ، إن كل حركة في الحياة لا بد أن يكون الدافع إليها نفعاً ، وتختلف النظرة إلى النفع وما يترتب عليه ، فالطالب الكسول المتسكع في الشوارع ، الرافض للتعلم ، نجده راسباً غير موفق في مستقبله ، أما التلميذ الحريص على علومه ، فهو من يحصل على المكانة اللائقة به في المجتمع ، والتلميذ الأول كان محدود الأفق ولم ير امتداد النفع وضخامته ، بل قصر النفع على لذة عاجلة مُضحّياً بخيرٍ آجِلٍ .

والذي جعل هؤلاء يفترون على الله الكذب هو انهيار الذات ، فكل ذات لها وجود ولها مكانة ، فإذا انهارت المكانة ، أحس الإنسان أنه بلا قيمة في مجتمعه .

والمثل الذي ضربته من قبل بحَلاَّق الصحة في القرية ، وكان يعالج الجميع ، ثم تَخَرَّجَ أحد شباب القرية في كلية الطب وافتتح بها عيادة ، فإن كان حلاق الصحة عاقلاً ، فهو يذهب إلى الطبيب ليعمل في عيادته ممرضاً ، أو (تمرجياً) ، أما إن أخذته العزة بالإثم ، فهو يعاند ويكابر ، ولكنه لن يقدر على دفع علْم الطبيب .

وكذلك عصابة الكفر ورؤساء الضلال حينما يُفاجَآون بمَقْدِم رسول من الله ، فهم يظنون أنه سوف يأخذ السيادة لنفسه ، رغم أن أي رسول من رسل الله تعالى عليه السلام إنما يعطي السيادة لصاحبها ، ألا وهو الحق الأعلى سبحانه .

وحين يأخذ منهم السيادة التي كانت تضمن لهم المكانة الوجاهة والشأن والعظمة ، فهم يصابون بالانهيار العصبي ، ويحاولون مقاومة الرسول دفاعاً عن السلطة الزمنية .

ومثال ذلك : هو مَقْدِمُ النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، وكان البعض يعمل على تنصيب

عبد الله بن أبيّ ليكون مَلكاً؛ ولذلك قاوم الرجل الإسلام ، وحين لم يستطع آمن نفاقاً ، وظل على عدائه للإسلام ، رغم أنه لو أحسن الإسلام واقترب من رسول الله صلى الله عليه وسلم لنال أضعاف ما كان يسأخذه لو صار ملكاً .

وهكذا قادة الضلال وأئمة الكفر ، هم مشفقون على أنفسهم وخائفون على السلطة الزمنية؛ لأن الرسول حينما يجيء إنما يُسوّي بين الناس؛ لذلك يقفون ضد الدعوة حفاظاً على السلطة الزمنية .

ولذلك يقول الحق سبحانه عن سبب افترائهم الكذب : { مَتَاعٌ فِي الدنيا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ }

مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (70)

ويعزُّ إذن على قادة الكفر وأئمة الضلال أن يسلبهم الرياسة والسيادة داعٍ جديد إلى الله سبحانه وتعالى ، ويخافون أن يأخذ الداعي الجديد لله الأمر منهم جميعاً ، لا إلى ذاته ، ولكن إلى مراد ربه .

ولو كان الداعي إلى الله تعالى يأخذ السلطة الزمنية لذاته؛ لقلنا : ذاتٌ أمام ذاتٍ ، ولكنه صلى الله عليه وسلم أوضح أنه يعود حتى فيما يخصه إلى الله سبحانه وتعالى .

ويكشف لنا الحق سبحانه الكسب القليل الذي يدافعون عنه أنه :

{ مَتَاعٌ فِي الدنيا } [يونس : 70] ؛ لأن كُلاً منهم يجب أن يقنع نفسه ، بِحُمْق تقدير المنفعة ، وكلمة « الدنيا » لا بد أن منها حقيقة الشيء المنسوبة إليه .

والاسماء كما نعلم هي سمات مسميات ، فحين تقول : إن فلاناً طويل ، فأنت تعطيه سمة الطول .

وحين تقول : « دنيا » فهي من الدُّنُوّ « أو » الدناءة « .

وإن اعتبرت الدنو هو طريق موصل إلى القيمة ، فهذا أمر مقبول؛ لأن الدرجة الأولى في الوصول إلى الأعلى هي الدنو ، وتلتزم بمنهج الله تعالى فتصعد عُلوّاً وارتفاعاً إلى الآخرة .

إذن : فمن يصف الدنيا بالدناءة على إطلاقها نقول له : لا ، بل هي دنيا بشرط أن تأخذها طريقاً إلى الأعلى ، ولكن من لا يتخذها كذلك فهو من يجعل مكانته هي الدنيئة ، أما من يتخذها طريقاً إلى العلو فهو الذي أفلح باتّباع منهج الله تعالى .

إذن : فالدنيا ليست من الدناءة؛ لأن الدين ليس موضوعه الآخرة ، بل موضوعه هو الدنيا ، ومنهج الدين يلزمك ب » افعل « و » لا تفعل « في الدنيا ، والآخرة هي دار الجزاء ، والجزاء على الشيء ليس عين موضوعة ، وأنت تستطيع أن تجعل الدنيا مفيدة لك إنْ جعلتها مزرعة للآخرة .

وإياك أن تعمل على أساس أن الدنيا عمرها ملايين السنين؛ لأنه لا يعنيك كعائش في الدنيا إن

طال عمرها أم قَصُرَ ، بل يعنيك في الدنيا مقدار مُكْثِك فيها ، وعمرك فيها مظنون ، بل وزمن الدنيا كله مظنون ، وهناك من يموت وعمره ستة أشهر ، وهناك من يموت وعمره مائة سنة ، وكلٌّ يتمتع بقدر ما يعيش ، ثم يرجع إلى الله سبحانه وتعالى .

وهؤلاء الذين ضَلُّوا وقالوا على الله سبحانه افتراء ، هؤلاء لن يفلتوا من الله؛ لأن مرجعهم إليه سبحانه ككل خَلْقه ، وهؤلاء المُضِلُّون لم يلتفتوا إلى عاقبة الأمر ، ولا إلى من بيده عاقبة الأمر ، ولم يرتدعوا .

ولكن من نظر إلى عاقبة الأمر وأحسن في الدنيا فمرجعه إلى حسن الثواب والجنة ، ومن لم ينظر إلى عاقبة الأمر وافترى على الله سبحانه وتعالى الكذب فالمآب والمآل إلى العذاب مصداقاً لقوله تعالى :

{ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ العذاب الشديد بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ } [يونس : 70] .

ودرجة العذاب تختلف باختلاف المعذِّب ، فإن كان المعذِّب ضعيفاً ، فتعذيبه يكون ضعيفاً ، وإن كان المعذِّب متوسط القوة؛ فتعذيبه يكون متوسطاً ، أما إن كان المعذِّب هو قوة القوى فلا بد أن يكون عذابه شديداً ، وهو سبحانه الحق القائل :

{ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ } [هود : 102] .

وبعد أن تكلم الحق سبحانه عن مبدأ تنزيه الألوهية عن اتخاذ الولد ، فهو سبحانه الغنيُّ الذي له ما في السموات والأرض ، وبيَّن لنا سبحانه أننا يجب أن نأخذ المنهج من مصدر واحد وهو الرسل المبلِّغون عن الله تعالى ، شاء الحق سبحانه أن يكلمنا عن موكب الرسالات؛ لأن الكلام حين يكون كلاماً نظرياً ليس له واقع يسنده ، فقد تنسحب النظرية عليه .

أما إن كان للكلام واقع في الكون يؤيد الكلام النظري ، فهذا دليل على صحة الكلام النظري؛ ولذلك فنحن حين نحب أن نضخِّم مسألة من المسائل في داء اجتماعي ، نحاول أن نصنع منه رواية ، أي : أمراً لم يحدث حقيقة ، ولكننا نتخيل أنه حقيقة؛ لنبيِّن الأمر النظري في واقع متخيَّل .

ويقص علينا الحق سبحانه في القرآن قصصاً من الموكب الرسالي؛ ليبيِّن للكفار : أنكم لن تستطيعوا الوقوف أمام هذه الدعوة ، وأمامكم سِجل التاريخ وأحداث الرسل مع أممهم؛ المؤيدين بالمؤمنين؛ والكفار المعاندين والمعارضين ، فإن كان قوم من السابقين قد انتصروا على رسولهم ، فللكفار الحق في أن يكون لهم أمل في الانتصار على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولا بد أن يكون هذا الكلام موجهاً إلى أناس لهم علم ببعض أحداث الموكب الرسالي . ولكن قد يكون علم هذا قد بهت؛ لأن الزمان قد طال عليه .

وهنا يقول الحق سبحانه : { واتل عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ياقوم }

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ (71)

ولقائل أن يقول : ولماذا جاء الله سبحانه هنا بخبر نوح عليه السلام ولم يأت بخبر آدم عليه السلام أو أدريس عليه السلام وهُمَا من الرسل السابقين على نوح عليه السلام؟

ومن هنا جاءت الشبهة في أن آدم لم يكن رسولاً؛ لأن البعض قد ظن أن الرسول يجب أن يحمل رسالته إلى جماعة موجودة من البشر ، ولم يفطن هؤلاء البعض إلى أن الرسول إنما يُرْسَل لنفسه أولاً .

وإذا كان آدم عليه السلام ، أول الخلق فهو مُرسَل لنفسه ، ثم يبلّغ من سوف يأتي بعده من أبنائه .

وقد أعطى الله سبحانه وتعالى التجربة لآدم عليه السلام في الجنة ، فكان هناك أمر ، وكان هناك نهي هو { وَقُلْنَا يَآءَادَمُ اسكن أَنْتَ وَزَوْجُكَ الجنة وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هذه الشجرة } [البقرة : 35] .

وحَذَّره من الشيطان ، ثم وقع آدم عليه السلام في إغواء الشيطان ، وأنزله الله تعالى إلى الأرض واجتباه ، وتاب عليه ، ومعه تجربته ، فإن خالف أمر ربه فسوف يقع عليه العقاب ، وحذره من اتباع الشيطان حتى لا يخرج عن طاعة الله تعالى .

إذن : فقد أعطاه الحق سبحانه المنهج ، وأمره أن يباشر مهمته في الأرض؛ في نفسه أولاً ، ثم يبلغه لمن بعده .

وكما علَّمه الحق سبحانه الأسماء كلها ، علَّم آدم الأسماء لأبنائه فتكلموا : وكما نقل إليهم آدم الأسماء نقل لهم المنهج ، وقد علمه الحق سبحانه الأسماء؛ ليعمر الدنيا ، وعلَّمه المنهج؛ ليحسن العمل في الدنيا؛ ليصل إلى حسن جزاء الآخرة .

واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

{ وعصى ءَادَمُ رَبَّهُ فغوى } [طه : 121] .

ويتبعها الحق سبحانه بقوله تعالى :

{ ثُمَّ اجتباه } [طه : 122] .

ومعنى الاجتباء : هو الاصطفاء بالرسالة لنفسه أولاً ، ثم لمن بعده بعد ذلك ، والحق سبحانه هو القائل :

{ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى } [البقرة : 38] .

والهدى : هو المنهج المنزَّل على آدم عليه السلام ، والرسالة ليست إلا بلاغ منهج وهدى من الله سبحانه للخلق .

وإذا كان الحق سبحانه وتعالى هو القائل :

{ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حتى نَبْعَثَ رَسُولاً } [الإسراء : 15] .

فالسابقون لنوح عليه السلام هم من أبلغهم آدم عليه السلام ، والدليل هو ما جاء من خبر ابني آدم في قول الحق سبحانه :

{ واتل عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابني ءَادَمَ بالحق إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً } [المائدة : 27] .

وهما قد قدَّما القربان إلى الله تعالى .

إذن : فخبر الألوهية موجود عند ابني آدم بدليل قول الحق سبحانه :

{ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخر قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ الله مِنَ المتقين } [المائدة : 27] .

إذن : فهم قد أقروا بوجود الله تعالى ، وأيضا عرفوا النهي ، ؛ لأنه في إحدى الآيتين قال :

{ لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِي أَخَافُ الله رَبَّ العالمين }

[المائدة : 28] .

إذن : فالذين جاءوا بعد آدم عليه السلام عرفوا الإله الواحد ، وعلموا المنهج .

إذن : فالذين يقولون : إن آدم عليه السلام لم يكن رسولاً ، نقول لهم : افهموا عن الله جيداً ، كان يجب أن تقولوا : هذه مسألة لا نفهم فيها ، وكان عليهم أن يسألوا أهل الذِّكْر ليفهموا عنهم أن آدم عليه السلام رسول ، وأن من أولاده قابيل وهابيل ، وقد تكلما في التقوى .

أما لماذا جاء الحق سبحانه هنا بالحديث عن نوح ، عليه السلام ، فلنا أن نعلم أن آدم عليه السلام هو الإنسان الأول ، وأنه قد نقل لأولاده المنهج المُبلَّغ له ، ودلَّهم على ما ينفعهم ، ثم طال الزمن وأنشأت الغفلة ، فجاء إدريس عليه السلام ، ثم تبعته الغفلة ، إلى أن جاء نوح عليه السلام .

وهنا يأتي لنا الحق سبحانه بخبر نوح عليه السلام في قوله :

{ واتل عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ } [يونس : 71] .

والنبأ : هو الخبر الهام الذي يلفت الذهن ، وهو الأمر الظاهر الواضح .

والحق سبحانه يقول :

{ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ * عَنِ النبإ العظيم * الذي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ } [النبأ : 13] .

إذن : فالنبأ هو الخبر الهام المُلْفِت ، وقد جاء هنا خبر نوح عليه السلام الذي يُبلِّغ قومه أي : يخاطبهم ، وهو قد شهد لنفسه أنه رسول يبلِّغ منهجاً .

وكلمة « قَوْم » لا تطلق في اللغة إلا على الرجال ، يوضح القرآن ذلك في قوله الحق سبحانه :

{ لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عسى أَن يَكُونُواْ خَيْراً مِّنْهُمْ وَلاَ نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عسى أَن يَكُنَّ خَيْراً

مِّنْهُنَّ } [الحجرات : 11] .

إذن : فالقوم هم الرجال ، والمرأة إنما يُبنى أمرها على السر ، والحركة في الدنيا للرجل ، وقد شرحنا ذلك في حديث الحق سبحانه لآدم عليه السلام عن إبليس ، فقال تعالى :

{ إِنَّ هذا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الجنة فتشقى } [طه : 117] .

ولأن الخطاب لآدم فقد قال الحق سبحانه : { فتشقى } [طه : 117] .

ولم يقل : فتشقيا؛ مما يدل على أن المرأة لا شأن لها بالأعمال التي خارج البيت والتي تتطلب مشقة ، فالمرأة تقرُّ في البيت؛ لتحتضن الأبناء ، وتُهيِّء السكن للرجل بما فيها من حنان وعاطفة وقرار واستقرار . أما القيام والحركة فللرجل .

فالحق سبحانه يقول :

{ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الجنة فتشقى } [طه : 117] .

إذن : فالكدح للرجل ومتطلبه القيام لا القعود .

ثم يقول الحق سبحانه على لسان نوح عليه السلام .

{ ياقوم إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَّقَامِي } [يونس : 71] .

وهنا يُحنِّن نوح قومه بإضافات التحنن ، أي : جاء بالإضافة التي تُشْعِر المخاطبين بأنه منهم وهم منه ، وأنه لا يمكن أن يغشهم فهم أهله ، مثل قول النائب الذي يخطب في أهل دائرته الانتخابية : « أهلي وعشيرتي وناخبيّ » وكلها اسمها إضافة تحنن .

وكذلك مثل قول لقمان لابنه :

{ يابني لاَ تُشْرِكْ بالله إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } [لقمان : 13] .

وقوله :

{ يابني إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السماوات أَوْ فِي الأرض يَأْتِ بِهَا الله إِنَّ الله لَطِيفٌ خَبِيرٌ } [لقمان : 16] .

وقوله : { يابني أَقِمِ الصلاة } [لقمان : 17] .

وهذا إضافات التحنن وفيها إيناس للسامع أن يقرب ويستجيب للحق .

{ ياقوم إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَّقَامِي } [يونس : 71] .

و « الكاف والياء والراء » تأتي لمعنيين :

الأول : كبر السن ، وهي : كبر يكبر .

والثاني : العظمة والتعظيم ، إلا أن التعظيم يأتي ليبيّن أنه أمر صعب على النفس ، مثل قول الحق سبحانه :

{ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِباً } [الكهف : 5] .

أي : أن هذه الكلمة التي خرجت من أقوالهم أمر صعب وشاق ، وهي قولهم :

{ قَالُواْ اتخذ الله وَلَداً } [الكهف : 4] .

وهذه الكلمة إنما تعظم على المؤمن ، وهي مسألة صعبة لا يمكن قبولها فلا يوجد مؤمن قادر على أن يقبل ادعاء خلق من خلق الله تعالى أن له سبحانه ولداً .

ومرة تكون العظمة من جهة أخرى ، مثل قول الحق سبحانه :

{ كَبُرَ عَلَى المشركين مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ } [الشورى : 13] .

أي : عَظُم على المشركين ، وصَعب على أنفسهم ، وشَقَّ عليهم ما تدعوهم إليه من أن الإله هو واحد أحد ، ولا سلطان إلا له سبحانه .

وهكذا ، إن كانت الكلمة مناقضة للإيمان فهي تكبر عند المؤمنين ، وإن كانت الكلمة تدعو الكافرين إلى الإيمان فهي تشق عليهم .

وهنا يأتي على لسان سيدنا نوح عليه السلام :

{ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَّقَامِي } [يونس : 71] .

ونحن نعلم أن سيدنا نوحاً عليه السلام مكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً .

أي : أن حياته طالت كثيراً بين قومه ، كما أن تقريعه للكافرين جعله ثقيلاً عليهم .

أو أن : { كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَّقَامِي } [يونس : 71] .

تعني : أنه حمَّلهم ما لا يطيقون؛ لأن نوحاً عليه السلام أراد أن يُخرجهم عما ألفوا من عبادة الأصنام ، فشقَّ عليهم ذلك .

إذن : فمبدأ عبادة الإله الواحد يصعب عليهم .

أو أن الأصل في الواعظ أو المبلّغ أن يكون على مستوى القيام وهم قعود ، وكان سيدنا عيسى عليه السلام يتكلم مع الحواريين وهو واقف ، والوقوف إشعار بأن مجهود الهدي يقع على سيدنا عيسى عليه السلام بينما يقعد الحواريون ليستمعوا له في راحة .

إذن : فقول الحق سبحانه :

{ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَّقَامِي } [يونس : 71] .

أي : إن صعب عليكم ما أدعوكم اليه .

ويصح أن نأخذها من ناحية طول الوعظ والتكرار في ألف سنة إلا خمسين عاماً ، أو أن مقامي كبر عليكم ، بمعنى : أننا انقسمنا إلى قسمين؛ لأن المنهج الذي أدعو إليه لا يعجبكم ، وكنت أحب أن نكون قسماً واحداً .

وها هو ذا سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وأرضاه حين أحس أن الخلافة تقتضي أن يسمِّي من يَخْلُفُهُ من بعده ، قال له بعض الناس : لماذا لا تولي علينا عبد الله بن عمر ، فقالَ ابن

الخطاب : بحسب آل خطاب أن يُسأل منهم عن أمة محمد صلى الله عليه وسلم رجل واحد . ثم أضاف : أعلم أنكم مَلَلْتُم حُكْمي؛ لأني شديد عليكم .

إذن : فقد أحس نوح عليه السلام أنه انقسم هو وقومه إلى قسمين : هو قد أخذ جانب الله سبحانه الذي يدعو إلى عبادته ، وهم أخذوا جانب الأصنام التي ألفوا عبادتها .

لذلك يقول الحق سبحانه على لسان نوح عليه السلام :

{ فَعَلَى الله تَوَكَّلْتُ } [يونس : 71] .

أي : أنني لن أتنازل عن دعوتي ، ونلحظ أنك إن قلت : « توكَّلتُ على الله » فقد يعني هذا أنك قد تقول : وعلى فلان ، وفلان ، وفلان لكنك إن قلت : { فَعَلَى الله تَوَكَّلْتُ } [يونس : 71] .

فأنت قد قصرت توكُّلك على الله فقط .

وهكذا واجه نوح عليه السلام قومه ، ورصيده في ذلك هو الاعتماد والتوكل على من أرسله سبحانه ، ويحاول أن يهديهم ، لكنهم لم يستجيبوا ، وقال لهم :

{ فأجمعوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً } [يونس : 71] .

ومعنى جمع الأمر : (أي : جمع شتات الآراء كلها في رأي واحد) ، أي : اتفقوا يا قوم على رأي واحد ، وأنتم لن تضروني . وجمع أمر الأجيال التي ظل سيدنا نوح عليه السلام يحاول هدايتها تحتاج إلى جهد؛ لأن الجيل العقلي ينقسم إلى عشرين سنة .

وقد ظل سيدنا نوح عليه السلام يدعو القوم بعدد ما عاش فيهم ، أي : ألف سنة إلى خمسين ، فكم جيل إذن ظل نوح يعالجه؟

إنها أجيال متعددة ، ومع ذلك لم يظفر إلا بقدر قليل من المؤمنين بحِمْل سفينة واحدة ، ومعهم الحيوانات أيضاً ، فضلاً عن أن ابنه خرج أيضاً مع القوم الكافرين ، وناداه نوح عليه السلام ليركب معه وأن يؤمن ، فرفض ، وآثر أن يظل في جانب الكفر ، بما فيه من فناء للقوم الكافرين ، وظن أنه قادر على أن يأوي إلى جبل يعصمه من الطوفان ، ولم ينظر ابن نوح إلى جندي آخر من جنود الله سبحانه يقف عقبة في سبيل الوصول إلى الجبل ، وهو الموج .

إذن : فقول نوح عليه السلام :

{ فَعَلَى الله تَوَكَّلْتُ } [يونس : 71] .

له رصيد إيماني ضمني ، فلا يوجد مجير على الله من خلق الله؛ لأن الخلق كله جماده ونباته وحيوانه إنما ينصاع لأمر الله تعالى في نصرة نوح عليه السلام ولن يتخلف شيء .

هكذا كان توكُّل نوح عليه السلام على الله تعالى بما في هذا التوكل من الرصيد الإيماني المتمثل في :

{ للَّهِ مُلْكُ السماوات والأرض } [المائدة : 120] .
و { للَّهِ ما فِي السماوات وَمَا فِي الأرض } [البقرة : 284] .
ولن يخرج شيء عن ملكه سبحانه .
ومن العجيب أنه لم يخرج عن مراد الله في « كن » إلا الإنسان المختار ، لم يخرج بطبيعة تكوينه ، ولكن الحق سبحانه وهبه من عنده أن يكون مختاراً ، ولو لم يهبه الله تعالى أن يكون مختاراً لما استطاع أن يقف ، ولكان كل البشر من جنود الحق .
وقد قال نوح عليه السلام :
{ فَعَلَى الله تَوَكَّلْتُ فأجمعوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ } [يونس : 71] .
والإنسان حين يهمه أمر من الأمور يظل متردداً بين خواطر شتى ، ويحاول أن يرى ميزات كل خاطر ، ويختار أفضلها ، وإذا ما جمع الإنسان خواطره كلها من خاطر واحد ، فهذا يعني استقراره على رأي واحد ، وجمع أمره عليه .
أما إذا كان الأمر متعدد الناس ، فكل واحد منهم له رأي ، فإن اجتمعوا وقرروا الاتفاق على رأي واحد ، فهذا جمعٌ للأمر .
والاتفاق على رأي واحد إنما يختلف باختلاف هويّة المجتمعين ، فإن كانوا أهل خير فهم ينزلون بالشر ، وإن كانوا أهل شر فهم يصعدون بالشر .
ومثال ذلك : أبناء يعقوب عليه السلام حينما حدث بينهم وبين أخيهم من الحسد لمكانة يوسف عليه السلام فقالوا :
{ اقتلوا يُوسُفَ أَوِ اطرحوه أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ } [يوسف : 9] .
أي : أن الاقتراح بقتل يوسف هدفه ألا يلتفت وجه يعقوب وقلبه إلى أحد سواهم ، وأتبعوا اقتراحهم بقتل يوسف باقتراح التوبة ، فقالوا لبعضهم البعض :
{ وَتَكُونُواْ مِن بَعْدِهِ قَوْماً صَالِحِينَ } [يوسف : 9] .
وهم قد ظنوا أن التوبة إن نفَّذوا القتل ستصبح مقبولة .
وهذا الشر البادي في حديثهم لم يقبله بعضهم في بادىء الأمر؛ لأنهم أبناء نبوّة ، وما يزالون هم الأسباط ، لا يصعد فيهم الشر ، بل ينزل ، فقال واحدٌ منهم : لا تقتلوه بل { اطرحوه أَرْضاً } [يوسف : 9] .
أي : أنه خفَّف المسألة من القتل إلى الطرح أرضاً ، وهذه أول درجة في نزول الأخيار عن الشر الأول ، وأيضاً تنازلوا عن الشر الثاني ، وهو طرحه أرضاً؛ حتى لا يأكله حيوان مفترس ، وجاء اقتراح : { وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الجب يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السيارة إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ } [يوسف : 10] .
ثم أجمعوا أمرهم أخيراً حتى نزل الشر مرة أخرى لاحتمال ورود النجاة .
إذن : فالأخيار حين يجتمعون على شر لا بد أن ينزل .

ومثال ذلك : رجل طيب رأى ابنه وهو يُضرَب من آخر ، فيفكر للحظة في أن يضرب غريم ابنه بطلقة من (مسدس) ، ثم يستبدل هذه الفكرة بفكرة الاكتفاء بضربه ضرباً مبرحاً بالعصا ، ثم يتنازل عن ذلك بأن يفكر في صفعه صفعتين ، ثم يتنازل عن فكرة الصفع ويفكر في توبيخه ، ثم يتنازل عن فكرة التوبيخ ويكتفي بالشكوى لوالده ، وهذا ينزل الشر عند أهل الخير .

أما إن كان الرجل من أهل الشر ، فهو يبدأ بفكرة الشكوى لوالد من ضرب ابنه ، ثم يرفضها ليصعد شره إلى فكرة أن يصفعه هو ، ثم لا ترضيه فكرة الصفع ، فيفكر في أن يضربه ضرباً شديداً ، ولا ترضيه هذه الفكرة ، يقول لنفسه : « سأطلق عليه الرصاص » .

وهكذا يتصاعد الشر من أهل الشر .

وهنا يقول الحق سبحانه على لسان سيدنا نوح عليه السلام :

{ فأجمعوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ } [يونس : 71] .

أي : اجتمعوا والزموا رأياً واحداً تحرصون على تنفيذه أنتم وشركاؤكم ، وهو ينصحهم رغم أنهم أعداؤه ، وكان عليه أن يحرص على اختلافهم ، ولكن لأنه واثق من توكله على ربه؛ فهو يعلم أنهم مهما فعلوا فلن يقدروا عليه ، ولن ينتصروا على دعوته إلا بالإقدام على إهلاك أنفسهم .

أو أنه مثلما يقول العامة : « أعلى ما في خيولكم اركبوه » أي : أنه يهددهم ، ولا يفعل ذلك إلا إذا كان له رصيد من قوة التوكل على الله تعالى .

ولا يكتفى بذلك بل يضيف :

{ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً } [يونس : 71] .

والغمة : منها الغمام ، ومنها الإغماء ، أي : فقد الوعي وسَتْر العقل ، أي : أنه قال لهم : لا تتبعوا أنفسكم بتبادل الهمسات فيما بينكم بل افعلوا ما يحلو لكم ، ولا تحاولوا ستر ما سوف تفعلون .

إن عليكم أن تجتمعوا على راي واحد أنتم وشركاؤكم الذين تعتمدون عليهم ، وتعبدونهم ، أو شركاؤكم في الكفر ، ولم يأبَهْ نوح عليه السلام بتقوية العصبية المضادة له؛ لأنه متوحل على الله فقط .

لذلك يقول : { ثُمَّ اقضوا إِلَيَّ وَلاَ تُنظِرُونَ } [يونس : 71] .

أي : أنه يُحفِّزهم على الاجتماع على أمر واحد ومعهم شركاؤهم سواء من الأصنام التي عبدوها أو من أقرانهم في الكفر وأن يصمموا على المضيّ في تنفيذ ما اتفقوا عليه .

و « قضى » أي : حكم حكماً ، ولكن الحكم على شيء لا يعني الاستمرار بحيث ينفذ ، فقد يُقضيَ على إنسان بحكم؛ ويوقف التنفيذ .

لكن قوله : { اقضوا إِلَيَّ } يعني : أصدروا حكمكم وسيروا إلى تنفيذ ما قضيتم به .

ثم يقول : { وَلاَ تُنظِرُونَ } أي : لا تمهلوني في تنفيذ ما حكمتم به عليَّ .
والمتأمل للآية الكريمة يجد فيها تحدياً كبيراً ، فهو أولاً يطلب أن يجتمعوا على أمر وا حد ، هم وشركاؤهم ، ثم لا يكون على هذا الأمر غُمَّة ، ثم اقضوا إليَّ ما اتفقتم عليه من حكم ونفِّذوه ولا تؤجلوه ، فهل هناك تحدٍّ للخصم أكثر من ذلك؟
لقد كانوا خصوماً معاندين ، ظل نوح عليه السلام يترفق إليهم ويتحنن لهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، وصبر عليهم كل هذا الوقت ، ولا بد إذن من حدوث فاصل قوي ، ولهذا كان الترقّي في التحدي ، فدعاهم إلى جمع الأمر ومعهم الشركاء ، ثم بإصدار حكمهم عليه وعدم الإبطاء في تنفيذه ، كان هذا هو التحدي الذي أخذ يترقى إلى أن وصل إلى قبول تنفيذ الحكم .

والنفسية العربية على سبيل المثال حين سامحت ، وصبرت ، وصفحت في أمر لا علاقة له بمنهج الله ، بل بأمر يخص خلافاً على الأرض ، تجد الشاعر العربي يقول عن « بني ذُهْل » الذين اتعبوا قوم الشاعر كثيراً ، ولكن قومه صفحوا عنهم؛ يقول الشاعر :

صَفَحْنا عن بني ذُهْلٍ ... وقلنا : القومُ إخوانُ
عسى الأيامُ أنْ يرجع ... نَ قوماً كالذي كانوا
فلما صَرَّحَ الشرُّ ... فأمْسَى وهو عريانُ
ولم يبقَ سوى العدوا ... ن دِنَّاهم كما دانوا
مَشَيْنا مِشْيةَ الليثِ ... غَدَا والليثُ غضبانُ
بِضرب فيه توهينٌ ... وتخضيعٌ وإقرانُ
وطعْن كَفَمِ الزقِّ ... غَدَا والزِّقُّ مَلآنُ
وفي الشرِّ نجاةٌ حي ... ن لا يُنجيكَ إحسانُ
وبعضُ الحِلْمِ عند الجهْ ... لِ للذِّلَّةِ إذعانُ

إذن : فالمناجرة بين نوح عليه السلام وقومه اقتضت التشديد ، لعل بشريتهم تلين ، ولعل جبروتهم يلين ، ولعلهم يعلنون الإيمان بالله تعالى ، ولكنهم لم يرتدعوا .
لذلك يقول الحق سبحانه على لسان نوح بعد ذلك : { فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِّنْ أَجْرٍ }

فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (72)

أي : إن توليتم عن دعوتي لعبادة الإله الحق ، فأنا أدعوكم إلى مثيل لكم هو أنا ، بل أدعوكم إلى من هو فوقي وفوقكم ، فأنا لا أريد أن أستولي على السلطة الزمنية منكم ، ولا أبحث عن جاهٍ ، فالجاه كله لله تعالى .
والله لا يحتاج إلى جاهٍ منكم لأن جاهه سبحانه ذاتي فيه ، ولكن لنمنع جبروتكم وتجبُّركم؛ لتعيشوا

على ضوء المنهج الحق؛ لتكون حياتكم صالحة ، وكل ذلك لمصلحتكم .

{ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِّنْ أَجْرٍ } [يونس : 72] فهل يُمَالِيء نوح عليه السلام أعداءه .

إن الإنسان يُمَالِيء العدو؛ لأن يخاف أن يوقع به شرّاً ، ونوح عليه السلام لا يخافهم؛ لأنه يعتمد على الله تعالى وحده ، بل هو يدلُّهم على مواطن القوة فيهم ، وهو يعلم أن قوتهم محدودة ، وأن شرهم مهما بلغ فهو غير نافذ ، وقد لا يكون منهم شر على الإطلاق ، فهل هناك نفعٌ سيعود على نوح عليه السلام ويُمنَع عنه؟

لا؛ لأنه يعلن أنه لا يأخذ أجراً على دعوته .

هم إذن لا يقدرون على ضُرِّه ، ولا يقدرون على نفعه ، وهو لا يريد منهم نفعاً؛ لأن مركزه بإيمانه بالله الذي أرسله مركزٌ قويٌّ .

وهو لا يسألهم أجراً ، وكلمة « أجر » تعني : ثمن المنفعة ، والأثمان تكون عادة في المعاوضات ، إما أن تكون ثمناً للأعيان والذوات ، وإما أن تكون ثمناً للمنفعة .

ومثال ذلك : أن إنساناً يرغب في شراء « شقة » في بيت فيذهب إلى رجل يملك بيتاً ، ويطلب منه أن يبيع له عدداً من الأسهم بقيمة الشقة .

وهناك آخر يريد أن يستأجر شقة فيذهب إلى صاحب البيت؛ ليدفع له قيمة إيجار شقة في البيت ، اي : يدفع له قيمة الانتفاع بالشقة ، والأجر لا يُدفع إلا لطلب منفعة مُلِحَّة .

وكان على نوح عليه السلام أن يطلب منهم أجراً؛ لأنه يهديهم إلى الحق ، هذا في أصول التقييم للأشياء؛ لأنه يقدِّم لهم نفعاً أساسياً ، لكنه يعلن أنه لا يطلب أجراً وكأنه يقول : إن عملي كان يجب أن يكون له أجر؛ لأن منفعته تعود عليكم ، وكان من الواجب أن آخذ أجراً عليه .

ولكن نوحاً عليه السلام تنازل عن الأجر منهم؛ لأنه أراد الأجر الأعلى ، فلو أخذ منهم؛ فلسوف يأخذ على قدر إمكاناتهم ، ولكن الأجر من الله تعالى هو على قدر إمكانيات الله سبحانه وتعالى ، وفارق بين إمكانات المحدود العطاء وهو البشر ، ومن له قدرة عطاء لا نهاية لها وهو الله سبحانه وتعالى .

وهنا يقول : { فَإِن تَوَلَّيْتُمْ } [يونس : 72] .

فهذا التولِّي والإعراض لا يضرُّني ولا ينفعني؛ لأنكم لا تملكون لي ضُرّاً ولا تملكون لي نفعاً؛ لأني لن آخذ منكم أجراً .

ومن العجيب أن كل مواكب الرسل عليهم السلام حين يخاطبون أقوامهم يخاطبونهم بهذه العبارة : { مَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ } [ص : 86] .

إلا في قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام وقصة موسى عليه السلام ، فعن قصة سيدنا إبراهيم يأتي قول الحق سبحانه :

{ واتل عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ * قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ آبَآءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ } [الشعراء : 6974] .

ولم يأت الحق سبحانه فيها بشيء عن عدم السؤال عن الأجر .

وأيضاً في قصة سيدنا موسى عليه السلام ، قال الحق سبحانه :

{ قَالَ رَبِّ إِنِي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ * وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلاَ يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلى هَارُونَ * وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ * قَالَ كَلاَّ فاذهبا بِآيَاتِنَآ إِنَّا مَعَكُمْ مُّسْتَمِعُونَ * فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فقولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ العالمين * أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بني إِسْرَائِيلَ } [الشعراء : 1217] .

وهنا أيضاً لا نجد قولاً لموسى عليه السلام في عدم السؤال عن الأجر .

أما هنا في قصة نوح عليه السلام فنجد قول الحق سبحانه :

{ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الله وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ المسلمين } [يونس : 72] .

وكذلك جاء نفس المعنى في قصة هود عليه السلام ، حيث يقول الحق سبحانه :

{ كَذَّبَتْ عَادٌ المرسلين * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلاَ تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فاتقوا الله وَأَطِيعُونِ * وَمَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ على رَبِّ العالمين } [الشعراء : 123127] .

وجاء نفس المعنى أيضاً في قوم ثمود ، إذ قال الحق سبحانه :

{ كَذَّبَتْ ثَمُودُ المرسلين * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فاتقوا الله وَأَطِيعُونِ * وَمَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ على رَبِّ العالمين } [الشعراء : 141145] .

وكذلك جاء نفس القول على لسان لوط عليه السلام ، فيقول الحق سبحانه :

{ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ المرسلين * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فاتقوا الله وَأَطِيعُونِ * وَمَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ على رَبِّ العالمين } [الشعراء : 160164] .

ونفس القول جاء على لسان شعيب عليه السلام في قول الحق سبحانه :

{ كَذَّبَ أَصْحَابُ الأيكة المرسلين * إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلاَ تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فاتقوا الله وَأَطِيعُونِ * وَمَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ على رَبِّ العالمين } [الشعراء : 176180] .

إذن : فغالبية الموكب الرسالي يأتي على ألسنتهم الكلام عن الأجر :

{ وَمَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ } [الشعراء : 164] .

فكأن الرسل عليهم السلام يقولون للبشر الذين ارسلوا إليهم : لو أنكم فطنتم إلى حقيقة الأمر لكان من الواجب أن يكون لنا أجر على ما نقدمه لكم من منفعة ، لكنَّا لا نريد منكم أنتم أجراً ، إنما سنأخذ أجرنا من ربِّ العالمين؛ لأن المنفعة التي نقدمها لكم لا يستطيع بشر أن يقوّمها ، وإنما القادر على تقييمها هو واضع المنهج سبحانه ومُنزِله على رسله .

وها هو القرآن الكريم يأتي على لسان رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ، ويقول :
{ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ المودة فِي القربى } [الشورى : 23] .
أما لماذا لم تأت مسألة الأجر على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام فنحن نعلم أن إبراهيم عليه السلام أول ما دعا؛ دعا عمه ، وكان للعم حظ تربية إبراهيم ، وله على سيدنا إبراهيم حق الأبوة .

وكذلك سيدنا موسى عليه السلام ، فقد دعا فرعون ، وفرعون هو الذي قام بتربية موسى ، وكانت زوجة فرعون تريده قرة عين لها ولزوجها ، حتى إن فرعون فيما بعد قد ذكَّره بذلك ، وقال :
{ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ } [الشعراء : 18] .
أما هنا في دعوة سيدنا نوح عليه السلام فيأتي قول القرآن على لسان نوح بما يوضِّح الأمر لقوم نوح :
فإن توليتم فلا حزن لي ، ولا جزع؛ لأنكم لن تصيبوني بضُرٍّ ، ولن تمنعوا عني منفعة؛ لأنكم لم تسألوني أن آتي لكم بالهدى لآخذ أجري منكم ، ولكن الحق سبحانه هو الذي بعثني ، وهو الذي سيعطيني أجري ، وقد أمرني سبحانه أن أكون من المسلمين له حَقّاً وصدقاً .
وفي حياتنا نجد أن صديقاً يرسل إلى صديقه عاملاً من عنده ليصلح شيئاً ، فهو يأخذ الأجر من المرسل ، لا من المرسل إليه ، وهذا أمر منطقي وطبيعي .
ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الفلك }

فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (73)

وكأن الأمر الذي وقع من الحق سبحانه نتيجة عدائهم للإيمان كان من الممكن أن يشمله؛ لأنه لا يقال : نجَّيتُك من كذا إلا إذا كان الأمر الذي نجيتك منه ، توشك أن تقع فيه ، وكان هذا بالفعل هو الحال مع الطوفان ، فالحق سبحانه يقول :
{ فَفَتَحْنَآ أَبْوَابَ السمآء بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا الأرض عُيُوناً } [القمر : 1112] .
ومن المتوقع أن تشرب الأرض ماء المطر ، لكن الذي حدث أن المطر انهمر من السماء والأرض

أيضاً تفجَّرتْ بالماء؛ ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى يقول :

{ فَالْتَقَى المآء على أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ } [القمر : 12] .

أي : أن ذلك الأمر كان مقدَّراً؛ حتى لا يقولن أحد : إن هذه المسألة ظاهرة طبيعية .

لا إنه أمر مُقدَّر ، وقد كانت السفينة موجودة بصناعة من نوح عليه السلام؛ لأن الحق سبحانه قد أمره بذلك في قوله تعالى في سورة هود : { واصنع الفلك بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا } [هود : 37] .

ويقول الحق سبحانه في الآية التي بعدها :

{ وَيَصْنَعُ الفلك وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُواْ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ } [هود : 38] .

ويركب نوح عليه السلام السفينة ، ويركب معه من آمن بالله تعالى ، وما حملوا معهم من الطير والحيوان من كُلِّ نوع اثنين ذكراً وأنثى .

وقول الحق سبحانه :

{ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ } [يونس : 73] .

يوحي أن الذي صعد إلى السفينة هم العقلاء من البشر ، فكيف نفهم مسألة صعود الحيوانات والطيور إلى السفينة؟

نقول : إن الأصل في وجود هذه الحيوانات وتلك الطيور أنها مُسخَّرة لخدمة الإنسان ، وكان لا بد أن توجد في السفينة؛ لأنها ككائنات مسخّرة تسبّح الله ، وتعبد الحق سبحانه ، فكيف يكون علمها فوق علم العقلاء الذين كفرو بعضهم ، ثم أليس من الكائنات المسخَّرة ذلك الغراب الذي علَّم « قابيل » كيف يواري سوأة أخيه؟! إنه طائر ، لكنه علم ما لم يعلمه الإنسان!

والحق سبحانه هو القائل :

{ فَبَعَثَ الله غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الأرض لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ } [المائدة : 31] .

ثم يقول الحق سبحانه في الآية التي نحن بصددها الآن :

{ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الفلك وَجَعَلْنَاهُمْ خَلاَئِفَ وَأَغْرَقْنَا الذين كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فانظر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المنذرين } [يونس : 73] .

وكلمة « الفُلْك » من الألفاظ التي تطلق على المفرد ، وتطلق على الجماعة .

وقول الحق سبحانه : { فَنَجَّيْنَاهُ } نعلم منه أن الفعل من الله تعالى ، وهو سبحانه حين يتحدث عن أي فعل له ، فالكلام عن الفعل يأتي مثل قوله سبحانه :

{ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } [الحجر : 9] .

ولكنه حين يتحدث عن ذاته ، فهو يأتي بكلمة تؤكد الوحدانية وتكون بضمير الإفراد مثل : { إنني أَنَا الله } [طه : 14] .

وهنا يقول الحق سبحانه :

{ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الفلك } [يونس : 73] .

كلمة « أنجى » للتعددية ، وكلمة « نَجَّى » تدل على أن هناك معالجة شديدة للإنجاء ، وعلى أن الفعل يتكرر .

وقول الحق سبحانه :

{ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلاَئِفَ } [يونس : 73] .

تعني : أن الخليفة هو من يجيء بعد سابق ، وكلمة « الخليفة » تأتي مرة للأعلى ، مثل الحال هنا حيث جعل الصالح خليفة للصالح ، فبعد أن أنجى الله سبحانه العناصر المؤمنة في السفينة ، أغرق الباقين .

إذن : فالصالحون على ظهر السفينة أنجبوا الصالحين من بعدهم .

ومرة تأتي كلمة « الخليفة » للأقل ، مثل قول الحق سبحانه :

{ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ الصلاة واتبعوا الشهوات } [مريم : 59] .

فهنا تكون كلمة الخليفة موحية بالمكانة الأقل ، وهناك معيار وضعه الحق سبحانه لتقييم الخليفة ، هو قول الحق سبحانه :

{ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأرض مِن بَعْدِهِم لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ } [يونس : 14] .

ولأن الإنسان مخيَّر بين الإيمان والكفر ، فسوف يَلْقَى مكانته على ضوء ما يختار .

ويقول الحق سبحانه :

{ وَعَدَ الله الذين آمَنُواْ مِنْكُمْ وَعَمِلُواْ الصالحات لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأرض كَمَا استخلف الذين مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الذي ارتضى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً } [النور : 55] .

إذن : فالخليفة إما أن يكون خليفة لصالحٍ ، وإما أن يكون صالحاً يَخْلُفُ فاسداً .

وهنا يقول الحق سبحانه :

{ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلاَئِفَ وَأَغْرَقْنَا الذين كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا } [يونس : 73] .

والآيات كما قلنا من قبل إما آيات الاعتبار التي تهدي إلى الإيمان بالقوة الخالقة ، وهي آيات الكون كلها ، فكل شيء في الكون يدلُّكَ على أن هذا الكون مخلوق على هيئة ولغاية . بدليل أن الأشياء في هذا الكون تنتظم انتظاماً حكيماً .

وإذا أردت أن تعرف دقة هذا الخلق ، فانظر إلى ما ليدك فيه دَخْلٌ ، وما ليس ليدك فيه دخل؛ ستجد كل ما ليس ليدك فيه دخل على درجة هائلة من الاستقامة ، والحق سبحانه يقول :

{ لاَ الشمس يَنبَغِي لَهَآ أَن تدْرِكَ القمر وَلاَ اليل سَابِقُ النهار وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ } [يس : 40] .

أما ما ليدك فيه دخل ، فاختيارنا حين يتدخل فهو قد يفسد الأشياء .

وهكذا رأينا أن الآيات الكونية تلفت إلى وجود الخالق سبحانه وهي مناط الاستدلال العقلي على وجود الإله ، أو أن الآيات هي الأمور العجيبة التي جاءت علىأيدي الرسل عليهم السلام لتقنع الناس بأنهم صادقون في البلاغ عن الله سبحانه وتعالى .

ثم هناك آيات القرآن الكريم التي يقول فيها الحق سبحانه :

{ هُوَ الذي أَنزَلَ عَلَيْكَ الكتاب مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكتاب } [آل عمران : 7] .

وهي الآيات التي تحمل المنهج .

وحين يقول الحق سبحانه :

{ وَأَغْرَقْنَا الذين كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا } [يونس : 73] .

فهو يعلِّمنا أنه أغرق من كذَّبوا بالآيات الكونية ولم يلتفتوا إلى بديع صنعه سبحانه ، وحكمة تكوين هذه الآيات ، وترتيبها ورتابتها ، وهم أيضاً كذَّبوا الآيات المعجزات ، وكذلك كذَّبوا بآيات الأحكام التي جاءت بها رسلهم .

وينهي الحق سبحانه وتعالى هذه الآية بقوله :

{ فانظر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المنذرين } [يونس : 73] .

والخطاب هنا لكل من يتأتَّى منه النظر ، وأوَّلُهم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو أول مُخاطَب بالقرآن .

وأنت حين تقول : « انظر »؛ فأنت تُلْفِت إلى أمر حسِّي ، إن وجَّهت نظرك نحوه جاء الإشعاع من المنظور إليه ، ليرسم أبعاد الشيء؛ فتراه .

والكلام هنا عن أمور غائبة ، فهي أحداث حسية وقعت مرة واحدة ثم صارت خبراً ، فإن أخبرك بها مخبر فيكون تصديقك بها على مقدار الثقة فيه .

فمن رأى عصا موسى عليه السلام وهي تلقف الحبال التي ألقاها السحرة؛ آمن بها ، مثلما آمن من شاهد النار عاجزة عن إحراق إبراهيم عليه السلام ، ومن رأى عيسى عليه السلام وهو يُشفي الأَكْمَهَ والأبْرص ويُحيي الموتى بإذن الله تعالى ، فقد آمن بما رأى ، أما من لم ير تلك المعجزات فإيمانه يتوقف على قدر توثيقه لمن أخبر ، فإن كان المخبر بذلك هو الله سبحانه وفي القرآن الكريم فإيماننا بتلك المعجزات هو أمر حتمي؛ لأننا آمنا بصدق المبلِّغ عن الله تعالى .

ونحن نفهم أن الرسالات السابقة على رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، كانت رسالات موقوتة زماناً ومكاناً ، لكن الإسلام جاء لينتظم الناس الموجَّه إليهم منذ أن أرسل الله رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم إلى أن تقوم الساعة .

لذلك جاء القرآن آيات باقيات إلى أن تقوم الساعة ، وهذا هو السبب في أن القرآن قد جاء

معجزة عقلية دائمة يستطيع كل من يدعو إلى منهج رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول : محمد رسول من عند الله تعالى ، وتلك هي معجزته .

وساعة يقول الحق سبحانه : { فانظر } فمثلها مثل قول الحق سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم :

{ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الفيل } [الفيل : 1] .

وحادثة الفيل قد حدثت في العام الذي ولد فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبطبيعة الحال فسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لم ير حادثة الفيل ، ولكن الذين رأوها هم الذين كانوا يعيشون وقتها ، وهذا ما يلفتنا إلى فارق الأداء ، فعيونك قد ترى أمراً ، وأنذك قد تسمع خبراً ، ولكن من الجائز أن تخدعك حواسك ، أما الخبر القادم من الله تعالى ، وإن كان غائباً عنك الآن وغير مسموع لك فخذه على أنه أقوى من رؤية العين .

ولقائل أن يقول : لماذا لم يقل الحق : « ألم تعلم » وجاء بالقول :

{ أَلَمْ تَرَ } [الفيل : 1] .

وأقول : ليدلنا الله سبحانه على أن العلم المأخوذ من الله تعالى عن أمر غيبي عليك أن تتلقاه بالقبول أكثر من تلقيك لرأي العين .

إذن : { فانظر } تعني : اعلمْ الأمر وكأنه مُجسَّم أمامك؛ لأنك مؤمن بالله تعالى وكأنك تراه ، ومُبلِّغك عن الله سبحانه هو رسول تؤمن برسالته ، وكل خبر قادم من الله تعالى ورسوله صلى الله عليه سولم لا يمكن أن يتسرب إليه الشك ، ولكن الشك لا يمكن أن يتسرب إلى المخبر الصادق أبداً .

ولقائل أن يقول : ولماذا لم يقل الحق : « فانظر كيف كان عاقبة الكافرين » بدلاً من قول الحق سبحانه :

{ فانظر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المنذرين } [يونس : 73] .

وهنا نقول :

إن الحق سبحانه وتعالى قد بيَّن أنه لم يعذِّب قبل أن يُنْذِر ، فهو قد أنذر أولاً ، ولم يأخذ القوم على جهلهم .

« فانظر » كما نعلم هي خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخطاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يشمل أمته أيضاً ، وجاء هذا الخبر تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن صادف من قومك يا محمد ما صادف قوم نوح عليه السلام فاعلمْ أن عاقبتهم ستكون كعاقبة قوم نوح .

وفي هذا تحذير وتخويف للمناوئين لرسول الله صلى الله عليه وسلم .
ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلاً إلى قَوْمِهِمْ }

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ (74)

وكلمة « بعث » هنا تستحق التأمل ، فالبعث إنما يكون لشيء كان موجوداً ثم انتهى ، فيبعثه الله تعالى .
وكلمة { بَعَثْنَا } هذه تلفتنا إلى الحق سبحانه أول ما خلق الخلق أعطى المنهج لآدم عليه السلام ، وأبلغه آدم لأبنائه ، وكل طمس أو تغيير من البشر للمنهج هو إماتة للمنهج .
وحين يرسل الحق سبحانه رسولاً ، فهو لا ينشيء منهجاً ، بل يبعث ما كان موجوداً ، ليذكّر الفطرة السليمة .
وهذا هو الفرق بين أثر كلمة « البعث » عن كلمة « الإرسال » ، فكلمة البعث تشعرك بوجود شيء ، ثم انتهاء الشيء ، ثم بعث ذلك الشيء من جديد ، ومثله مثل البعث في يوم القيامة ، فالبشر كانوا يعيشون وسيظلون في تناسل وحياة وموت إلى يوم البعث ، ثم يموت كل الخلق ليبعثوا للحساب .
ولم يكن من المعقول أن يخلق الله سبحانه البشر ، ويجعل لهم الخلافة في الأرض ، ثم يتركهم دون منهج؛ وما دامت الغفلة قد طرأت عليهم من بعد آدم عليه السلام جاء البعث للمنهج على ألسنة الرسل المبلّغين عن الله تعالى .
وبعد نوح عليه السلام بعث الحق سبحانه رسلاً ، وهنا يقول الله سبحانه وتعالى :
{ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ } [يونس : 74] .
أي : من بعد نوح ، فمسألة نوح عليه السلام هنا تعني مقدمة الرَّكْب الرسالي؛ لأن نوحاً عليه السلام قد قالوا عنه إنه رسول عامٌّ للناس جميعاً أيضاً ، مثله مثل محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو لم يُبعث رسولاً عامّاً للناس جميعاً ، بل كان صعوده إلى السفينة هو الذي جعله رسولاً لكل الناس؛ لأن سكان الأرض أيامها كانوا قِلّة .
والحق سبحانه قد أخذ الكافرين بذنبهم وأنجى المؤمنين من الطوفان ، وكان الناس قسمين : مؤمنين ، وكافرين ، وقد صعد المؤمنون إلى السفينة ، وأغرق الحق سبحانه الكافرين .
وهكذا صار نوح عليه السلام رسولاً عامّاً بخصوصية من بقوا وهم المرسَل إليهم بخصوصية الزمان والمكان .
وهنا يقول الحق سبحانه :
{ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلاً إلى قَوْمِهِمْ } [يونس : 74] .

فهل قَصَّ الله تعالى كل أخبار الرسل عليه السلام؟ لا؛ لأنه سبحانه وتعالى هو القائل :

{ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ } [غافر : 78] .

وجاء الحق عز وجل بقصص أولي العزم منهم ، مثلما قال سبحانه :

{ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ } [الصافات : 147] .

فمن أرسله الله تعالى إلى من هم أقل من مائة ألف ، فقد لا يأتي ذكره ، ونحن نعلم أن الرسول إنما كان يأتي للأمة المنعزلة؛ لأن العالم كان على طريقة الانعزال ، فنحن مثلاً منذ ألف عام لم نكن نعلم بوجود قارة أمريكا ، بل ولم نعلم كل القارات والبلاد إلا بعد المسح الجوي في العصر الحديث ، وقد توجد مناطق في العالم نعرفها كصورة ولا نعرفها كواقع .

ونحن نعلم أن ذرية آدم عليه السلام كانت تعيش على الأرض ، ثم انساحت في الأرض؛ لأن الأقوات التي كانت تكفي ذرية آدم على عهده ، لم تعد تكفي بعدما اتسعت الذرية ، فضاق الرزق في رقعة الأرض التي كانوا عليها ، وانساح بعضهم إلى بقية الأرض .

والحق سبحانه هو القائل :

{ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأرض مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً } [النساء : 100] .

وهكذا انتقل بعض من ذرية آدم عليه السلام إلى مواقع الغيث ، فالهجرة تكون إلى مواقع المياه؛ لأنها أصل الحياة .

ويلاحظ مؤرِّخو الحضارات أن بعض الحضارات نشأت على جوانب الأنهار و الوديان ، أما البداوة فكانت تتفرق في الصحاري ، مثلهم مثل العرب ، وكانوا في الأصل يسكنون عند سد مأرب ، وبعد أن تهدم السد وأغرق الأرض ، خاف الناس من الفيضان؛ لأن العَدُوَّين اللذين لم يقدر عليهما البشر هما النار والماء .

وحين رأى الناس اندفاع الماء ذهبوا إلى الصحاري ، وحفروا الآبار التي أخذوا منها الماء على قَدْر حاجتهم؛ لأنهم عرفوا أنهم ليسوا في قوة المواجهة مع الماء .

وهكذا صارت الانعزالات بين القبائل العربية ، مثلها كانت في بقية الأرض؛ ولذلك اختلفت الداءات باختلاف الأمم؛ ولذلك بعث الحق سبحانه إلى كل أمة نذيراً ، وهو سبحانه القائل :

{ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ } [فاطر : 24] .

وقصَّ علينا الله سبحانه قصص بعضهم ، ولم يقصص قصص البعض الآخر .

يقول الحق سبحانه :

{ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ الله } [غافر : 78] .

وهنا يقول الحق سبحانه :

{ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلاً إلى قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُمْ بالبينات } [يونس : 74] .

فهل هؤلاء هم الرسل الذين لم يذكرهم الله؟

لا؛ لأن الحق سبحانه أرسل بعد ذلك هوداً إلى قوم عاد ، وصالحاً إلى ثمود ، وشعيباً إلى مدين ، ولم يأت بذكر هؤلاء هنا ، بل جاء بعد نوح عليه السلام بخبر موسى عليه السلام ، وكأنه شاء سبحانه هنا أن يأتي لنا بخبر عيون الرسالات .

وما دام الحق سبحانه قد أرسل رسلاً إلى قوم ، فكل قوم كان لهم رسول ، وكل رسول بعثه الله تعالى إلى قومه .

وكلمة « قوم » في الآية جمع مضاف ، والرسل جمع ، ومقابلة الجمع بالجمع تقتضي القسمة آحاداً ، مثلما نقول : هَيَّا اركبوا سياراتكم ، والخطاب لكم جميعاً ، ويعني : أن يركب كل واحد منكم سيارته .

وجاء كل رسول إلى قومه بالبينات ، أي : بالآيات الواضحات الدالة على صدق بلاغهم عن الله تعالى .

ثم يقول الحق سبحانه في نفس الآية :

{ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِ مِن قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ على قُلوبِ المعتدين } [يونس : 74] .

أي : أن الناس جميعهم لو آمنوا لانقطع الموكب الرسالي ، فموكب إيمان كل البشر لم يستمر ، بل جاءت الغفلة ، وطبع الله تعالى على قلوب المعتدين .

والطبع كما نعلم هو الختم .

ومعنى ذلك أن القلب المختوم لا يُخرج ما بداخله ، ولا يُدخل إليه ما هو خارجه؛ فما دام البعض قد عشق الكفر فقد طبع الله سبحانه على هذه القلوب ألاّ يدخلها إيمان ، ولا يخرج منها الكفر ، والطبع هنا منسوب لله تعالى .

وبعض الذين يتلمَّسون ثغرات في منهج الله تعالى يقولون : إن سبب كفرهم هو أن الله هو الذي طبع على قلوبهم .

ونقول : التفتوا إلى أنه سبحانه بيَّن أنه قد طبع الى قلوب المعتدين ، فالاعتداء قد وقع منهم أولاً ، ومعنى الاعتداء أنهم لم ينظروا في آيات الله تعالى ، وكفروا بما نزل إليهم من منهج ، فهم أصحاب السبب في الطبع على القلوب بالاعتداء والإعراض .

وجاء الطبع لتصميمهم على ماعشقوه وألفوه ، والحق سبحانه وتعالى هو القائل في الحديث القدسي :

« أنا أغنى الشركاء عن الشرك » .

ولله المثل الأعلى ، فأنت تقول لمن يَسْدِر في غَيِّه : ما دمت تعشق ذلك الأمر فاشبع به .

ومَثَل هؤلاء الذين طبع الله سبحانه وتعالى على قلوبهم ، مثل الذين كذَّبوا من قبل وكانوا معتدين .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِمْ موسى وَهَارُونَ }

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ (75)

وكل من موسى وهارون عليهما السلام رسول ، وقد أخذ البعث لهما مراحل ، والأصل فيها أن الله تعالى قال لموسى عليه السلام :

{ وَأَنَا اخترتك فاستمع لِمَا يوحى } [طه : 13] .

وقال الحق سبحانه وتعالى لموسى عليه السلام :

{ اذهبآ إلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طغى } [طه : 43] .

ثم سأل موسى عليه السلام ربه سبحانه وتعالى أن يشدَّ عَضُدَه بأخيه ، فقال الحق سبحانه وتعالى :

{ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ ياموسى } [طه : 36] .

لأن موسى عليه السلام أراد أن يفقه قوله ، وقد رجى موسى ربه سبحانه وتعالى بقوله :

{ واحلل عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي * يَفْقَهُواْ قَوْلِي } [طه : 2728] .

وبعد ذلك جاء تكليف هارون بالرسالة مع موسى عليه السلام .

وقال الحق سبحانه : { اذهب إلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طغى } [طه : 24] .

فالأصل إذن كانت رسالة موسى عليه السلام ثم ضم الله سبحانه هارون إلى موسى إجابة لسؤال موسى ، والدليل على ذلك أن الآيات كلها المبعوثة في تلك الرسالة كانت بيد موسى ، وحين يكون موسى هو الرسول ، وينضم إليه هارون ، لا بد إذن أن يصبح هارون رسولاً .

ولذلك نجد القرآن معبّراً عن هذا : { إِنَّا رَسُولاَ رَبِّكَ } [طه : 47] .

أي : أنهما رسولان من الله .

وفي آية أخرى يقول الحق سبحانه :

{ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فقولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ العالمين } [الشعراء : 16] .

فهما الاثنان مبعوثان في مهمة واحدة ، وليس لكل منهما رسالة منفصلة ، بل رسالتهما واحدة لم تتعدد ، وإن تعدد المرسل فكانا موسى وهارون .

ومثال ذلك ولله المثل الأعلى حين يوفد ملك أو رئيس وفداً إلى ملك آخر ، فيقولون : نحن رسل الملك فلان .

وفي رسالة موسى وهارون نجد الأمر البارز في إلقاء الآيات كان لموسى . ولكن هارون له أيضاً أصالة رسالية؛ لذلك قال الحق سبحانه :

{ إِنَّا رَسُولاَ } [طه : 47] .

ذلك أن فرعون كان متعالياً سَمْجاً رَذْل الخُلُق ، فإن تكلم هارون ليشد أزر أخيه ، فقد يقول الفرعون : وما دخلك أنت؟

ولكن حين يدخل عليه الاثنان ، ويعلنان أنهما رسولان ، فإن رد فرعون هارون ، فكأنه يرد موسى أيضاً .

أقول ذلك حتى نغلق الباب على من يريد أن يتورك القرآن متسائلاً : ما معنى أن يقول القرآن مرة « رسول » ومرة « رسولا »؟

وفي هذا ردٌّ كافٍ على هؤلاء المتورّكين .

ويقول الحق سبحانه هنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها :

{ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِمْ موسى وَهَارُونَ إلى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فاستكبروا } [يونس : 75] .

والملأ : هم أشراف القوم ، ووجوهه وأعيانه والمقرَّبون من صاحب السيادة العليا ، ويقال لهم : « ملأ »؛ لأنهم هم الذين يملأون العيون ، أي : لا ترى العيون غيرهم .

وفرعون كما نعلم لم يصبح فرعوناً إلا بالملأ؛ لأنهم هم الذين نصَّبوه عليهم ، وكان « هامان » مثلاً يدعم فكرة الفرعون ، وكان الكهنة يؤكدون أن الفرعون إله .

ولكل فرعون ملأ يصنعونه ، والمثل الشعبي في مصر يقول : « قالوا لفرعون من فَرْعَنك ، قال : لم أجدا أحداً يردّني » .

أي : أنه لم يجد أحداً يقول له : تَعقَّلْ . ولو وجد من يقول له ذلك لما تفرعن .

والآيات التي بعث بها الله سبحانه إلى فرعون وملئه مع موسى وهارون من المعجزات الدالة على صدق نبوة موسى وهارون عليهما السلام ، وفيها ما يُلْفِت إلى صدق البلاغ عن الله .

أو أن الآيات هي المنهج الذي يثبت وجود الخالق الأعلى ، لكن فرعون وملأوه استكبروا .

والاستكبار : هو طلب الكبر ، مثلها مثل « استخرج » أي : طلب الإخراج ، ومثل « استفهم » أي : طلب الفهم . ومن يطلب الكبر إنما يفتعل ذلك؛ لأنه يعلم أن مقوماته لا تعطيه هذا الكبر .

وينهي الحق سبحانه هذه الآية بقوله :

{ وَكَانُواْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ } [يونس : 75] .

وشرُّ الإجرام ما يتعدى إلى النفس ، فقد يكون من المقبول أن يتعدى إجرام الإنسان إلى أعدائه ، أما أن يتعدى الإجرام إلى النفس فهذا أمر لا مندوحة له ، وإجرام فرعون وملئه أودى بهم إلى جهنم خالدين مخلدين فيها ملعونين ، وفي عذاب عظيم ومهين .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { فَلَمَّا جَآءَهُمُ الحق مِنْ عِندِنَا }

فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ (76)

وقد جاءهم الحق على لسان الرسل عليهم السلام وعلى كل إنسان أن يفهم أنه حين يستقبل من الرسول رسالة الحق ، فليفهم أنها رسالة ليست ذاتية الفكر من الرسول ، بل قد أرسله بها الله الخالق الأعلى سبحانه وتعالى .

ولذلك فالمتأبَّي على الرسول ، لا يتأبَّى على مساوٍ له؛ لأن الرسول هو مُبلِّغ عن الله تعالى ، والله سبحانه هو الذي بعثه ، ويجب على الإنسان أن يعرف قدر البلاغ القادم من الله الحق ، لأنه سبحانه هو الحق الأعلى ، وهو الذي خلق كل شيء بالحق : سماء مخلوقة بالحق ، وأرض مخلوقة بالحق ، وشمس تجري بالحق ، ومطر ينزل بالحق ، وكل شيء ثابت ومتحرك بقوانين أرادها الحق سبحانه .

ولو سيطر الإنسان دون منهج على قوانين الكائنات لأفسدها؛ لأن الفساد إنما يتأتى مما للإنسان دخل فيه ، ويدخل إليه بدون منهج الله .

والفساد إنما يجيء من ناحية اختيار الإنسان للبدائل التي لا يخضع فيها لمنهج الله تعالى .

ولذلك إن أردتم أن تستقيم حياتكم استقامة الكائنات العليا التي لا دخل لكم فيها ، فامتثلوا لمنهج الحق وميزانه؛ لأنه سبحانه هو القائل :

{ والسمآء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الميزان * أَلاَّ تَطْغَوْاْ فِي الميزان } [الرحمن : 7 8] .

أي : إن كنتم تريدون أن تعتدل أموركم ، وتنضبط انضباط الكائنات الأخرى فالتكن إرادة الاختيار المخلوقة لكم خاضعة لمنهج الله تعالى ، وتسير في إطار هذا المنهج الرباني .

وحين نتأمل قول الحق سبحانه :

{ فَلَمَّا جَآءَهُمُ الحق مِنْ عِندِنَا } [يونس : 76] .

نجد في هذا القول توجيهاً إلى أن الحق لم يأت من ذوات الرسل؛ فهذه الذوات لا دخل لها في الموضوع ، وإياك أن تهاجم رسالة حق جاءتك من إنسان لا تحبه ، بل ناقش الحق في ذاته ، ولا تدخل في متاهة البحث عمَّن جاء بهذا الحق ، وانظر إلى من كفروا بمحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فَهُمْ من قالوا :

{ لَوْلاَ نُزِّلَ هذا القرآن على رَجُلٍ مِّنَ القريتين عَظِيمٍ } [الزخرف : 31] .

وهم بذلك قد أدخلوا النازل عليه القرآن في الحكم ، مع أن العقل كان يقتضي أن ينظروا إلى القرآن في ذاته ، وأن يأخذوا الحكمة من أي وعاء خرجت .

وعليك أنت أن تستفيد من هذا الأمر ، وخُذ الحكمة من أي قائل لها ، ولا تنظر إلى من جاءت الحكمة منه ، فإن كنت تكرهه فأنت ترفض أن تأخذ الحكمة منه ، وإن كانت تحبه أخذتها . لا ، إن عليك أن تأخذ الحكمة ما دامت قد جاءت بالحق؛ لأنك إن لم تأخذها أضعت نفسك .

والحق هو الشيء الثابت ، وإن ظهر في بعض الأحيان أن هناك من طمس الحق ، وأن الباطل تغلّب عليه ، فهذا يعني ظهور المفاسد؛ فيصرخ الناس طالبين الحق .

وانتشار المفاسد هو الذي يجعل الناس تستدعي الحق ، وتتحمس له؛ لأن الباطل حين يَعَضُّ الناس ، تجدهم يتجهون إلى الحق ليتمسكوا به .

والحق سبحانه هو القائل :

{ أَنزَلَ مِنَ السمآء مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فاحتمل السيل زَبَداً رَّابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النار ابتغآء حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كذلك يَضْرِبُ الله الحق والباطل فَأَمَّا الزبد فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ الناس فَيَمْكُثُ فِي الأرض كذلك يَضْرِبُ الله الأمثال } [الرعد : 17] .

والحق سبحانه هنا يضرب المثل النازل كسيل من السماء على الجبال ، فيأخذ كل وادٍ أسفل الجبال على قدر احتماله ، ويرتوى الناس ، وترتوي الأرض ، لكن السيل في أثناء نزوله على الجبال إنما يحمل بعضاً من الطمي ، والقش ، ويستقر الطمي في أرض الأودية؛ لتستفيد منه ، أما القش والقاذورات فتطفو على سطح الماء ، وتسمى تلك الأشياء الطافية زَبَداً ، وساعة تضعها في النار ، فهي تصدر أصواتاً تسمى (الطشطشة) .

ومثال ذلك : حين نوقد النار؛ لنصهر الحديد ، نجد الخبث هو الذي يطفو ، ويبقى الحديد النقي في القاع .

هذا الزبد الذي وجد فوق الماء ينزاح على الجوانب ، ومثال ذلك : ما نراه على شواطىء البحر حين يقذف الموج بقاذورات على الشاطىء ، هذه القاذورات التي ألقتها البواخر ، فيلفظها البحر بالموج ، وهذا الزبد يذهب جُفاءً ، أما ما ينفع الناس فيبقى في الأرض؛ لذلك يقول الحق سبحانه :

{ كذلك يَضْرِبُ الله الحق والباطل } [الرعد : 17] .

إذن : فالله سبحانه يترك للباطل مجالاً ، ولكن لا يسلم له الحق ، بل يترك الباطل؛ ليحفز غيرة الناس على الحق ، فإن لم يغاروا على الحق غار هو عليه .

وهنا يقول الله سبحانه وتعالى :

{ فَلَمَّا جَآءَهُمُ الحق مِنْ عِندِنَا قالوا إِنَّ هذا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ } [يونس : 76] .

ولأنهم كانوا مشهورين بالسحر؛ ظنوا أن الآيات التي جاءت مع موسى عليه السلام هي السحر المبين ، أي : السحر الظاهر الواضح .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { قَالَ موسى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ }

قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ (77)

وفي هذه الآية ما يوضح رد سيدنا موسى عليه السلام :

{ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هذا } [يونس : 77] .

والذين يتوركون على القرآن يقولون : كيف يأتي القرآن ليؤكد أنهم قالوا إن هذا لسحر مبين ، ثم يأتي في الآية التي بعدها ليقول إنهم قالوا متسائلين : أسحرٌ هذا؟

وفَهِم هؤلاء الذين يتوركون على القرآن أن كلمة { أَسِحْرٌ هذا } من كلماتهم ، ولكن هذا هو قول موسى عليه السلام ، وكأن موسى عليه السلام قد تساءل؛ ليعيدوا النظر في حكمهم : هل ما جاء به سحر؟ وهذا استفهام استنكاري ، وأريد به أن يؤكد أن هذا ليس بسحر ، ولكن جاء بصيغة التساؤل؛ لأنه واثق أن الإجابة الأمينة ستقول : إن ما جاء به ليس سحراً .

ولو جاء كلام موسى عليه السلام كمجرد خَبَر لكان يحتمل الصدق ، ويحتمل الكذب ، لكنه جاء بصيغة الاستفسار؛ لأن المكذِّب له سيجيب بلجلجة .

ومثال ذلك ولله المثل الأعلى أنت حين تذهب لشراء قماش ، فيقول لك البائع : إنه صوف خالص ونقي ، فتمسك بعود كبريت وتشعل النار في خيط من القماش ، فإن احترق الصوف كما يحترق البلاستيك أو القماش الصناعي ، فأنت تقول للبائع : وهل هذا صوف نقي يا رجل؟ وهنا لن يجيب البائع إلا بالموافقة ، أو بصمت العاجز عن حجب الحقيقة .

إذن : أنت إن طرحت الأمر بستفهام إنكاري فهذا أبلغ من أن تقوله كخبر مجرد؛ لأن السامع لك لا بد أن يجيب .

وقول الحق سبحانه وتعالى على لسان موسى عليه السلام :

{ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ } [يونس : 77] .

يفيد ضرورة النظر إلى الحق مجرداً عمَّن جاء به .

ولذلك لم يقل موسى عليه السلام : أتقولون للحق لما جئناكم به : إنه سحر مبين؟

إن القول الحكيم الوارد في الآية الكريمة هو تأكيد على ضرورة النظر إلى الحق مجرداً عمّن جاء به .

وينهي الحق سبحانه هذه الآية بقوله :

{ أَسِحْرٌ هذا وَلاَ يُفْلِحُ الساحرون } [يونس : 77] .

إذن : فسيدنا موسى عليه السلام قد أصدر الحكم بأن السحر لا ينفع ، ولكن الآيات التي جاء بها من الحق سبحانه قد أفلحت ، فقد ابتلعت عصاه التي صارت حية كل ما ألقوه من حبالهم؛ وكل ما صنعوه من سحر .

وأراد الحق سبحانه لعصا موسى أن تكون آية معجزة من جنس ما نبغ فيه القوم .

فالله سبحانه حين يرسل معجزةً إلى قوم؛ يجعلها من جنس ما نبغوا فيه؛ لتكون المعجزة تحدياً في المجال الذي لهم به خبرة ودربة ودراية؛ فأنت لن تتحدى رجلاً لا علم له بالهندسة؛ ليبنى لك

عمارة ، ولكنك تتحدى مهندساً أن يبني لك هرماً؛ لأن العلوم المعاصرة لم تتوصل إلى بعض ما اكتشفه القدماء ولم يسجلوه في أوراقهم ، أو لم يعثر على كشف يوضح كيف فرَّغوا الهواء بين كل حجر وآخر فتماسكت الحجارة .

وقول الحق سبحانه وتعالى هنا :

{ وَلاَ يُفْلِحُ الساحرون } [يونس : 77] .

يبين لنا أن الفلاح مأخوذ من العملية الحسية التي يقوم بها الفلاح من جهد في حرث الأرض ووضع البذور ، وري الأرض وانتظار الثمرة بعد بذل كل ذلك الجهد .

والفلاح أيضاً مأخوذ من فلح الحديد ، أي : شق الحديد ، ككتل أو كقطع ، ولا يصلح إلا إذا أخذ الحديد الشكل المناسب للاستعمال .

وقول الحق سبحانه :

{ وَلاَ يُفْلِحُ الساحرون } [يونس : 77] .

هو لَفْتٌ لنا أن السحر نوع من التخييل ، وليس حقيقةً واقعةً .

ولذلك قال الحق سبحانه في موضع آخر من القرآن .

{ سحروا أَعْيُنَ الناس } [الأعراف : 116] .

وقال الحق سبحانه أيضاً :

{ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تسعى } [طه : 66] .

إذن فالسحر هو تخييل فقط وليس تغييراً للحقيقة .

ولأن معجزة موسى عليه السلام تحدَّت كل القدرات؛ لذلك أعلن فرعون التعبئة العامة بين كل من له علاقة بالسحر ، الذي هم متفوقون فيه ، أو حتى من لهم شبهة معرفة بالسحر .

ولأن السحر مجرد تخييل ، وجدنا السحرة حين اجتمعوا وألقوا حبالهم وعصيهم ، ثم ألقى موسى عصاه ، فإذا بعصاه قد تحولت إلى حية تلقف ما صنعوا ، وهنا ماذا فعل السحرة؟

يقول الحق سبحانه وتعالى في سورة طه :

{ فَأُلْقِيَ السحرة سُجَّداً قالوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وموسى } [طه : 70] .

لأن الساحر يرى ما يفعله على حقيقته ، وهم خيَّلوا لأعين الناس ، لكنهم يرون حبالهم مجرد حبال أو عصيهم مجرد عصى .

أما عصا موسى عليه السلام فلم تكن تخييلاً ، بل وجدها السحرة حية حقيقية ، ولقفت بالفعل ما صنعوا؛ ولذلك خرُّوا ساجدين ، وأعلنوا الإيمان برب موسى وهارون .

هم إذن لم يعلنوا الإيمان بموسى وهارون ، بل أعلنوا الإيمان :

{ بِرَبِّ هَارُونَ وموسى } [طه : 70] .

لأنهم عرفوا بالتجربة أن ما ألقاه موسى ليس سحراً ، بل هو مِنْ فعل خالق أعلى .

وكان ثبات موسى عليه السلام في تلك اللحظة نابعاً من التدريب الذي تلقَّاه من ربه ، فقد سأله الحق سبحانه :

{ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ ياموسى * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا على غَنَمِي } [طه : 1718] .

وقد أجمل موسى وفصَّل في الرد على الحق سبحانه؛ إيناساً وإطالة للأنس بالله تعالى ، وحين رأى أنه أطال الإيناس أوجز وقال بأدب :

{ وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أخرى } [طه : 18] .

إذن : فقد أدركته أولاً شهوة الأنس بالله تعالى ، وأدرك ثانياً أدب التخاطب مع الله تعالى ، ودرَّبه الحق سبحانه على مسألة العصا حين أمره أولاً أن يلقيها ، فصارت أمامه حية تسعى ، ولو كانت من جنس السحر لما أوجس منها خيفة ولرآها مجرد عصا .

إذن : فالفرق بين معجزة موسى وسحرة فرعون ، أن سحرة فرعون سحروا أعين الناس وخُيِّل إلى الناس من سحرهم أن عصيَّهم وحبالهم تسعى ، لكن معجزة موسى عليه السلام في إلقاء العصا ، عرفوا هم بالتجربة أن تلك العصا قد تغيرت حقيقتها .

والعصا كما نعلم أصلها فرع من شجرة ، وكان باستطاعة الحق سبحانه وتعالى أن يجعلها تتحول إلى شجرة مثمرة ، لكنها كانت ستظل نباتاً .

وشاء الحق سبحانه أن ينقلها إلى المرتبة الأعلى من النبات؛ وهي المرحلة الحيوانية ، فصارت حية تلقف كل ما ألقاه السحرة .

ويقول الحق سحبانه بعد ذلك : { قالوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا }

قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ (78)

وهنا نجد سحرة فرعون ينسبون مجيء معجزة تحول العصا إلى حية ، ينسبونها لموسى عليه السلام رغم أن موسى عليه السلام قد نسب مجيء المعجزة إلى الله تعالى .

وكان واجب المرسل إليه فرعون وملئه أن ينظر إلى ما جاء به الرسول ، لا إلى شخصية الرسول .

ولو قال فرعون لموسى : « جيْءَ بك » لكان معنى ذلك أن فرعون يعلن الإيمان بأن هناك إلهاً أعلى ، ولكن فرعون لم يؤمن لحظتها؛ لذلك جاء قوله : { أَجِئْتَنَا } فنسب المجيء على لسان فرعون لموسى عليه السلام .

ولماذا المجيء؟

يقول الحق سبحانه على لسان فرعون وقومه :

{ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا } [يونس : 78] .

والالتفات هو تحويل الوجه عن شيء مواجه له ، وما دام الإنسان بصدد شيء؛ فكل نظره واتجاهه يكون إليه ، وكان قوم فرعون على فساد وضلال ، وليس أمامهم إلا ذلك الفساد وذلك الضلال .

وجاء موسى عليه السلام؛ ليصرف وجوههم عن ذلك الفساد والضلال ، فقالوا :

{ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا } [يونس : 78] .

وهكذا يكشفون حقيقة موقفهم ، فقد كانوا يقلدون آباءهم ، والتقليد يريح المقلِّد ، فلا يُعْمِل عقله أو فكره في شيء ليقتنع به ، ويبني عليه سلوكه .

والمثل العامي يصور هذا الموقف بعمق شديد حين يقول : « مثل الأطرش في الزفة » أي : أن فاقد السمع لا يسمع ما يقال من أي جمهرة ، بل يسير مع الناس حيث تسير؛ ولا يعرف له اتجاهاً .

والمقلِّد إنما يعطل فكره ، ولا يختار بين البدائل ، ولا يميز الصواب ليفعله ، ولا يعرف الخطأ فيتجنَّبه .

وفرعون وملؤه كانوا على ضلال ، هو نفس ضلال الآباء ، والضلال لا يكلف الإنسان تعب التفكير ومشقة الاختيار ، بل قد يحقق شهوات عاجلة .

أما تمييز الصواب من الخطأ واتباع منهج السماء ، فهو يحجب الشهوة ، ويلزم الإنسان بعدم الانفلات عكس الضلال الذي يطيل أمد الشهوة .

إذن : فالمقلد بين حالتين :

الحالة الأولى : أنه لا يُعْمِل عقله ، بل يفعل مثل من سبقوه ، أو مثل من يحيا بينهم .

والحالة الثانية : أنه رأى أن ما يفعله الناس لا يلزمه بتكليف ، ولكن الرسول الذي يأتي إنما يلزمه بمنهج ، فلا يكسب على سبيل المثال إلا من حلال ، ولا يفعل منكراً ، ولا يذم أحداً ، وهكذا يقيد المنهج حركته ، لكن إن اتبع حركة آبائه الضالين ، فالحركة تتسع ناحية الشهوات .

ولذلك أقول دائماً : إن مسألة التقليد هذه يجب أن تلفت إلى قانون التربية ، فالنشء ما دام لم يصل إلى البلوغ فأنت تلاحظ أنه بلا ذاتية ويقلد الآباء ، لكن فور أن تتكون له ذاتية يبدأ في التمرد ، وقد يقول للآباء : أنتم لكم تقاليد قديمة لا تصلح لهذا الزمان ، لكن إن تشرَّب النشء القيم الدينية الصحيحة؛ فسيمتثل لقانون الحق ، ويحجز نفسه عن الشهوات .

ونحن نجد أبناء الأسر التي لا تتبع منهج الله في تربية الأبناء وهم يعانون من أبنائهم حين يتسلط عليهم أقران السوء ، فيتجهون إلى ما يوسع دائرة الشهوات من إدمان وغير ذلك من المفاسد .

لكن أبناء الأسر الملتزمة يراعون منهج الله تعالى؛ فلا يقلدون آحداً من أهل السوء؛ لأن ضمير

الواحد منهم قد عرف التمييز بين الخطأ والصواب .

ثم إن تقليد الآباء قد يجعل الأبناء مجرد نسخ مكررة من آبائهم ، أما تدريب وتربية الأبناء على إعمال العقل في كل الأمور ، فهذه هي التنشئة التي تتطور بها المجتمعات إلى الأفضل إن اتبع الآباء منهج الله تعالى ، وتتكون ذاتية الابن على ضوء منهج الحق سبحانه ، فلا يتمرد الابن متهجاً إلى الشر ، بل قد يتمرد إلى تطوير الصالح ليزيده صلاحاً .

التقليد إذن يحتاج إلى بحث دقيق؛ لأن الإنسان الذي سوف تقلده ، لن يكن مسئولاً عنك؛ لأن الحق سبحانه وتعالى هو القائل :

{ ياأيها الناس اتقوا رَبَّكُمْ واخشوا يَوْماً لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلاَ مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئاً } [لقمان : 33] .

إذن : فأمر الابن يجب أن يكون نابعاً من ذاته ، وكذلك أمر الأب ، وعلى كل إنسان أن يُعْمِل عقله بين البدائل .

ولذلك تجد القرآن الكريم يقول على ألسنة مَنْ قلَّدوا الآباء :

{ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتبعوا مَآ أَنزَلَ الله قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَآءَنَآ } [البقرة : 170] .

ثم يرد عليهم الحق سبحانه :

{ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ } [البقرة : 170] .

فإذا كانت المسألة مسألة تقليد ، فلماذا يتعلم الابن؟ ولماذا لا ينام الأبناء على الأرض ولا يشترون أسرَّة؟ ولماذا ينجذبون إلى التطور في الأشياء والأدوات التي تسهِّل الحياة؟

فالتقليد هو إلغاء العقل والفكر ، وفي إلغائهما إلغاء التطور والتقدم نحو الأفضل .

إذن : فالقرآن يحثنا على أن نستخدم العقل؛ لنختار بين البدائل ، وإذا كان المنهج قد جاء من السماء ، فَلْنهْتدِ بما جاء لك ممن هو فوقك ، وهذا الاهتداء المختار هو السُّمو نحو الحياة الفاضلة .

يقول الحق سبحانه :

{ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إلى مَآ أَنزَلَ الله وَإِلَى الرسول قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَآءَنَآ } [المائدة : 104]

أي : أنهم أعلنوا أنهم في غير حاجة للمنهج السماوي فَردَّ عليهم القرآن :

{ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ } [المائدة : 104] .

وهكذا نجد أن القرآن قد جاء بموقفين في آيتين مختلفتين عن المقلّدين :

الآية الأولى : هي التي يقول فيها الحق سبحانه وتعالى :

{ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ } [البقرة : 170] .

والآية الثانية : هي قول الحق سبحانه وتعالى :

{ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ } [المائدة : 104] .

وهم في هذه الآية أعلنوا الاكتفاء بما كان عليه آباؤهم .

وهناك فارق بين الآيتين ، فالعاقل غير من لا يعلم؛ لأن العاقل قادر على الاستنباط ، ولكن من لا يعلم فهو يأخذ من استنباط غيره .

إذن : فالذين اكتفوا بما عند آبائهم ، وقالوا :

{ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَآ } [المائدة : 104] .

هؤلاء هم الذين غالوا في الاعتزاز بما كان عند آبائهم؛ لذلك جاء في آبائهم القول بأنهم لا يعلمون .

أي : ليس لهم فكر ولا علم على الإطلاق ، بل يعيشون في ظلمات من الجهل .

وهنا يقول الحق سبحانه على لسان فرعون وقومه :

{ قالوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الكبريآء فِي الأرض } [يونس : 78] .

أي : هل جئت لتصرفنا ، وتحوِّل وجوهنا أو وجهتنا أو طريقنا وتأخذنا عن وجهة آبائنا الذين نقلدهم؛ لتأخذ أنت وأخوك الكبرياء في الأرض؟

وهكذا يتضح أنهم يعتقدون أن الكبرياء الذي لهم في الأرض قد تحقق لهم بتقليدهم آباءهم ، وهم يحبون الحفاظ عليه ، والأمر هنا يشمل نقطتين :

الأولى : هي تَرْكُ ما وجدوا عليه الآباء .

والثانية : هي الكبرياء والعظمة في الأرض .

ومثال ذلك : حين يقول مقاتل لآخر : « ارْمِ سيفك » وهي تختلف عن قوله : « هات سيفك » ، فَرَمْيُ السيف تجريد من القوة ، لكن أخذ السيف يعني إضافة سيف آخر إلى ما يملكه المقاتل الذي أمر بذلك .

وهم هنا وجدوا في دعوة موسى عليه السلام مصيبة مركبة .

الأولى : هي ترك عقيدة الآباء .

والثانية : هي سلب الكبرياء ، أي : السلطة الزمنية والجاه والسيادة والعظمة والائتمار ، والمصالح المقضية ، فكل واحد من بطانة الفرعون يأخذ حظه حسب اقترابه من الفرعون .

ولذلك أعلنوا عدم الإيمان ، وقالوا ما يُنهي به الحق سبحانه الآية الكريمة الي نحن بصددها :

{ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ } [يونس : 78] .

أي : أن قوم فرعون والملأ أقرُّوا بما حرصوا عليه من مكاسب الدنيا والكبرياء فيها ، ورفضوا الإيمان بما جاء به موسى وهارون عليهما السلام .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائتوني }

وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (79)

وكان فرعون يعلم تقدُّم السحرة في دولته ، ويكفي أنه شخصياً خَيَّل للناس أنه إله ، وجاء أمره أن يأتي أعوانه بالسحرة ، وفور أن قال الأمر جيء بالسحرة .

وأورد الحق سبحانه في الآية التي بعد ذلك . { فَلَمَّا جَآءَ السحرة }

فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ (80)

وكأن المسافة بين نطق فرعون بالأمر وبين تنفيذ الأمر هي أضيق مسافة وقتية ، وذلك حتى نفهم أن أمر صاحب السلطان لا يحتمل من الناس التأجيل أو التباطؤ في التنفيذ .

والقرآن حينما يعالج أمراً من الأمور فهو يعطي صورة دقيقة للواقع ، ولا يأتي بأشياء تفسد الصورة .

يقول الحق سبحانه :

{ فَلَمَّا جَآءَ السحرة قَالَ لَهُمْ موسى أَلْقُواْ مَآ أَنتُمْ مُّلْقُونَ } [يونس : 80] .

وفي هذه الآية تلخيص للموقف كله ، فحين علم السحرة أن فرعون يحتاجهم في ورطة تتعلق بالحكم ، فهذه مسألة صعبة وقاسية ، وعليهم أن يسرعوا إليه .

ولم يأت الحق سبحانه هنا بالتفصيل الكامل لذلك الموقف؛ لأن القصة تأتي بنقاطها المختلفة في مواضع أخرى من القرآن ، وكل آية توضح النقطة التي تأتي بذكرها .

لذلك لم يقل الحق سبحانه هنا : إن أعوان فرعون نادوا في المدائن ليأتي السحرة ، مثلما جاء في مواضع أخرى من القرآن .

ولم يقل لنا إن السحرة أرادوا أن يستفيدوا من هذه المسألة ، وقالوا للفرعون :

{ إِنَّ لَنَا لأَجْراً إِن كُنَّا نَحْنُ الغالبين } [الأعراف : 113] .

ووَضْع مثل هذا الشرط يوضح لنا طبيعة العلاقات في ذلك المجتمع ، فطلبهم للأجر ، يعني أن عملهم مع الفرعون من قبل ذلك كان تسخيراً وبدون أجر ، ولما جاءتهم الفرصة ورأوا الفرعون في ازمة؛ طالبوا بالأجر .

ووعدهم فرعون بالأجر ، وكذلك وعدهم أن يكونوا مقرَّبين؛ لأنهم لو انتصروا بالسحر على معجزة موسى؛ ففي ذلك العمل محافظة وصيانة للمُلْك ، ولا بد أن يصبحوا من البطانة

المستفيدة ، ووعدهم الفرعون بذلك شحذاً لهمتهم ليبادروا بإبطال معجزة موسى؛ ليستقر عرش الفرعون .

وشاء الحق سبحانه الإجمال هنا في هذه الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها وجاء ببقية اللقطات في المواضع الأخرى من القرآن .

وهنا يقول الحق سبحانه :

{ فَلَمَّا جَآءَ السحرة قَالَ لَهُمْ موسى أَلْقُواْ مَآ أَنتُمْ مُّلْقُونَ } [يونس : 80] .

وألقى السحرة عِصيَّهم وحبالهم .

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك : { فَلَمَّآ أَلْقَواْ قَالَ موسى مَا جِئْتُمْ بِهِ السحر }

فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (81)

ونحن نعلم أن الحق سبحانه هنا شاء الإجمال ، ولكنه بيَّن بالتفصيل ما حدث ، في آية أخرى ، قال فيها سبحانه عن السحرة :

{ قَالُواْ ياموسى إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ الملقين } [الأعراف : 115] .

ونحن نعلم أن المواجهة تقتضي من كل خصم أن يدخل بالرعب على خصمه؛ ليضعف معنوياته .

وهنا أوضح لهم موسى عليه السلام أن ما أتوا به هو سحر ومجرد تخييل .

وقد أعلم الحق سبحانه نبيه موسى عليه السلام أن عصاه ستصير حية حقيقية ، بينما ستكون عصيهم وحبالهم مجرد تخييل للعيون .

وقال لهم موسى عليه السلام حكم الله تعالى في ذلك التخييل :

{ مَا جِئْتُمْ بِهِ السحر إِنَّ الله سَيُبْطِلُهُ إِنَّ الله لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ المفسدين } [يونس : 81] .

وهكذا جاء القول الفصل الذي أنهى الأمر وأصدر الحكم فيما فعل فرعون ومَلَؤُه والسحرة ، فكل أعمالهم كانت تفسد في الأرض ، ولولا ذلك لما بعث الله سبحانه إليهم رسولاً مؤيَّداً بمعجزة من صنف ما برعوا فيه ، فهم كانوا قد برعوا في السحر ، فأرسل إليهم الحق سبحانه معجزة حقيقية تلتهم ما صنعوا ، فإن كانوا قد برعوا في التخييل ، فالله سبحانه خلق الأكوان بكلمة « كُنْ » وهو سبحانه يخلق حقائق لا تخييلات .

ولذلك يقول الحق سبحانه من بعد ذلك : { وَيُحِقُّ الله الحق بِكَلِمَاتِهِ }

وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (82)

فالمسألة التي يشاؤها سبحانه تتحقق بكلمة « كن » فيكون الشيء .

وقوله سبحانه وتعالى :

{ إِنَّمَآ أَمْرُهُ إِذَآ أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ } [يس : 82] .

و « كن فيكون » عبارة طويلة بعض الشيء عند وقوع المطلوب ، ولكن لا توجد عبارة أقصر منها عند البشر؛ لأن الكاف والنون لهما زمن ، وما يشاؤه الله سبحانه لا يحتاج منه إلى زمن ، والمراد من الأمر « كن » أن الشيء يوجد قبل كلمة « كن »؛ لأن كل موجود إنما يتحقق ويبرز بإرادة الله تعالى .

ويريد الحق سبحانه هنا أن يبيّن لنا أن الحق إنما يأتي على ألسنة الرسل ، ومعجزاتهم دليل على رسالتهم؛ ليضع أنوف المجرمين في الرَّغام ، وليريح العالم من إضلالهم ومن مفاسدهم .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { فَمَآ آمَنَ لموسى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ }

فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (83)

وإذا كان السحرة وهم عُدَّة فرعون وعتاده لمواجهة موسى أعلنوا الإيمان ، فعاقبهم الفرعون وقال :

{ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ } [طه : 71] .

فهذا يدل على أن فكرة الألوهية كانت ما تزال مسيطرة على عقله؛ ولذلك خاف الناس من إعلان الإيمان؛ ولذلك قال الحق سبحانه :

{ فَمَآ آمَنَ لموسى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ } [يونس : 83] .

وكلمة « ذرية » تفيد الصغار الذين لم تلمسهم خميرة من الفساد الذي كان منتشراً ، كما أن الصغار يتمتعون بطاقة من النقاء ، ويعيشون في خُلُوٍّ من المشاكل ، ولم يصلوا إلى مرتبة السيادة التي يُحْرَصُ عليها ، ومع ذلك فهم قد آمنوا :

{ على خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ } [يونس : 83] .

وكلمة { على خَوْفٍ } تفيد الاستعلاء ، مثل قولنا : « على الفرس » أو « على الكرسي » ويكون المستعلي في هذه الحالة متمكّناً من المستعلى عليه «؛ ومن يستعلي إنما يركب المستعلي ، ويحمل المستعلي العبء .

ولكن من استعمالات » على « أنها تأتي بمعنى » مع « .

ومثال ذلك هو قول الحق سبحانه :

{ وَيُطْعِمُونَ الطعام على حُبِّهِ } [الإنسان : 8] .

أي : يطعمون الطعام مع حبه .

وحين يأتي الحق سبحانه بحرف مقام حرف آخر فلا بد من علة لذلك .

ومثال ذلك هو قول الحق سبحانه وتعالى :

{ فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خِلاَفٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النخل } [طه : 71] .

جاء الحق سبحانه بالحرف » في « بدلاً من » على «؛ ليدل على أن عملية الصلب ستكون تصليباً قوياً ، بحيث تدخل أجزاء المصلوب في المصلوب فيه .

وكذلك قول الحق سبحانه وتعالى :

{ وَيُطْعِمُونَ الطعام على حُبِّهِ } [الإنسان : 8] .

فكأنهم هم المستعلون على الحب؛ ليذهب بهم حيث يريدون .

وكذلك قول الحق سبحانه وتعالى :

{ على خَوْفٍ } [يونس : 83] .

أي : أنهم فوق الخوف يسير بهم إلى دهاليز توقُّع الآلام .

وهم هنا آمنوا : { على خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ } [يونس : 83] .

والكلام هنا من الحق الأعلى سبحانه يبيّن لنا أن الخوف ليس من فرعون؛ لأن فرعون إنما يمارس التخويف بمن حوله ، فمثلهم مثل زُوَّار الفجر في أي دولة لا تقيم وزناً لكرامة الإنسان .

وفرعون في وضعه ومكانته لا يباشر التعذيب بنفسه ، بل يقوم به زبانيته .

والإشارة هنا تدل على الخوف من شيعة فرعون وملئهم .

وقال الحق سبحانه هنا : { يَفْتِنَهُمْ } ، ولم يقل : » يفتنوهم «؛ ليدلنا على ملحظ أن الزبانية لا يصنعون التعذيب لشهوة عندهم ، بل يمارسون التعذيب لشهوة عند الفرعون .

وهكذا جاء الضمير مرة جمعاً ، ومرة مفرداً ، ليكون كل لفظ في القرآن جاذباً لمعناه .

وحين أراد المفسرون أن يوضحوا معنى (ذرية) قالوا : إن المقصود بها امرأة فرعون (آسية) ، وخازن فرعون ، وامرأة الخازن ، وماشطة فرعون ، ومَنْ آمن مِنْ قوم موسى عليه السلام وكتم إيمانه .

كل هؤلاء منعتهم خشية عذاب فرعون من إعلان الإيمان برسالة موسى؛ لأن فرعون كان جَبَّاراً في الأرض ، مدّعياً للألوهية ، وإذا ما رأى فرعون إنساناً يخدش ادعاءه للألوهية؛ فلا بد أن يبطش به بطشة فاتكة .

لذلك كانوا على خوف من هذا البطش ، فقد سبق وأن ذبح فرعون بواسطة زبانيته أبناء بني إسرائيل واستحيا نساؤهم ، وهم خافوا من هولاء الزبانية الذي نفَّذوا ما أراده فرعون .

ولذلك جاء الضمير مرة تعبيراً عن الجمع في قوله سبحانه وتعالى :

{ وَمَلَئِهِمْ } [يونس : 83] .

وجاء الضمير مفرداً معبراً عن فرعون الآمر في قوله سبحانه وتعالى :

{ أَن يَفْتِنَهُمْ } [يونس : 83] .

فهم خافوا أن يفتنهم فرعون بالتعذيب الذي يقوم به أعوانه .

والحق سبحانه وتعالى هو القائل :

{ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأرض وَإِنَّهُ لَمِنَ المسرفين } [يونس : 83] .

والمسرف : هو الذي يتجاوز الحدود ، وهو قد تجاوز في إسرافه وادَّعى الألوهية .

وقد قال الحق سبحانه ما جاء على لسان فرعون :

{ أَنَاْ رَبُّكُمُ الأعلى } [النازعات : 24] .

وقال الحق سبحانه أيضاً :

{ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ياأيها الملأ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرِي } [القصص : 38] .

وعلا فرعون في الأرض علوَّ طاغية من البشر على غيره من البشر المستضعفين .

وقال الحق سبحانه على لسان فرعون :

{ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وهذه الأنهار تَجْرِي مِن تحتي } [الزخرف : 51] .

إذن : فقد كان فرعون مسرفاً أشد الإسراف .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { وَقَالَ موسى ياقوم }

وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ (84)

وهنا شرطان ، في قوله تعالى :

{ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بالله } [يونس : 84] .

وجاء جواب هذا الشرط في قوله سبحانه :

{ فَعَلَيْهِ توكلوا } [يونس : 84] .

ثم جاء بشرط آخر هو : { إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ } [يونس : 84] .

وهكذا جاء الشرط الأول وجوابه ، ثم جاء شرط آخر ، وهذا الشرط الآخر هو الشرط الأول وهو الإسلام لله؛ لأن الإيمان بالله يقتضي الإسلام وأن يكونوا مسلمين .

ومثال ذلك في حياتنا : حين يريد ناظر إحدى المدارس أن يعاقب تلميذاً خالف أوامر المدرسة ونظمها ، ويستعطف التلميذ الناظر ، فيرد الناظر على هذا الاستعطاف بقوله : « إن جئت يوم السبت القادم قَبِلتك في المدرسة إن كان معك وليُّ أمرك؛ ومجيء ولي الأمر هنا مرتبط بالموعد الذي حدده الناظر لعودة التلميذ لصفوف الدراسة ، وهكذا نجد أن الشرط الآخر مرتبط بالشرط الأول .

وهنا يتجلَّى ذلك في قول الحق سبحانه :

{ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بالله فَعَلَيْهِ توكلوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ } [يونس : 84] .

والإيمان كما نعلم عملية وجدانية قلبية ، والإسلام عملية ظاهرية ، فمرة ينفذ الفرد تعاليم الإسلام ، وقد ينفك مرة أخرى من تنفيذ التعاليم رغم إيمانه بالله ، ومرة تجد واحداً ينفذ تعاليم الإسلام نفاقاً من غير رصيد من إيمان .

ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى يقول :

{ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات } [البقرة : 25] .

ونجده سبحانه يبيّن هذا الأمر بتحديد قاطع في قوله تعالى :

{ قَالَتِ الأعراب آمَنَّا } [الحجرات : 14] .

والإيمان عملية قلبية؛ لذلك يأتي الأمر الإلهي :

{ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ ولكن قولوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإيمان فِي قُلُوبِكُمْ } [الحجرات : 14] .

أي : أنكم تؤدون فروض الإسلام الظاهرية ، لكن الإيمان لم يدخل قلوبكم بعد .

وهنا يقول الحق سبحانه :

{ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بالله فَعَلَيْهِ توكلوا } [يونس : 84] .

وهكذا نرى أن التوكل مطلوب الإيمان ، وأن يُسلم الإنسان زمامه في كل أمر إلى مَنْ آمن به؛ ولذلك لا ينفع الإيمان إلا بالإسلام ، فإن كنتم مسلمين مع إيمانكم فتوكلوا على الله تعالى .

لكن إن كنتم قد آمنتم فقط ولم تسلموا الزمام لله في التكاليف إلى الله في » افعل « و » لا تفعل « ، فهذا التوكل لا يصلح .

وهكذا يتأكد لنا ما قلناه من قبل من أنك إذا رأيت أسلوباً فيه شرط تقدم ، وجاء جواب بعد الشرط ، ثم جاء شرط آخر ، فاعلم أن الشرط الأخير هو المقدَّم ، لأنه شرط في الشرط الأول ، وبالمثل هنا فإن التوكل لن ينشأ إلا بالإسلام مع الإيمان .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { فَقَالُواْ على الله تَوَكَّلْنَا }

فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (85)

أي : أنهم استجابوا لدعوة موسى عليه السلام بمجرد قولهم : { على الله تَوَكَّلْنَا } .

وإذا تقدم الجار على المجرور فمعنى ذلك قَصْر وحَصْر الأمر ، وهنا قصر وحصر التوكل على الله تعالى ، ولا توكل على سواه .

ويأتي بعد ذلك دعاؤهم :

{ رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظالمين } [يونس : 85] .

والفتنة : اختبار ، وهي كما قلنا من قبل ليست مذمومة في ذاتها ، بل المذموم أن تكون النتيجة في غير صالح من يمر بالفتنة .

ويقال : فتنت الذهب ، أي : صهرت الذهب ، واستخلصته من كل الشوائب ، ونحن نعلم أن صُنَّاع الذهب يخلطونه بعناصر أخرى؛ ليكون متماسكاً؛ لأن الذهب غير المخلوط بعناصر أخرى لا يتماسك .

والفتنة التي قالوا فيها :

{ رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظالمين } [يونس : 85] .

هي فتنة الخوف من أن يرتد بعضهم عن الإيمان لو انتصر عليهم فرعون وعذَّبهم ، وكأنهم يقولون : يا رب لا تسلّط علينا فرعون بعذاب شديد .

هذا إن كانوا مفتونين ، فماذا إن كانوا هم الفاتنين؟

إنهم في هذه الحالة لو لم يتبعوا الدين التتبع الحقيقي لما علم فرعون وآله أن هؤلاء الذين أعلنوا الإيمان هم مسلمون بحق ، وهم لو انحرفوا عن الدين لقال عنهم آل فرعون : إنهم ليسوا أهل إيمان حقيقي .

ونجد سيدنا إبراهيم عليه السلام وهو أبو الأنبياء وله قدره العظيم في النبوة ، يقول :

{ رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ } [الممتحنة : 5] .

ودعوة إبراهيم عليه السلام تعلمنا ضرورة التمسك بتعاليم الدين؛ حتى لا ينظر أحد إلى المسلم أو المؤمن ويقول : هذا هو من يعلن الإيمان ويتصرف عكس تعاليم دينه .

ولذلك كان سيدنا إبراهيم عليه السلام يؤدي الأوامر بأكثر مما يطلب منه ، ويقول فيه الحق سبحانه :

{ وَإِذِ ابتلى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ } [البقرة : 124] .

أي : أنه كان يتم كل عمل بنية وإتقان؛ لأنه أسوة ، فلم يقم بعمل إيماني بمظهر سطحي .

إذن : فإن كانوا هم المفتونين ، فهم يدفعون الفتنة عن أنفسهم ، وإن كانوا هم الفاتنين؛ فعليهم التمسك بتعاليم الدين؛ حتى لا يتهمهم أحد بالتقصير في أمور دينهم ، فيزداد الكافرون كفراً وضلالاً .

وجاء قول الحق سبحانه :

{ رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظالمين } [يونس : 85] .

ليدل على انشغالهم بأمر الدين ، فاتنين أو مفتونين .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ القوم الكافرين }

وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (86)

وهنا توضح الآية الكريمة أنهم إن كانوا مشغولين بأمر الغير من الكافرين فهذا يعني أنهم طمعوا في إيمان العدو؛ لعل هذا العدو يعود إلى رشد الإيمان .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » .

وهم أرادوا إيمان العدو رغم أنه ظالم .

وهكذا يعلّم الحق سبحانه وتعالى الخلق أنه من حُمْق العداوة أن يدعو الإنسان على عدوِّه بالشر؛ لأن الذي يتعبك من عدوك هو شرُّه ، ومن صالحك أن تدعو له بالخير؛ لأن هذا الخير سيتعدى إليك .

وعلى المؤمن أن يدعو لعدوِّه بالهداية ، لأنه حين يهتدي؛ فلسوف يتعدَّى لانفع إليك ، وهذه من مميزات الإيمان أن نفعه يتعدَّى إلى الغَيْر .

وهم حين دعوا ألاَّ يجعلهم الله فتنةً للقوم الظالمين ، فإن ذلك يوضّح لنا أن الظلم درجاتٌ ، وأن فرعون وملأه كانوا في قمة الظلم؛ لأن الحق سبحانه وتعالى هو القائل :

{ إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } [لقمان : 13] .

فقمة الظلم أن تأخذ حَقَّ الغير وتعطيه لغير صاحب الحق . وفرعون وملؤه أشركوا بالله سبحانه وتعالى فظن فرعون أنه إله ، وصدَّقه من حوله .

فقمة الظلم هو الشرك بالله سبحانه ، ثم بعد ذلك يتنزل إلى الظلم في الكبائر ، ثم في الصغائر .

وقولهم في دعائهم للحق سبحانه :

{ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ القوم الكافرين } [يونس : 86] .

أي : اجعلنا بنجوةٍ من هؤلاء .

وكان الذي يخيف الأقدمين هو سيول المياه ، حين تتدفَّق ، ولا ينجو إلا مَنْ كان في ربوةٍ عالية والنجوة هي المكان المرتفع وهذا هو أصل كلمة « النجاة » .

وهنا يقول الحق سبحانه على لسانهم :

{ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ القوم الكافرين } [يونس : 86] .

والرحمة هي الوقاية من أن يجيء الداء .

والحق سبحانه يقول :

{ وَنُنَزِّلُ مِنَ القرآن مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ } [الإسراء : 82] .

والشفاء إذا وُجد الدَّاء ، والرحمة هي ألاَّ يجيء الداء .

وأراد الحق سبحانه أن يكرم بعد ذلك موسى عليه السلام وقومه فقال سبحانه وتعالى : { وَأَوْحَيْنَآ إلى موسى وَأَخِيهِ }

وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (87)

وأوضحنا من قبل أن موسى وهارون عليهما السلام رسولان برسالة واحدة ، وأن الوَحْي قد جاء للاثنين برسالة واحدة .

فالحق سبحانه ساعة يختار نبيّاً رسولاً ، فإنما يختاره بتكوينٍ وفطرةٍ تؤهّله لحَمْل الرسالة النطق بمرادات الله تعالى .

وإذا كان الخَلْق قد صنعوا آلات ذاتية الحركة من مواد جامدة لا فكر لها ولا رَويّة ، مثل الساعة التي تُؤذِّن ، أو المذياع يذيع في توقيت محدد ، إذا كان البشر قد صنعوا ذلك فما بالنا بالله سبحانه الخالق لكل الخلق والكون ومرسل الرسل؟

إنه سبحانه وتعالى يختار رسله بحيث يسمح تكوين الرسول أن يؤدي المهمة الموكولة إليه في أي ظرف من الظروف .

وقول الحق سبحانه هنا :

{ وَأَوْحَيْنَآ إلى موسى وَأَخِيهِ } [يونس : 87] .

يبيّن لنا أن الوحي شمل كلاً من موسى وهارون عليهما السلام ، بحيث إذا جاء موقف من المواقف يقتضي أن يتكلم فيه موسى ، فهارون أيضاً يمكن أن يتكلم في نفس الأمر؛ لأن الشحنة الإيمانية واحدة ، والمنهج واحد .

وقد حدث ذلك بعد أن أغرق فرعون وقومه ، وخلا لهم الجو ، فجاء لهم الأمر أن يستقروا في مصر ، وأن يكون لهم فيها بيوت .

ولكن لنا أن نسأل :

هل فرعون هذا هو شخص غرق وانتهى؟

لا . . إن فرعون ليس اسماً لشخص ، بل هو تصنيف لوظيفة ، وكان لقب كل حاكم لمصر قديماً هو « فرعون »؛ لذلك لا داعي أن نشغل أنفسنا : هل هو تحتمس الأول؟ أو رمسيس؟ أو ما إلى ذلك؟ فهب أن فرعون المعنيَّ هنا قد غرق ، ألا يعني ذلك مجيء فرعون جديد؟

نحن نعلم من التاريخ أن الأسر الحاكمة توالت ، وكانوا فراعنة ، وكان منهم من يضطهد المؤمنين ، ولا بد أن يكون خليفة الفرعون أشد ضراوةً وأكثر شحنةً ضد هؤلاء القوم .

وقول الحق سبحانه وتعالى في الآية الكريمة التي نحن بصدد خواطرنا عنها :

{ وَأَوْحَيْنَآ إلى موسى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً } [يونس : 87] .

نجد فيه كلمة « مصر » وهي إذا أطلقت يُفهم منها أنها « الإقليم » .

ونحن هنا في بلدنا جعلنا كلمة « مصر » علماً على الإقليم الممتد من البحر المتوسط إلى حدود السودان ، أي : وادي النيل .

ومرة أخرى جعلنا من « مصر » أسماً لعاصمة وادي النيل .

ونحن نقول أيضاً عن محطة القطارات في القاهرة : « محطة مصر » .

وقول الحق سبحانه هنا :

{ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا } [يونس : 87] .

نفهم منه أن التبؤُ هو اتخاذ مكان يعتبر مباءةً؛ أي : مرجعاً يبوء الإنسان إليه .

التبؤُ إذن هو التوطن في مكان ما ، والإنسان إذا اتخذ مكاناً كوطن له فهو يعود إليه إن ذهب إلى أي بلد لفترة .

ويعتبر الخروج من الوطن مجرد رحلة تقتضي العودة ، وكذلك البيت بالنسبة للإنسان؛ فالواحد منا يطوف طوال النهار في الحقل أو المصنع أو المكتب ، وبعد ذلك يعود إلى البيت للبيتوتة .

والبيوت التي أوصى الله سبحانه وتعالى بإقامتها لقوم موسى وهارون عليهما السلام كان لها شرط هو قول الحق سبحانه :

{ واجعلوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً } [يونس : 87] .

والقِبلة هي المتجَه الذي نصلي إليه .

ومثال ذلك : المسجد ، وهو قبلة مَنْ هو خارجه ، وساعة ينادي المؤذن للصلاة يكون المسجد هو قبلتنا التي نذهب إليها ، وحين ندخل المسجد نتجه داخله إلى القلبة ، واتجاهنا إلى القبلة هو الذي يتحكم في وضعنا الصفّي .

والأمر هنا من الحق سبحانه :

{ واجعلوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ الصلاة } [يونس : 87] .

فإقامة البيوت هنا مشروطة بأن يجعلوا بها قبلة لإقامة الصلاة بعيداً عن أعين الخصوم الذين يضطهونهم ، شأنهم شأن المسلمين الأوائل حينما كان الإسلام في أوليته ضعيفاً بمكة ، وكان المسلمون حين ذاك يصلون في قلب البيوت ، وهذا هو سر عدم الجهر بالصلاة نهاراً ، وعدم الجهر يفيد في ألا ينتبه الخصوم إلى مكان المصلين .

وأما الجهر بالصلاة ليلاً وفجراً ، فقد كان المقصود به أن يعلمهم كيفية قراءة القرآن .

وهنا يقول الحق سبحانه :

{ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً واجعلوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً } [يونس : 87] .

وقد يكون المقصود بذلك أن تكون البيوت متقابلة .

وإلى يومنا هذا أن نظرت إلى ساحات اليهود في أي بلد من بلاد الدنيا تجد أنهم يقطنون حيّاً واحداً ، ويرفضون أن يذوبوا في الأحياء الأخرى .

ففي كل بلد لهم حي يسكنون فيه ، ويسمى باسم « حي اليهود » . وكانت لهم في مصر « حارات » كل منها تسمى باسم « حارة اليهود » .

وقد شاء الحق سبحانه وتعالى ذلك وقال في كتابه العزيز :

{ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذلة والمسكنة } [البقرة : 61] .

وهم يحتمون بتواجهم معاً ، فإن حدث أمر من الأمور يفزعهم؛ يصبح من السهل عليهم أن يلتقوا :

أو { واجعلوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً } [يونس : 87] .

أي : أن يكون تخطيط الأماكن والشوارع التي تُبنى عليها البيوت في اتجاه القبلة .

وأي خطأ معماري مثل الذي يوجد في تربيعة بناء مسجد الإمام الحسين بالقاهرة ، هذا الخطأ يوجب الاتجاه إلى اليمين قليلاً مما يسبب بعض الارتباك للمصلين؛ لأن الانحراف قليلاً إلى اليمين في أثناء الصلاة يقتضي أن يقصر كل صف خلف الصف الآخر .

وحين نصلي في المسجد الحرام بمكة ، نجد بعضاً من المصلين يريدون مساواة الصفوف ، وأن تكون الصفوف مستقيمة ، فنجد من ينبه إلى أن الصف يعتدل بمقدار أطول أضلاع الكعبة ، ثم ينحي الصف .

وكذلك في الأدوار العليا التي أقيمت بالمسجد الحرام نجد الصفوف منحنية متجهة إلى الكعبة .

ولذلك أقول دائماً حين أصلي بالمسجد الحرام : إن معنى قول الإمام : « سووا صفوفكم » أي : اجعلا مناكبكم في مناكب بعضكم بعض ، أما خارج الكعبة فيكفي أن نتجه إلى الجهة التي فيها الكعبة ، ونحن خارج الكعبة لا نصلي لعين الكعبة ، ولكننا نصلي تجاه الكعبة؛ لأننا لو كنا نصلي إلى عين الكعبة لما زاد طول الصف في أي مسجد عن اثني عشر متراً وربع المتر ، وهو أطول أضلاع الكعبة .

وقول الحق سبحانه هنا :

{ واجعلوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً } [يونس : 87] .

أي : خططوا في إقامة البيوت أن تكون على القبلة ، وبعض الناس يحاولون ذلك ، لكن تخطيط الشوارع والأحياء لا يساعد على ذلك .

ثم يقول الحق سبحانه :

{ وَأَقِيمُواْ الصلاة } [يونس : 87] .

وهذا الأمر نفهم منه أن الصلاة فيها استدامة الولاء لله تعالى ، فنحن نشهد ألا إله إلا الله مرة واحدة في العمر ، ونُزَكّي إن كان عندنا مال مرة واحدة في السنة ، ونصوم إن لم نكن مرضى شهراً واحداً هو شهر رمضان ، ونحج إن استطعنا مرة واحدة في العمر .

ويبقى ركن الصلاة ، وهو يتكرر كل يوم خمس مرات ، وإن شاء الإنسان فَلْيُزِد ، وكأن الحق سبحانه وتعالى هنا ينبه إلى عماد الدين وهي الصلاة .

ولكن مَن الذي اختار المكان في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها؟ هل هو موسى وأخوه

هارون؟ أم أن الخطاب لكل القوم .

نلحظ هنا أن الأمر بالتبوّء هو لموسى وهارون عليهما السلام أما الأمر بالجعل فهو مطلوب من موسى وهارون والأتباع؛ لذلك جاء الجعل هنا بصيغة الجمع .

ويُنهي الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

{ وَبَشِّرِ المؤمنين } [يونس : 87] .

وفي هذا تنبيه وإشارة إلى أن موسى هو الأصل في الرسالة؛ لذلك جاء له الأمر بأن يحمل البشارة للمؤمنين .

ونلحظ هنا في هذه الآية أن الحق سبحانه جاء بالتثنية في التبوء ، وجاء بالجمع في جعل البيوت ، ثم جاء بالمفرد في نهاية الآية لينبهنا إلى أن موسى عليه السلام هو الأصل في الرسالة إلى بني إسرائيل .

والبشرى على الأعمال الصالحة تعني : التبشير بالجنة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { وَقَالَ موسى رَبَّنَآ إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ }

وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (88)

والزينة : هي الأمر الزائد عن ضروريات الحياة ومقوماتها الأولى ، فاستبقاء الحياة يكون بالمأكل لأي غذاء يسدُّ الجوع ، وبالمشرب الذي يروي العطش .

أما إن كان الطعام منوَّعاً فهذا من ترف الحياة ، ومن ترف الحياة الملابس التي لا تستر العورة فقط ، بل بالزي الذي يتميز بجودة النسج والتصميم والتفصيل .

وكذلك من ترف الحياة المكان الذي ينام فيه الإنسان ، بحيث يتم تأثيثه بفاخر الرياش ، ولكن الضرورة في النوم يكفي فيها مكان على الأرض ، وأي فراش يقي من برودة الأرض أو حرارتها .

إذن : فالزائد عن الضرورات هو زينة الحياة ، والزينة تأتي من الأموال ، والرصيد الأصيل في الأموال هو الذهب ، ثم تأخذ الفضة المرتبة الثانية .

ومن مقومات الاقتصاد أن الذهب يعتبر قيمة الرصيد لغنى أية دولة ، مهما اكتشفوا من أحجار أغلى من الذهب .

وهذه الأحجار الكريمة كالماس مثلاً إن كُسِرت أو خُدِشت تقل قيمتها ، لكن الذهب مهما تفتَّت فأنت تعيد صَهْرَه ، فتستخلَص ذهباً مُجَمَّعاً .

وكان الفراعنة الأقدمون يحكمون مصر حتى منابع النيل ، وكانوا يسخِّرون الناس في كل الأعمال ، وحتى استخراج الذهب سواء من المناجم أو من غربلة رمال بعض الجبال لاستخلاص الذهب منها .

وأنت قد تستطيع استخلاص الذهب من أماكن معينة ، ولكن الفرق دائماً إنما يكون في القيمة الاقتصادية لاستخراج الذهب ، فحين يكون المنجم وفير العطاء ، فيه كثير من عروق الذهب ، هنا يصبح استخراج الذهب مسألة مربحة اقتصادياً .

أما إن كانت التكلفة أعلى من القيمة الاقتصادية للذهب المستخرج ، فلا أحد يستخرج هذا الذهب .

وأنت إن نظرت إلى زينة الفراعنة تجد قناع « توت عنخ آمون » آية في الجمال ، وكذلك كانت قصورهم في قمة الرفاهية ، ويكفي أن ترى الألوان التي صنعت منها دهانات الحوائط في تلك الأيام؛ لتعرف دقة الصنعة ومدى الترف ، الذي هو أكثر بكثير من الضرورات .

وفي هذه الآية الكريمة يقول الحق سبحانه :

{ وَقَالَ موسى رَبَّنَآ إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الحياة الدنيا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ } [يونس : 88] .

وهم لم يَضِلُّوا فقط بل أرادوا أن يُضِلّوا غيرهم؛ لذلك تحملوا وِزْر ضلالهم ، ووزر إضلال غيرهم .

فهل أعطاهم الله سبحانه المال والزينة للضلال والإضلال؟

لا ، فليس ذلك علة العطاء ، ولكن هناك لام العاقبة ، مثلما تعطي أنت إبنك عشرة جنيهات وتقول له : افعل بها ما تريد ، وأرجو أن تتصرف فيها تصرفاً يعود عليك بالخير . وقد ينزل هذا الابن ليشتري شيئاً غير مفيد ولا يشتري مثلاً كتباً تفيده .

هنا أنت أعطيت هذا الابن قوة شرائية لكنه لم يحسن التصرف فيها ، وغاية الاختيار هَدَتْه إلى اللعب . وهذا ما يسمى لام العاقبة ، ولام العاقبة لا يكون المقصود بها سبب الفعل ، ولكنها تأتي لبيان عاقبة الفعل .

وحين أراد الحق سبحانه وتعالى أن ينجي موسى عليه السلام ، في طفولته من القتل أوحى إلى أم موسى عليهما السلام بقوله تعالى :

{ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي اليم وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تحزني } [القصص : 7] .

ولا توجد أم تُقبل على تنفيذ مثل هذا الأمر؛ لأنه موت محقق؛ لأن الابن إن خُطف أو فُقِد فهذا كله موت مظنون ، أما إلقاؤه في الماء فليس فيه موت مظنون ، بل موت مؤكد ، إن لم يُنجِّه الله تعالى .

ولكن أم موسى لإيمانها بالله فعلت ما أوحى به الله سبحانه وتعالى لها؛ لأن الوارد من الله تعالى لا يجد في الفطرة منازعاً له .

أما نزغات الشيطان فهي تجد ألف منازع لها في النفس ، وكذلك هواجس النفس .

ولذلك نفَّذت أم موسى ما أوحى الله تعالى به إليها ، وإن كان مخالفاً للعقل والمنطق .

وحين التقطه آل فرعون ، وقد كانوا يقتلون الأطفال ، وألقى الحق سبحانه وتعالى محبة موسى في قلوبهم ، قال :

{ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي } [طه : 39] .

فهم ساعة رؤيتهم لموسى عليه السلام وهو طفل ، أحبُّوه فلم يقتلوه ، وهكذا نفذت مشيئة الله تعالى ووعده لأمه :

{ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ المرسلين } [القصص : 7] .

أي : أن لموسى عليه السلام مهمة مسبقة أرادها له الحق سبحانه .

ولذلك نجد أن هناك أوامر متتابعة جاء بها القرآن الكريم في مسألة إلقاء أم موسى لابنها ، فقال الحق سبحانه :

{ إِذْ أَوْحَيْنَآ إلى أُمِّكَ مَا يوحى * أَنِ اقذفيه فِي التابوت فاقذفيه فِي اليم فَلْيُلْقِهِ اليم بالساحل } [طه : 3839] .

وكلها أوامر من الحق سبحانه ، فتراه زوجة فرعون فتقول لزوجها :

{ قُرَّةُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ } [القصص : 9] .

فهل كان فرعون يعلم أن هذا الطفل الذي التقطه سيكون عدوّاً له؟

لا ، لقد التقطه وأعطاه حياة الترف؛ ليكون قُرَّة عين له ، وهذه علة الالتقاط ، ولكن العاقبة انتهت إلى أن يكون عدوّاً؛ ولو كانت العلة هي العداوة لما التقطه فرعون أو لقتله لحظة الالتقاط .

ولذلك يترك الحق سبحانه وتعالى في كونه أشياء تكسر مكر البشر؛ فأخذه فرعون وربَّاه ، وكانت العاقبة غير ما كان يتوقع فرعون .

وقول الحق سبحانه هنا في الآية التي نحن بصددها : { لِيُضِلُّواْ } نفهم منه أن سبحانه وتعالى لم يُعْطِهم المال ليضلوا ، ولكنهم هم الذين اختاروا الضلال .

وقد أعطى الله سبحانه وتعالى الكثير من الناس مالاً وجاهاً وأرادوا به الخير ، وهكذا نرى اختيار الإنسان ، إن له أن يضل أو يهتدي .

وقد قال موسى عليه السلام تنفيساً عن نفسه :

{ رَبَّنَآ إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الحياة الدنيا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطمس على أَمْوَالِهِمْ واشدد على قُلُوبِهِمْ } [يونس : 88] .

ومعنى الطمس أي : إخفاء المعالم؛ مثل قول الحق سبحانه :

{ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهاً فَنَرُدَّهَا على أَدْبَارِهَآ } [النساء : 47] .

ومعنى الطمس هنا : إخفاء معالم تلك الوجوه؛ فتكون قطعة واحدة بلا جبهة أو حواجب أو عينين أو أنف أو شفاه أو ذقن .

إذن : فالطمس هو إهلاك الصورة التي بها الشيء . ودعوة موسى عليه السلام هنا :

{ اطمس على أَمْوَالِهِمْ } [يونس : 88] .

أي : امسخها .

وقال بعض الرواة أنها مُسخت ، فمن كان يملك بعضاً من سبائك الذهب وجدها حجارة ، ومن كان يملك أحجاراً كريمة كالماس وجدها زجاجاً .

أو أن { اطمس على أَمْوَالِهِمْ } [يونس : 88] .

أي : أذهبهما؛ لأن الأموال كانت وسيلة إضلال .

وقوله عليه السلام بعد ذلك :

{ واشدد على قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حتى يَرَوُاْ العذاب الأليم } [يونس : 88] .

أي : أحْكِمْ يا رب الأربطة على تلك القلوب؛ فلا يخرج ما فيها من كفر ، ولا يَدخل ما هو خارجها من الإيمان؛ لأن هؤلاء قد افتروا افتراءً عظيماً ، وأن تظل الأربطة على قلوبهم؛ حتى يروا العذاب الأليم .

ولماذا دعا موسى عليه السلام على آل فرعون هذا الدعاء ، ولم يَدْعُ مثلما دعا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم : « اللهم اهْدِ قومي فإنهم لا يعلمون »

والإجابة : لا بد أن الحق سبحانه وتعالى قد أطلعه على أن هؤلاء قوم لن تفلح فيهم دعوة الإيمان .

وكان خوف موسى عليه السلام لا من ضلال قوم فرعون ، ولكن من استمرار إضلالهم لغيرهم .

إذن : فقد دعا عليهم موسى عليه السلام بما جاء في هذه الآية :

{ رَبَّنَا اطمس على أَمْوَالِهِمْ واشدد على قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حتى يَرَوُاْ العذاب الأليم } [يونس : 88] .

وفي موضع آخر من القرآن الكريم يقول الحق سبحانه :

{ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا } [غافر : 85] .

وهكذا يتبين لنا الفارق بين إيمان الإلجاء والقصر وبين إيمان الاختيار .

فحين يأتي الرسول داعياً إلى الإيمان يصبح من حق السامع لدعوته أن يؤمن أو أن يكفر؛ لأن الله تعالى قد خلق الإنسان وله حق الأختيار ، أما إيمان الإلجاء والقصر فهو لاينفع الإنسان .

ومثال ذلك : فرعون ، فساعة أن جاءه العذاب أعلن الإيمان . فالحق سبحانه وتعالى يقول :

{ حتى إِذَآ أَدْرَكَهُ الغرق قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إله إِلاَّ الذي آمَنَتْ بِهِ بنوا إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ المسلمين }

[يونس : 90] .

وإذا كان موسى عليه السلام قد دعا على قوم فرعون ، فقد سبقه نوح عليه السلام في مثل هذا الدعاء مما أورده القرآن في قوله :

{ رَّبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأرض مِنَ الكافرين دَيَّاراً * إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلاَ يلدوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً } [نوح : 2627] .

واستجاب الحق سبحانه لدعوة موسى عليه السلام . { قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَّعْوَتُكُمَا فاستقيما }

قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (89)

ويلاحظ أن الذي دعا هو موسى عليه السلام ، ولكن قوله سبحانه : { قَدْ أُجِيبَتْ دَّعْوَتُكُمَا } [يونس : 89] يدل على أن هارون عليه السلام ، قد دعا مع موسى .

وقد قلنا من قبل : إننا إن نظرنا إلى الإصالة في الرسالة لوجدنا موسى عليه السلام هو الأصيل فيها ، وجاء هارون ليشد عضده ، وإن نظرنا إلى طبيعة الاثنين فكل منهما رسول ، والاثنان لهما رسالة واحدة .

وما دام الحق سبحانه قد ارسل الاثنين لمهمة واحدة ، فإن انفعل واحد منهما لشيء فلا بد أن ينفعل الآخر لنفس الشيء؛ لذلك فلا يوجد ما يمنع أن هارون ساعة سمع أخاه داعياً بمثل هذا الدعاء ، قد دعا هو أيضاً بالدعاء نفسه ، أو أنه أي : هارون قد دعا بهذا الدعاء سِرّاً .

والدعاء معناه : أنك تفزع إلى من يقدر على تحقيق ما لا تقدر عليه ، فأنت لا تدعو إلا في أمر عَزَّتْ عليك أسبابه؛ فتقول : إن لي ربّاً أومن به ، وهو يقدر على الأسباب لأنه خالق الأسباب ، وقادر على أن يعطى بلا أسباب ، والمؤمن الحق يستقبل الأحداث ، لا بأسبابه ، ولكن بقدرة مَنْ آمن به ، وهو المسبّب الأعلى سبحانه .

ولذلك تجد موسى عليه السلام ومعه قومه حين وصلوا إلى شاطىء البحر ، وكان من خلفهم قوم فرعون يطاردونهم ، فقال قوم موسى :

{ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ } [الشعراء : 61] .

فَرَدَّ موسى عليه السلام :

{ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ } [الشعراء : 62] .

أي : لا ترتّبوا الأمر بترتيب البشر؛ لأن معي رب البشر ، فجاءه الإنقاذ :

{ فَأَوْحَيْنَآ إلى موسى أَنِ اضرب بِّعَصَاكَ البحر فانفلق فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كالطود العظيم } [الشعراء : 63] .

إذن : فالدعاء إنما يكون فزعاً إلى من يقدر على أمر لا تقدر عليه .

والموضوع الذي كان يشغل موسى وهارون عليهما السلام هو بقاء آل فرعون على ضلالهم

وإصرارهم على إضلال غيرهم ، فلا بد أن يدعو كل منهما نفس الدعاء ، ومثل هذا نجده في غير الرسل ونسميه « التخاطر » ، أي : التقاء الخواطر في لحظة واحدة .

ومثال ذلك في التاريخ الإسلامي ، لحظة أن كان سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه مشغولاً بالتفكير في جيش المسلمين المقاتل في إحدى المعارك ، وكان عمر في المدينة يخطب على المنبر ، فإذا به يقول فجأة : « يا سارية الجبل » وهي كلمة لا موضع لها في منطق الخطبة ، ولكن كان فكره مشغولاً بالقائد الذي يحارب ، وسمع القائد وهو على البعد ، الأمر؛ فانحاز إلى الجبل .

ويقال في هذه المسألة : إن الخاطر قد شغل مع الخاطر ، مثلما تطلب أحداً في الهاتف فيرد عليك الشخص الذي تريد الكلام معه قائلاً : لقد كنت على وشك أن أتصل بك هاتفيّاً ، وهذا يعني أن الخاطرين قد انضبطا معاً .

وإذا كان هذا ما يحدث في حياتنا العادية ، فما بالنا بما يحدث في الأمور الصفائية؛ وفي أرقى درجاتها وهي النبوة؟

أو أن الذي دعا هو موسى وما كان هارون إلا مؤمّناً ، والمؤمّن هو أحد الداعيين ، وما دام الحق سبحانه قد قَبِل دعوة موسى عليه السلام ، فقد قَبِل أيضاً دعوة المؤمّن معه .

ويظن بعض الناس أن إجابة الدعوة هي تحقيق المطلوب فور الدعاء ، ولكن الحقيقة أن إجابة الدعوة هي موافقة على الطلب ، أما ميعاد إنجاز الطلب ، فقد يتأجل بعض الوقت ، مثلما حدث مع دعوة موسى عليه السلام على فرعون وملئه ، فحين دعا موسى ، وأمَّن هارون ، جاءت إجابة الدعاء : { قَدْ أُجِيبَتْ دَّعْوَتُكُمَا } [يونس : 89] بعد أربعين عاماً ، ويحقق الله سبحانه الطمس على المال .

فالسماء ليست موظفة عند من يدعو ، وتقبل أي دعاء ، ولكن قبول الدعوة يقتضي تحديد الميعاد الذي تنفذ فيه .

وهذه أمور من مشيئة الله سبحانه؛ فالحق سبحانه وتعالى منزَّه عن أن يكون منفِّذاً لدعاء ما ، ولكنه هو الذي بيده مقاليد كل أمر ، فإذا ما أجيبت دعوة ما ، فهو سبحانه بمشيئته يضع تنفيذ الدعوة في الميعاد الملائم؛ لأنها لو أجيبت على الفور فقد تضر .

والحق سبحانه وتعالى هو القائل :

{ وَيَدْعُ الإنسان بالشر دُعَآءَهُ بالخير وَكَانَ الإنسان عَجُولاً } [الإسراء : 11] .

لذلك يحدد الحق سبحانه ميعاد تطبيق الدعوة في مجال التنفيذ والواقع .

وهو سبحانه وتعالى يقول :

{ سَأُوْرِيكُمْ آيَاتِي فَلاَ تَسْتَعْجِلُونِ } [الأنبياء : 37] .

والإنسان يعرف أنه قد يكون قد دعا بأشياء ، فحقق الله سبحانه الدعاء وكان شرّاً ، وكم من

شيء يدعو به الإنسان ولم يحققه الله تعالى وكان عدم تحقيقه خيراً .

إذنك فالقدرة العليا رقيبة علينا ، وتعلم ما في صالحنا؛ لأننا لسنا آلهة تأمر بتنفيذ الدعوات ، بل فوقنا الحكيم الأعلى سبحانه :

ولذلك نقول في بيان قول الحق سبحانه :

{ وَلَوْ يُعَجِّلُ الله لِلنَّاسِ الشر استعجالهم بالخير لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ } [يونس : 11] .

لأن الإنسان قد يدعو بالشر على نفسه ، ألا تسمع أمّاً تدعو على ابنها أو ابنتها رغم حبها لهما ، فلو استجاب الله لدعائها على أولادها الذين تحبهم أليس في ذلك شر بالنسبة للأم .

والولد قد يقول لأمه مغاضباً : يا رب تحدث لي حادثة؛ حتى تستريحي مني . فهَبْ أن الله استجاب لهذا الدعاء ، أيرضي ذلك من دعا على نفسه أو يرضي أمه؟

طبعاً لا؛ فإذا كان الله سبحانه قد أبطأ عليك بدعاء الشر فهذا خير لك ، فعليك أن تأخذ إبطاء الله سبحانه عليك بدعاء الخير على أنه خير لك .

ولذلك شاء الحق سبحانه أن يقول لموسى وهارون عليهما السلام :

{ قَدْ أُجِيبَتْ دَّعْوَتُكُمَا فاستقيما وَلاَ تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ الذين لاَ يَعْلَمُونَ } [يونس : 89] .

أي : ابقيا على الطريق السوي ، ولا تُدْخِلا نفسيكما فيما لا علم لكما به . أليس الحق سبحانه هو القائل : { وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابني مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الحق وَأَنتَ أَحْكَمُ الحاكمين * قَالَ يانوح إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْئَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إني أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الجاهلين } [هود : 4546] .

أي : كُنْ مؤدَّباً مع ربك حين تدعو وتنفِّس عن نفسك ، ودَعْ لحكمة الحكيم الإجابة أو عدمها ، وقد تكون الإجابة فورية أو مؤجَّلة إلى حين أوانها ، وكلاهما خير .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { وَجَاوَزْنَا ببني إِسْرَائِيلَ البحر فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُه }

وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (90)

قال الحق سبحانه :

{ وَجَاوَزْنَا ببني إِسْرَائِيلَ البحر } [يونس : 90] لأن الاجتياز لم يكن بأسباب بشرية ، بل بفعل يخرج من أسباب البشر ، فلو أن موسى عليه السلام قد حفر نفقاً تحت الماء ، أو لو كان قد ركب سفناً هو وقومه لكان لهم مشاركة في اجتياز البحر ، لكن المجاوزة كانت بأسباب غير ملوحظة بالنسبة للبشر ، فالحق سبحانه هو الذي أوحى لموسى :

{ أَنِ اضرب بِّعَصَاكَ البحر } [الشعراء : 63] .

ومياه البحر كأية مياه أخرى تخضع لقانون السيولة ، والاستطراق هو وسيلة السيولة ، وهي

عكس التجمد الذي يتسم بالتحيز .

والاستطراق هو الذي قامت عليه أساليب نقل المياه من صهاريج المياه التي تكون في الأغلب أعلى من طول أي منزل ، ويتم ضخ المياه إليها؛ لتتوزع من بعد ذلك حسب نظرية الأواني المستطرقة على المنازل ، أما إذا كانت هناك بناية أعلى طولاً من الصهريج ، هنا يقوم سكان المبنى بتركيب مضخة لرفع المياه إلى الأدوار العالية .

وإذا كان قانون البحر هو السيولة والاستطراق ، فكيف يتم قطع هذا الاستطراق؟

يقول الحق سبحانه :

{ فانفلق فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كالطود العظيم } [الشعراء : 63] .

فكيف تحول الماء إلى جبال يفصل بينها سراديب وطرق يسير فيها موسى عليه السلام وقومه؟

كيف يسير موسى وقومه مطمئنين؟

لا بد أنها معية الله سبحانه التي تحميه ، وهي تفسير لقول الحق سبحانه :

{ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ } [الشعراء : 62] .

ورغم ذلك يتبعهم فرعون وجنوده لعله يدركهم ، وأراد سيدنا موسى عليه السلام بمجرد نجاحه في العبور هو وقومه أن يضرب البحر بعصاه؛ ليعود إلى قانون السيولة ، ولو فعل ذلك لما سمح لفرعون وجنوده أن يسيروا في الممرات التي بين المياه التي تحولت إلى جبال ، ولكن الله سبحانه وتعالى يريد غير ذلك ، فقد أراد الحق سبحانه أن ينجي ويهلك بالشيء الواحد ، فأوحى لموسى عليه لسلام :

{ واترك البحر رَهْواً إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ } [الدخان : 24] .

أي : اترك البحر على حاله؛ فينخدع فرعون وجنوده ، وما إن ينزل آخر جندي منهم إلى الممر بين جبال الماء؛ سيعود البحر إلى حالة السيولة فيغرق فرعون وجنوده ، وينجو موسى وقومه .

ويقول الحق سبحانه :

{ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ } [يونس : 90] .

فهل كان هذا الإتباع دليل إرادة الشر؟

أكان من الممكن أن تكون نية الفرعون أن يدعو موسى وقومه إلى العودة إلى مصر ليستقروا فيها؟

لا ، لم تكن هذه نية الفرعون؛ لذلك قال الحق سبحانه عن هذا الإتباع : { بَغْياً وَعَدْواً } [يونس : 90] .

أي : أنه اتباع رغبة في الانتقام والإذلال والعدوان .

ويصور القرآن الكريم لحظة غرق فرعون بقوله :

{ حتى إِذَآ أَدْرَكَهُ الغرق قَالَ آمَنتُ } [يونس : 90] .

والإدراك : قصد للمدرك أن يلحق بالشيء ، والغرق معنى ، فكيف يتحول المعنى إلى شيء يلاحق الفرعون؟

نعم ، فكأن الغرق جندي من الجنود ، وله عقل ينفعل؛ فيجري إلى الأحداث :

{ حتى إِذَآ أَدْرَكَهُ الغرق قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إله إِلاَّ الذي آمَنَتْ بِهِ بنوا إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ المسلمين } [يونس : 90] .

والإيمان إذا أطلق فهو الإيمان بالقوة العليا ، بدليل أن الحق سبحانه وتعالى قد قال :

{ قَالَتِ الأعراب آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ ولكن قولوا أَسْلَمْنَا } [الحجرات : 14] .

لأن الإيمان يتطلب انقياد القلب ، والإسلام يقتضي اتباع أركان الإسلام ، فالإيمان كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قل آمنت بالله ثم استقم » . وفي هذا القول ذكر محدد بأن الإيمان إنما يكون لله الأعلى .

لكن لو قلت مثلاً : « آمنت أنك رجل طيب » فهذا إيمان له متعلق ، أما إذا ذُكِر الإيمان بإطلاق فهو ينصرف إلى الإيمان بالله تعالى؛ ولذلك قال الله سبحانه للأعراب :

{ ولكن قولوا أَسْلَمْنَا } [الحجرات : 14] .

وهنا يأتي القول على لسان فرعون :

{ آمَنتُ أَنَّهُ لا إله إِلاَّ الذي آمَنَتْ بِهِ بنوا إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ المسلمين } [يونس : 90] .

والخلاف هنا كان بين الفرعون كجهة كفر ، وبين موسى وهارون وقومهما كجهة إيمان ، وأعلن فرعون إيمانه ، وقال أيضاً :

{ وَأَنَاْ مِنَ المسلمين } [يونس : 90] .

ولم يقبل الله ذلك منه بدليل قوله الحق سبحانه : { آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ }

آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (91)

وهذا يعني : أتقول إنك آمنت الآن وإنك من المسلمين . إن قولك هذا مردود؛ لأنه جاء في غير وقته ، فهناك فرق بين إيمان الإجْبار وإيمان الاختيار ، أتقول الآن آمنت وأنت قد عصيت من قبل ، وكنت تفسد في الأرض .

وكان من الممكن أن يقبل الله سبحانه منه إيمانه وهو في نجوة بعيدة عن الشر الذي حاق به .

فالحق سبحانه لا يقبل إيمان أحد بلغت روحه الحلقوم ، فهذا إيمان إجبار ، لا إيمان اختيار .

ولو كان المطلوب إيمان الإجبار لأجبر الحق سبحانه الخلق كلهم على أن يؤمنوا ، ولما استطاع أحد أن يكفر بالله تعالى ، وأمامنا الكون كله خاضع لإمره الله سبحانه وتعالى ولا يتأبى فيه أحد على الله تعالى .

وقدرة الحق عز وجل المطلقة قادرة على إجبار البشر على الإيمان ، لكنها تثبت طلاقة القدرة ، ولا تثبت المحبوبية للمعبود .

وهذه المحبوبية للمعبود لا تثبت إلا إذا كان لك خيار في أن تؤمن أو لا تؤمن . والله سبحانه يريد إيمان الاختيار .

إذن : فالمردود من فرعون ليس القول ، ولكن زمن القول .

ويقال : إنها رُدَّتْ ولم تُقبل رغم أنه قالها ثلاث مرات لأن قوم موسى في ذلك الوقت كانوا قد دخلوا في مرحلة التجسيم لذات الله وادعوا معاذ الله أن الله تعالى عما يقولون جلس على صخرة وأنزل رِجْليه في حوض ماء ، وكان يلعب مع الحوت . . إلى آخر الخرافات التي ابتدعها بنو إسرائيل .

وحين أعلن فرعون أنه آمن بالإله الذي آمنت به بنو إسرائيل ، فهذا يعني أنه لم يؤمن بالإله الحق سبحانه .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك . { فاليوم نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ }

فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ (92)

ونحن نعرف أن الإنسان مكوَّن من بدن ، وهو الهيكل المادي المصوَّر على تلك الصورة التي نعرفها ، وهناك الروح التي في البدن ، وبها تكون الحركة والحياة .

وساعة نقول : « بدن » ، فافهم أنها مجردة عن الروح ، مثلما نقول : جسد . وإذا أطلقت كلمة « جسد » فمعناها الهيكل المادي المجرد من الروح .

والحق سبحانه هو القائل :

{ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا على كُرْسِيِّهِ جَسَداً } [ص : 34] .

وكان سيدنا سليمان عليه السلام يستمتع بما آتاه الله سبحانه من الملك ما لا ينبغي لأحد من بعده ، وسخَّر له الجن والرياح وعلّمه كل اللغات ، وكان صاحب الأوامر والنواهي والهيمنة ، ثم وجد نفسه قاعداً على كرسيه بلا حراك وبلا روح ، ويقدر عليه أي واحد من الرعية ، ثم أعاد الله له روحه إلى جسده ، وهو ما يقوله الحق سبحانه :

{ ثُمَّ أَنَابَ } [ص : 34] .

أي : أنه أفاق لنفسه ، فعلم أن كل ما يملكه هو أمر مُفاضٌ عليه ، لا أمر نابع من ذاته .

وهنا في الآية الكريمة التي نحن بصددها الآن يقول الحق سبحانه :

{ فاليوم نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً } [يونس : 92] .

وباللهِ ، لو لم يأمر الحق البحر بأن يلفظ جثمان فرعون ، أما كان من الجائز أن يقولوا : إنه إله ، وإنه سيرجع مرة أخرى؟

ولكن الحق سبحانه قد شاء أن يلفظ البحر جثمانه كما يلفظ جيفة أي حيوان غارق؛ حتى لا يكون هناك شك في أن هذا الفرعون قد غرق ، وحتى ينظر من بقي من قومه إلى حقيقته ، فيعرفوا أنه مجرد بشر ، ويصبح عبرة للجميع ، بعد أن كان جباراً مسرفاً طاغية يقول لهم :

{ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرِي } [القصص : 38] .

وبعض من باحثي التاريخ يقول : إن فرعون المقصود هو « تحتمس » ، وإنهم حلَّلوا بعضاً من حثمانه ، فوجدوا به آثار مياه مالحة .

ونحن نقول : إن فرعون ليس اسماً لشخص ، بل هو توصيف لوظيفة ، ولعل أجساد الفراعين المحنطه تقول لنا : إن علة حفظ الأبدان هي عبرة؛ وليتعظ كل إنسان ويرى كيف انهارت الحضارات ، وكيف بقيت تلك الأبدان آية نعتبر بها .

وقد تعرض القرآن لمسألة الفرعون ، فقال الحق سبحانه :

{ وَفِرْعَوْنَ ذِى الأوتاد } [الفجر : 10] .

ويقول سبحانه في نفس السورة عن كل جبار مفسد :

{ إِنَّ رَبَّكَ لبالمرصاد } [الفجر : 14] .

ونلحظ أن كلام الحق سبحانه عن فرعون في سورة الفجر كان كلاماً يضمُّ إلى جانب حضارة الفراعنة حضارات أخرى قديمة ، مثل حضارة عاد وحضارة ثمود .

وكذلك تكلم الحق سبحانه عن الفرعون في أثناء لقطات قصة موسى عليه السلام ، ولكن الكلام يختلف في قصة يوسف عليه السلام ، فلا تأتي وظيفة الفرعون ، بل يحدثنا الحق سبحانه عن وظائف أخرى ، هي وظية « عزيز مصر » أي : رئيس وزرائها ويحدثنا الله سبحانه عن ملك مصر بقوله :

{ وَقَالَ الملك ائتوني بِهِ } [يوسف : 50] .

ولم يُكْتَشَف الفارق بين وظيفة « الفرعون » ووظيفة « الملك » في التاريخ المصري إلا بعد أن جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر وفك « شامبليون » رموز اللغة الهيروغليفيه من خلال نقوش حجر « رشيد » ، فعرفنا أن حكام مصر القديمة كانوا يسمون « الفراعنة » إلا في فترة كانت فيها مصر تحت حكم « ملوك الرعاة » أو « الهكسوس » الذين أغاروا على مصر ، وحكموها حكماً ملكياً وقضوا على حكم الفراعنة ، ثم عاد الفراعنة إلى حكم مصر بعد أن خلصوها من سيطرة « الهكسوس » .

وهكذا نجد أن إشارة القرآن في قصة يوسف عليه السلام كانت إلى الملك ، ولم يأت فيها بذكر فرعون ، وهذا دليل على أن القرآن قد سبق بعلمه أي اكتشاف ، وكلما جاء اكتشاف جديد أو ابتكار حقيقي ، نجده يؤيد كتاب الله .

ويُنهي الحق سبحانه الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها بقوله :

{ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ الناس عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ } [يونس : 92] .

وهذا القول يوضح أن هناك من يغفل عن الآيات ، وهناك من لا يغفل عنها ، وينظر إلى تلك الآيات ويتأملها ويتدبرها ، ويتساءل عن جدوى كل شيء ، فيصل إلى ابتكارات واختراعات ينتفع بها الإنسان ، أَذِن بميلادها عند البحث عنها؛ لتستبين عظمة الله في خلقه .

وحين ينظر الإنسان في تلك الابتكارات سيجدها وليدة أفكار مَنْ نظروا بإمعان ، وامتلكوا قدرة الاستنباط ، ولو لم يغفل الناس عن النظر في آيات الكون ، والسموات والأرض ، لزادت الابتكارات والاختراعات ، والحق سبحانه هو القائل :

{ وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السماوات والأرض يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ } [يوسف : 105] .

وحين ننظر إلى مكتشف قانون الجاذبية « نيوتن » الذي رأى ثمرة تفاح تسقط من شجرتها ، نجد أن هناك عشرات الآلاف أوالملايين من البشر شاهدوا من قبله مشهد سقوط ثمرة من على شجرة ، ولكن نيوتن وحده هو الذي تفكر وتدبر ما يحدث أمامه إلى أن أهتدى إلى اكتشاف قانون الجاذبية .

وجاء من بعد نيوتن من بنى سفن القضاء التي تستفيد من هذا القانون وغيره .

وكذلك نجد من صَمَّم الغواصات ، والبواخر العملاقة التي تشبه المدن العائمة ، هؤلاء اعتمدوا على من اكتشف قانون « الطفو » وقاعدة « أرشميدس » الذي لاحظ أنه كلما غطس شيءٌ في المياه ، ارتفع الماء بنفس حجم الشيء الغاطس فيه .

كل هؤلاء اكتشفوا ولم يخلقوا أسراراً كانت موجودة في الكون ، وهم تميَّزوا بالانتباه لها .

وكذلك العالم الذي اكتشف « البنسلين » قد لاحظ أن أصيصاً من المواد العضوية كانت تنزل منه قطرات من الماء العفن ، ورأى الحشرات التي تقترب من هذا الماء تموت ، فأخذ عينة من هذا العفن وأخذ يُجري عليها بعض التجارب في معمله إلى أن اكتشف « البنسلين » .

وقول الحق سبحانه :

{ وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السماوات والأرض يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ } [يوسف : 105] .

فكأنهم لو لم يعرضوا لاستنبطوا من آيات الكون الشيء الكثير .

وكذلك القصص التي تأتي في القرآن ، إنما جاءت ليعتبر الناس ويتأملوا ، فحين يرسل الله رسولاً مؤيَّداً بمعجزة منه لا يقدر عليها البشر؛ فعلى الناس أن يسلّموا ويقولوا : « آمنا » ، لا أن يظلوا في حالة إعادة للتجارب السابقة؛ لأن ارتقاءات البشر في الأمور المادية قد تواصلت؛ لأن كل جيل من العلماء يأخذ نتائج العلم التي توصل إليها مَنْ سبقوه ، فلماذا لا يحدث هذا في الأمور العقدية؟

ولو أن الناس بدأوا من حيث انتهى غيرهم؛ لوجدنا الكل مؤمناً بالله تعالى ، ولأخذ كل مولود الأمر من حيث انتهى أبوه ، ولَوصَل خير آدم إلى كل من وُلِدَ بعد ذلك ، لكن آفة البشر أن الإنسان يريد أن يجرب بنفسه .

ونحن نجد ذلك في أمور ضارة مثل : الخمر ، نجدها ضارة لكل من يقرب منها ، فإذا حرَّمها الدين وجدنا من يتساءل : لماذا تُحرَّم؟

وكذلك التدخين؛ نجد من يجربه رغم أن التجارب السابقة أثبتت أضراره البالغة ، ولو أخذ كل إنسان تجارب السابقين عليه؛ فهو يصل عمره بعمر الآخرين .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بني إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ }

وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (93)

وكلمة « تبوأ » تعني إقامة مباءة أي : البيوت التي يكون فيها السكن الخاص ، وإذا أطلقت كلمة « مبوأ » فهي تعني الإقليم أو الوطن .

والوطن أنت تتحرك فيه وكذلك غيرك ، أما البيت فهو للإنسان وأسرته كسكن خاص .

أما الثري فقد يكون له جناح خاص في البيت ، وقد يخصص الثريُّ في منزله جناحاً لنفسه ، وآخر لولده وثالثاً لابنته .

أما غالبية الناس فكل أسرة تسكن في « شقة » قد تتكون من غرفة أو اثنتين أوثلاثة حسب إمكانات الأسرة .

إذن : فيوجد فرق بين تبوُّء البيوت وتبوء المواطن ، فتبوُّء المواطن هو الوطن .

وسبق أن قال الحق سبحانه لموسى وهارون عليهما السلام :

{ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً } [يونس : 87] .

هذا في التبوء الخاص ، أما في التبوء العام فهو يحتاج إلى قدرة الحق تعالى ، وهو سبحانه يقول هنا :

{ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بني إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ } [يونس : 93] .

والحق سبحانه أتاح لهم ذلك في زمن موسى عليه السلام وأتاح لهم السكن في مصر والشام ، وهو سبحانه القائل :

{ سُبْحَانَ الذي أسرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي بَارَكْنَا حَوْلَهُ } [الإسراء : 1] .

وما دام الحق سبحانه قد بارك حول فلا بد أن فيه خيراً كثراً ، ولا بد أن تكون الأرض التي حوله مُبوَّأً صدق .

وكلمة « الصدق » تعني جماع الخير والبر؛ « ولذلك نجد الرسول صلى الله عليه وسلم حينما سئل : أيكون المؤمن جباناً؟ قال : » نعم « وحين سئل : أيكون المؤمن بخيلاً؟ قال : » نعم « . وحين سئل أيكون المؤمن كذاباً؟ قال : » لا « .

ولذلك فأنت تجد في الإسلام عقوبة على الزنا ، وعقوبة تقام على السارق ، أما الكذب فهو خصلة لا يقربها المسلم؛ لأن عليه أن يكون صادقاً . وكل خصال الخير هي مُبوَّأَ الصدق .

ولذلك نجد قول الحق سبحانه :

{ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ } [الإسراء : 80] .

وقول الحق سبحانه :

{ وَبَشِّرِ الذين آمنوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ } [يونس : 2] .

وقول الحق سبحانه :

{ واجعل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخرين } [الشعراء : 84] .

أي : اجعل لي ذكرى حسنة فلا يقال فلان كان كاذباً ، وأما قدم الصدق فهي سوابق الخير التي يسعى إليها؛ ولذلك كان الجزاء على الصدق هو ما يقول عنه الحق سبحانه :

{ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ } [القمر : 55] .

وهو مقعد عند مليك لا يبخل ، ولا يجلس في رحابه إلا من يحبه ، ولا يضن بخيره على من هم في رحابه .

ومقعد الصدق هو جزاء لمن استجاب له ربه فأدخله مدخل صدق ، وأخرجه مخرج صدق ، وجعل له لسان صدق ، وقدم صدق .

وبعد أن بوَّأ الحق سبحانه بني إسرائيل مُبوَّأَ صدق ، في مصر والشام ، وبعد أن قال لهم :

{ اهبطوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ } [البقرة : 61] .

أي : أن الحق سبحانه حقق قوله :

{ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطيبات } [يونس : 93] .

وأنجاهم من فرعون ، وكان من المفترض أن تستقيم أمورهم .

ويقول الحق سبحانه :

{ فَمَا اختلفوا حتى جَآءَهُمُ العلم } [يونس : 93] .

والمقصود بذلك هو معرفتهم بعلامات الرسول الخاتم محمد صلى الله عليه وسلم ، ومنهم من ترقب مجيء النبي صلى الله عليه وسلم ليؤمن به ، ومنهم من تمادى في الطغيان؛ لذلك قطَّعهم الله سبحانه في الارض أمماً .

وحين ننظر إلى دقة التعبير القرآني نجده يحدد مسألة التقطيع هذه ، فهم في كل أمة يمثلون قطعة ،

أي : أنه سبحانه لم يُذِبْهم في الشعوب . بل لهم في كل بلد ذهبوا إليه مكانٌ خاصٌّ بهم ، ولا يذَوبون في غيرهم .

والحق سبحانه يقول :

{ وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسكنوا الأرض } [الإسراء : 104] .

وقد يقول أحد السطحيين : وهل هناك سكن في غير الأرض؟

ونقول : لنا أن نلحظ أن الحق سبحانه لم يحدد لهم في أية بقعة من الأرض يسكنون ، فكأن الحق سبحانه قد بيَّن ما أصدره من حكم عليهم بالتقطيع في الأرض أمماً؛ فهو سبحانه القائل :

{ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأرض أُمَماً } [الأعراف : 168] .

وإذا كنا نراهم في أيامنا هذه وقد صار لهم وطن ، فاعلم أن الحق سبحانه هو القائل :

{ وَقَضَيْنَآ إلى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الكتاب لَتُفْسِدُنَّ فِي الأرض مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً } [الإسراء : 4] .

وقد قال في آخر سورة الإسراء :

{ وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسكنوا الأرض فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ الآخرة جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً } [الإسراء : 104] .

والمجيء بهم لفيفاً إنما يعني أن يجمعهم في وطن قومي لتأتي لهم الضربة القاصمة التي ذكرها الحق سبحانه في قوله :

{ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ الآخرة لِيَسُوءُواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ المسجد كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيراً } [الإسراء : 7] .

لأننا لن نستطيع أن نحاربهم في كل بلد من البلاد التي قطَّعهم الله فيها ، لكنهم حين يجتمعون في مكان واحد ، إنما يسهل أن ينزل عليهم قضاء الله .

وحين ننظر إلى رحلتهم نجد أن « يثرب » كانت المكان الذي اتسع لهم بعد اضطهادات المجتمعات التي دخلوا إليها ، وحين اجتمعوا في يثرب صار لهم الجاه؛ لأنهم أهل علم ، وأهل اقتصاد ، وأهل حرب .

وهم قد اجتمعوا في المدينة؛ لأن المخلصين من أهل الكتاب أخبروهم أن هذه المدينة هي المهجر لنبي ورسول يأتي من العرب في آخر الزمان؛ فمكثوا فيها انتظاراً له ، وكانوا يقولون لكفار قريش : « لقد أظل زمان يأتي فيه نبي نتبعه ، ونقتلكم فيه قَتل عاد وإرم » .

وكان من المفروض أن يؤمنوا برسالته صلى الله عليه وسلم ، لكنه إن أطل رسول الله صلى الله عليه وسلم بنور رسالته حتى أنكروه خوفاً على سلطتهم الزمنية .

وهو ما تقول عنه الآية الكريمة التي نحن بصدد خواطرنا عنها :

{ فَمَا اختلفوا حتى جَآءَهُمُ العلم } [يونس : 93] .

أي : أن علمهم بمجيء الرسول صلى الله عليه وسلم هو مصدر اختلافهم ، فمنهم من سمعوا إشارات عنه صلى الله عليه وسلم وعرفوا علاماته صلى الله عليه وسلم ؛ فآمنوا به ، ومنهم من لم يؤمن به .

وهم لم يختلفوا من قبل وكانوا متفقين ، وتوعَّدوا المشركين من قريش . وما إن أهلَّ الرسول صلى الله عليه وسلم به « الأوس » و « الخزرج » أنه رسول من الله تعالى قد ظهر بمكة ، فقالت الأوس و الخزرج : إنه النبي الذي توعَّدتنا به يهود ، فهيا بنا لنذهب ونسبقهم إليه قبل أن يسبقونا ، فيقتلونا به .

فكأن اليهود هم الذين تسببوا في هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة؛ لأن الأوس والخزرج سبقوهم إليه؛ وهذا لنعلم كيف ينصر الله تعالى دينه بأعدائه .

ولذلك نجد أنهم في اختلافهم « يأتي عبد الله بن سلام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن اليهود قوم بُهْتٌ ، وإذا أنا آمنت بك يا رسول الله سيقولون فيَّ ما يسيء إليَّ؛ لذلك فقبل أن أعلن إسلامي اسألهم عنِّي .

وكان ابن سلام في ذلك يسلك سلوكاً يتناسب مع كونه يهودياً ، ولما اجتمع معشر اليهود ، سألهم النبي صلى الله عليه وسلم وقال : ما تقولون في ابن سلام؟

قالوا : حَبْرُنا وشيخنا وهو الورع فينا ، وبعد أن أثنوا عليه ثناء عظيماً ، قال ابن سلام : يا رسول الله أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله .

وهنا بدأ اليهود يكيلون له السِّباب ، فقال ابن سلام : ألم أقُلْ لك يا رسول الله إنهم قوم بُهْت » إذن : فمعنى قوله سبحانه :

{ فَمَا اختلفوا حتى جَآءَهُمُ العلم } [يونس : 93] .

أي : أن أناساً منهم بقوا على الباطل ، وأناساً منهم آمنوا بالرسول الحق صلى الله عليه وسلم .

وينهي الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله تعالى :

{ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ القيامة فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ } [يونس : 93] .

أي : أن الله سبحانه وتعالى سوف يقضي بن ما جاءوا في صف الإيمان ، وبين مَنْ بَقَوْا على اليهودية المتعصبة ضد الإيمان .

ونحن نلحظ أن كلمة { بَيْنَهُمْ } توضح أن الضمير عام ، لهؤلاء ولأولئك .

ونقول : إن الحق سبحانه وتعالى يقضي يوم القيامة بين المؤمنين والكافرين ، ويقضي أيضاً بين الكفارين ، فمنهم من كان ظالماً لكافر ، ومنه من كان مختلساً أو مرتشياً ، ومنهم من عمل على غير مقتضى دينه؛ لذلك يقضي الله سبحانه بينهم .

والآية تفيد العموم في القضاء ماضياً وحاضراً ومستقبلاً بين كل مؤمن وكافر ، وبين كل تائب وعاصٍ .

ويقو الحق سبحانه بعد ذلك : { فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ }

فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (94)

والخطاب هنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

ونحن نعلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد قال من البداية إنه لا يشك في رسالته ، وحين وعده أهله بالسيادة قال :

« والله لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يُظهره الله ، أو أهلك فيه ، ما تركته » .

نقول : إن الحق سبحانه وتعالى يضمر خطاب الأمة في خطاب رسوله صلى الله عليه وسلم ؛ لأن الأتباع حين يقرأون ويسمعون الخطاب وهو موجَّه بهذا الأسلوب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فهم لن يستنكفوا عن أيّ أمر يصدر إليهم .

ومثال ذلك : لو أن قائداً يصدر أمراً لاثنين من مساعديه اللذين يقودان مجموعتين من المقاتلين ، فيقول القائد الأعلى لكل منهما : إياك أن تفعل كذا أو تصنع كذا . والقائد الأعلى بتعليماته لا يقصد المساعدين له ، ولكنه يقصد كل مرءوسيهم من الجند .

وجاء الأمر هنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لتفهم أمته أن الرسول صلى الله عليه وسلم ما كان ليتأبَّى على أمر من أوامر الله ، بل هو صلى الله عليه وسلم ينفّذ كل ما يؤمر به بدقة؛ وذلك من باب خطاب الأمة في شخصية رسولها صلى الله عليه وسلم .

وقول الحق سبحانه :

{ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الذين يَقْرَءُونَ الكتاب مِن قَبْلِكَ } [يونس : 94] .

هذا القول دليل على أن الذين عندهم علم بالكتاب من السابقين على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يعرفون الحقائق الواضحة عن رسالته صلى الله عليه وسلم .

وإن الذين يكابرون ويكفرون برسول الله صلى الله عليه وسلم ورسالته إنما يعرفونه كما يعرفون أبناءهم .

وقد قال عبد الله بن سلام : « لقد عرفت محمداً حين رأيته كمعرفتي لابني ، ومعرفتي لمحمد أشد » .

إذن : فالحق عندهم واضح مكتوبٌ في التوراة من بشارة به صلى الله عليه وسلم ، وهذا يثبت

أنك يا محمد صادق في دعوتك ، بشهادة هؤلاء .

ويُنهي الحق سبحانه الآية بقوله تعالى :

{ لَقَدْ جَآءَكَ الحق مِن رَّبّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الممترين } [يونس : 94] .

والحق القادم من الله تعالى ثابت لا يتغير؛ لأنه واقع ، والواقع لا يتعدد ، بل يأتي على صورة واحدة .

أما الكذب فيأتي على صور متعددة .

ولذلك فمهمة المحقِّق الدقيق أن يقلِّب أوجه الشهادات التي تقال أمامه في النيابة أو القضاء؛ حتى يأتي حكمه مصيباً لا مدخل فيه لتناقض ، ولا يعتمد على تخيُّل أو أكاذيب .

وقول الحق سبحانه :

{ لَقَدْ جَآءَكَ الحق } [يونس : 94] .

إنما يدل على أن الذين قرأوا الكتاب قد عرفوا أنك رسول الله حقّاً ، ومنهم من ترك معسكر اليهودية ، وجاء إلى معسكر الإيمان بك؛ لأن الحق الذي جاء لا دخل للبشرية فيه ، بل جاء من ربك :

{ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الممترين } [يونس : 94] .

ومجيْ الخطاب بهذا الشكل ، هو كما قلت موجَّه إلى الأمَّة المؤمنة في شخص الرسول صلى الله عليه وسلم .

والحق سحبانه يقول :

{ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ } [الزمر : 65] .

هذا القول نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن غير المعقول أن يشرك النبي صلى الله عليه وسلم ، وكل الآيات التي تحمل معاني التوجيه في الأمور المنزَّه عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم خاصَّة بأمته .

وأيضاً يقول الحق سبحانه :

{ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الذين كَذَّبُواْ بِآيَاتِ الله فَتَكُونَ مِنَ الخاسرين } [يونس : 95] .

والقول الحكيم ساعة يوجِّه إلى الخير قد يأتي بمقابلة من الشر؛ لتتضح الأشياء بالمقارنة .

ونحن في حياتنا اليومية نجد الأب يقول لابنه : اجتهد في دروسك ، واستمع إلى مدرِّسيك جيّداً حتى تنجح ، فلا تكن مثل فلان الذي رسب ، والوالد في هذه الحالة يأتي بالإغراء الخيِّر ، ويصاحبه بمقابله ، وهو التحذير من الشر .

وقد قال الشاعر :

فالوَجْهُ مثلُ الصُّبحِ مُبْيَضٌّ ... والشَّعْرُ مثلُ الليلِ مُسْوَدُّ

ضِدَّانِ لمّا استجمعا حَسُنَا ... والضِّدُّ يُظْهِر حُسنَهُ الضِّدُّ

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الذين كَذَّبُواْ }

وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (95)

وآيات الله سبحانه كما نعرفها متعددة؛ إما آيات كونية وهي الأصل في المعتقد الأول بأن خالقها هو الخالق الأعلى سبحانه ، وتُلْفِت هذه الآيات إلى بديع صُنْعه سبحانه ، ودقة تكوين خلقه ، وشمول قدرتِه .

وكذلك يُقصد بالآيات؛ المعجزات المنزلة على الرسل عليهم السلام لتظهر صدق كل رسول في البلاغ عن الله تعالى .

وآيات القرآن الكريم التي تحمل منهج الله .

وهم كانوا يُكذِّبون بكل الآيات .

والخطاب في هذه الآية هو خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، وجاء معطوفاً على ما في الآية السابقة ، حيث يقول الحق سبحانه :

{ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ } [يونس : 94] .

وكل ما يريد من مثل هذا القول لا يصح أن نفهم منه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم من الممكن أن يشك ، أو من المحتمل أن يكون من الذين كذَّبوا بآيات الله سبحانه وتعالى ولكن إيراد مثل هذا الأمر ، هو إيراد لدفع خواطر البشرية ، أيًّا كانت تلك الخواطر ، فإذا وجدنا الخطاب المراد به رسول الله صلى الله عليه وسلم في التنزيل ، فغاية المراد اعتدال موازين الفهم في أمّته تعليماً وتوجيهاً؛ لأن المنهج مُنزّل عليه لتبليغه لأمته فهو شهيد على الأمم .

وإذا كانت الآية التي سبقت توضح : إن كنت في شك فاسأل ، فهو سبحانه يعطيه السؤال؛ ليستمع منه إلى الجواب ، وليُسْمعه لكل الأمة؛ الجواب القائل : أنا لا أشك ولا أسأل ، وحسبي ما أنزل الله سبحانه عليَّ .

ألم يَرِدْ في القرآن الكريم أن الحق سبحانه وتعالى يقول للملائكة يوم القيامة بمحضر من عبدوا الملائكة ، ويشير إلى هؤلاء الذين عبدوا الملائكة ومخاطباً ملائكته .

{ أهؤلاء إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ } [سبأ : 40] .

ونحن نعلم أن الملائكة :

{ لاَّ يَعْصُونَ الله مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ } [التحريم : 6] .

والحق سبحانه يعلم مسبقاً جواب الملائكة ، وهم يقولون :

{ سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمْ } [سبأ : 41] .

ولكنه سبحانه وتعالى أراد أن يُسْمِع من في الحشر كلهم جواب الملائكة وهم يستنكرون أن

يعبدهم أحد من الخَلق ، فهؤلاء الخلق إنما عبدوا الجن .
إذن : فالسؤال جاء؛ ليبين الرد عليه ، مثلما يرد عيسى عليه السلام حين يُعبد من بعض قومه ، ويسأله سبحانه عن ذلك :
{ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتخذوني وَأُمِّيَ إلهين مِن دُونِ الله } [المائدة : 116] .
فيأتي الجواب :
{ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ } [المائدة : 116] .
إذن : فالمراد أن يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : أنا لا أشك ولا أسأل .
والشك كما نعلم معناه : تساوي كفة النفي وكفة الإثبات ، فإن رجحت واحدة منهما فهذا ظن ، وتكون المرجوحة وَهْماً وافتراء وكذباً .
وكلمة « الشك » مأخوذة من مسألة حسية ، فنحن نرى الصيادين وهم يصعون كل سمكة بعد اصطيادها في خيط يسمى « المشكاك » .

وكذلك نرى من يقوم ب (لضْم) العقود ، وهو يشك الحبة في الخيط .
من هذا نأخذ أن الشك معناه : ضَمُّ شيء إلى شيء ، ومنه الشكائك ، وهي البيوت المنتظمة بجانب بعضها البعض .
ومنه « شاك السلاح » أي : الذي ضَمَّ نفسه إلى الدرع .
فالشك هو ضم شيء إلى شيء ، وفي النسب تضم النفي والإثبات معاً؛ لأنك غير قادر على أن ترجّح أحدهما .
وكل خطاب في الشك يأتي على هذا اللون .
والآية التي نحن بصددها تقول :
{ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الذين كَذَّبُواْ بِآيَاتِ الله فَتَكُونَ مِنَ الخاسرين } [يونس : 95] .
ونحن نعلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم هو نفسه آية من الآيات ، وهكذا نرى أن الخطاب مُوجَّه لأمته ، فمن المستحيل أن يكون الرسول صلى الله عليه وسلم من المكذِّبين لآيات الله سبحانه وتعالى لأن التكذيب بآيات الله تعالى يعني : إخراج الصدق إلى الكذب ، وإخراج الواقع إلى غير الواقع .
والذين كذبوا بالآيات إما أنهم لا يؤمنون بإله ، أو يؤمنون بإله ولا يؤمنون برسول ، أو يؤمنون بإله ويؤمنون برسول ولا يؤمنون بما أنزِل على الرسول صلى الله عليه وسلم .
والذي يؤيد هذا وجود آية في آخر السورة يقول فيها الحق سبحانه :
{ قُلْ ياأيها الناس إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلاَ أَعْبُدُ الذين تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله } [يونس : 104] .

فكأن الخطاب المقصود منه الأمة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { إِنَّ الذين حَقَّتْ }

إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (96)

وهذا القول يوضح لنا أن الحق سبحانه وتعالى قد علم عِلْماً أزليّاً بأنهم لن يُوجِّهوا اختيارهم للإيمان .

فحكمه هنا لا ينفي عنهم مسئولية الاختيار ، ولكنه علم الله الأزلي بما سوف يفعلون ، ثم جاءوا إلى الاختيار فتحقق علم الله سبحانه وتعالى بهم من سلوكهم .

وحُكمْه سبحانه مبنيٌّ على الاختيار ، وهو حكم تقديري .

ومثال ذلك ولله المثل الأعلى حين يأتي وزير الزراعة ، ويعلن أننا قدَّرنا محصول القطن هذا العام ، بحساب مساحة الأراضي المنزرعة قطناً ، وبالمتوسط المتوقع لكل فدان ، وقد يصيب الحكم ، وقد يخيب نتيجة العوامل والظروف الأخرى المحيطة بزراعة القطن ، فمن المحتمل أن يُصاب القطن بآفة من الآفات ، مثل : دودة اللوزة ، أو دودة الورقة .

إذن : ففي المجال البشري قد يصيب التقدير وقد يخطىء؛ لأن الإنسان يُقدِّر بغير علم مُطْلق ، بل بعلم نسبي .

أما تقدير الحق سبحانه فهو تقدير أزلي ، وحين يُقدّر الحق سبحانه فلا بد من وقوع ما قدَّره .

ولذلك يجب أن نفرق بين قضاء حكم لازم قهري ليس للإنسان فيه تصرف ، وبين قدر قد قُدِّر من الله تعالى أن يفعله الإنسان باختياره ، وهذه هي عظمة علم الغيب .

ومثال ذلك : هو سلوك أبي لهب ، فقد نزل فيه قرآن يُتلَى :

{ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَآ أغنى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ } [المسد : 12] .

وقد نزلت السورة وأبو لهب على قيد الحياة؛ لأن الحق سبحانه قد علم أزلاً أن خواطر أبي لهب لن تدفعه إلى الإيمان ، ولو أن أبا لهب امتلك ذرة من ذكاء لجاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : أنت قلت عنّي إنني سأصْلَى النار ، لكن ها أنذا أعلن أنني أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله .

لكن ذلك الذكاء لم يكن يملكه أبو لهب ، فقد علم الله أزلاً أن خواطره لن تدفعه إلى الإسلام ، مثلما دفعت حمزة بن عبد المطلب عم النبي صلى الله عليه وسلم وعمر بن الخطاب ، وخالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص . وكان إسلام هؤلاء رغم وقوفهم ضد النبي صلى الله عليه وسلم أمراً وارداً .

وقد يُقدِّر البشر التقدير ، لكن هذا التقدير إنما يتم حسب المعلومات المتاحة لهم ، ولا يملك إنسان علماً كونيّاً أزليّاً بتقديراته ، فعلمه محدود ، وقد يأتي الأمر على غير ما يُقدِّر؛ لأن الإنسان

لا يملك ما يقدر .

ولا يقولنَّ أحدٌ : إن الله يعاقب بعد أن قدَّر مسبقاً؛ لأن تقدير الحق سبحانه نابع من علمه الأزلي ، وهم كانوا يتمتعون بحق الاختيار . والله سبحانه هو القائل :

{ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هذه إِيمَاناً فَأَمَّا الذين آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الذين فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلى رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَافِرُونَ } [التوبة : 124125] .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حتى يَرَوُاْ }

وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (97)

إذن : فمجيء الآيات وتكرارها لن يفيدهم في الاتجاه إلى الإيمان؛ لأن الحق سبحانه يعلم أنهم سيتوجهون باختيارهم إلى الكفر؛ فقد قالوا من قبل ما أورده الحق سبحانه في كتابه العزيز :

{ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حتى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأرض يَنْبُوعاً * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأنهار خِلالَهَا تَفْجِيراً * أَوْ تُسْقِطَ السمآء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بالله والملائكة قَبِيلاً * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ ترقى فِي السمآء وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَراً رَّسُولاً } [الإسراء : 9093] .

وكأن الحق سبحانه يأمر رسوله أن يقول موضحاً : لستُ أنا الذي يُنزل الآيات ، بل الآيات من عند الله تعالى ، ثم يأتي القرآن بالسبب الذي لم تنزل به تلك الآيات التي طلبوها ، فيقول سبحانه :

{ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بالآيات إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأولون } [الإسراء : 59] .

إذن : فقد نزلت آيات كثيرة لمن سبق في المعاندة و المعارضة ، ويقابل قضية عرض الإيمان عليه بكفر يملأ قلبه .

فإن كان هناك من يبحث عن الإيمان فليدخل على بحث الإيمان بدون مُعتقد سابق ، ولينظر إلى المسألة ، وما يسمح به قلبه فليُدخله فيه؛ وبهذا الاختيار القلبي غير المشروط بمعتقد سابق هو قمة القبول .

وقد قال الحق سبحانه في الآيات السابقة كلاماً في الوحدانية ، وكلاماً في الآيات المعجزات ، وكلاماً في صدق النبوة ، وكلاماً عن القيامة ، وقصَّ لنا سبحانه بعضاً من قصص مواكب الرسل ، من نوح عليه السلام ، ثم فصَّل قليلاً في قصة موسى وهارون عليهما السلام ، ثم سيأتي من بعد ذلك بقصة يونس عليه السلام .

ونحن نلحظ أن الحق سبحانه جاء بقصة نوح عليه السلام في إطناب ، ثم جاء بخبر عن رسل لم يَقُلْ لنا عنهم شيئاً ، ثم جاء بقصة موسى وهارون عليهما السلام ، ثم سيأتي من بعد ذلك بقصة

يونس عليه السلام ، فالسورة تضم ثلاثاً من الرسالات : رسالة نوح ، ورسالة موسى وهارون ، ورسالة يونس : وهو الرسول الذي سُمِّيت السورة باسمه .

ولسائل أن يقول : ولماذا جاء بهؤلاء الثلاثة في هذه السورة؟

وأقول : لقد تعبنا كثيراً ، ومعنا كثير من المفسرين حتى نتلمَّس الحكمة في ذلك ، ولماذا لم تأت في السورة قصة هود ، وثمود ، وشعيب ، وكان لا بد أن تكون هناك حكمة من ذلك .

هذه الحكمة فيما تجلى لنا أن الحق سبحانه وتعالى يعرض موكب الرسالة وموكب المعارضين لكل رسول ، والنتيجة التي انتهى إليها أمر الأعداء ، وكذلك النتيجة التي انتهى إليها أمر الرسول ومَنْ آمن به .

ونجد الذين ذكرهم الله سبحانه هنا قد أهلكوا إهلاكاً متحداً بنوع واحد في الجميع ، فإهلاك قوم نوح كان بالغرق ، وكذلك الإهلاك لقوم فرعون كان بالغرق ، وكذلك كانت قصة سيدنا يونس لها علاقة بالبحر ، فقد ابتلعه الحوت وجرى في البحر .

إذن فمَنْ ذُكِر هنا من الرسل كان له علاقة بالماء ، أما بقية الموكب الرسالي فلم تكن لهم علاقة بالماء .

ونحن نعرف أن الماء به الحياة ، وبه الإهلاك؛ لأن واهب الحياة يهب الحياة بالشيء ، ويُهلك بالشيء نفسه . وكأن الحق سبحانه يبيّن لنا الحكمة : أنا أهلكتُ بالغرق هناك ، ونجَّيْتُ من الغرق هنا .

إذن : فطلاقة القدرة الإلهية هي المستولية على هذه السورة ، كما تظهر طلاقة القدرة في مجالات أخرى ، وبألوان أخرى .

وسُمِّيت هذه السورة باسم يونس؛ لأن الحق سبحانه أرسله إلى أكثر من مائة ألف ، وهم الأمة الوحيدة في هذا المجال التي استثناها الحق سبحانه من الإهلاك ، فقد أغرق قوم نوح ، وأغرق قوم فرعون؛ فكلاهما قد كذَّب الرسل ، ولكن قوم يونس أول ما رأوا البأس آمنوا فأنجاهم الله سبحانه .

وسُمِّيت السورة باسم من نجا؛ لأنه عاد إلى الحق سبحانه قبل أن يعاين العذاب ، ولكنهم رأوا فقط بشائر العذاب ، فنجَّوا أنفسهم بالإيمان .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى : { فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَانُهَا }

فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ (98)

وهكذا يبيّن لنا الحق سبحانه أن هناك كثيراً من القرى لم تؤمن إلا وقت العذاب ، فلم ينفع أيّاً منهم هذا الإيمان ، ولكن قوم يونس قبل أن تأتي بشائر العذاب والبأس أعلنوا الإيمان فَقَبِل الحق سبحانه إيمانهم؛ لأنه سبحانه لا يظلم عباده .

فمَنْ وصل إلى العذاب ، وأعلن الإيمان من قلب العذاب لا يُقبَلُ منه ، ومن أحس واستشفَّ بواكير العذاب وآمن فالحق سبحانه وتعالى يقبله .

وكملة « لولا » إذا سمعتها فمثلها مثل « لوما » ، وإذا دخلت « لولا » على جملة اسمية فلها حكم يختلف عن حكمها لو دخلت على جملة فعلية ، فحين تدخل على جملة اسمية مثل : « لولا زيد عندك لأتيتك » تفيد أن امتناع المجيء هو بسبب وجود زيد ، لكنها إن دخلت على جملة فعلية فيقال عنها : « أداة تحضيض وحَثّ » مثل قول الحق سبحانه : { فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدين } [التوبة : 122] .

أي : أنه كان يجب أن ينفر من كل طائفة عدد ليتدارسوا أمور الدين .

والحق سبحانه وتعالى يقول هنا :

{ فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ } [يونس : 98] .

أي : أنه لو أن هناك قرية آمنت قبل أن ينزل بها العذاب لأنجيناها كما أنجينا قوم يونس ، أو كنا نحب أن يحدث الإيمان من قرية قبل أن يأتيها العذاب .

إذن : فقوم يونس هنا مُسْتثنون؛ لأنهم آمنوا قبل أن يأتيهم العذاب .

وهناك آية أخرى تتعلق بهذه القصة ، يقول فيها الحق سبحانه :

{ فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ المسبحين * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ } [الصافات : 143144] .

أي : أن الذي منع يونس عليه السلام أن يظل في بطن الحوت إلى يوم البعث هو التسبيح .

وهنا يبيّن الحق سبحانه الاستثناء الذي حدث لقوم يونس حين يقول :

{ فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ آمَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخزي فِي الحياة الدنيا وَمَتَّعْنَاهُمْ إلى حِينٍ } [يونس : 98] .

أي : أن الإيمان نفع قرية قوم يونس قبل أن يقع بهم العذاب .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

{ لَمَّآ آمَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخزي فِي الحياة الدنيا وَمَتَّعْنَاهُمْ إلى حِينٍ } [يونس : 98] .

ونحن نعلم أن كلمة « قرية » تعني : مكاناً مُهيّأ ، أهله متوطنون فيه ، فإذا ما مَرَّ عليهم زائر في أي وقت وجد عندهم قرىً أي : وجبة طعام .

ونحن نجد من يقول عن الموطن كثير السكان كلمة « بلد » ، وهؤلاء من يملكون طعاماً دائماً ، أما من يكونون قلة قليلة في موطن ففي الغالب ليس عندهم من الطعام إلا القليل الذي يكفيهم

ويكفي الزائر لمرة واحدة .
وتسمى مكة المكرمة « أم القرى »؛ لأن كل القرى تزورها .

وقرية قوم يونس اسمها « نينوى » قد حكى عنها النبي صلى الله عليه وسلم في قصة الذهاب للطائف ، وهي قرية العبد الصالح يونس بن مَتَّى ، وهي في العراق ناحية الموصل ، ويونس هو من قال عنه الله سبحانه :
{ وَذَا النون إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِباً } [الأنبياء : 87] .
وكلمة « مغاضب » غير كلمة « غاضب » ، فالغاضب هو الذي يغضب دون أن يُغضبه أحد ، لكن المغاضب هو من أغضبه غيره .
وكذلك كلمة « هجر » ، ومهاجر ، فالمهاجر هو من أجبره أناس على أن يهاجر ، لكن من هجر هو من ذهب طواعية بعيداً .
والمغاضبة إذن تكون من جهتين ، وتسمى « مفاعلة » .
والحق سبحانه يقول :
{ وَذَا النون إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فنادى فِي الظلمات أَن لاَّ إله إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظالمين } [الأنبياء : 87] .
وسُمِّي سيدنا يونس عليه السلام بذى النون؛ لأن اسمه اقترن بالحوت الذي ابتلعه .
وكلنا نعرف القصة ، حينما دعا قومه إلى الإيمان وكفروا به في البداية؛ لأن الرسول حين يجيء إنما يجيء ليقوِّم الحياة الفاسدة؛ فيضطهده من يعيشون على الفساد؛ لأنهم يريدون الاحتفاظ بالجبروت الذي يسمح لهم بالسرقة والاختلاس وإرواء أهواء النفس ، فلما فعلوا ذلك مع سيدنا يونس عليه السلام خرج مغاضباً ، أي : أنهم أغضبوه .
والمغاضبة كما قلنا من المفاعلة وتحتاج إلى عنصرين ، مثلما أوضحنا أن الهجرة أيضاً مفاعلة؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يهجر مكة ، بل ألجأه قومه إلى أن يهاجر ، فكان لهم مدخل في الفعل .
وأبو الطيب المتنبي يقول في هذا المعنى :
إِذَا ترحَّلت عن قومٍ وقد قَدروا ... ألاَّ تُغادِرهم فَالرَّاحِلون هُمُ
أي : إن كنت تعيش مع قوم ، وأردت أن تفارقهم وقد قدروا أن تعيش معهم ، فالذي رحل حقيقة هم هؤلاء القوم .
ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد خروج يونس مغاضباً :
{ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ } [الأنبياء : 87] .
أي : أنه رجَّح أن الحق سبحانه لن يُضيِّق عليه الأرض الواسعة ، وسيهيىء له مكاناً آخر غير

مكان المائة الألف أو يزيدون الذين بعثه الله تعالى إليهم .
وكان من المفروض أن يتحمل الأذى الصادر منهم تجاهه ، لكن هذا الظن والظن ترجيح حكم يدلنا على أن معارضة دعوته كانت شديدة تُخْفِظ وتملأ القلب بالألم والتعب .
وكان عليه أن يُوطِّن نفسه على مواجهة مشقات الدعوة .
والقرية التي أرسِل إليها يونس عليه السلام هي قرية : « نينوى » ، وهي التي جاء ذكرها في أثناء حوار بين النبي صلى الله عليه وسلم والغلام النصراني « عداس » الذي قابله صلى الله عليه وسلم في طريق عودته من الطائف .
« وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد ذهب إلى الطائف ليطلب من أهلها النصرة بعد أن آذاه قومه في مكة فلم يجد النصير ، وجلس النبي صلى الله عليه وسلم قريباً من حائط بستان .
فلما رآه صاحبا البستان عتبة وشيبة ابنا ربيعة وما لقي من السفهاء؛ تحركت له رحمهما ، فدعوا غلاماً لهما نصرانياً ، يقال له عَدَّاس ، فقالا له : خُذْ قِطْفاً من هذا العنب ، فضعه في هذا الطبق ، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل ، فقل له يأكل منه ، ففعل عَدَّاس ، ثم أقبل به حتى وضعه بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال له : كُلْ ، فلما وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه يده ، قال : باسم الله ، ثم أكل ، فنظر عداس في وجهه ، ثم قال : والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : » ومنْ أهل أيِّ البلاد أنت يا عدَّاس ، وما دينك؟ « . قال : نصراني ، وأنا رجل من أهل نينوى؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : » من قرية الرجل الصالح يونس بن مَتَّى «؛ فقال له عداس : وما يدريك ما يونس بن متَّى؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : » ذاك أخي كان نبياً وأنا نبي « ، فأكبَّ عداس على رسول الله صلى الله عليه وسلم يُقبِّل رأسه ويديه وقدميه .
ولما سأل صاحبا البستان عدَّاساً عن صنيعه هذا . قال لهما : لقد أخبرني بأمر ما يعلمه إلا نبي » .

ونحن نعلم أن العبد الصالح يونس عليه السلام قد تأثر وحزن وغضب من عدم استجابة قومه لرسالته الإيمانية ، إلى أن رأوا غَيْماً يملأ السماء وعواصف ، والقى الله تعالى في خواطرهم أن هذه العواصف هي بداية عذاب الله لهم؛ فَهُرعوا إلى ذوي الرأي فيهم ، فاشاروا عليهم بأن هذه هي بوادر العذاب ، وقالوا لهم : عليكم بإرضاء يونس؛ لأن الله سبحانه وتعالى هو الذي أرسله ، فآمِنوا به ليكشف عنك الغُمَّة .
وهُرع الناس إلى الإيمان بالحي الذي لا يموت ، الحيُّ حين لا حيَّ ، والقيوم والمُحيي والمميت .
وذهب قوم يونس عليه السلام لاسترضائه؛ وحين رضي عنهم بدأوا ينظرون في المظالم التي ارتكبوها ، حتى إن الرجل منهم كان ينقض ويهدم جدار يته؛ لأنه فيه حجراً قد اختلسه من جار

له .

وكشف الله سبحانه وتعالى عنهم العذاب ، وهنا يقول سبحانه :

{ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخزي فِي الحياة الدنيا وَمَتَّعْنَاهُمْ إلى حِينٍ } [يونس : 98] .

ومن لوازم قصة يونس عليه السلام ، ليست المغاضبة فقط ، بل قصته مع الحوت ، فقد كان عليه السلام بعد مغاضبته لقومه قد ركب سفينة ، فلعبت بها الأمواج فاضطربت اضطراباً شديداً ، وأشرفت على الغرق بركابها؛ فألقوا الأمتعة في البحر؛ لتخِفَّ بهم السفينة؛ فاستمر اضطرابها ، فاقترعوا على أن يلقوا إلى البحر من تقع عليه القرعة ، فوقعت القرعة على نبي الله يونس عليه السلام .

مثلما نركب مصعداً ، فنجد الضوء الأحمر وقد أضاء إنذاراً لنا بأن الحمولة زائدة ، وأن المصعد لن يعمل فيخرج منه واحد أو أكثر حتى يتبقى العدد المسموح به ، وعادة يكون الخارج من أحسن الموجودين خُلقاً ، لأنهم أرادوا تسهيل أعمال الآخرين .

كذلك كان الأمر مع السفينة التي ركبها يونس عليه السلام ، كادت أن تغرق ، فاقترعوا ، وصار على يونس أن ينزل إلى البحر .

والحق سبحانه يقول :

{ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ المدحضين } [الصافات : 141] .

ونزل يونس عليه السلام إلى البحر فالتقمه الحوت وابتلعه .

ويقول الحق سبحانه وتعالى عن وجود سيدنا يونس عليه السلام في بطن الحوت :

{ فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ المسبحين * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ } [الصافات : 143144] .

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق سبحانه :

{ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخزي فِي الحياة الدنيا } [يونس : 98] .

وعذاب الخزي في الحياة الدنيا يمكن أن تراه مُجسَّداً فيمن افترى وتكبَّر على الناس ، ثم يراه الناس في هوان ومذلة ، هذا هو عذاب الخزي في الدنيا ، ولا بد أن عذاب الآخرة أخْزَى وأشَدُّ .

ويُنهي الحق سبحانه الآية بقوله :

{ وَمَتَّعْنَاهُمْ إلى حِينٍ } [يونس : 98] .

أي : أنهم نَجَوْا من الهلاك بالعذاب إلى أن انتهت آجالهم بالموت الطبيعي .

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك : { وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لآمَنَ }

وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (99)

والحق سبحانه وتعالى يبيّن لنا أنه إن قامت معركة بين نبي مرسل ومعه المؤمنون به ، وبين من كفروا به ، فلا بد أن يُنزِل الحق سبحانه العذاب بمن كفروا .

وإياك أن تفهم أن الحق سبحانه إلى يحتاج عبادة الناس؛ لان الله عَزَّ وجل قديم أزليٌّ بكل صفات الكمال فيه قبل أن يخلق الخلق ، وبكماله خلق الخلق ، وقوته سبحانه وتعالى في ذاته ، وهو خالق من قبل أن يخلق لخلق ، ورازق قبل أن يخلق الزرق والمرزوق ، والخلق من آثار صفات الكمال فيه ، وهو الذي أوجد كل شيء من عدم .

ولذلك يُسمّون صفاته سبحانه وتعالى صفات الذات؛ لأنها موجودة فيه من قبل أن يوجد متعلقها .

فحين تقول : حيٌّ ، ومُحْيٍ ، فليس معنى ذلك أن الله تعالى موصوف ب « مُحْيٍ » بعد أن وجد مَنْ يحييه ، لا ، إنه مُحيٍ ، وبهذه الصفة أحيا .

ولله المثل الأعلى ، وهو سبحانه مُنزَّه عن كل تشبيه : قد نرى المصوِّر أو الرسام الذي صنع لوحة جميلة ، هنا نرى أثر موهبة الرسم التي مارسها ، واللوحة ليست إلا أثراً لهذه الموهبمة .

الحق سبحانه وتعالى إذن له كل صفات الكمال قبل أن يخلق الخلق ، وبصفات الكمال خَلَق الخَلْق .

فإياك أن تفهم أن هناك أمراً قد جَدَّ على الله تعالى ، فلا شيء يجِدُّ عللحق سبحانه ، وهو سبحانه لا ينتفع من خلقه بل هو الذي ينفعهم .

ونحن نعلم أن الإيمان مطلوب من الإنسان ، وهو الجنس الظاهر لنا ونحن منه ، ومطلوب من جنس آخر أخبرنا عنه الله تبارك وتعالى وهو الجن .

وأما بقية الكون فمُسبّح مؤمن بالله تعالى ، والكون عوالم لا حصر لها ، ولكلٍّ نظام لا يحيد عنه .

ولو أراد الله سبحانه وتعالى أن يُدخِل الثقلين الإنس والجن في نظام التسخير ما عَزَّ عليه ذلك؛ لكن هذا التسخير يثبت له القدرة ولا يثبت له المحبوبية .

ولذلك ترك الحق سبحانه الإنسان مختاراً ليؤمن أو لا يؤمن ، وهذا ما يثبت له المحبوبية إن جئته مؤمناً ، وهذا يختلف عن إيمان القَسْر والقهر ، فالإيمان المطلوب من الإنسان أو الجن هو إيمان الاختيار .

وأما إيمان القسر والقهر ، فكل ما في الكون من عوالم مؤمن بالحق سبحانه ، مُسبّح له .

والحق سبحانه وتعالى يقول :

{ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ولكن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ } [الإسراء : 44] .

وهذا ليس تسبيح دلالة ورمز ، بل هو تسبيح حقيقي ، بدليل قوله سبحانه وتعالى : { ولكن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ } [الإسراء : 44] .

فإن فقَّهك الله تعالى في لغاتهم لعلمت تسبيح الكائنات ، بدليل أنه عَلَّم سليمان عليه السلام

منطق الطير ، وسمع النملة تقول :
{ ياأيها النمل ادخلوا مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ }

[النمل : 18] .
والهدهد قال لسليمان عليه السلام ما رآه عن بلقيس ملكة سبأ :
{ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ الله وَزَيَّنَ لَهُمُ الشيطان أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السبيل فَهُمْ لاَ يَهْتَدُونَ } [النمل : 24] .
إذن : فكل ما في الكون مُسبّح لله تعالى ، يسير على منهجه سبحانه ما عدا المختار من الثقلين : الإنسان والجان؛ لأن كلاً منهما فيه عقلٌ ، وله مَيْزة الاختيار بين البدائل .
ومن عظمة الحق سبحانه وتعالى أن خلق للإنسان الاختيار حتى يذهب المؤمن إليه اختياراً ، ولو شاء الحق سبحانه وتعالى أن يجبر الإنسان على الإيمان لَفعلَ .
أقول ذلك حتى لا يقولن أحد : ولماذا كل هذه المسائل من خَلْق وإرسال رُسل ، وتكذيب أناس ، ثم إهلاك المكذِّبين؟
ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى :
{ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأرض كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنتَ تُكْرِهُ الناس حتى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ } [يونس : 99] .
إذن : فالحق سبحانه خلق الإنسان وسخَّر له كل الأجناس ، ولم يجبره على الإيمان ، بل يقول سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم :
{ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ } [الشعراء : 3] .
وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم مُحبّاً مخلصاً لقومه وعشيرته ، وذاق حلاوة الإيمان ، وحزن لأنهم لم يؤمنوا ، فينبهه الحق سبحانه وتعالى أن عليه مهمة البلاغ فقط ، فلا يكلّف نفسه شَططاً .
والحق سبحانه وتعالى شاء أن يجعل للإنسان حقَّ الاختيار وسخَّر له الكون ، ومن الناس من يؤمن ، ومن الناس من يكفر ، بل ومن المؤمنين من يطيع مرة ، ويعصي أخرى ، وهذه هي مشيئة الحق ليتوازن الكون ، فكل صفة خيِّرة إنْ وجد من يعارض فيها فهذا ما شاءه الله سبحانه وتعالى للإنسان ، فلا تحزن يا رسول الله؛ فالحق سبحانه وتعالى شاء ذلك .
وإنْ غضب واحد من أن الآخرين لم يعترفوا بصفاته الطيبة نقول له : إن الحق سبحانه هو خالق الكون وهو الرازق ، قد كفروا به وألحدوا ، وجعلوا له شركاء ، فتَخلَّقوا بأخلاق الله؟
ولذلك قال الحق سبحانه :
{ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأرض كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنتَ تُكْرِهُ الناس حتى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ } [

يونس : 99] .

إنه سبحانه وتعالى يريد إيمان المحبة وإيمان الاختيار .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ الله }

وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (100)

هكذا يُبيّن لنا الحق سبحانه أن أحداً لا يؤمن إلا بإذن من الله تعالى؛ لأن معنى أن تؤمن أن يكون إيمانك إيمان فطرة نتيجة تفكُّر في سماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجَاج ، وبحار تَزْخر ، ورياح تَصْفِر ، كل ذلك يدل على وجود الخالق سبحانه .

لكن أتَرَكَ الله سبحانه وتعالى الناس للفطرة؟

لا ، بل أرسل سبحانه لهم الرسل ليذكّروهم بالآيات الموجودة في الكون ، ولينتبه الغافل؛ لأنه سبحانه لا يريد أن يأخذ الناس على حين غفلة .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

{ أَن لَّمْ يَكُنْ رَّبُّكَ مُهْلِكَ القرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ } [الأنعام : 131] .

لذلك ينبههم الحق سبحانه بأن هناك أشياء كان يجب أن تُذكر ، وكأن الحق سبحانه يُبيّن لنا : إياكم أن تفهموا أن أحداً يخرج عن مُلكي إلا بإرادتي ، فأنا بخلقي له مختاراً سمحت له أن يكفر أو يؤمن ، وسمحت له أن يطيع أو أن يعصي .

كل ذلك من أجل أن يثبت لي صفة المحبوبية .

لذلك فلا أحد يؤمن إلا بإذن الله سبحانه وتعالى ، ولا أحد يكفر إلا بإذنه سبحانه؛ لأن مَنْ خلقه مختاراً عَلِمَ برضاء منه بما يكون من المخلوق ، فالكافر لم يكفر قهراً ، والمؤمن لم يؤمن قهراً من الله سبحانه .

وساعةَ يأتي الرسول ليعرض قضية الإيمان ، يتذكر الإنسان إيمان الفطرة ويقول : لقد جاء هذا الرسول بهذا المنهج ليعدّل لي حياتي ، فلا بد أن أرْهِفَ له السمع .

وساعة يُقْبِل العبد على الله تعالى ، فسبحانه يأذن له أن يدخل إلى حظيرة الإيمانَ .

إن العبد مِنَّا إذا ما ذهب للقاء عبد مثله له سيادة وجاه ، ويدرك العبد صاحب السيادة والجاه بفضل من الله السبب الذي جاء من أجله العبد الآخر؛ فيقول صاحب السيادة لمعاونيه : لا تُدْخِلوه . وهو يقول ذلك؛ لأن الله سبحانه أطلعه على ما في قلب العبد الآخر من غلٍّ ومن حقدٍ ومن نفاق .

أما إذا دقَّ بابه عبد آخر ، فتجده يأمر معاونيه أنْ يُدخلوه وأن يفسحوا له؛ لأنه علم بما في قلبه من محبة ورغبة في صِدْق اللقاء والمودة .

إذا كان هذا يحدث بين العباد ، وهم كلهم أغيار ، فما بالنا بالحق سبحانه وتعالى؟

والله سبحانه هو القائل في حديث قدسي : « من ذكرني في نفسه ذكرتُه في ملأ خير منه » .
ما بالنا بالعبد إذا دخل على الإيمان بالله غير مشحون بعقيدة عدا الله .
إذن : أقْبِلْ على الله سبحانه وعلى ذكر الله ، وأنت إنْ ذكرت الله في نفسك ، فالله يذكرك فيه نفسه ، وإن ذكرته في ملأ ذكرك في ملأ خير منه ، فالملأ الذي ستذكره فيه ملأ خَطَّاءٌ ، والله سبحانه سيذكرك في ملأ طاهر .
ويقول الحق سبحانه في ذات الحديث القدسي :

« إنْ تقرَّب إليَّ شبراً تقرَّبت إليه ذراعاً » .
والذراع أطول من الشِّبر .
ويقول : « وإن أتاني يمشي أتيته هرولة » .
فالمشي قد يُتعب العبد ، لذلك يُسرع إليه الحق عز وجل ، وهو سبحانه بكل ربوبيته ما إنْ يعلمْ أن عبداً قد صفا قلبه من خصومة الله تعالى في شيء ، حتى يفتح أمامه أبواب محبته سبحانه ، فيحبِّب فيه خلقه ، ويجعل له مدخل صدق في كل أمر ومخرج صدق من كل ضيق ، وهو الحق القائل :
{ والذين اهتدوا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ } [محمد : 17] .
ونلحظ أن الحق سبحانه يؤكد في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها أنه لو شاء لآمن مَنْ في الأرض جميعاً؛ ليبيِّن لنا أنه حتى إبليس الذي دخل في جدالٍ مع الله ، لو شاء الحق سبحانه لآمن إبليس .
وجاء الحق سبحانه بهذا التأكيد؛ لِيُحْكِمَ الأمرَ حول كل خَلْقه ومخلوقاته ، فلا يشذ منهم أحد .
ثم يقول الحق سبحانه في نفس الآية :
{ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ الناس حتى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ } [يونس : 99] .
أراد الحق سبحانه أن يُنبِّه رسوله صلى الله عليه وسلم وكل المؤمنين أنه :
{ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدين } [البقرة : 256] .
لأن مطلوبات الدين ليست هي المطلوبات الظاهرة فقط التي تقع عليها العين ، فهناك مطلوبات أخرى مستترة ، فَهَبْ إنك أكرهت قالباً أتستطيع أن تُكرِه قلباً؟
والحق سبحانه وتعالى يريد قلوباً لا قوالب .
وهكذا لا يصلح الإكراه في قضية الدين ، ولكن على الإنسان ألاَّ يسحب الإكراه إلى غير موضعه أو مجاله؛ لأنك قد تجد مسلماً لا يصلّي فينهره صديقه ، فيردّ : لا إكراه في الدين .
وهذا استخدام غير صحيح واستدلال خاطىء؛ لأن الإكراه في الدين إنما يكون ممنوعاً في القضية العقدية الأولى .

ولكن مَنْ أعلن أنه مسلم ، وشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فهذا إعلان بالالتزام بكل أحكام الإسلام ، وهو محسوب على الإسلام ، فإنْ أخلّ بحكمٍ من أحكام الإسلام فلا بد من محاسبته .

ولا إكراه في الدين ، فيما يخصُّ القضية العقدية الأولى ، وأنت حُرٌّ في أن تدخل إلى الإسلام أو لا تدخل ، فإنْ دخلت الإسلام فأنت ملتزم باحكام الإسلام؛ لأنك آمنت به وصِرْتَ محسوباً عليه ، واحفظ حدود الإسلام ولا تكسرها؛ لأنك على سبيل المثال لا قدر الله إن سرقت؛ تُقطع يدك ، وإنْ زنيت تُرجَم أو تُجلد ، وإنْ شربت الخمر تُجلد؛ لأنك قبلتَ قواعد الإسلام وشريعته . وإنْ رأى واحدٌ مسلماً يسرق ، فلا يقولن إن الإسلام يُسرِّق ، ولكن إن رآه يُعاقَب ، فهو يعرف أن الإسلام يعاقب مَنْ يجرم .

إذن : ف { لاَ إِكْرَاهَ فِي الدين } [البقرة : 256] .

تخص المنع عن الإكراه على أصل الدين ، ولكن بعد أن تؤمن فأنت ملتزم بفرعيات الدين ، وتعاقب إنْ خرجتَ على الحدود .

والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « مَيَلُ القائم على حدود الله ، والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة ، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ، فكان الذين في أسفلها إذا اسْتَقَوْا من الماء مرُّوا على مَنْ فوقهم فقالوا : لو أنَّا خرقنا في نصيبنا خُرْقاً ولم نُؤذِ مَنْ فوقنا ، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وأن أخذوا على أيديهم نجوا ، ونجوا جميعاً » .

إذن : فالالتزام بفروع الدين أمر واجب ممن دخل الدين دون إكراه ، وإنْ خدش حكماً من الأحكام يُعاقب .

وهناك ما هو أشدُّ من ذلك ، وهو حكم مَنْ ارتد عن الإسلام ، وهو القتل .

وقد يقول قائل : إن هذا الإمر يمثل الوحشية . فنقول له : إن من التزم بالدين ، إنما قد علم بداية أنه إنْ آمن ثم ارتد ، فسوف يُقتَل؛ ولذلك فليس له أن يدخل إلى الإسلام إلا بيقين الإيمان .

وهذا الشرط للدين؛ لا على الدين . فلا تدخل على الدين إلا وأنت متيقّن أن أوامر الدين فوق شهواتك ، واعلمْ أنك إنْ دخلتَ على الدين ثم تَخلَّيْتَ عنه فسوف تُقْتَل ، وفي هذا تصعيب لأمر دخول الدين ، فلا يدخله أحد إلا وهو واثق من يقينه الإيماني ، وهذا أمر محسوب للدين لا ضد الدين .

وهنا يقول الحق سبحانه :

{ وَيَجْعَلُ الرجس عَلَى الذين لاَ يَعْقِلُونَ } [يونس : 100] .

والرجس : هو العذاب ، وهو الذنب ، ويجعله الحق سبحانه وتعالى على الذين لا يعقلون؛ لأن

قضية الدين إذا طُرِحَتْ على العقل بدون هَوىً؛ لا بُدَّ أن ينتهي العقل إلى الإيمان .
ولذلك تجد القمم الفكرية حين يدرسون الدين؛ فهم يتجهون إلى الإسلام؛ لأنه هو الدين الذي يشفي الغُلَّة ، أما الذين أخذوا الدين كميراث عن الآباء ، فهم يظلون على حالهم .
وبعض القمم الفكرية في العالم التي اتجهت إلى اعتناق الإسلام ، لم تتجه إليه بسبب رؤيتهم لسلوك المسلمين؛ لأن سلوك المنسوبين للإسلام في زماننا قد ابتعد عن الدين .
ولذلك فقد اتجهت تلك القمم الفكرية للإسلام إلى دراسة مبادىء الإسلام ، وفرَّقوا بين مبادىء الدين ، وبين المنتمين للدين ، وهذا إنصاف في البحث العقلي؛ لأن الدين حين يُجرِّم عملاً ، فليس في ذلك التجريم إذْنٌ من الدين بحدوث مثل هذا الفعل المجرم ، بدليل تقدير العقاب حسب خطورة الجريمة .
فالحق سبحانه قد قال :
{ والسارق والسارقة فاقطعوا أَيْدِيَهُمَا } [المائدة : 38] .
إنه الإذن باحتمال ارتكاب السرقة ، وكذلك الأمر بالنسبة للزنا ، وغير ذلك من الجرائم التي جعل لها لحق سبحانه عقوبات تتناسب مع الضرر الواقع على النفس أو المجتمع من وقوعها ، فإذا رأيت مسلماً يسرق ، فتذكَّر العقاب الذي أوقعه الإسلام على السارق ، وإنْ رأيتَ مسلماً يزني ، فَتذكَّر العقوبة التي حددها الحق سبحانه للزاني .
وهكذا الحال في جميع الجرائم .
وكبار المفكرين العالميين الذين يتجهون إلى الإسلام إنما يدرسون مبادىء الدين مفصولة عن سلوك المسلمين المعاصرين ، الذين ابتعدوا عن مبادىء الدين الحنيف .

وها هو ذا « جينو » المفكر الفرنسي يقول : « الحمد لله الذي هداني للإسلام قبل أن أعرف المسلمين ، فلو كنتُ قد عرفتُ المسلمين قبل الإسلام لكان هناك احتمال لزلزلة في النفس تجعلني أتردد في الدخول إلى هذا الدين الرفيع المقام » .
إذن : فإعمال العقل الراقي لا بد أن يؤدي إلى الإسلام لأنه فطرة الله ، والإسلام يُنمِّيها ، ويرتقي بها ، والعقل هو مَنَاطُ التكليف .
والرجس والذنب والعذاب كله إنما يقع على الذين لا يُعْمِلون عقولهم ، وإعمال العقل المتعقل للقيم ينفي الرجس؛ لأنهم سيُقبلون على التدين بإذن الله تعالى لهم أن يدخلوا على الإيمان به .
وإذا سألني سائل : ما هو العقل؟ وما هو مَنَاطُ التكليف؟
نجد أن كلمة « عقل » مأخوذة من عِقَال البعير ، وهو ما يُشَدُّ على رُكْبته حتى لا ينهض ، ويظل سكاناً ، وحين يريد صاحبه أن يُنهضه فهو يفكُّ العقال .
وأهل الخليج يضعون على رؤوسهم غطاء للرأس (غُتْرة) ويثبتونه بنسيج مغزول على هيئة

حلقتين ، ويسمون هاتين الحلقتين « العقال »؛ لأنه يمنع غطاء الرأس من أن يحركه الهواء ، أو يُطيّره .

إذن : فالعقل أراده الله سبحانه لنا ليحجزنا عن الانطلاق والفوضى في تحقيق شهوات النفس؛ لأنه سبحانه قد خلق النفس البشرية ، ويعلم أنها تحب الشهوات العاجلة ، فأراد سبحانه للإنسان أن يكبح جماح تلك الشهوات بالعقل .

فحين يفكر الإنسان في تحقيق الشهوة العاجلة ، يجد عقله وهو يهمس له : إنك ستستمتع بالشهوة العاجلة دقائق ، وأنت قد تأخذها من غيرك؛ من محارمه أو من ماله ، فهل تسمح لغيرك أن يأخذ شهوته العاجلة منك؟

إذن : عليك أن تعلم أن العقل إنما أراده الله سبحانه لك ليعقلك عن الحركة التي فيها هَوى ، وتحقق بها شهوة ليست لك ، ومغبَّتها متعبة .

ويخطىء مَنْ يظن أن العقل يفتح الباب أمام الانطلاق اللا مسئول باسم الحرية ، ونقول لمن يظن مثل هذا الظن : إن العقل هو مَنَاطُ التكليف ، وهو الذي يوضِّح لك آفاق المسئولية في كل سلوك .

ومن عدالة الحق سبحانه أنه لم يكلِّف المجنون؛ لأن حكم المجنون على الأشياء والأفعال هو حكم غير طبيعي؛ لأنه يفتقد آلة الاختيار بين البدائل .

وكذلك لم يكلف الله سبحانه مَنْ لي ينضج بالبلوغ؛ لأنه غير مُسْتوفٍ للمَلَكات ، ولم تستوِ لديه القدرة على إنجاب مثيل له .

وقد ضربنا من قبل المثل بالثمرة ، وقلنا : إنه لا يقال إن الثمرة نضجت وصار طَعْمها مقبولاً مستساغاً إلا إذا أصبحت البذرة التي فيها قادرة على أن تنبت منها شجرة إن زرعناها في الأرض .

وأنت مثلاً حين تقطع البطيخة ، وتجد لُبَّها أبيض اللون فأنت لا تأكلها ، وتحرص على أن تأكل البطيخة ذات البذر الذي صار أسود اللون؛ لأنه دليل نُضْج البطيخة ، وأنت حين تأخذ هذا اللبَّ وتزرعه ينتج لك بطيخاً .

إذن : فاكتمال الإنسان بالبلوغ يتيح لعقله أن يَزِنَ السلوك قبل الإقدام عليه ، والتكليف إنما يكون للعاقل البالغ غير المكرة بقوةٍ تقهره على أن يفعل ما لا يعقله .

أما قبل البلوغ فالتكليف ليس من الله ، بل من الأسرة ، لتدربه على الطاعة .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لنا : « مروا أولادكم بالصلاة لسبع سنين ، واضربوهم عليها لعشر سنين ، وفرِّقوا بينهم في المضاجع » .

وهنا نجد أن الذي يأمر هو الأب وليس الله ، والذي يعاقب هو الأب ، وليس الله ، وما إن

يصل الابن إلى مرحلة البلوغ يبدأ تكليفه من الله .

أما إذا جاء مَنْ يُكْرِهه على أن يرتكب معصية بقوة تفوق قوته كأن يمسك (مسدساً) ويقول له : إن لم تشرب الخمر أطلقتُ عليك النار ، فهنا يرفع عنه التكليف .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في الحديث الشريف : « إن الله تجاوز عن أمتي : الخطأ ، والنسيان ، وما اسْتُكرِهوا عليه » .

فالعقل إذن هو مناط التكليف ، وعمله أن يختار بين البدائل في كل شيء ، ففي الطعام مثلاً نجد مَنْ يهوى وضع (الشطة) فوق الطعام؛ لأنها تفتح شهيته للطعام ، وبعد أن يأكل نجده صارخاً من الحموضة ، ويطلب المهضِّمات ، وقد لا تفلح معه ، بل وقد تُفسد له الغشاء المخاطي الموجود على جدار المعدة لحمايتها ، فَرُبَّ أكْله منعتْ أكلات؛ ولذلك نجد عقله يقول له : احذر من هذا اللون من المشهيات؛ لأنه ضارٌّ بك .

وهكذا نجد العقل هو الذي يوضح للإنسان نتائج كل فعل ، وهو الذي يدفع إلى التأني والإجادة في العمل؛ ليكون ناتج العمل مفيداً لك ولغيرك باستمرار ، ولم يأتِ العقل للإنسان ليستمرىء به الخطأ والخطايا .

وهكذا نجد أن العقل يدرك ويختار السلوك الملائم لكل موقف ، بل إن العقل يدعو الإنسان إلى الإيمان حتى في مرحلة ما قبل التكليف ، فحين يتأمل الإنسان بعقله هذا الكون لا بُدَّ أن يقوده التأمل إلى الاعتراف بجميل صنيع الخالق سبحانه وتعالى .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { قُلِ انظروا مَاذَا فِي السماوات والأرض }

قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (101)

وهنا يُحدِّثنا الحق سبحانه عن عالم المُلْك الذي تراه ، ولا يتكلم عن عالم الملكوت الذي يغيب عنك ، وكأنك إن اقتنعت بعالم الملك ، وقلت : إن لهذا العالم خالقاً إلهاً قادراً قوياً ، وتؤمن به؛ هنا تهبُّ عليك نفحات الغيب؛ لتصل إلى عالم الملكوت؛ لأنك اكتشفت في داخلك أمانتك مع نفسك ، وأعلنت إيمانك بالخالق سبحانه ، ورأيت جميل صُنْعه في السماء والكواكب ، وأعجْبتَ بدقة نظام سَيْر تلك الكواكب .

وترى التوقيت الدقيق لظهور الشمس والقمر ومواعيد الخسوف الكلي أو الجزئي ، وتُبهر بدقة المنظِّم الخالق سبحانه وتعالى ، ولن تجد زحام مرور بين الكواكب يعطل القمر أو يعطل الأرض ، ولن يتوقف كوكب ما لنفاد وقوده ، بل كما قال الله سبحانه وتعالى :

{ لاَ الشمس يَنبَغِي لَهَآ أَن تدْرِكَ القمر وَلاَ اليل سَابِقُ النهار وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ } [يس : 40] .

ونحن في حياتنا حين نرى دقة الصنعة بكثير فيما هو أقل من السماء والشمس والقمر ، فنحن

نكرِّم الصانع ، وقد أكرمت البشرية مصمِّم التلغراف ، ومصمم جهاز التليفزيون ، فما بالنا بخالق الكون كله سبحانه .

ويكفي أن نعلم أن الشمس تبعد عنا مسافة ثماني دقائق ضوئية ، والثانية الضوئية تساوي ثلاثمائة ألف كيلوا متر ، وهي شمس واحدة تراها ، غير آلاف الشموس الأخرى في المجرَّات الأولى ، وكل مجرَّة فيها ملايين من المجموعات الشمسية ، ويكفي أن تعلم أن الحق سبحانه قد أقسم بالشمس ، وقال عن كوكب الشِّعْرى :

{ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشعرى } [النجم : 49] .

لأن كوكب الشعرى أكبر من الشمس .

وحين تتأمل السموات والأرض تجد في الأرض جبالاً شامخة ، وتمر عليها فتُدْهش من دقة التكوين ودقة التماسك ، وتجد في داخلها نفائس ومعادن بدرجات متفاوتة ، وقد تجد أسطع الجبال مُكوَّنة من مواد خصبة بشكل هشٍّ ، فإذا ما نزل عليها المطر ، فهو يصحبها معه إلى الأرض؛ لأنها تكون مجرد ذرات كذرات برادة الحديد ، وتتخلل الأرض التي شقَّقتها حرارة الشمس .

والمثل الواضح على ذلك هو ما كان يحمله النيل من غِرْيَن في أثناء الفيضان إلى الدلتا قبل بناء السد العالي ، وكانت مياه النيل في أيام الفيضان تشبه مادة « الطحينة » من فرط امتزاجها بذرات الغِرْين ، وفي مثل هذا الغرين يوجد الخِصْب الذي نأخذ منه الأقوات .

ولو أن الجبال كلها كانت هشَّة التكوين ، لأزالها المطر مرة واحدة ، وجعلها مجرد مسافة نصف متر مضاف لسطح الأرض ، ولاختفى الخصب من الأرض بعد سنوات ، لكن شاء الحق سبحانه أن يجعل الجبال متماسكة ، وجعل سطحها فقط هو الهش لينزل المطر في كل عام مرة؛ ليحمل الخصب إلى الأرض .

ومَنْ يتأمل هندسة التكوين في الاقتيات يجد الجبال مخازن للقوت .

فالبشر يحتاجون إلى الحديد ليصنعوا منه ما يفيدهم ، سواء أكان آلات لحرث الأرض ، أو أي آلات أخرى تساعد في تجميل الحياة ، وتجد الحديد مخزوناً في الجبال .

وكذلك نجد المواد الأخرى مثل الفوسفات أو المنجنيز ، أو الرخام ، أو الفيروز أو الغازات .

إذن : فالمطمور في الجبال إما للاقتيات ، أو وسيلة إلى الاقتيات ، أو وسيلة للتَّرف فوق الاقتيات .

وحين ينزل المطر فوق الجبال فهو يأخذ الخِصْب من الطبقة الهشَّة على سطح الجبال وتبقى المواد الأخرى كثروات للناس ، ففي إفريقيا مثلاً توجد مناجم للفحم والماس ، وفي بلاد أخرى تجد عود الطيب ، وهو عبارة عن جذور أشجار .

وأنت لو شققت الأرض كقطاع من محيط الأرض إلى المركز تجد الأرض الخصبة مع الصحراء ،

مع المياه ، مع الجبال ، متساوية في الخير مع القطاع المقابل للقطاع الأول .
وقد تختلف نوعيات العطاء من موقع إلى آخر على الأرض ، فأنت لو حسبت مثلاً ما أعطاه المطر للنيل من خِصْب الجبال من يوم أن خلق الله عز وجل النيل في أرض وادي النيل في إفريقيا ، وحسبت ما أعطاه النفط (البترول) ، في صحراء الإمارات مثلاً ، ستجد أن عطاء النيل يتساوى مع عطاء البترول ، رغم أن اكتشاف البترول قد تَمَّ حديثاً .
وكل قُوتٍ محسوب من مخازن القوت ، وكل قوت له زمن ، فهناك زمن للفحم ، وزمن للبترول ، كل ذلك بنظام هندسي أنشأه الحكيم الأعلى سبحانه .
وما دام الحق سبحانه وتعالى قد قال : { يَعْقِلُونَ } في مجال النظر في السموات وفي الأرض ، فهذه دعوة لتأمل عجائب السموات والأرض .
ومن تلك العجائب أن الجبال الشاهقة لها قمة ، ولها قاعدة ، مثلها مثل الهرم ، وتجد الوديان على العكس من الجبال؛ لأن الوادي يكون بين جبلين ، وتجد رأس الوادي في أسفله ، ورأس الجبل في قمته .
وحين ينزل المطر فهو يمرُّ برأس الجبل الضيق؛ ليصل إلى أسفل قاع الوادي الضيق ، وكلما نزل المطر فهو يأخذ من سطح الجبل؛ ليملأ مساحة الوادي المتسعة ، وكلما ازداد الخلق ، زاد الله سبحانه رقعة الاقتيات .
ومثال ذلك تجده في الغِرْيَن القادم من منابع النيل؛ ليأتي إلى وادي النيل والدلتا ، وكانت هذه الدلتا من قبل مجرد مستنقعات مالحة ، وشاء الحق سبحانه أن تتحول إلى أرض خصبة .
وحين نتأمل ذلك نرى أن كل شيء في الكون قد أوجده الحق سبحانه بحساب .
والذي يفسد الكون هو أننا لا نقوم بتكثير ما تكاثر ، بل ننتظر إلأن تزدحم الأرض بمن عليها ، ثم نفكر في استصلاح أراضٍ جديدة ، وكان يجب أن نفعل ذلك من قبل .
وكلما نزل المطر على الجبال فهي تتخلخل وتظهر ما فيها من معادن ، يكشفها الإنسان ويُعْمِل عقله في استخدامها .
والمؤمن حين يرى ذلك يزداد إيماناً ، وكلما طبَّق المؤمن حُكْماً تكليفياً مأموراً به ، يجد نور الإيمان وهو يشرق في قلبه .
وليُجرِّب أي مسلم هذه التجربة ، فليجرب أن يعيش أسبوعاً في ضوء منهج الله سبحانه وتعالى ، ثم يَزِنْ نفسه ويُقيِّمها ليعرف الفارق بين أول الأسبوع وآخر الأسبوع ، سيكتشف في هذا الأسبوع أنه يصلي في مواقيت الصلاة ، وسيجد أنه يعرق في عمله ليكسب حلالاً ، وسيجد أنه يصرف ماله في حلال .

زنْ نفسك يقينياً في آخر الأسبوع ستجد أن نفسك قد شفَّت شفافية رائعة؛ لتجد ضوء ونور الإيمان وهو يصنع انسجاماً بينك وبين الكون كله في أبسط التفاصيل وأعقدها أيضاً .

ومثال ذلك : إنك قد تجد الرجل من هؤلاء الذين أسبغ عليهم تطبيقُ منهج الله الشفافيةَ تسأله زوجته : ماذا نطبخ اليوم؟ فيقول لها : فَلْنقْضِ اليوم بما بقي من طعام أمس ، ثم يُفَاجأ بقريب له يزوره من الريف ، وقد جاءه ومعه الخير .

لقد وصل الرجل إلى درجة من الشفافية تجعله منسجماً مع الكون كله ، فيصله رزق الله تعالى له من أيّ مكان .

وتجد الشفافية أيضاً في أعقد الأمور ، ألم يَقُلْ يعقوب عليه السلام :

{ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ } [يوسف : 94] .

وكان إخوة يوسف عليه السلام ما زالوا على أبواب مصر خارجين منها للقاء أبيهم ، حاملين قميصَ يوسف ، الذي أوصاهم يوسف بإلقائه على وجه أبيه ليرتد إليه بصره .

لقد جاءت ريح يوسف عليه السلام لأبيه يعقوب؛ لأن يعقوب عليه السلام قد عاش في انسجام مع الكون ، ولا توجد مُضارة بينه وبين الكون .

والمثال الحيّ لذلك هو فرح لكون لمجيء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يوم مولده ، لقد فرح الكون بمقدم الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ لأن الكون عابد مُسبّح لله سبحانه ، فحين يأتي مَنْ يدعو العباد إلى التوحيد لا بُدَّ أن يفرح الكون ، أما مَنْ يَعْصِ الله تعالى ، فالكون كله يكرهه ويلعنه ، ويتلاعن الاثنان .

وقد فرح الكون بمجيء الرسول الذي أراد الله سبحانه أن تنزل عليه الرسالة الإلهية ليعتدل ميزان الإنسان مع الكون .

وهنا يقول الحق سبحانه :

{ قُلِ انظروا مَاذَا فِي السماوات والأرض } [يونس : 101] .

والكون كله أمامهم ، فلماذا لا ينظرون؟ إنهم يبصُرون ولا يستبصرون ، مثل الذي يسمع ولا يسمع؛ ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

{ وَمَا تُغْنِي الآيات والنذر عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ } [يونس : 101] .

إذن : فعدم إيمانهم أفقدهم البصيرة والتأمل .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : { فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ }

فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (102)

وهؤلاء الذين لا يؤمنون يظلون في طغيانهم يعمهون ، وكأنهم ينتظرون أن تتكرر معهم أحداث الذين سبقوا ولم يؤمنوا ، لقد جاءهم الرسول ببيان ككل المكذّبين السابقين .

ونحن نعلم أن اليوم هو وحدة من وحدات الزمن ، وبعده الأسبوع ، وبعد الأسبوع نجد الشهر ، ثم نجد السنة ، وكلما ارتقى الإنسان قسَّم اليوم إلى ساعات ، وقسَّم الساعات إلى دقائق ، وقسَّم الدقائق إلى ثوانٍ .

ولكما تقدمت الأحداث في الزمن نجد المقاييس تزداد دقة ، واليوم كما قلنا جعله الله سبحانه وتعالى وحدة من وحدات الزمن ، وهو مُكوَّن من ليل ونهار .

ولكن قد يُذكر اليوم ويُراد به ما حدث فيه من أحداث مُلْفِتة ، مثلما نقول : « يوم ذى قَرَد » و « يوم حنين » و « يوم أحُد » .

إذن : فقد يكون المقصود باليوم الحدث البارز الذي حدث فيه ، وحين ننظر في التاريخ ، ونجد كتاباً اسمه « تاريخ أيام العرب » ، فنجد « يوم بُعَاث » و « يوم أوطاس » وكل يوم يمثل حرباً .

إذن : فاليوم ظرف زمني ، ولكن قد يُقصَد به الحدث الذي كان في مثل هذا اليوم .

ومثال ذلك أنك قد تجد من أهل الزمن المعاصر مَنْ عاش في أزمنة سابقة فيتذكر الأيام الخوالي ويقول : كانت الأسعار قديماً منخفضة ، وكان كل شيء مُتوفراً ، فيسمع مَنْ يرد عليه قائلاً : لقد كانت أياماً ، أي : أنها أيام حدث الرخاء فيها .

إذن : فقد يُنسَب اليوم إلى الحدث الذي وقع فيه .

وهنا يقول الحق سبحانه :

{ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الذين خَلَوْاْ } [يونس : 102] .

والذين خلوا منهم قوم نوح عليه السلام وقد أغرقهم الله سبحانه ، وقوم فرعون الذين أغرقهم الله تعالى أيضاً .

والله سبحانه هو القائل :

{ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصيحة وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأرض وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ الله لِيَظْلِمَهُمْ ولكن كانوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } [العنكبوت : 40] .

وهذه أيام حدثت فيها أحداث يعلمونها ، فهل هم ينتظرون أياماً مثل هذه؟

بالطبع ما كان يصحُّ لهم أن يستمرئوا الكفر ، حتى لا تتكرر معهم مآسٍ كالتي حدثت لمن سبقهم إلى الكفر .

ونحن نجد في العامية المثل الفطري الذي ينطق بإيمان الفطرة ، فتسمع من يقول : « لك يوم يا ظالم » أي : أن اليوم الذي ينتقم فيه الله تعالى من الظالم يصبح يوماً مشهوراً؛ لأن الظالم إنما يفتري على خلق الله؛ لذلك يأتي له الحق سبحانه بحدث ضخم يصيبه فيه الله تعالى ويذيقه مجموع ما ظلم الناسَ به .

وقول الحق سبحانه وتعالى :

{ قُلْ فانتظروا إِنِّي مَعَكُمْ مِّنَ المنتظرين } [يونس : 102] .

وقوله هنا : { فانتظروا } فيه تهديد ، وقوله : { إِنِّي مَعَكُمْ مِّنَ المنتظرين } [يونس : 102] فيه بشارة؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم سينتظر هذا اليوم ليرى عذابهم ، أما هو صلى الله عليه وسلم فسوف يتحقق له النصر في هذا اليوم .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا والذين آمَنُواْ }

ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ (103)

والحق سبحانه قد أنْجى مِنْ قَبْل رُسله ومَنْ أمنوا بهم ، لتبقى معالم للحق والخير .

ومن ضمن معالم الخير والحق لا بد أن تظل معالم الشر ، لأنه لولا مجيء الشر بالأحداث لتي تعَضُّ لناس لما استشرف الناس إلى الخير .

ونحن نقول دائماً : إن الألم الذي يصيب المريض هو جندي من جنود العافية؛ لأنه ينبه الإنسان إلى أن هناك خللاً يجب أن يبحث له عن تشخيص عند الطبيب ، وأن يجد علاجاً له .

والألم يوجد في ساعات اليقظة والوعي ، ولكنه يختفي في أثناء النوم ، وفي النوع رَدْع ذاتيٌّ للألم .

وقول الحق سبحانه هنا :

{ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا والذين آمَنُواْ كَذَلِكَ حَقّاً عَلَيْنَا نُنجِ المؤمنين } [يونس : 103] .

هذا القول يقرر البقاء لعناصر الخير في الدنيا .

وكلما زاد الناس في الإلحاد زاد الله تعالى في المدد ، ففي أيّ بلد يُفْترى فيها على الإيمان ويُظلم المؤمنون ، ويكثر الطغاة؛ تجد فيها بعض الناس منقطعين إلى الله تعالى ، لتفهُّم حقيقة القيم ، وحين تضيق الدنيا بالظلمة والطغاة تجدهم يذهبون إلى هؤلاء المنقطعين لله ، ويسألونهم أن يدعوا لهم .

وقد ألزم الحق سبحانه وتعالى هنا نفسه بأن يُنجِي المؤمنين في قوله سبحانه : { كَذَلِكَ حَقّاً عَلَيْنَا نُنجِ المؤمنين } [يونس : 103] .

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك : { قُلْ ياأيها الناس إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ }

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (104)

والشَّكُّ معناه : وضَعْ أمرين في كِفَّتين متساويتين .

وهنا يأمر الحق سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يعرض على الكافرين قضية الدين ، وأن يضعوها في كفة ، ويضعوا في الكفة المقابلة ما يؤمنون به .

ويترك لهم الحكم في هذا الأمر .

هم إذن في شك : هل هذا الدين صحيح أم فاسد؟

وعَرْض الرسول صلى الله عليه وسلم لأمر الدين للحكم عليه ، يعني : أن أمر الدين ملحوظ أيضاً عند أيّ كافر ، وهو ينتبه أحياناً إلى قيمة الدين .

فإن كنتم في شكٍّ من الدين الذي أنزِلَ على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهل ينتصر الرسول صلى الله عليه وسلم ومَنْ معه عليهم ، أم تكون لهم الغلبة؟

وحين يعرض الرسول صلى الله عليه وسلم أمر الدين عليهم ، ويترك لهم الحكم ، فهذه ثقة منه صلى الله عليه وسلم بأن قضايا دينه إنْ نظر إليها الإنسان ليحكم فيها ، فلا بد أن يلتجيء الإنسان إلى الإيمان .

ويحسم الحق سبحانه وتعالى أمر قضية الشرك به ، ويستمر أمره إلى الرسول صلى الله عليه وسلم أن يقول :

{ فَلاَ أَعْبُدُ الذين تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله ولكن أَعْبُدُ الله } [يونس : 104] .

أي : أنه صلى الله عليه وسلم لا يمكن أن يعبد الشركاء وأن يعبد الله؛ لأنه لن يعبد إلا الله { ولكن أَعْبُدُ الله } [يونس : 104] .

ثم جاء سبحانه بالدليل الذي لا مراء فيه ، الدليل القوي ، وهو أن الحق سبحانه وتعالى وحده هو المستحق للعبادة؛ لأنه { الذي يَتَوَفَّاكُمْ } ، ولا يوجد مَنْ يقدر أو يتأبى على قَدَر الله سبحانه حين يُميته .

وهنا قضيتان :

الأولى : قضية العبادة في قوله سبحانه : { فَلاَ أَعْبُدُ الذين تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله ولكن أَعْبُدُ الله الذي يَتَوَفَّاكُمْ } [يونس : 104] .

وكان لا بُدَّ أن يأتي أمر المسألتين معاً : مسألة عدم عبادة الرسول لمن هم من دون الله ، ومسألة تخصيص الله تعالى وحده بالعبادة .

والفصل واضح بما يُحدِّد قطع العلاقات بين معسكر الإيمان ومعسكر الشرك ، كما أورده الحق سبحانه في قوله :

{ قُلْ ياأيها الكافرون * لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَآ أَعْبُدُ * وَلاَ أَنَاَ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ * وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَآ أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ } [الكافرون : 16] .

والذين يقولون : إن في سورة (الكافرون) تكراراً لا يلتفتون إلى أن هذا الأمر تأكيد لقطع العلاقات؛ ليستمر هذا القطع في كل الزمن ، فهو ليس قطعاً مؤقَّتاً للعلاقات .

وهذا أول قَطْع للعلاقات في الإسلام ، بصورة حاسمة ليست فيها أية فرصة للتفاهم أو للمساومة ، ويظل كل معسكر على حاله .

يقول الحق سبحانه وتعالى في سورة النصر :

{ إِذَا جَآءَ نَصْرُ الله والفتح * وَرَأَيْتَ الناس يَدْخُلُونَ فِي دِينِ الله أَفْوَاجاً * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ واستغفره إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً }

[النصر : 13] .

هنا يتأكد الأمر ، فبعد أن قطع الرسول صلى الله عليه وسلم العلاقات مع معسكر الشرك ، جاء نصر الله سبحانه وتعالى وفَتْحه ، فَهُرِع الناس من معسكر الشرك إلى معسكر الإيمان .

هم إذن الذين جاءوا إلى الإيمان . . هذه هي القضية الأولى :

{ فَلاَ أَعْبُدُ الذين تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله ولكن أَعْبُدُ الله } [يونس : 104] .

وهم كانوا يعبدون الأصنام المصنوعة من الحجارة .

وأنت إذا نظرتَ إلى الأجناس في الوجود ، فأكرمها هو الإنسان الذي سخَّر له الحق سبحانه بقية الأجناس لتكون في خدمته .

والجنس الأقل من الإنسان هو الحيوان .

ثم يأتي الجنس الأقل مرتبةً من الإنسان و الحيوان ، وهو النبات .

ثم يأتي الجماد كأدنى الأجناس مرتبةً ، وهم قد اتخذوا من أدنى الأجناس آلهة ، وهذه هي قمة الخيبة .

وتأتي القضية الثانية في قول الحق سبحانه وتعالى :

{ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ المؤمنين } [يونس : 104] فإذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد رفض العبادة لمن هُمْ دون الله سبحانه ، فمعنى ذلك أنه لن يعبد سوى الله تعالى .

وليس هذا موقفاً سلبياً ، بل هو قمة الإيجاب؛ لأن العبادة تقتضي استقبال منهج الله بأن يطيع أوامره ، ويجتنب نواهيه .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً }

وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (105)

وما دام الخطاب مُوجَّهاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهو ككل خطاب مِنَ الحقِّ سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم ، إنما ينطوي على الأمر لكل مؤمن .

وإذا ما عبد المؤمن الله سبحانه فهو يستقبل أحكامه؛ ولذلك يأتي الأمر هنا بألا يلتفت وجه الإنسان المؤمن إلى غير الله تعالى ، فيقول الحق سبحانه :

{ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً } [يونس : 105] .

فلا يلتفت في العبادة يميناً ولا يساراً ، فما دام المؤمن يعبد الله ولا يبعد غيره ، فليعلم المؤمن أن

هناك أيضاً شِرْكاً خفياً ، كأن يعبد الإنسان مَنْ هم أقوى أو أغنى منه ، وغير ذلك من الأشخاص التي يُفتن بها الإنسان .

ونحن عرفنا من قبل قول الحق سبحانه :

{ وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً } [النساء : 125] .

والحنف أصله ميل في الساق ، وتجد البعض من الناس حين يسيرون تظهر سيقانهم متباعدة ، وأقدامهم مُلْتفَّة ، هذا اعوجاج في التكوين .

أما المقصود هنا بكلمة (حنيفاً) أي : معوج عن الطريق المعوج ، أي : أنه يسير باستقامة .

ولكن : لماذا يأتي مثل هذا التعبير؟

لأن الدين لا يجيء برسول جديد ومعجزة جديدة ، إلا إذا كان الفساد قد عَمَّ؛ فيأتي الدين؛ ليدعو الناس إلى الميل عن هذا الفساد . وفي هذا اعتدال لسلوك الأفراد والمجتمع .

ويحذرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من أن نقع في الشرك الخفي بعد الإيمان بالله تعالى .

ويأتي الكلام عن هذا الشرك الثاني في قول الحق سبحانه :

{ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ المشركين } [يونس : 105] .

وهذا الشرك الثاني هو أقل مرحلة من شرك العبادة ، ولكن أن تجعل لإنسان أو لأيّ شيء مع الله عملاً .

فإن رأيت مثلاً للطبيب أو للدواء عملاً ، فَقُل لنفسك : إن الطبيب هو مَنْ يصف الدواء كمعالج ، ولكن الله سبحانه وتعالى هو الذي يشفي ، بدليل أن الطبيب قد يخطيء مرة ، ويأمر بدواء تحدث منه مضاعفات ضارة للمريض .

وعلى المؤمن ألا يُفتنَ في أيّ سبب من الأسباب .

ونذكر مثالاً آخر لذلك ، وهو أن بلداً من البلاد ذات الرقعة الزراعية المتسعة أعلنت في أحد الأعوام أنها زرعت مساحة كبيرة من الأراضي بالقمح بما يكفي كل سكان الكرة الأرضية ، ونبتت السنابل وأينعتْ ، ثم جاءتها ريح عاصف أفسدت محصول القمح ، فاضطرت تلك الدولة أن تستورد قمحها من دول أخرى .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ الله مَا لاَ يَنفَعُكَ }

وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ (106)

والمشرك من هؤلاء لحظة أنْ عبدَ الصنم ودعاه من دون الله تعالى ، فهل استجاب له؟ وحين عبده هل قال الصنم له : افعل كذا ، ولا تفعل كذا؟

إن الأصنام التي اتخذها المشركون آلهة لم يكُنْ لها منهج ، ولا أحد منها ينفع أو يضر ، وحين يجيْ

النفع لا يعرف الصنم كيف بمنعه ، وحين يجيء الضُّر لا يقدر الصنم أن يدفعه .
إذن : فمَنْ يدعو من دون الله سبحانه وتعالى هو دعاء لمن لا ينفع ولا يضر .
ومَنْ يفعل ذلك يكون من الظالمين؛ لأن الظلم هو إعطاء حقٍّ لغير ذي حق ، سواء أكان في القمة ، أو في غير القمة .
ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { وَإِن يَمْسَسْكَ الله بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ }

وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (107)

هذا كلام الربوبية المستغنية عن الخلق ، فالله سبحانه وتعالى خلق الناس ، ودعاهم إلى الإيمان به ، وأن يحبوه؛ لأنه يحبهم ، ويعطيهم ، ولا يأخذ منهم؛ لأنه في غِنىً عن كل خلقه .
ويأتي الكلام عن الضُّر هنا بالمسِّ ، { وَإِن يَمْسَسْكَ الله بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ } [يونس : 107] .
ونحن نعلم أن هناك « مساً » و « لمساً » و « إصابة » .
وقوله سبحانه هنا عن الضر يشير إلى مجرد المسِّ ، أي : الضر البسيط ، ولا تَقُلْ : إن الضر ما دام صغيراً فالخلق يقدرون عليه ، فلا أحد يقدر على الضر أو النفع ، قَلَّ الضر أم كَبُر ، وكَثُر النفع أو قَلَّ ، إلا بإذن من الله تعالى .
والحق سبحانه وتعالى يذكر الضر هنا بالمسّ ، أي : أهو الالتصاقات ، ولا يكشفه إلا الله سبحانه وتعالى .
ومن عظمته جَلَّ وعلا أنه ذكر مع المس بالضر ، الكشفَ عنه ، وهذه هي الرحمة .
ثم يأتي سبحانه بالمقابل ، وهو « الخير » ، وحين يتحدث عنه الحق سبحانه ، يؤكد أنه لا يرده .
ونحن نجد كلمة { يُصَيبُ } في وَصْف مجيْ الخير للإنسان ، فالحق سبحانه يصيب به من يشاء مِنْ عباده .
ويُنهي الحق سبحانه وتعالى الآية بهذه النهاية الجميلة في قوله تعالى :
{ وَهُوَ الغفور الرحيم } [يونس : 107] .
وهكذا تتضح لنا صورة جلال الخير المتجلي على العباد ، ففي الشر جاء به مسّاً ، ويكشفه ، وفي الخير يصيب به العباد ، ولا يمنعه .
والله تعالى هو الغفور الرحيم؛ لأنه سبحانه لو عامل الناس حتى المؤمنين منهم بما يفعلون لعاقبهم ، ولكنه سبحانه غفور ورحيم؛ لأن رحمته سبقت غضبه؛ ولذلك نجده سبحانه في آيات النعمة يقول :
{ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ الله لاَ تُحْصُوهَآ } [النحل : 18] .

وجاء الحق سبحانه بالشكِّ ، فقال { إن } ولم يقل : « إذا تعدون نعمة الله »؛ لأن أمر لن يحدث ، كما أن الإقبال على العَدِّ هو مظنَّة أنه يمكن أن يحصي؛ فقد تُعدُّ النقود ، وقد يَعدّ الناظر طلاب المدرسة ، لكن أحداً لا يستطيع أن يُعدّ أو يُحصى حبَّات الرمال مثلاً .

وقال الحق سبحانه وتعالى :

{ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ الله لاَ تُحْصُوهَآ } [النحل : 18] .

وهذا شَكٌّ في أن تعدوا نِعمة الله .

ومن العجيب أن العدَّ يقتضي التجمع ، والجمع لأشياء كثيرة ، ولكنه سبحانه جاء هنا بكلمة مفردة هي { نِعْمَةَ } ولم يقل : « نِعَم » فكأن كل نعمة واحدة مطمور فيها نِعَمٌ شتَّى .

إذن : فلن نستطيع أن نعدَّ النِّعَم المطمورة في نعمة واحدة .

وجاء الحق سبحانه بذكر عَدِّ النعم في آيتين :

الآية الأولى تقول :

{ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ الله لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإنسان لَظَلُومٌ كَفَّارٌ } [إبراهيم : 34] .

والآية الثانية تقول :

{ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ الله لاَ تُحْصُوهَآ إِنَّ الله لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ }

[النحل : 18] .

وصَدْر الآيتين واحد ، ولكن عَجُزَ كل منهما مختلف ، ففي الآية الأولى : { إِنَّ الإنسان لَظَلُومٌ كَفَّارٌ } [إبراهيم : 34] .

وفي الآية الثانية : { إِنَّ الله لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ } [النحل : 18] .

لأن النعمة لها مُنْعِم؛ ومُنْعَم عليه ، والمنعَم عليه بذنوبه لا يستحق النعمة؛ لأنه ظلوم وكفار ، ولكن المنعم سبحانه وتعالى غفور ورحيم ، ففي آية جاء مَلْحظ المنعِم ، وفي آية أخرى جاء ملحظ المنعَم عليه .

ومن ناحية المنعَم عليه نجده ظَلُوماً كفَّاراً؛ لأنه يأخذ النعمة ، ولا يشكر الله عليها .

ألم تَقُلْ السماء : يارب! ائذن لي أن أسقط كِسَفاً على ابن آدم؛ فقد طَعِم خيرك ، ومنع شكرك .

وقالت الأرض : ائذن لي أن أخسف بابن آدم؛ فقد طَعِم خيرك ، ومنع شكرك .

وقالت الجبال : ائذن لي أن أسقط على ابن آدم .

وقال البحر : ائذن لي أن أغرق ابن آدم الذي طَعِم خيرك ، ومنع شُكْرك .

هذا هو الكون الغيور على الله تعالى يريد أن يعاقب الإنسان ، لكن الله سبحانه رب الجميع يقول : « دعوني وعبادي ، لو خلقتموهم لرحمتموهم ، إنْ تابوا إليَّ فأنا حبيبهم ، وإنْ لم يتوبوا

فأنا طبيبهم »

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { قُلْ ياأيها الناس قَدْ جَآءَكُمُ الحق }

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (108)

إذن : فالحق سبحانه لم يُقصِّر مع الخلق ، فقد خلق لكم العقول ، وكان يكفي أن تفكّروا بها لتؤمنوا من غير مجيء رسول ، وكان على هذه العقول أن تفكر في القويُّ الذي خلق الكون كله ، بل هي التي تسعى لتطلب أن يرسل لها القويّ رسولاً بما يطلبه سبحانه من عباده ، فإذا ما جاء رسول ليخبرهم أنه رسول من الله ويحمل البلاغ منه ، كان يجب أن تستشرف آذانهم لما يقول .

إذن : كان على العباد أن يهتدوا بعقولهم؛ ولذلك نجد أن الفلاسفة حين بحثوا عن المعرفة ، قالوا : إن هناك « فلسفة مادية » تحاول أن تتعرف على مادية الكون ، وهناك « فلسفة ميتافيزيقية » تبحث عما وراء المادة .

فَمَنْ أعلمَ الفلاسفة إذن أن هناك شيئاً وراء المادة .

وكأن العقل مجرد ساعةً يرى نُظُم الكون الدقيقة كان يجب أن يقول : إن وراء الكون الواضح المُحَسِّ قوة خفية .

ولم يذهب الفلاسفة إلى البحث فيما وراء المادة ، إلا لأنهم أخذوا من المادة أن وراءها شيئاً مستوراً .

والمستور الذي وراء المادة هو الذي يعلن عن نفسه ، فهو أمر لا نعرفه بالعقل .

وقديماً ضربنا مثلاً في ذلك ، وقلنا : هَبْ أننا جالسون في حجرة ، ودقَّ جرس الباب ، فعلم كل مَنْ في الحجرة أن طارقاً بالباب ، ولم يختلف أحد منهم على تلك الحقيقة .

وهذا ما قاله الفلاسفة حين أقرُّوا بوجود قوة وراء المادة ، ولكنهم تجاوزوا مهمتهم ، وأرادوا أن يُعرِّفونا ماهية أو حقيقة هذه القوة ، ولم يلتفتوا إلى الحقيقة البديهية التي تؤكد أن هذه القوة لا يمكن أن تُعْرَف بالعقل؛ لأننا ما دُمْنا قد عرفنا أن بالباب طارقاً يدق؛ فنحن لا نقول من هو ، ولا نترك المسألة للظن ، بل نتركه هو الذي يحدد لنا مَنْ هو ، وماذا يطلب؟ لأن عليه هو أن يخبر عن نفسه .

اطلبوا منه أن يعلن عن اسمه وصفاته ، وهذه المسائل لا يمكن أن نعرفها بالعقل .

إذن : فخطأ الفلاسفة أنهم لم يقفوا عند تعقُّل أن هناك قوة من وراء المادة ، وأرادوا أن ينتقلوا من التعقُّل إلى التصور ، والتصورات ، لا تأتي بالعقل ، بل بالإخبار .

وهنا يقول الحق سبحانه :

{ قُلْ ياأيها الناس قَدْ جَآءَكُمُ الحق مِن رَّبِّكُمْ } [يونس : 108] .

والحق كما نعلم هو الشيء الثابت الذي لا يتغير أبداً ، وأن يأتي الحق من الرب الذي يتولى التربية بعد أن خلق من عدم وأمدَّ من عُدْم ، ولا يكلفنا بتكاليف الإيمان إلا بعد البلوغ ، وخلق الكون كله ، وجعلنا خلفاء فيه .

وهو إذن مأمون علينا ، فإذا جاء الحق منه سبحانه وتعالى ، فلماذا لا نجعل المنهج من ضمن التربية؟

لماذا أخذنا تربية المأكل والملبس وسيادة الأجناس؟

كان يجب إذن أن نأخذ من المربِّي سبحانه وتعالى المنهج الذي ندير به حركة الحياة؛ فلا نفسدها .

وحين يقول الحق سبحانه :

{ جَآءَكُمُ الحق مِن رَّبِّكُمْ } [يونس : 108] .

فمعنى ذلك أنه لا عُذْر لأحد أن يقول : « لم يُبلغْني أحدٌ بمراد الله » ، فقد ترك الحق سبحانه العقول لتتعقل ، لا أن تتصور .

وجاء التصوُّر للبلاغ عن الله تعالى ، حين أرسل الحق سبحانه رسولاً يقول : أنا رسول من الله ، وهو القوة التي خلقت الكون ، وكان علينا أن نقول للرسول بعد أن تَصْدُق معجزته : أهلاً ، فأنت مَنْ كنا نبحث عنه ، فَقُل لنا : ماذا تريد القوة العليا أن تبلغنا به؟

ثم يقول الحق سبحانه في نفس الآية :

{ فَمَنِ اهتدى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ } [يونس : 108] .

لأن حصيلة هدايته لا تعود على مَنْ خلقه وهداه ، بل تعود عليه هو نفسه انسجاماً مع الكون ، وإصلاحاً لذات النفس ، وراحة بال ، واطمئناناً ، وانتباهاً لتعمير الكون بما لا يفسد فيه ، وهذا الحال عكس ما يعيشه مَنْ ضل عن الهداية .

ويقول الحق سبحانه عن هذا الصنف من الناس :

{ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا } [يونس : 108] .

وكلمة { ضَلَّ } تدل على أن الإنسان الذي يضل كانت به بداية هداية ، لكنه ضَلَّ عنها .

ويُنهي الحق سبحانه الآية بقوله : { وَمَآ أَنَاْ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ } [يونس : 108] .

وأنت لا توكِّل إنساناً إلا لأن وقتك لا يسع ، وكذلك قدرتك وعلمك وحركتك ، وهنا يُبلغ الرسول القوم : أنا لا أقدر أن أدفع عنكم الضلال ، أو أجبركم على الهداية؛ لأني لست وكيلاً عليكم ، بل عليَّ فقط مهمة البلاغ عن الله سبحانه وتعالى ، وهذا البلاغ إن استمعتم إليه بخلاء القلب من غيره ، تهتدوا .

وإذا اهتديتم؛ فالخير لكم؛ لأن الجزاء سيكون خلوداً في نعيم تأخذونه مقابل تطبيق المنهج الذي

ضيَّق على شهوات النفس ، ولكنه يهدي حياة نعيم لا يفوته الإنسان ، ولا تفوت النعم فيه الإنسان .

وإذا كان الإنسان مِنَّا يقبل أن يتعب؛ ليتعلَّم حرفة أو عملاً أو صنعة أو مهنة؛ ليسكب الإنسان من إتقان هذا العمل بقية عمره .

أليس على هذا الإنسان أن يُقبِل على العبادة التي تصلح باله ، وتسرع به إلى الغاية انسجاماً مع النفس ، ومع المجتمع ، وتقويماً وتهذيباً لشهوات النفس ، وينال من بعد ذلك خلود النعيم في الآخرة .

أما من يستكثر على نفسه الجدَّ والاجتهاد في تحصيل العلم ، أو تعلُّم مهنة أو حرفة ، فهو يحيا في ضيق وعدم ارتقاء ، فهو لا يبذل جهداً في التعلّم .

ونرى مَنْ يتعلم ويبذل الجهد ، وهو يرتقي في المستوى الاجتماعي والاقتصادي؛ ليصل إلى درجة الدكتوراة مثلاً أو التخصص الدقيق الذي يأتي له بِسعَة الرزق .

وكلما كانت الثمرة التي يريدها الإنسان أينع وأطول عمراً كانت الخدمة من أجلها أطول .

وقارن بين خدمتك لدينك في الدنيا بما ينتظرك من نعيم الآخرة؛ وسوف تجد المسافة بين عطاء الدنيا وعطاء الآخرة شاسعاً ، ولا مقارنة .

وقول الحق سبحانه :

{ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا } [يونس : 108] .

نجد فيه كلمة { عَلَيْهَا } وهي تفيد الاستعلاء على النفس ، أي : أنك بالضلال والعياذ بالله تستعلي على نفسك ، وتركب رأسك إلى الهاوية .

وفي المقابل تجد قول الحق سبحانه :

{ فَمَنِ اهتدى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ } [يونس : 108] .

وتجد « اللام » هنا تفيد المِلْك؛ لذلك يقال : « فلان له » و « فلان عليه » .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه في ختام سورة يونس : { واتبع مَا يوحى إِلَيْكَ }

وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (109)

وإذا كان الحق سبحانه قد أورد على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم : { ياأيها الناس قَدْ جَآءَكُمُ الحق مِن رَّبِّكُمْ } [يونس : 108] .

فهذا يعني البلاغ بمنهج الله تعالى النظري ، ولا بُدَّ أن يثق الناس في المنهج ، بأن يكون الرسول هو أول المنفذين للمنهج ، لأنه معاذ الله لو غشَّ الناس جميعاً لما غشَّ نفسه .

إذن : فبعد البلاغ عن الحق سبحانه ، وتعريف الناس بأن الهداية لا يعود نفعها على الحق ، بل

هي للإنسان ، فيملك نفسه؛ ويملك زمام حياته ، فيسير براحة البال في الدنيا إلى نعيم الآخرة ، وأن الضلال لا يعود إلا باستعلاء الإنسان على نفسه؛ ليركبها إلى موارد التهلكة .

والرسول صلى الله عليه وسلم ليس وكيلاً عنكم ، يأتي لكم بالخير حين لا تعملون خيراً ، ولا يصرف عنكم الشر وأنتم تعملون ما يستوجب الشر .

ولذلك كان على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون هو النموذج والأسوة .

{ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ الله أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ الله واليوم الآخر وَذَكَرَ الله كَثِيراً } [الأحزاب : 21] .

وهنا يقول الحق سبحانه :

{ واتبع مَا يوحى إِلَيْكَ } [يونس : 109] .

أي : عليك أن تكون الأسوة ، وحين تتَّبع ما يوُحَى إليك؛ ستجد عقبات ممن يعيشون على الفساد ، ولا يرضيهم أن يوجد الإصلاح ، فَوطِّن العزم على أن تتبع ما يوحى إليك ، وأن تصبر .

ومجيء الأمر بالصبر دليل على أن هناك عقبات كثيرة ، وعليك أن تصبر وتعطي النموذج لغيرك ، والثقة في أنه لو لم يكن هناك خير في اتباع المنهج لما صبرت عليه؛ حتى يأتي حكم الله { واصبر حتى يَحْكُمَ الله وَهُوَ خَيْرُ الحاكمين } [يونس : 109] .

وليس هناك أعدل ولا أحكم من الله سبحانه وتعالى .

وهذه السورة التي تُخْتَم بهذه الآية الكريمة ، تعرضت لقضية الإيمان بالله ، قمة في عقيدة لإله واحد يجب أن نأخذ البلاغ منه سبحانه؛ لأنه الرب الذي خلق من عَدَم ، وأمدَّ من عُدْم ، ولم يكلِّفنا إلا بعد مرور سنوات الطفولة وإلى البلوغ؛ حتى يتأكد أن المكلَّف يستحق أن يُكلَّف بعد أن انتفع بخيرات الوجود كله ، وتثبَّت من صدق الربوبية .

ومعنى الربوبية هو التربية ، وأن يتولى المربِّي المربَّى إلى أن يبلغ حَدَّ الكمال المرجوّ منه .

وقد صدقتْ هذه القضية في الكون .

إذن : نستمع إلى الرب سبحانه وتعالى الذي خلق ، حين يُبِّين لنا مهمتنا في الحياة بمنهج تستقيم به حركة الحياة ، ويستقيم أمر الإنسان مع الغاية التي يعرفها قبل أن يخطو أي خطوة .

ومن المحال أن يخلق الله سبحانه وتعالى المخلوق ثم يُضيِّعه ، بل لا بد أن يضع له قانون صيانة نفسه؛ لأن كل صنعة إنما يضع قانونها ويحدد الغاية لها مَنْ صنعها ، فإذا ما خالفنا ذلك نكون قد أحَلْنا وغيَّرنا الأمور ، وأدخلنا العالم في متاهات ، وصار لكل امرىء غاية ، ولكل امرىء منهج ، ولكل عقل فكر ، ولَصار الكون متضارباً؛ لأن الأهواء ستتضارب ، فتضعف قوة الأفراد؛ لأن الصراع بين الأنداد يُضعِف قوة الفرد عن معالجة الأمر الذي يجب أن يعالجه .

فأراد الله سبحانه وتعالى توحيداً في العقيدة ، وتوحيداً في المنهج .
وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يضرب لنا مثلاً تطبيقياً في مواكب الرسالات ، فذكر لنا في هذه السورة قصة نوح عليه السلام وقصة موسى وهارون عليهما السلام وذكر بينهما القصص الأخرى .
ثم ذكر قضية يونس عليه السلام .
ثم ختم السورة بقوله سبحانه :
{ واتبع مَا يوحى إِلَيْكَ } [يونس : 109] .
بلاغاً عن الله تعالى .
وما دُمْتَ تبلّغ ، وأمتك أمة محسوبة إلى قيام الساعة أنها وارثة النبوة ، ولم تَعُدْ هناك نبوة بعدك يا محمد صلى الله عليه وسلم تسليماً كثيراً .
وأراد الحق سبحانه لأمتك أن يحملوا الدعوة للمنهج الذي نزل إليك .
إذن : فرسول الله صلى الله عليه وسلم سيكون شهيداً بأنه قد بلّغ ، ويجب أن تكون أمته شهيدة بأنها بلغت ، وأوصلت رسالة الله إلى الدنيا ، وهذا شرف مهمة أمة محمد صلى الله عليه وسلم .
ولم يكن لأمة غيرها مثل هذا الشرف؛ فقد كان الأمر قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن دعوة أيّ رسول تفتُر ، وتبهت تكاليفه ، ويغفل عنها الناس ، فيرسل الله سبحانه وتعالى رسولاً ، ولكن الأمر اختلف بعد رسالة محمد عليه الصلاة والسلام ، فلم تَعُدْ هناك نبوة ، ولا رسالة ، ولكن صار هناك مَنْ يحملون منهج الله تعالى .
والرسول صلى الله عليه وسلم هو الأسوة؟ لأنه مُبلغ منهج الله ، وهو أسوة في تطبيق قانون صيانة الإنسان وحركته ، ونموذج تطبيقي حتى لا يكلف الناس فوق ما تطيقه إنسانيتهم؛ ولذلك كان يُصِر على أنه بشر ، وأوضح القرآن الكريم ذلك بلا أدنى غموض :
{ إِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ } [فصلت : 6] .
ليؤكد صدق الأسوة؛ لأنه صلى الله عليه وسلم لو لم يكن بشراً وطلب من الناس أن يفعلوا مثله لقالوا : لن نستطيع لأنك لست مثلنا .
ولذلك نلحظ أن القرآن يؤكد على بشرية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكنه صلى الله عليه وسلم يزيد عن البشر باصطفاء الله سبحانه له؛ ليكون رسولاً يُوحَى إليه ، فمهمته الرسالية الأولى أن يُبلغ هذا الوحي ، والمهمة الثانية أن يؤكد بسلوكه أنه مقتنع بهذا الوحي ويُطبِّقه على نفسه .
ويقول الحق سبحانه وتعالى :
{ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ الله أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ } [الأحزاب : 21] .
وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم من ناحية الثراء أقلَّ الناس مالاً ، وهو غير متكبر ، ولا جبَّار ، وهو كنموذج سلوكي تتوازن فيه وبه كل الفضائل؛ فلم يطلب لنفسه شيئاً ، بل إنه منع

أقاربه وأهله من حقوق أقرها لغيرهم من المسلمين ، فأقاربه لم يُعطِهم الحق في أن يرثوا شيئاً مما يملكه بعد وفاته وقد حرمهم؛ ليكون كل عمل صادر منه صلى الله عليه وسلم أو ممن ينتسبون بالقرابة إليه هو عمل خالص لوجه الله تعالى .

وهذا السلوك هو عكس سلوك الرئاسات البشرية ، أو السلطات الزمنية ، فهذه الرئاسات أو تلك السلطات تفيض أول ما تفيض على نفسها بالخير ، ثم تفيضه على الدوائر القريبة منها حسب أقطار القرب؛ فالقريب جداً يأخذ أولاً وكثيراً ، ومَنْ يبعد في القرابة يأخذ الأقل حسب درجة بُعْده .

لكن الذي في دائرة القرابة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يأخذ حتى ما يأخذه الفقير في أمة محمد عليه السلاة والسلام ، وكأن الله سبحانه وتعالى يدلنا بذلك على أنه من العيب أن يكون الإنسان منسوباً لآل بيت النبوة ، ويكون موضعاً لأخذ الزكاة .

إذن : فالاتِّباع الذي أمر الله تعالى به ، هو اتباع الوحي بلاغاً ، واتباع ما يُوحَى به تطبيقاً ، وسيتطلب هذا مواجهة متاعب كثيرة ، وسيلقى عقبات من الجبابرة المنتفعين بالفساد في الأرض ، فلا بُدَّ أن يصادموا هذه الدعوات؛ ليحافظوا على سلطاتهم الزمنية ، فيأمر الحق سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يصبر ، وفي الأمر بالصبر إشارة إلى أن الرسول صلى الله عليه وسلم مُقْبِل على عقبات فَلْيُعِدّ نفسه لتحمُّل هذه العقبات بالبصر .

وفي آية أخرى يأمره الحق سبحانه وتعالى أن يصبر ويصابر هو والمؤمنون . . يقول سبحانه : { اصبروا وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ } [آل عمران : 200] .

أي : إن صبرت ، فقد يصبر خَصْمك أيضاً ، وهنا عليك أن تصابره ، وكلمة « اصبر » توضح أن دعاة منهج الحق سبحانه لا بد أن يتعرضوا لمتاعب ، وإلا ما كانت هناك ضرورة لأن يجيء ، فلو كان العالم مستقيم الحركة ، فما ضرورة المنهج إذن؟

ولكن المنهج قد جاء؛ لأن الفساد قد عَمَّ الكون ، ويحتاج إلى إصلاح ، وإلى مواجهة المفسدين ، وهذا ما يرهق الداعين إلى الله تعالى ، وليُوطّن كل داعية نفسه على ذلك ، ما دام قد قام ليدعو إلى منهج الحق سبحانه وتعالى .

وكل داع إلى الله لا يصيبه أذى ، فهذا يُنقص من حظه في ميراث النبوة؛ لأن الذي يأتي له الأذى هو الذي يأخذ حظاً من ميراث النبوة ، فالأذى لا يجيء إلا بمقدار خطورة الداعي إلى الله سبحانه على الفساد والمفسدين ، وهم الذين تجتمعون ضده .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « نضَّر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها وحفظها وبلَّغها ، فرُبَّ حامل فقه إلى مَنْ هو أفقه منه » .

إذن : فنحن أمة محمد صلى الله عليه وسلم قد ورثنا منه البلاغ ، وورثنا منه الأسوة الحسنة : { لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ الله أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ الله واليوم الآخر وَذَكَرَ الله كَثِيراً } [الأحزاب : 21] .

إذن : فقول الحق سبحانه وتعالى :

{ واتبع مَا يوحى إِلَيْكَ } [يونس : 109] .

هو دليل على أن الوحي بصدد الإنزال؛ لأن الوحي لم ينزل بالقرآن دَفْعة واحدة ، فقد كان الوحي ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم طوال حياته .

وهكذا تكون حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم هي مقام الاستقبال للوحي .

وقول الحق سبحانه :

{ واصبر حتى يَحْكُمَ الله } [يونس : 109] .

يوضح لنا أنه سبحانه قد وضع حدّاً تؤمل فيه أن الأمر لن يظل صبراً ، وأن القضية ستُحسم من قريب بحكم من الله تعالى .

كلمة { يَحْكُمَ } توضح أن هناك فريقين؛ كُلٌّ يدَّعي أنه على حق ، ثم يأتي مَنْ يفصل في القضية ، والحجة إما الإقرار أو الشهود ، وبطبيعة الحال لن يُقِرَّ الكفار بكفرهم ، والشهود قد يكونون عُدولاً ، أو يكونون ممن يُدارونَ فِسْقهم في ظاهر العدالة . فإذا كان الله سبحانه وتعالى هو الحاكم ، فهو لا يحتاج إلى شهود؛ لأنه خير الشاهدين ، والله سبحانه لا يحكم فقط دون قدرة إنفاذ الحكم ، لا بل هو يحكم وينفذ .

إذن : فهو سبحانه قد شهد وحكم ونفَّذ ، ولا توجد قوة تقف أمام قدرة الله تعالى ، أو تقف أمام حكم الله عز وجل .

ونحن في زماننا نرى القُوى وهي تختلف ، فنجد القويَّ من الدول وقد تسلَّط على الضعيف ، فيلجأ الضعيف إلى الأمم المتحدة ومجلس الأمن ، ويصدر كل منهما قرارات ، وحتى لو افترضنا عدالة الحكم ، فأين قوة التنفيذ؟ إنها غير موجودة .

ولكن قدرة الحق الأعلى سبحانه هي قدرة خير الحاكمين ، لأنه هو سبحانه الذي يشهد ، وهو سبحانه لا يحتاج إلى مَنْ يُدلِّس عليه في الشهادة؛ لأنك إن عمَّيت على قضاء الأرض ، فلن تُعمَّى على قضاء السماء .

وبعد ذلك يحكم الحق سبحانه حُكْماً لا هوى فيه؛ لأن آفة الأحكام أن يدخلها الهوى فتميل ، والحق سبحانه لا هوى له؛ لأنه لا مصلحة له عند العباد ، فهو الخالق عز وجل ، ولن يأخذ مصلحة من مخلوق .

ويطمئنا الحق سبحانه على أن رسوله صلى الله عليه وسلم أيضاً لا ينطق عن الهوى .

فيقول رب العزة سبحانه :

{ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهوى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يوحى } [النجم : 34] .

أي : اطمئنوا إلى حكمه؛ لأنه لا ينطق عن هوى فليس في نفسه ما يريد تحقيقه إلا دعوة الخلق إلى حُسْن عبادة الخالق سبحانه .

وقد يقول قائل : ولكن الحق عز وجل عدَّل للرسول بعضاً من الأحكام .

ونقول : لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجتهد ببشريته فيما لم يُنزِل الله فيه حُكْماً ، وحين يُنزِل الله حُكْماً ، فهو صلى الله عليه وسلم ينزل على أمر الله تعالى ، ولم يكن رسول الله صلى الله عليه سلم يحكم حتى فيما اجتهد فيه عن هوى ، بل حكم بما رآه عدلاً ، وحين يُنزِل الحق سبحانه وتعالى حُكْماً مغايراً فهو يبلغ المسلمين ويُعدِّل من الحكم .

إذن : فالتعديل للحكم هو قمة الأمانة مع البلاغة عن الله سبحانه وتعالى ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم قد أقبل على الحكم في أمر لم ينزل فيه حكم من الله ، فهو قد حكم بما عنده من الرأي ، فيبلغ صلى الله عليه وسلم الحكم من الله ، والذي عدَّل له ليس مساوياً له بل هو خالقه .

ثم إن الذي أخبرنا أن الله سبحانه قد عدَّل له هو النبي صلى الله عليه وسلم ، فهل يوجد مَنْ يُضعِف مركز كلمته ، ويبلغ أن الحكم الذي صدر منه قد عُدِّل له؟ ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي استقبل الوحي تحلّى بأمانة البلاغ عن الله ، وهو الذي نقل لنا عتاب ربه له . وهذه قمة الصدق في البلاغ عن الله ، وكان اجتهاد رسول الله صلى الله عليه وسلم محصوراً في الأمور التي لم يصدر فيها حكم من الله ، وكان في ذلك أسوة حسنة لنا لنتجرأ ونجتهد .

« وقد بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل إلى اليمن فقال : كيف تصنع إن عرض لك قضاء؟ قال : أقضي بما في كتاب الله . قال : فإن لم يكن في كتاب الله؟ قال : فبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : فإن لم يكن في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : أجتهد رأيي لا آلو . قال : وضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم صدري ثم قال : الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم لما يُرضي رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

والحق سبحانه وتعالى خير الحاكمين؛ لأنه الشاهد الذي يعلم خائنة الأعين وما تُخفي الصدور ، وهو سبحانه لا تخفى عليه خافية ، ولا هوى له ، وهو الذي يصدر الحكم بمطلق عدله وبفضله ، وهو القادر على إنفاذ ما يحكم به ، ولا توجد قوة تُجير عليه ، ولا يوجد حاكم بقادر على كل هذا إلا الله سبحانه .

وشاء الحق عز وجل أن يكرّم المؤمنين الذين يحكمون بين الناس بأن جعل ذاته ضمنية بتفوق

الخيرية على الحاكمين .

وواقع الأمر أن هناك بشراً يحكمون غيرهم ، ولكن الحق سبحانه حكم بأنه خيرهم ، فمن الحاكمين مَنْ قد يُدلس عليه غيره ، ومن الممكن أن يدخل الهوى في أحكام هؤلاء الحاكمين ، لكنه سبحانه لا تَخْفى عليه خافية ، ولا يمكن أن يدخل الهوى إلى حكمه ، وأحكامه نافذة بطلاقة قدرته سبحانه؛ لذلك فهو خير الحاكمين إطلاقاً .

وإذا سمعت جمعاً يدخل الله ذاته مع خلقه فيه؛ فاعلم أن ذلك إيذان بأن تأخذ من واقع ما تشهد حقيقة مَنْ لا تشهد؛ فالحق سبحانه يقول :

{ فَتَبَارَكَ الله أَحْسَنُ الخالقين } [المؤمنون : 14] .

ويقول تعالى :

{ والله خَيْرُ الرازقين } [الجمعة : 11] .

ويقول تعالى :

{ رَبِّ لاَ تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنتَ خَيْرُ الوارثين } [الأنبياء : 89] .

ويقول تعالى :

{ أَلَيْسَ الله بِأَحْكَمِ الحاكمين } [التين : 8] .

وكلما وجدت جَمْعاً أدخل الله ذاته مع عباده ممن لهم هذا الوصف ، فهذا يَدلُّك على أن الموصوفين معه لهم تلك الصفات المذكورة ، ولكنه سبحانه وتعالى أزليٌّ مُطلْق الصفات ، وهم أحداث وأغيار تنتابهم القوة والتغيُّر والضعف .

وتجد الله سبحانه وتعالى وهو يَصِفُ نفسه بأنه :

{ أَحْسَنُ الخالقين } [المؤمنون : 14] .

وكلنا نعلم أن الله سبحانه هو خالق كل شيء من عدم ، ولكن هناك من الخلق مَنْ يخلق شيئاً من موجود؛ ولذلك فالله سبحانه وتعالى هو أحسن الخالقين .

والحق سبحانه يصف نفسه بأنه :

{ خَيْرُ الرازقين } [الجمعة : 11] .

والرزق هو ما به يُنتفع ، وقد يأتي لك وليُّ أمرك بالمأكل والمشرب والملبس ، ويعطيك ما تنتفع به ، ولكن الحق سبحانه وتعالى هو الذي خلق الرزق في الكون كله .

ويقول الحق سبحانه واصفاً نفسه :

{ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ الله والله خَيْرُ الماكرين } [آل عمران : 54] .

والإنسان حين يمكر قد يُدارِي مسألة ، ويغفل عن ركن فيها ، لكن الله تعالى لا يغفل عن شيء .

إذن : فالخيرية في الحكم لها نصيب من طلاقة قدرة الله تعالى ، ونحن عرفنا أن الرسول صلى الله

عليه وسلم حين حكم في بعض الأحكام وعدَّلها له الله سبحانه وتعالى ، لم يكن لله تعالى حكم قبل أن يحكم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومثال ذلك : « قصة زيد بن حارثة ، وكان مولى أو عبداً لخديجة بن خويلد رضي الله عنها ، ووهبته لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم علم أهله الذين كانوا يبحثون عنه أنه في مكة ، وكان قد خُطف صغيراً من بلده وبيع في مكة ، كعادة العرب في الجاهلية مع الرقيق ، فلما علموا بذلك ذهبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليستردوا ابنهم ، فقال لهم رسول الله : » والله إني لأُخَيِّره ، فإن اختاركم فخذوه ، وإن اختاري فهو لي « . فاختار زيد أن يبقى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولم يكن رسول الله بعد ذلك ليفرِّط فيه؛ فأعطاه شرف البنوَّة ، فأسماه زيد بن محمد » .

وهكذا رأى النبي صلى الله عليه وسلم في التبنِّي وسيلة تكريم ، ولكن الله عز وجل يريد أمراً غير هذا ، فقال سبحانه وتعالى :

{ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ولكن رَّسُولَ الله وَخَاتَمَ النبيين وَكَانَ الله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً } [الأحزاب : 40] .

لأن الأبوة بالتبنِّي قد تُحدث خَلْطاً في الأنساب ، فالابن بالتبني له حق الزواج من ابنة مَنْ تبنَّاه ، فكيف نمنع عنه هذا الحق ، والابن بالتبني قد تحرم عليه زوجة مَنْ تبناه إن رحل عنها أو طلقها .

لذلك شاء الحق سبحانه وتعالى أن يحفظ للأنساب حقوقها ومسئولياتها ، فقال سبحانه :

{ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ولكن رَّسُولَ الله وَخَاتَمَ النبيين } [الأحزاب : 40] .

ومهمته صلى الله عليه وسلم كرسول من الله بالنسبة لكم أفضل من الأبوة لكم .

وقال الحق سبحانه في تعديل حكم التبني :

{ ادعوهم لآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ الله } [الأحزاب : 5] ؟

وهذا رَدُّ لحكم من رسول الله بتكريم لرسول الله ، فما صنعه محمد صلى الله عليه وسلم عَدْلٌ وقسْط بعُرْف البشر ، لكن حكم الله سبحانه وتعالى هو الأقسط والأعدلَ ، فينتهي بذلك نسب زيد بن محمد ، ويعود إلى نسبه الفعلي « زيد بن حارثة » .

وحتى لا يؤثر هذا الأمر في نفس زيد ، نجد الحق سبحانه وتعالى يكرمه تكريماً لم يُكرِّمه لصحابي غيره ، فهو الصحابي الوحيد الذي ذُكِر اسمه بالشخص والعَلَم في القرآن ، فقال الحق سبحانه :

{ فَلَمَّا قضى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا } [الأحزاب : 37] .

وصار اسم « زيد » كلمة في القرآن تُتْلَى ويُجْهَر بها في الصلاة ، فإذا كان قد نفي عنه النسب إلى محمد صلى الله عليه وسلم فقد أعطاه ذِكْراً ثانياً خالداً في القرآن المحفوظ ، ومنحه بذلك شرفاً كبيراً .

وقول الحق سبحانه وتعالى :

{ واصبر حتى يَحْكُمَ الله وَهُوَ خَيْرُ الحاكمين } [يونس : 109] .

يفيد أن حكم الله تعالى أعمُّ من أن يكون حكماً في الدنيا أو الآخرة فقط ، فحكم الله سبحانه في الدنيا نَصْرٌ لدين الله ، ومَنْ مات من المؤمنين أو الكفار لهم حكم آخر .

وختم الله تعالى سورة يونس بهذا الحكم ، وأهدى الله سبحانه كل مؤمن بيونس كنبي من أنبياء الله تعالى قضية عندما ذهب مغاضباً ، قال فيه الحق سبحانه :

{ وَذَا النون إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فنادى فِي الظلمات أَن لاَّ إله إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظالمين } [الأنبياء : 87] .

وأهداه الحق سبحانه وساماً بقوله :

{ فاستجبنا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الغم } [الأنبياء : 88] .

وأشركنا الحق سبحانه وتعالى في هذا الوسام بقوله تعالى :

{ وكذلك نُنجِي المؤمنين } [الأنبياء : 88] .

وهكذا أسدى إلينا سيدنا يونس جميلاً كبيراً ، حين هداه الله إلى قوله :

{ لاَّ إله إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظالمين } [الأنبياء : 87] .

واستجاب الله تعالى لدعائه ، وأنجاه من الغَمِّ ، وهو أعنف جنود الله؛ لأن الشيء الذي يضايقك هو الذي لا تستطيع له دَفْعاً .

ولذلك يقول : إن العدو كلما لَطُفَ عَنُفَ؛ لأن العدو إن كان ضخم الحجم ، تكون الوقاية منه أسهل من العدو الصغير سريع الحركة ، فإن كان العدو ضخماً ، فالإنسان يرى ضخامته من على البُعْد ، فيجري منه الإنسان أو يختبيء ، لكن إن كان العدو ثعباناً رفيعاً مثلاً فقد لا يراه الإنسان ، وقد لا يستطيع الفرار منه ، وإنْ كان ميكروباً أو فيروساً لا يُرى بالعين المجرَّدة؛ فهو أعنفُ قدرةً وقوةً في مهاجمة الإنسان .

إذن : كل مُتْعب في الدنيا من الممكن أن تحتاط منه إلا ما يتلصَّص عليك بدقَّة ولُطْف؛ فإنَك لا تعرف مدخله .

ونحن نسمع أن فلاناً قد أصيب بمرض ما ، لأنه أخذ عدوى من فيروس ما ، هذا الإنسان لا يعرف متى اخترق الفيروس جسده ، لكنه فوجيء بأعراض المرض تظهر عليه بعد كمون الفيروس في جسده لأسبوعين ، وهكذا نجد أن العدو كلما لَطُفَ عَنُفَ .

والغمُّ من أشد وأقسى أنواع البلاء ، وكلنا نعرف قصة الإمام علي كرَّم الله وجهه وهو المشهور بالفُتْيا ، وكان الناس يستفتونه فيما يعجزون عن العثور على حل له ، واجتمع بعض من الناس وقالوا : نريد أن نجمع بعض الأشياء الصعبة ونسأله عنها لنختبره ، فلما اجتمعوا قالوا لعليٍّ كرم

الله وجهه : نريد أن نستعرض كون الله تعالى ، فقد جلسنا معاً لنعرف أقوى ما خلق الله ، واختلفنا فقال كل واحد اسم القوة على حَسْب ما يراها .

لم يتروَّ على بن أبي طالب ، ولم يَقُلْ كلاماً مَسْروداً بحيث إن وقف ، لا يطالبه أحد بزيادة ، بل حدَّد من الجملة الأولى عدد القوى حسب ترتيبها وقوتها ، حتى تطابق العدد على المعدود ، وهذا دليل على أنه مُسْتحضِرٌ للقضية استحضار الواثق . وفرد أصابع يديه وقال :

أشدّ جنود الله عشرة : الجبال الرواسي ، والحديد يقطع الجبال ، والنار تذيب الحديد ، والماء يطفيء النار ، والسحاب المسخَّر بين السماء والأرض يحمل الماء ، والريح تقطع السحاب ، وابن آدم يغلب الريح ، يستتر بالثوب أو الشيء ويمضي لحاجته ، والسُّكْر يغلب ابن آدم ، والنوم يغلب السُّكْر ، والهمُّ يغلب النوم ، فأشد جنود الله سبحانه الهَمُّ .

هكذا قال سيدنا علي بن أبي طالب ، فالهمُ والغمُّ من أشد جنود الله تعالى ، وكان سيدنا يونس عليه السلام سبباً في أن قدَّم الله سبحانه لكل مؤمن به إلى أن تقوم الساعة مَنْجىً من الهمِّ والغمِّ بالدعاء الذي ألهمه ليونس عليه السلام في قوله تعالى :

{ لاَّ إله إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظالمين * فاستجبنا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الغم وكذلك نُنجِي المؤمنين } [الأنبياء : 8788] .

وهكذا تعدَّتْ « النجاة من الغم » من الخصوصية إلى العمومية ، وقد أخذها جعفر الصادق رضي الله عنه وجعل منها « تذكرة طبية » للمؤمن حتى يستقبل أحداث الحياة كلها ، في كل جوانبها المفزعة؛ لأن الإنسان يهدده الخوف مما يعلم .

أما الهم فلا يعرف الإنسان فيه سبب الخطر ، ولا يعلم الإنسان مكر الناس به؛ لأن الإنسان لا يعلم ما بَيَّتوا له .

وشغل الإنسان بأمر الدنيا وأن يكون منعَّماً ومرفَّهاً في كل أمور الحياة ، يجعله عُرْضة للهموم .

وكان سيدنا جعفر الصادق له بصر وبصيرة بآيات القرآن ومتعلقاتها ، فقال : « عجبت لمن خالف ولم يفزع إلى قول الحق سبحانه :

{ حَسْبُنَا الله وَنِعْمَ الوكيل } [آل عمران : 173] .

ولا يُتعجب لمن يخيفه شيء إلا إذا كان عند المتعجب شيء يزيل الخوف .

فمن عنده صداع يمكنه أن يعالجه بالأسبرين ، أما الخوف فقد وصف سيدنا جعفر دواءه ، بقول الله سبحانه :

{ حَسْبُنَا الله وَنِعْمَ الوكيل } [آل عمران : 173] .

فذلك هو الدرع من كل خوف .

ويقدم جعفر الصادق لنا السبب فيقول : لأن الله سبحانه قال عقبها :

{ فانقلبوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ الله وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سواء } [آل عمران : 174] .

أي : أن سيدنا جعفراً جاء بالحيثية من نفس القرآن ، وأضاف جعفر الصادق : « وعجبت لمن اغتمَّ وهو الموضوع الذي نبحثه الآن ولم يفزع إلى قول الله سبحانه :

{ لاَّ إله إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظالمين } [الأنبياء : 87] .

فإني سمعت الله تعالى بعقبها يقول :

{ فاستجبنا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الغم وكذلك نُنجِي المؤمنين } [الأنبياء : 88] .

وعجبت لمن مُكِر به كيف لا يفزع إلى قول الله سبحانه :

{ وَأُفَوِّضُ أمري إِلَى الله إِنَّ الله بَصِيرٌ بالعباد } [غافر : 44] .

لأني سمعت الله تعالى بعقبها يقول :

{ فَوقَاهُ الله سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُواْ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سواء العذاب } [غافر : 45] .

وعجبت لمن طلب الدنيا وزينتها كيف لا يفزع إلى قول الله سبحانه :

{ مَا شَآءَ الله لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بالله } [الكهف : 39] .

لأني سمعت الله تعالى بعقبها يقول :

{ فعسى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِّنَ السمآء فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً } [الكهف : 40] .

وهكذا وجد جعفر الصادق رضي الله عنه في كتاب الله أربع آيات لأربع حالات نفسية تصيب البشر ، وجاء مع كل حالة دليلها من القرآن الكريم .

وقول الحق سبحانه وتعالى في آخر سورة يونس :

{ واتبع مَا يوحى إِلَيْكَ } [يونس : 109] .

مناسب لقوله سبحانه في الآية الأولى من السورة التي تليها :

{ الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ } [هود : 1] .

لأن الوحي كتاب أحكمت آياته حقاً وصدقاً .

الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (1)

وتبدأ الآية بحروف توقيفية مقطعة من الحروف التي تبدأ بها بعض سور القرآن الكريم ، اي : أن كل حرف من تلك الحروف يُنطَق بمفرده ، والحرف كما نعلم له اسم ، وله مسمى ، ونحن حين نكتب أو نتكلم نكتب أو ننطق بمسمى الحرف لا باسمه ولكن بعض سور القرآن الكريم تبدأ بحروف نقرأها باسم الحرف ، وما عداها يُنطق فيها بمسميات الحرف .

وإن أردنا معرفة الفارق بينهما ، فنحن نقرأ في أول سورة البقرة ونقول : « ألف . لام . ميم » رغم أنها مكتوبة : { الم } [البقرة : 1] .

إذن : فنحن ننطقها بمسميات الحروف عكس قراءتنا لقول الحق سبحانه :

{ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ } [الشرح : 1] .

ونحن ننطقها بأسماء الحروف . . لماذا؟

لأن الرسول صلى الله عليه وسلم سمعها هكذا من جبريل عليه السلام ، والقرآن أصله سماع ، وأنت لا تقرأ قرآناً إلا إذا سمعت قرآناً؛ لتعرف كيف تقرأ الحروف المقطعة بأسماء الحروف ، وتقرأ بقية الآيات بمسميات الحروف .

وكنا قديماً قبل أن نحفظ القرآن « نصحح » اللوح ، أي : أن يقرأ الفقيه أولاً ليُعلمنا كيف نقرأ قبل أن نحفظ .

والذي يُتعب الناس أنهم يريدون أن يقرأوا القرآن الكريم دون أن يجلسوا إلى فقيه أو دون أن يستمعوا إلى قارىء للقرآن .

ونقول لهم : إن القرآن ليس كتاباً عادياً نقرأه ، إن القرآن كتاب له خاصية مميزة ، فَصُور الحروف تختلف ، فمرة ننطق اسم الحرف ، ومرة نقرأ مسمى الحروف .

وقول الحق سبحانه : { الر } في أول سورة هود؛ يجعلنا نلحظ أنه من العجيب في فواتح السور التي بدأت بهذه الحروف أن القرآن مبنيٌّ على الوصل دائماً ، فأنت لا تأتي إلى آخر الآية وتقف ، لا ، بل كل القرآن وَصْل ، مثلما نقرأ قول الله سبحانه :

{ مُدْهَآمَّتَانِ * فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ } [الرحمن : 6466] .

وإن كان هناك فاصل بين كل آية وغيرها ، إلا أن الآيات كلها مبنية على الوصل .

وفي آخر سورة يونس يقول الحق سبحانه :

{ وَهُوَ خَيْرُ الحاكمين } [يونس : 109] .

فلو لم تكن موصولة لنطقت الحرف الأخير مبنياً على السكون ، ولكنك تقرأه منصوباً بالفتحة . وهي موصولة بما بعدها (بسم الله الرحمن الرحيم) .

ومن العجيب أن فواتح السور مع أنها مكونة من حروف مبنية على الوصل إلا أننا نقرأ كل حرف موقوفاً ، فلا نقول : « ألفٌ لامٌ ميمٌ » بل نقول : « ألفْ لامْ ميمْ » .

وكذلك نقرأ في أول سورة مريم « كافْ هاءْ ياءْ عينْ صادْ » ، ولا نقرأ الحروف بتشكيلها الإعرابي ، وهذا يدل على أن لها حكمة لا نعرفها .

وفي القرآن الكريم آيات بُدئت بحرف واحد مثل قول الحق سبحانه :

{ ص والقرآن ذِي الذكر } [ص : 1] .

وقول الحق سبحانه :

{ ق والقرآن المجيد } [ق : 1] .

وقول الحق سبحانه :

{ ن والقلم وَمَا يَسْطُرُونَ } [القلم : 1] .

ونلحظ أن الحرف في هذه السور ليس آية ، ولكنك تقرأ قول الحق سبحانه : { حم} [الشورى : 1] .

وهي آية ، وكذلك تقرأ قول الحق سبحانه :

{ عسق } [الشوى : 2] كآية مع أنها حروف مقطعة ، وتقرأ قول الحق سبحانه :

{كهيعص } [مريم : 1] كآية بمفردها .

وتقرأ قول الحق سبحانه : { طه } [طه : 1] كآية بمفردها .

وكذلك تقرأ قول الحق : { يس } [يس : 1] كآية بأكملها .

وتجد أيضاً : { المص } [الأعراف : 1] كآية .

و { طسم } [« الشعراء : والقصص » : 1] كآية .

وتجد أيضاً { المر } [الرعد : 1] ملتحمة بما بعدها في آية واحدة .

وتقرأ في أول سورة النمل : { طس } [النمل : 1] ملتحمة بما بعدها في آية واحدة .

إذن : فالمسألة لا نسق لها ، ومعنى ذلك أن لكل موقف وكل حرف حِكمة ، والحكمة نجدها حين نتأمل العالم المادي في الحياة ، فنفطن إلى عبر الله سبحانه وتعالى في آيات الكون المحسَّة ، ويجد الدليل على صدق الله تعلى فيما لم نعلم .

ومثال ذلك : حين ينزل الإنسان في فندق راق فهو يجد لكل غرفة مفتاحاً ، وهذا المفتاح لا يفتح إلا باب غرفة واحدة ، ولكن في كل طابق من طوابق الفندق هناك مفتاح مع المسئول عن الطابق يسمى « سيد المفاتيح » وهو يفتح كل غرف الطابق ، وقد صنعوا ذلك؛ حتى لا يفتح كل نزيل غرفة الآخر .

ومع التقدم العلمي جعلوا الآن لكل غرة بطاقة الكترونية ، ما إن يُدخلها الإنسان من فتحة معينة من باب الغرفة حتى ينفتح الباب ، وكل غرفة لها بطاقة معينة ، وأيضاً يوجد مع مسئول الطابق في الفندق بطاقة واحدة ، تفتح كل غرف الطابق .

وأنت حين تقرأ فواتح السور فافهم أن كل آية لها مفتاح ، وكل حرف في هذه الفواتح قد يشبه المفتاح ، وإن لم يكن معك المفتاح ذو الأسنان التي تفتح باب الغرفة؛ فلن تنفتح لك السورة .

إذن : فكتاب الله له مفاتيح ، ونحن نقرأ حروفاً مُقطَّعة على أنها آية ، أو نقرأها كجزء من آية .

وتقول من قبل القراءة : « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » لتخلص نفسك من الأغيار المناقضة لمنهج قائل القرآن ، ثم تضع البطاقة الخاصة مثل قول الحق سبحانه وتعالى : { الم } [البقرة : 1] .

فينفتح لك باب البقرة .

وهكذا نعرف أن هناك مفتاحاً ، وأن هناك فاتحاً وخذ فواتح السور على أنها مفاتيح ، وكل مفتاح له شكل ونحت معين ، إن نقلته لسورة أخرى فهو لا يفتحها .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى : { الر } وهي مكونة من ثلاثة حروف ، مثل { الم } ، وقد وردت في خمس سور من القرآن الكريم هي : يونس ، وهود ، ويوسف ، وإبراهيم ، والحجر .

ولكن { الم } تقرأ كآية ، ولكنها هنا من مقدمة سورة « هود » جزء من آية رغم أنك تقرأها مثلها مثل سورة يونس ، وسورة هود ، وسورة يوسف وسورة إبراهيم ، وتقرأها كآية .

وايضاً { المص } هي أربعة حروف تقرأها آية في سورة الأعراف ، وهناك أربعة حروف في أول سورة الرعد ، وتقرأها كجزء من آية في سورة الأعراف .

إذن : فليس هناك قانون لهذه الحروف التي في أوائل السور ، بل كل حرف له خصوصية لم تتكشف كل أسرارها بعد ، لهذا ذهب بعض المفسرين إلى قولهم « الله أعلم بمراده » .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى :

{ الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ } [هود : 1] .

والله سبحانه يقول مرة عن القرآن أنه : { كِتَابٌ } ومرة يقول :

{ قُرْآنٍ } [يونس : 61] .

والقرآن يُقرأ ، والكتاب يُكتب ، وشاء الحق سبحانه ذلك؛ ليدُلَّك على أن الحافظ للقرآن مكانان : صدور ، وسطور . فإن ضَلَّ الصدر ، تذكر السطر .

ولذلك « حين أراد المسلمون الأوائل جمع القرآن ، ومطابقة ما في الصدور على ما في السطور ، وضعوا أسساً لتلك العملية الدقيقة ، من أهمها ضرورة وجود شاهدين على كل آية ، ووقفوا عند آخر آيتين في سورة التوبة ، ولم يجدوا إلا شاهداً واحداً هو » خزيمة « ، وصدَّقوا » خزيمة « وكتبوا الآيتين عنه؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قد منحه وساماً ، حين قال عنه : » من شهد له خزيمة فهو حسبه « .

إذن : فإطلاق صفة الكتاب على القرآن ، سببها أنه مكتوب ، وهو قرآن؛ لأنه مقروء .

ولم تكن الكتابة في الأزمنة القديمة مسألة سهلة ، فلم يكن يُكتب إلا النفيس من الأعمال ، أو لأن القرآن كتاب؛ لأنه في الأصل مكتوب في اللوح المحفوظ .

وحين يقول الحق سبحانه وتعالى واصفاً القرآن :

{ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ } [هود : 1] .

ومادة الحاء والكاف والميم تدل على أمر مُحسٍّ وهو إتقان البناء ، بحيث يمنع عنه الفساد؛ فلا خلل فيه ، ولا تناقض ، ولا تعراض ولا انهيار .

ولا بد من توازن هندسي لكل فتحة في البناء؛ حتى لا تكون الفتحات التي في البناء متوازية على

خط واحد ، فتحدث شروخ في الجدران أو انهيار البناء كله . هذا هو إحكام البناء في عالم المحسَّات .

وشاء الحق سبحانه أن يصف القرآن ، وهو الجامع لكل المنهج بأنه :

{ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ } [هود : 1] .

فخذوا من هذا الإحكام ما يمنع فسادكم؛ لأن القرآن جاء على هيئة تمنع الفساد فيه ، وعقد منع الفساد يكون الإصلاح والصلاح .

ولو نظرتَ إلى أن القرآن الكريم في اللوح المحفوظ ستجده قد نزل جملة واحدة ، من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ، وجاء الوحي بعد ذلك حسب الأحداث التي تتطلب الأحكام ، وقد نثر الحق سبحانه في القرآن أحكاماً وفصولاً ونجوماً .

إذن : فالقرآن قد أحكِم أولاً ، ثم فُصِّل .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

{ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ } [هود : 1] .

والفواصل الكبيرة في القرآن هي السور ، والفواصل الصغيرة هي الآيات ، وأراد المسلمون أن يشجعوا حفظ القرآن ، فقسموه إلى ثلاثن جزءاً ، وكل جزء قسموه إلى حزبين ، وكل حزب قسموه إلى أربعة أرباع ، لكن التفصيل الذي جاء لنا من القرآن أنه سور ، وكل سورة هي مجموعة من الآيات .

وقد يكون المعنى أن القرآن قد أحْكِمَ وفُصِّل؛ لأنه نزل منهجاً جامعاً من الله سبحانه وتعالى . وحين تنظر إليه تجده مُنَّوعاً ، فمرة يتكلم في العقيدة وقمتها ، ومرة يتكلم في النبوة وموكبها الرسالي ، والمعجزات ، ومرة يتكلم في الأحكام ، ومرة يتكلم في القصص ، والأخلاقيات ، والكونيات . ومرة يتكلم في علم الفرائض .

إذن : فهو مفصل في اللفظ أو في المعنى ، وهو يتناول معاني كثيرة ، وكل معنى تتطلبه العقيدة ، قمة في الشهادة بأن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ويتناول الجزئيات حتى أدق التفاصيل . أو أحكم نزولاً؛ لأنه قد نزول مرة واحدة إلى السماء الدنيا ، ثم فُصِّل حسب الحَوادث ، وهذا أدْعَى إلى أن تتعلق النفس بكل نجم من نجوم القرآن حين ينزل وقت طلبه .

وأنت حين تُعِد لنفسك صيدلية صغيرة في البيت ، قد تأتي فيها بكل الأدوية ، لكن إن أصابك صداع ، فقد تفتش عن أقراص « الأسبرين » فلا تجدها . أما إذا أرسلت إلى الصيدلية الكبيرة ، فسوف تجد « الأسبرين » حين تحتاجه .

وكذلك حين تكون ظمآن ، قد تفتح ثلاجة بيتك فلا تجد زجاجة الماء رغم أنها أمامك ، وذلك بسبب لهفة العطش .

إذن : فنزول القرآن منجماً شاءه الحق سبحانه لتنتعش النفس الإنسانية وهي تعشق استقبال القرآن .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

{ وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى الناس على مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً } [الإسراء : 106] .

وقد جاء في القرآن على لسان الكافرين :

{ لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ القرآن جُمْلَةً وَاحِدَةً } [الفرقان : 32] .

فيكون الرد من الحق سبحانه :

{ كَذَلِكَ لِنُثَبّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً } [الفرقان : 32] .

ولو كان القرآن قد نزل مرة واحدة على رسول الله صلى الله عليه وسلم لما التفت الناس إلى كل ما جاء فيه ، ولكن شاء الحق سبحانه وتعالى أن ينزل القرآن مُنجَّماً على الرسول صلى الله عليه وسلم ، ليكون في كل نجم تثبيت لرسول الله صلى الله عليه وسلم في المواقف المختلفة ، والرسول صلى الله عليه وسلم وكذلك أمته من بعده في حاجة إلى تثبيتات متعددة حسب الأحداث التي تعترضهم ، ولذلك قال الحق سبحانه :

{ كَذَلِكَ لِنُثَبّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً } [الفرقان : 32] .

فساعة أن يسمع المؤمنون نجماً من نجوم القرآن ، يكونون أقدر على استيعابه وحفظه وتطبيق الأحكام التي جاءت فيه .

ولم يُنزل الحق سبحانه آية واحدة ، بل أنزل آياتٍ ، بدليل أنهم إن جاءوا بحكم ما ، فهو سبحانه وتعالى ينزل الحق في هذا الحكم وأكثر تفصيلاً؛ ولذلك يقول سبحانه :

{ وَلاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بالحق وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً } [الفرقان : 33] .

ولو نزل القرآن جملة واحدة ، فكيف يعالج أسئلتهم التي جاءت في القرآن : { يَسْأَلُونَكَ عَنِ } .

ويضرب الله مثلاً بالبعوضة ، فيتساءلون ساخرين : كيف يضرب الله مثلاً بالبعوضة .

فينزل قول الحق سبحانه :

{ إِنَّ الله لاَ يَسْتَحْى أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا } [البقرة : 26] .

ولو كانوا عقلاء لتساءلوا : كيف ركَّب الحق سبحانه في هذا الكائن الضئيل البعوضة كل أجزاء الكائن الحي؛ من محلِّ الغذاء إلى قدرة الهضم ، إلى محل التنفس ، إلى محل الدم ، إلى محل الأعصاب .

وكان يجب أن يأخذوا من هذا الخلق دلائل العظمة؛ لأن عظمة الصنعة تكون في أمرين : إما ضخامة الشيء المصنوع ، وإما أن يكون الشيء المصنوع تحت إدراك الحس .

ومثال ذلك ولله المثل الأعلى أن الفنيين حين صنعوا ساعة « بج بن » التفت الناس إلى ضخامة تلك الساعة ، ودقة أدائها ، وحين صنع الفنيون في « سويسرا » ساعة دقيقة وصغيرة جداً في حجمها ، زاد إعجاب الناس بدقة الصنعة .

وهكذا نجد أن القدرة تتجلى في صناعة الشيء الكبير في الحجم ، أو صناعة الشيء الدقيق جداً؛ فما بالنا بخالق الكون كله ، بأكبر ما فيه وأصغر ما فيه .

والحق سبحانه وتعالى يضرب المثل بالذبابة فيقول :

{ إِنَّ الذين تَدْعُونَ مِن دُونِ الله لَن يَخْلُقُواْ ذُبَاباً وَلَوِ اجتمعوا لَهُ } [الحج : 73] .

فول اجتمع الخلق المشركون أو المتجبرون وسألوا أصنامهم أن يخلقوا لهم ذبابة ، أو حتى لو حاولوا هم خَلْق ذبابة لما استطاعوا ، ولا يقتصر الأمر على ذلك العجز فقط ، بل يتعداه إلى عجز آخر :

{ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذباب شَيْئاً لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطالب والمطلوب } [الحج : 73] .

فإن جاءت ذبابة على أي طعام ، وأخذت بعضاً من الطعام ، فهل يستطيع أحد أن يستخلص من الذبابة ما أخذته؟

لا ، كذلك نرى ضعف الاثنين : الطالب والمطلوب .

وهنا يقول الحق سبحانه :

{ الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ } [هود : 1] .

فالإحكام لا يتناقض مع التفصيل؛ لأن الحق سبحانه هو الذي أحكم ، وهو سبحانه الذي فصَّل ، وهو سبحانه حكيم بما يناسب الإحكام ، وهو سبحانه خبير بما يناسب التفصيل ، بطلاقة غير متناهية .

وهو سبحانه حكيم يخلق الشيء مُحْكماً لا يتطرق إليه فساد ، وهو سبحانه خبير عنده علم بخفايا الأمور .

ويقول الحق سبحانه وتعالى في آية أخرى :

{ لاَّ تُدْرِكُهُ الأبصار وَهُوَ يُدْرِكُ الأبصار وَهُوَ اللطيف الخبير } [الأنعام : 103] .

فالله سبحانه لا تدركه عين ، وعينه سبحانه وتعالى لا تغفل عن أدق شيء وأخفى نية .

إذن : فقول الحق سبحانه وتعالى :

{ الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ } [هود : 1] .

يبيّن لنا أن القرآن كلام الله القدير الذي بُني على الإحكام ، ونزل مُحْكماً جملة واحدة ، ثم جاءت الأحداث المناسبة لينزل من السماء الدنيا نجوماً مفصلة تناسب كل حدث .

وأحكام الكتاب ثم تفصيله له غاية ، هي الغاية من المنهج كله ، ويبيّنها الحق سبحانه في الآية التالية : { أَلاَّ تعبدوا إِلاَّ الله }

أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (2)

إذن : فقد أحكمت آيات الكتاب وفصّلت لغاية هي : ألا نعبد إلا الله .

والعبادة هي طاعة العابد للمعبود فيما أمر ، وفيما نهى .

وهكذا نجد أن العبادة تقتضي وجود معبود له أمر وله نهي ، والمعبود الذي لا أمر له ولا نهي لا يستحق العبادة ، فهل مَنْ عَبَدَ الصنم تلقَّى من أمراً أو نهياً؟

وهل مَنْ عَبَدَ الشمس تلقَّى منها أمراً أو نهياً؟

إذن : فكلمة العبادة لكل ما هو غير الله هي عبادة باطلة؛ لأن مثل تلك المعبودات لا أمر لها ولا نهي ، وفوق ذلك لا جزاء عندها على العمل الموافق لها أو المخالف لها .

والعبادة بدون منهج « افعل » و « لا تفعل » لا وجود لها ، وعبادة لا جزاء عليها ليست عبادة .

وهنا يجب أن نلحظ أن قول الحق سبحانه :

{ أَلاَّ تعبدوا إِلاَّ الله } [هود : 2] .

غير قوله سبحانه :

{ اعبدوا الله } [المائدة : 72] .

ولو أن الرسل تأتي الناس وهم غير ملتفتين إلى قوة يعبدونها ويقدسونها لكان على الرسل أن يقولوا للناس : { اعبدوا الله } [الأعراف : 59] .

ولكن هنا يقول الحق سبحانه : { أَلاَّ تعبدوا إِلاَّ الله } [هود : 2] .

فكأنه سبحانه يواجه قوماً لهم عبادة متوجهة إلى غير من يستحق العبادة؛ فيريد سبحانه أولاً أن يُنهي هذه المسألة ، ثم يثبت العبادة لله .

إذن : فهنا نفي وإثبات ، مثل قولنا : « أشهد ألا إله إلا الله » ، هنا ننفي أولاً أن هناك إلهاً غير الله ، ونثبت الألوهية لله سبحانه .

وأنت لا تشهد هذه الشهادة إلا إذا وُجد قوم يشهدون أن هناك إلهاً غير الله تعالى ، ولو كانوا يشهدون بألوهية الإله الواحد الأحد سبحانه؛ لكان الذهن خالياً من ضرورة أن نقول هذه الشهادة .

ولكن قول الحق سبحانه { أَلاَّ تعبدوا إِلاَّ الله } [هود : 2] .

معناه النفي أولاً للباطل ، وإذا نُفِي الباطل لا بد أن يأتي إثبات الحق ، حتى يكون كل شيء قائماً على أساس سليم .

ولذلك يقال : « درء المفسدة مقدَّم دائماً على جلب المنفعة » فالبداية ألا تعبد الأصنام ، ثم وجِّه العبادة إلى الله سبحانه .

وما دامت العبادة هي طاعة الأمر ، وطاعة النهي ، فهي إذن تشمل كل ما ورد فيه أمر ، وكل ما ورد فيه نهي .

وإنْ نظرت إلى الأوامر والنواهي لوجدتها تستوعب كل أقضية الحياة من قمة الشهادة بأن لا إله إلا الله ، إلى إماطة الأذى عن الطريق .

وكل حركة تتطلبها الحياة لإبقاء الصالح على صلاحه أو زيادة الصالح ليكون أصلح ، فهذه عبادة .

إذن : فالإسلام لا يعرف ما يقال عنه « أعمال دنيئة » ، و « أعمال شريفة » ولكنه يعرف أن هناك عاملاً دنيئاً وعاملاً شريفاً .

وكل عامل يعمل عملاً تتطلبه الحياة بقاء للصالح أو ترقية لصلاحه وعدم الإفساد ، فهذا عامل شريف؛ وقيمة كل امرىء فيما يحسنه .

وهكذا نجد أن كلمة العبادة تستوعب كل أقضية الحياة؛ لأن هناك أمراً بما يجب أن يكون ، وهناك نهياً عما يجب ألا يكون ، وما لم يرد فيه نهي لك الخيار في أن تفعله أو لا تفعله ، فإذا نظرت إلى نسبة ما تؤمر به ، ونظرت ألى ما تُنهى عنه بالنسبة لأعمال الحياة ، لوجدت أنها نسبة لا تتجاوز خمسة في المائة من كل أعمال الحياة ، ولكنها الأساس الذي تقوم عليه كل أوجه الحياة .

ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بُني الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وحج البيت وصوم رمضان » .

وأعداء الإسلام يحاولون أن يحددوا الدين في هذه الأركان الخمسة ، ولكن هذه الأركان هي الأعمدة التي تقوم عليها عمارة الإسلام .

وأركان الإسلام هي إعلان استدامة الولاء لله تعالى ، وكل أمر من أمور الحياة هو مطلوب للدين؛ لأنه يصلح الحياة .

وهكذا نجد أن العلم بالدين ضرورة لكل إنسان على الأرض ، أما العلوم ا لأخرى فهي مطلوبة لمن يتخصص فيها ويرتقي بها ليفيد الناس كلهم ، وكلما كان المتفوق من المسلمين كان ذلك تدعيماً لرفعة الإسلام .

إذن فالقاسم المشترك في الحياة هو العلم بالدين ، ولكن يجب أن نفهم هذه القضية على قدرها ، فلا يأتي إنسان لا يعرف صحيح الدين ليتكلم والعَوْل ، والرد؛ لأن المسلم قد تمر حياته كلها ولا يحتاج رأياً في قضية التوريث ، أو أن يتعرف على المستحقين للميراث وأنصبتهم ، وغير ذلك .

وإن تعرَّض المسلم لقضية مثل هذه ، نقول له : أنت إذا تعرضت لقضية مثل هذه فاذهب إلى المختصين بهذا العلم ، وهم أهل الفقه والفتوى ، لأنك حين تتعرض لقضية صحية تذهب إلى

الطبيب ، وحين تتعرض إلى قضية هندسية تذهب إلى المهندس ، وإن تعرضت لعملية محاسبية تذهب إلى المحاسب ، فإن تعرضت إى أي أمر ديني ، فأنت تسأل عنه أهل الذكر .

وأنت إذا نظرت إلى العبادة ، تجد أنها تتطلب كل حركة في الحياة ، وسبق أن ضربت لذلك مثلاً وقلت : هَبْ أن إنساناً يصلي ، ولا يفعل شيئاً في الحياة غير الصلاة ، فمن أين له أن يشتري ثوباً يستر به عورته ما دام لا يعمل عملاً أخر غير الصلاة ، وهو إن أراد أن يشتري ثوباً ، فلا بد له من عمل يأخذ مقابله أجراً ، ويشتري الثوب من تاجر التجزئة ، الذي اشترى الأثواب من تاجر الجملة ، وتاجر الجملة اشتراها من المصنع ، في الدين؛ لأن العلم بالدين يقتضي اللجوء إلى أهل الذكر .

فإن قيل : الدين للجميع ، نقول : صدقت بمعنى التدين للجميع ، أما العلم بالدين فله الدراسة المتفقهة .

وأهل الذكر أيضاً في العلوم الأخرى يقضون السنوات لتنمية دراساتهم ، كما في الطب أو الهندسة أو غيرهما ، وكذلك الأعمال المهنية تأخذ من الذي يتخصص فيها وقتاً وتتطلب جهداً ، فما بالنا بالذي يُصلح أسس إقامة الناس في الحياة ، وهو التفقه في الدين .

لذلك يقول الحق سبحانه :

{ فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدين وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رجعوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ } [التوبة : 122] .

فنحن لا نطلب من كل مسلم مثلاً أن يدرس المواريث ليعرف العَصبة وأصحاب الفروض ، وأولي الأرحام ، والمصنع قام بتفصيل الثياب بعد أن نسجها مصنع آخر ، والمصنع الآخر نسج الثياب من غزل القطن أو الصوف . والقطن جاء من الزراعة ، والصوف جاء من جز شعر الأغنام .

وهكذا تجد أن مجرد الوقوف أمام خالقك لتصلي يقتضي أن تكون مستور العورة في صلاتك ، هذا الستر يتطلب منك أن تتفاعل مع الحياة بالعمل .

وانظر لنفسك واسألها : ما أفطرتَ اليوم؟

وأقلُّ إجابة هي : أفطرت برغيف وقليل من الملح ، وستجد أنك اشتريت الرغيف من البقال ، وجاء البقال بالرغيف من المخبز ، والمخبز جاء بالدقيق من المطحن ، والمطحن أنتج الدقيق بعد طحن الغلال التي جاءت من الحقل . وكذلك تمت صناعة ألات الطحن في مصانع أخرى قد تكون أجنبية .

وهكذا تمت صناعة الرغيف بسلسلة هائلة من العمليات ، فهناك الفلاح الذي حرث ، وهناك مصمم آلة الطحن الذي درس الهندسة ، وهناك عالم « الجيولوجيا » الذي درس طبقات الأرض ليستخرج الحديد الخام من باطنها ، وهناك مصنع الحديد الذي صهر الحديد الخام؛ ليستخلص

منه الحديد النقي الصالح للتصنيع .
وهكذا تجد أن كل حركة في الحياة قد خدمت قضية دينك ، وخدمت وقوفك أمام خالقك لتصلي ، فلا تقل : « سأنقطع للعبادة » بمعنى أن تقصر حياتك على الصلاة فقط ، لأن كل حركة تصلح في الحياة هي عبادة ، وإن أردت ألا تعمل في الحياة ، فلا تنتفع بحركة عامل في الحياة . وإذا لم تنتفع بحركة أي عامل في الحياة ، فلن تقدر أن تصلي ، ولن تقدر أن يكون لك قوة لتصلي .
إذن فالعبادة هي كل حركة تتطلبها الحياة في ضوء « افعل » و « لا تفعل » .
وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى :
{ أَلاَّ تعبدوا إِلاَّ الله إِنَّنِي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ } [هود : 2] .
والنذير : هو من يُخبر بشرٍّ زمنه لم يجيء ، لتكون هناك فرصة لتلافي العمل الذي يُوقع في الشر ، والبشير هو من يبشِّر بخير سيأتي إن سلك الإنسان الطريق إلى ذلك الخير .
إذن : الإنذار والبشارة هي أخبار تتعلق بأمر لم يجيء .
وفي الإنذار تخويف ونوع من التعليم ، وأنت حين تريد أن تجعل ابنك مُجِداً في دراسته؛ تقول له : إن لم تذاكر فسوف تكون كابن فلان الذي أصبح صعلوكاً تافهاً في الحياة .

إذن : فأنت تنذر ابنك؛ ليتلافى من الآن العمل الذي يؤدي به إلى الفشل الدراسي .
وكذلك يبشر الإنسان ابنه أو أي إنسان آخر بالخير الذي ينتظره حين يسلك الطريق القويم .
إذن : فالعبادة هي كل حركة من حركات الحياة ما دام الإنسان مُتَّبعاً ما جاء بالمنهج الحق في ضوء « افعل » و « لا تفعل » ، وما لم يرد فيه « افعل » و « لا تفعل » فهو مباح .
وعلى الإنسان المسلم أن يُبصِّر نفسه ، ومن حوله بأن تنفيذ أي فعل في ضوء « افعل » هو العمل المباح ، وأن يمتنع عن أي فعل في ضوء « لا تفعل » ما دام الحق سبحانه وتعالى قد نهى عن مثل هذا الفعل ، وعلى المسلم تحرِّي الدقة في مدلول كل سلوك .
ونحن نعلم أن التكليفات الإيمانية قد تكون شاقة على النفس ، ومن اللازم أن نبيِّن للإنسان أن المشقة على النفس ستأتي له بخير كبير .
ومثال ذلك : حين نجد الفلاح وهو يحمل السماد العضوي من حظيرة البهائم؛ ليضعه على ظهر الحمار ويذهب به إلى الحقل؛ ليخلطه بالتربة ، وهو يعمل هذا العمل بما فيه من مشقة انتظاراً ليوم الحصاد .
ويبيِّن الحق سبحانه وتعالى هنا على لسان رسوله أن الأمر بعدم عبادة أي كائن غير الله ، هو أمر من الله سبحانه ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم هو نذير وبشير من الله .
وقول الحق سبحانه وتعالى :

{ أَلاَّ تعبدوا إِلاَّ الله } [هود : 2] .

فيه نفي لعبادة غير الله ، وإثبات لعبودية الله تعالى .

وهذا يتوافق ويتسق مع الإنذار والبشارة؛ لأن عبادة غير الله تقتضي نذيراً ، وعبادة الله في الإسلام تقتضي بشيراً .

ولأن الحق سبحانه وتعالى هو خالق الإنسان ويعلم ضعف الإنسان ، ومعنى هذا الضعف أنه قد يستولي عليه النفع العاجل ، فيُذهبه عن خير آجلٍ أطول منه ، فيقع في بعض من غفلات النفس .

لذلك بيَّن الحق سبحانه أن من وقع في بعض غفلات النفس عليه أن يستغفر الله؛ لأن الله سبحانه وتعالى لا يبخل برحمته على أحدٍ من خلقه .

وإن طلب العبد المذنب مغفرة الله ، فسبحانه قد شرع التوبة ، وهي الرجوع عن المعصية إلى طاعة الله تعالى .

ولا يقع عبد في معصية إلا لأنه تأبَّى على منهج ربه ، فإذا ما تاب واستغفر ، فهو يعود إلى منهج الله سبحانه ، ويعمل على ألا يقع في ذنب جديد .

وهنا يقول الحق سبحانه : { وَأَنِ استغفروا رَبَّكُمْ ثُمَّ توبوا إِلَيْهِ }

وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ (3)

وهكذا يبيّن الحق سبحانه أن على العبد أن يستغفر من ذنوبه السابقة التي وقع فيها ، وأن يتوب من الآن ، وأن يرجع إلى منهج الله تعالى ، لينال الفضل من الحق سبحانه .

المطلوب إذن من العبد أن يستغفر الله تعالى ، وأن يتوب إليه .

هذا هو مطلوب الله من العاصي؛ لأن درء المفسدة مقدَّم على جلب المصلحة ، وحين يعجل العبد بالتوبة إلى الله تعالى فهو يعلم أن ذنباً قد وقع وتحقق منه ، وعليه ألا يؤجل التوبة إلى زمنٍ قادم؛ لأنه لا يعلم إن كان سيبقى حياً أم لا .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

{ وَأَنِ استغفروا رَبَّكُمْ ثُمَّ توبوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَّتَاعاً حَسَناً إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى } [هود : 3] .

والحق سبحانه يُجمل قضية اتباع منهجه في قوله تعالى :

{ فَمَنِ اتبع هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يشقى } [طه : 123] .

وقال في موضع آخر :

{ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أنثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً } [النحل : 97] .

فالحياة الطيبة في الدنيا وعدم الضلال والشقاء متحققان لمن اتبع منهج الله تعالى .

وظن بعض العلماء أن هذا القول يناقض في ظاهره قول النبي صلى الله عليه وسلم بأن « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر » و « إن أشد الناس بلاءً الأنبياء ، ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل » .

وقال بعض العلماء : فكيف تقول : { يُمَتِّعْكُمْ مَّتَاعاً حَسَناً } [هود : 3] .

هنا نقول : ما معنى المتاع؟

المتاع : هو ما تستمتع به وتستقبله بسرور وانبساط .

ويعلم المؤمن أن كل مصيبة في الدنيا إنما يجزيه الله عليها حسن الجزاء ، ويستقبل هذا المؤمن قضاء الله تعالى بنفس راضية؛ لأن ما يصيبه قد كتبه الله عليه ، وسوف يوافيه بما هو خير منه .

وهناك بعض من المؤمنين قد يطلبون زيادة الابتلاء .

إذن : فالمؤمن كل أمره خير؛ وإياك أن تنظر إلى من أصابته الحياة بأية مصيبة على أنه مصاب حقاً؛ لأن المصاب حقاً هو من حُرِم من الثواب .

ونحن نجد في القرآن قصة العبد الصالح الذي قتل غلاماً كان أبواه مؤمنين ، فخشي العبد الصالح أن يرهقهما طغياناً وكفراً ، فهذا الولد كان فتنة ، ولعله كان سيدفع أبويه إلى كل محرم ، ويأتي لهما بالشقاء .

إذن : فالمؤمن الحق هو الذي يستحضر ثواب المصيبة لحظة وقوعها .

ومنَّا من قرأ قصة المؤمن الصالح الذي سار في الطريق من المدينة إلى دمشق ، فأصيبت رِجْله بجرح وتلوث هذا الجرح ، وامتلأ بالصديد مما يقال عنه في الاصطلاح الحديث « غرغرينة » وقرر الأطباء أن تُقطع رجله ، وحاولوا أن يعطوه « مُرَقِّداً » أي : مادة تُخدِّره ، وتغيب به عن الوعي؛ ليتحمل ألم بتر الساق ، فرفض العبد الصالح وقال :

إني لا أحب أن أغفل عن ربي طرفة عين .

ومثل هذا العبد يعطيه الله سبحانه وتعالى طاقة على تحمُّل الألم ، لأنه يستحضر دائماً وجوده في معية الله ، ومفاضٌ عليه من قدرة الله وقوته سبحانه .

وحينما قطع الأطباء رجله ، وأرادوا أن يكفنوها وأن يدفنوها ، فطلب أن يراها قبل أن يفعلوا ذلك ، وأمسكها ليقول : اللهم إن كنت قد ابتليت في عضو ، فإني قد عوفيت في أعضاء .

إذن : فصاحب المصيبة حين يستحضر الجزاء عليها ، إنما يحيا في متعة ، ولذلك لا تتعجب حين يحمد أناس خالقهم على المصائب؛ لأن الحمد يكون على النعمة ، والمصيبة قد تأتي للإنسان بنعمة أوسع مما أفقدته .

ولذلك نجد اثنين من العارفين بالله وقد أراد أن يتعالم كل منهما على الآخر؛ فقال واحد منهما : كيف حالكم في بلادكم أيها الفقراء؟

والمقصود بالفقراء هم العُبَّاد الزاهدون ويعطون أغلب الوقت لعبادة الله تعالى فقال العبد الثاني : حالنا في بلادنا إنْ أعطينا شكرنا ، وإنْ حُرمنا صبرنا .

فضحك العبد الأول وقال :

هذا حال الكلاب في « بلخ : أي : أن الكلب إن أعطيته يهز ذيله ، وإن منعه أحد فهو يصبر .

وسأل العبد الثاني العبد الأول :

وكيف حالكم أنتم؟

فقال : نحن إن أعطينا آثرنا ، وإن حُرِمنا شركنا .

إذن : فكل مؤمن يعيش في منهج الله سبحانه وتعالى فهو يستحضر في كل أمر مؤلم وفي كل أمر متعب ، أن له جزاءً على ما ناله من التعب؛ ثواباً عظيماً خالداً من الله سبحانه وتعالى .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

{ يُمَتِّعْكُمْ مَّتَاعاً حَسَناً } [هود : 3] .

والحسن هنا له مقاييس ، يُقاس بها اعتبار الغاية؛ فحين تضم الغاية إلى الفعل تعرف معنى الحسن .

ومثال ذلك : هو التلميذ الذي لا يترك كتبه ، بل حين ياتي وقت الطعام ، فهو يأكل وعيناه لا تفارقان الكتاب .

هذا التلميذ يستحضر متعة النجاح وحُسْنه ونعيم التفوق ، وهو تلميذ يشعر بالغاية وقت أداء الفعل .

ويقول الحق سبحانه في نفس الآية :

{ وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ } [هود : 3] .

أي : يؤتى كل ذي فضل مجزول لمن لا فضل له ، فكأن الحق سبحانه يمنِّي الفضل للعبد .

ومثال ذلك : الفلاح الذي يأخذ من مخزن غلاله إردباً من القمح ليبذره في الأرض؛ ليزيده الله سبحانه وتعالى بزراعة هذا الإردب ، ويصبح الناتج خمسة عشر إردباً .

والفضل هو الأجر الزائد عن مساويه ، فمثلاً هناك فضل المال قد يكون عندك ، أي : زائد عن حاجتك ، وغيرك لا يملك مالاً يكفيه ، فإن تفضلت ببعض من الزائد عندك ، وأعطيته لمن لا مال عنده فأنت تستثمر هذا العطاء عند الله سبحانه وتعالى .

والحق سبحانه وتعالى قد يعطيك قوة ، فتعطى ما يزيد منها لعبد ضعيف .

وقد يكون الحق سبحانه قد أسبغ عليك فضلاً من الحلم ، فتعطى منه لمن أصابه السفه وضيق الخلق .

إذن : فكل ما يوجد عند الإنسان من خصلة طيبة ليست عند غيره من الناس ، ويفيضها عليهم ، فهي تزيد عنده لأنها تربو عند الله ، وإن لم يُفِضْها على الغير فهي تنقص .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

{ وَمَآ آتَيْتُمْ مِّن رِّباً لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ الناس فَلاَ يَرْبُو عِندَ الله وَمَآ آتَيْتُمْ مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ الله فأولئك هُمُ المضعفون } [الروم : 39] .

ويقول الحق سبحانه وتعالى في الآية التي نحن بصدد خوطرنا عنها :

{ وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ } [هود : 3] .

وبعض من أهل المعرفة يفهم هذا القول الكريم بأن الإنسان الذي يفيض على غيره مما آتاه الله ، يعطيه الحق سبحانه بالزيادة ما يعوضه عن الذي نقص ، أو أنه سبحانه وتعالى يعطي كل صاحب فضلٍ فضل ربه ، وفضل الله تعالى فوق كل فضل .

ثم يقول الحق سبحانه :

{ وَإِن تَوَلَّوْاْ فإني أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ } [هود : 3] .

فإن أعرضوا عنك فأبلغهم أنك تخاف عليهم من عذاب اليوم الآخر ، ويُوصف العذاب مرة بأنه كبير ، ويوصف مرة بأنه عظيم ، ويوصف مرة بأنه مهين؛ لأنه عذاب لا ينتهي ويتنوع حسب ما يناسب المعذب ، فضلاً عن أن العذاب الذي يوجد في دنيا الأغيار هو عذاب يجري في ظل المظنة بأنه سينقضي ، أما عذاب اليوم الآخر فهو لا ينقضي بالنسبة للمشركين بالله أبداً .

ويقول الحق من بعد ذلك : { إِلَى الله مَرْجِعُكُمْ }

إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (4)

أي : إلى الله مرجعكم في الإيجاد والإمداد ، والبداية والنهاية ، وبداية النهاية التي لا انتهاء معها وهي الآخرة ، فيثيب المحسن على إحسانه ، ويعاقب المسيء على إساءته ، فيؤتي سبحانه لكل ذي عمل صالح في الدنيا أجره ، وثوابه في الآخرة .

ومن كثرت حسناته على سيئاته دخل الجنة ، ومن زادت سيئاته على حسناته دخل النار .

وفي الدنيا من زادت حسناته على سيئاته وعاش بين القبض والبسط .

والقبض والبسط هو إقبال على الله بتوبة وباعتراف بالذنب ، والإقرار بالذنب هو بداية التوبة .

ومن كثرت سيئاته على حسناته كان في ضنك العيش وقلق النفس .

ويؤتي الحق سبحانه كل ذي فضل فضله ، فمن عمل لله عز وجل؛ وفقه الله فيما يستقبل على طاعته ، والذين أعرضوا يُخاف عليهم من عذاب يوم كبير .

{ وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [هود : 4] .

لأنه سبحانه القادر على الإيجاد وعلى الإمداد ، وعلى البداية والنهاية المحدودة ، وبداية الخلود إما إلى جنة وإما إلى نار ، فهو القادر على كل شيء .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك : { أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ }

أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (5)

وإذا وجد « ألا » في أول الكلام فأنت تعلم أنها للتنبيه ، ومعنى التنبيه أنه أمر يوقظ لك السامع إن كان غافلاً؛ لأنك تحب ألا تفوته كلمة من الكلام الذي تقوله .

وحين تنبهه بغير أداء الأسلوب الذي تريده منه ، هنا يكون التنبيه قد أخذ حقه ، ومن بعد ذلك يجيء الكلام الذي تقوله ، وقد تهيَّأ ذهن السامع لاستقبال ما تقول .

ف « ألا » إذن هي أداة تنبيه؛ لأن الكلام ستار بين المتكلم والمخاطب ، والمخاطب لا يعرف الموضوع الذي ستكلمه فيه ، والمتكلم هو الذي يملك زمام الموقف ، وهو يهيء ذهنه لترتيب ما يقول من كلمات ، أما المستمع فسوف يفاجأ بالموضوع؛ وحتى لا يفاجأ ولا تضيع منه الفرصة ليلتقط كلمات المتكلم من أولها ، فهو ينبه بأداة تنبيه ليستمع .

ويقول الحق سبحانه هنا :

{ أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ } [هود : 5] .

ويقال : ثنيت الشيء أي : طويته ، وجعلته جزئين متصلين فوق بعضهما البعض .

وحين يثني الإنسان صدره ، فهو يثنيه إلى الأمام ناحية بطنه ، ويداري بذلك وجهه ، والغرض هنا من مداراة الوجه هو إخفاء الملامح؛ لأن انفعال مواجيد النفس البشرية ينضح على الوجوه؟ وهم كارهون للرسول صلى الله عليه وسلم ، وحاقدون عليه؛ ولا يريدون أن يلحظ الرسول صلى الله عليه وسلم ما على ملامحهم من انفعالات تفضح مواجيدهم الكارهة .

ومثل ذلك جاء من قوم نوح عليه السلام ، حين قال الحق سبحانه على لسان نوح :

{ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جعلوا أَصَابِعَهُمْ في آذَانِهِمْ واستغشوا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ واستكبروا استكبارا } [نوح : 7] .

ومن البداهة أن نعرف أن الإصبع لا تدخل كلها إلى الأذن ، إنما الأنملة تسد فقط فتحة السمع ، وعدَّل القرآن الكريم ذلك بمبالغة تكشف موقف نوح عليه السلام ، فكل منهم أراد أن يُدخِل إصبعه في أذنه حتى لا يسمع أي دعوة ، وهذا دليل كراهية ، وهذه شهادة ضدهم؛ لأنهم يفهمون أنهم لو سمعوا فقد تميل قلوبهم لما يقال .

ولذلك نجد أن القرآن الكريم وهو ينقل لنا ما قاله مشركو مكة لبعضهم البعض :

{ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لاَ تَسْمَعُواْ لهذا القرآن والغوا فِيهِ } [فصلت : 26] .

فكأنهم تواصوا بالتشويش على القرآن ، ثقة منهم في أن القرآن لو تناهى إلى الأذن فقد يؤثر في نفسية السامع؛ لأن النفس البشرية أغيار ، و قد تأتي للنفس ما يجعلها تميل دون أن يشعر صاحبها .

ولو كان هذا القرآن باطلاً ، فلماذا خافوا من سماعه؟

ولكنه الغباء في العناد والكفر .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى :

{ أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ } [هود : 5] .

وهم قد استغشوا ثيابهم ليغطوا وجوههم؛ مداراة للانفعالات التي تحملها هذه الوجوه ، وهي انفعالات كراهية ، أو أنها قد تكون انفعالات أخرى ، فساعة يسمع واحد منهم القرآن قد ينفعل لما يسمع ، ولا يريد أن يُظهر الانفعال .

إذن : فالانفعال قد يكون قسرياً ، وكان كفار قريش رغم كيدهم وحربهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، يتسللون ناحية بيت النبي صلى الله عليه وسلم ليسمعوا القرآن ، وكانوا يضبطون بعضهم البعض هنالك ، ويدّعي كل منهم أنه إنما مرَّ على بيت النبي صلى لله عليه وسلم مصادفة .

وفي ذلك يقول الشاعر :

اذكُروهُمْ وقد تسلَّل كلُّ ... بعدَ ما انفضَّ مجلسُ السُّمَّارِ

اختلاساً يسْعَى لحجرةِ طَهَ ... لسَماعِ التنزيلِ في الأسْحَارِ

عُذْرهم حُسْنُهُ فلمّا تَراءَوْا ... عَلَّلوها ببَارزِ الأعْذَارِ

وجاء الحق سبحانه وتعالى هنا في نفس الآية ب « ألا » في قوله :

{ أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور } [هود : 5] .

فهم إن داروا على محمد صلى الله عليه وسلم ، فهل هم قادرون على المداراة على رب محمد؟ والذي لا يدركه بصر محمد فربُّ محمد سيُعلمه به .

وما دام الحق سبحانه يعلم ما يسرون ، فمن باب أولى أنه سبحانه وتعالى يعلم ما يعلنون .

والحق سبحانه وتعالى غيب ، وربما ظن ظان أنه قد يفلت منه شيء ، ولكن الحق سبحانه يُحصي ولا يُحصَى عليه ، فإن ظن ظان أن الحق سبحانه يعلم الغيب فقط؛ لأنه غيب ، فهذا ظن خاطىء؛ لأنه يعلم السر والعلن ، فهو عليم بذات الصدور ، وكلمة « عليم » صيغة مبالغة ، وهي ذات في كنهها العلم .

وقول الحق سبحانه :

{ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور } [هود : 5] .

نجد فيه كلمة { ذَاتِ } وهي تفيد الصحبة ، و (ذَاتِ الصُّدُورِ) أي : الأمور المصاحبة للصدور .

ونحن نعلم أن الصدر محل القلب ، ومحل الرئة ، والقلب محل المعتقدات التي انتُهي إليها ، وصارت حقائق ثابتة ، وعليها تدور حركة الحياة .

ويُقصد ب { بِذَاتِ الصدور } أي : المعاني التي لا تفارق الصدور ، فهي صاحبات دائمة الوجود في تلك الصدور ، سواء أكانت حقداً أو كراهية ، أو هي الأحاسيس التي لا تظهر في الحركة العادية ، سواء أكانت نية حسنة أو نية سيئة .

وكل الأمور التي يسمونها ذات الصدور ، أي : صاحبات الصدور ، وهي القلوب ، وكأن الجِرْم نفسه وهو القلب معلوم للحق سبحانه وتعالى ، فخواطره من باب أولى معلومة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأرض }

وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (6)

وحين يذكر القرآن الكريم لقطة توضح صفة ما ، فهو يأتي بما يتعلق بهذه الصفة ، وما دام الحق سبحانه عليماً بذات الصدور ، فهذا علم بالأمور السلبية غير الواضحة ، والحق سبحانه يعلم الإيجابيات أيضاً ، فهو يعلم النية الحسنة أيضاً ، ولكن الكلام هنا يخص جماعة يثنون صدورهم .

وجاء في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها ، وبيَّن أنه عليم بكل شيء .

وقال سبحانه :

{ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأرض إِلاَّ عَلَى الله رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا } [هود : 6] .

والدابة : كا ما يدب على الأرض ، وتستخدم في العرف الخاص للدلالة على أي كائن يدب على الأرض غير الإنسان .

وفي آية أخرى يقول الحق سبحانه :

{ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأرض وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ } [الأنعام : 38] .

وذكر الحق سبحانه وتعالى عن موسى عليه السلام أنه شُغِل حينما كُلِّف بخواطر عن أهله ، وتساءل : كيف أذهب لأداء الرسالة وأترك أهلي؟

فأوحى الله سبحانه أن يضرب حجراً فانفلق الحجر عن صخرة ، فأمره الحق سبحانه أن يضرب الصخرة ، فضربها فانفلقت ليخرج له حجر ، فضرب الحجر فانشق له عن دودة تلوك شيئاً كأنما تتغذى به ، فقال : إن الذي رزق هذه في ظلمات تلك الأحجار كلها لن ينسى أهلي على ظهر الأرض . ومضى موسى عليه السلام إلى رسالته .

وهذا أمر طبيعي؛ لأن الحق سبحانه خالق كل الخلق ، ولا بد أن يضمن له استبقاء حياة واستبقاء نوع؛ فاستبقاء الحياة بالقوت ، واستبقاء النوع بالزواج والمصاهرة .

إذن : فمن ضمن ترتيبات الخلق أن يوفر الحق سبحانه وتعالى استبقاء الحياة بالقوت ، واستبقاء النوع بالتزاوج .

ولذلك نقول دائماً : يجب أن نفرق بين عطاء الإله وعطاء الرب ، فالإله سبحانه هو رب الجميع ، لكنه إله من آمن به .

وما دام الحق سبحانه هو رب الجميع ، فالجميع مسئولون منه؛ فالشمس تشرق على المؤمن وعلى الكافر ، وقد يستخرج الكافر من الشمس طاقة شمسية وينتفع بها ، فلماذا لا يأخذ المؤمن بالأسباب؟

والهواء موجود للمؤمن والكافر؛ لأنه عطاء ربوبية ، فإن استفاد الكافر من الهواء ودرسه ، واستخدم وخواصه أكثر من المؤمن؛ فعلى المؤمن أن يجدَّ ويكدَّ في الأخذ بالأسباب .

إذن : فهناك عطاء للربوبية يشترك فيه الجميع ، لكن عطاء الألوهية إنما يكون في العبادة ، وهو يُخرجك من مراداتك إلى مرادات ربك ، فحين تطلب منك شهواتك أن تفعل أمراً فيقول لك المنهج : لا .

وفي هذا تحكم منك في الشهوات ، وارتقاء في الاختبارات ، أما في الأمور الحياتية الدنيا ، فعطاء الربوبية لكل كائن ليستبقي حياته .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى :

{ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأرض إِلاَّ عَلَى الله رِزْقُهَا } [هود : 6] .

وكلمة « على » تفيد أن الرزق حق للدابة ، لكنها لم تفرضه هي على الله سبحانه وتعالى ، ولكنه سبحانه قد ألزم نفسه بهذا الحق .

ويقول سبحانه :

{ وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا } [هود : 6] .

ولأنه سبحانه هو الذي يرزق الدابة فهو يعلم مستقرها وأين تعيش؛ ليوصل إليها هذا الرزق .

والمستقر : هو مكان الاستقرار ، والمستودع : هو مكان الوديعة .

والحق سبحانه يُعْلِمنا بذلك ليطمئن كل إنسان أن رزقه يعرف عنوانه ، والإنسان لا يعلم عنوان الرزق .

فالرزق يأتي لك من حيث لا تحتسب ، لكن السعي إلى الرزق شيء آخر؛ فقد تسعى إلى رزق ليس لك ، بل هو رزق لغيرك .

فمثلاً : أنت قد تزرع أرضك قمحاً فيأتي لك سفر للخارج ، وتترك قمحك؛ ليأكله غيرك ،

وتأكل أنت من قمح غيرك .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

{ وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ } [هود : 6] .

أي : أن كل أمر مكتوب ، وهناك فرق بين أن تفعل ما تريد ، ولكن لا يحكم إرادتك مكتوب؛ فما يأتي على بالك تفعله ، وبين أن تفعل أمراً قد وضعت خطواته في خطة واضحة مكتوبة ، ثم تأتي أفعالك وفقاً لما كتبته .

ومن عظمة الخالق سبحانه أن كتب كل شيء ، ثم يأتي كل ما في الحياة وفق ما كتب .

والدليل على ذلك على سبيل المثال أن الله سبحانه كان يوحي إلى رسوله بالسورة من القرآن الكريم ، وبعد ذلك يُسرِّي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الوحي ، فيتلو السورة على أصحابه ، فمن يستطيع الكتابة فهو يكتب ، ومن يحفظ فهو يحفظ .

ثم يأتي الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الصلاة ، فيقرأ السورة كما كُتِبَتْ ، ويأتي كل نجم من القرآن في مكانه الذي قاله النبي صلى الله عليه وسلم لصحابته ، فكيف كان يحدث ذلك؟

لقد حدث ذلك بما جاء به الحق سبحانه ، وأبلغه لرسوله صلى الله عليه وسلم :

{ سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تنسى } [الأعلى : 6] .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { وَهُوَ الذي خَلَق السماوات والأرض }

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (7)

وقد تعرض القرآن الكريم لمسألة خلق الأرض والسماء أكثر من مرة .

وقلنا من قبل : إن الحق سبحانه وتعالى قد شاء أن يخلق الأرض والسموات في ستة أيام من أيام الدنيا ، وكان من الممكن أن يخلقها في أقل من طرفة عين بكلمة « كن » وعرفنا أن هناك فارقاً بين إيجاد الشيء ، وطرح مكونات إيجاد الشيء .

ومثال ذلك ولله المثل الأعلى حين يريد الإنسان صنع « الزبادي » ، فهو يضع جزءاً من مادة الزبادي وتسمى « خميرة » في كمية مناسبة من اللبن الدافىء ، وهذه العملية لا تستغرق من الإنسان إلا دقائق ، ثم يترك اللبن المخلوط بخميرة الزبادي ، وبعد مضي أربع وعشرين ساعة يتحول اللبن المخلوط بالخميرة إلى زبادي بالفعل .

وهذا يحدث بالنسبة لأفعال البشر ، فهي أفعال تحتاج إلى علاج ، ولكن أفعال الخالق سبحانه وتعالى لا علاج فيها؛ لأنها كلها تأتي بكلمة « كن » .

أو كما قال بعض العلماء : إن الله شاء أن يجعل خلق الأرض والسموات في ستة أيام ، وقد أخذ بعض المستشرقين من هذه الآية ، ومن آيات أخرى مجالاً لمحاولة النيل من القرآن الكريم ، وأن

يدَّعوا أن فيه تعارضاً ، فالحق سبحانه وتعالى هنا يقول :

{ وَهُوَ الذي خَلَق السماوات والأرض فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ } [هود : 7] .

وجاءوا إلى آية التفصيل وجمعوا ما فيها من أيام ، وقالوا : إنها ثمانية أيام ، وهي قول الحق سبحانه :

{ قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بالذي خَلَقَ الأرض فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ العالمين * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا في أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ * ثُمَّ استوى إِلَى السمآء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائتيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ } [فصلت : 912] .

وهنا قال بعض المستشرقين : لو كانت هذه قصة الخلق للأرض والسموات لطابقت آية الإجمال آية التفصيل .

وقال أحدهم : لنفرض أن عندي عشرة أرادب من القمح ، وأعطيت فلاناً خمسة أرادب وفلاناً ثلاثة أرادب ، وفلاناً أعطيته إردبين ، وبذلك ينفد ما عندي؛ لأن التفصيل مطابق للإجمال .

وادَّعي هذا البعض من المستشرقين أن التفصيل لا يتساوى مع الإجمال . ولم يفطنوا إلى أن المتكلم هو الله سبحانه وتعالى ، وهو يكلم أناساً لهم ملكة أداء وبيان وبلاغة وفصاحة؛ وقد فهم هؤلاء ما لم يفهمه المستشرقون .

هم فهموا ، كأهل فصاحة ، أن الحق سبحانه وتعالى قد خلق الأرض في يومين ، ثم جعل فيها رواسي وبارك فيها ، إما في الأرض أو في الجبال ، وقدَّر فيها أقواتها ، وكل ذلك تتمة للحديث عن الأرض .

ومثال ذلك : حين أسافر إلى الإسكندرية فأنا أصل إلى مدينة طنطا في ساعة مثلاً وإلى الإسكندرية في ساعتين ، أي : أن ساعة السفر التي وصلت فيها إلى طنطا هي من ضمن ساعتي السفر إلى الإسكندرية .

وكذلك خلق الأرض والرواسي وتقدير القوت ، كل ذلك في أربعة أيام متضمنة يَوْمَيْ خَلْق الأرض ، ثم جاء خلق السماء في يومين .

ثم يقول الحق سبحانه :

{ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المآء } [هود : 7] .

كل هذه المسائل الغيبية لها حجة أساسية ، وهي أن الذي أخبر بها هو الصادق ، فلا أحد يشك أن الأرض والسموات مخلوقة ، ولا أحد يشك في أن السموات والأرض أكبر خلقاً من خلق الناس ، وليس هناك أحد من البشر ادَّعى أنه خلق الأرض أو خلق السموات .

وكل المخترعات البشرية نعرف أصحابها ، مثل : المصباح الكهربي ، والهاتف ، والميكروفون ،

والتليفزيون ، والسيارة ، وغيرها .

ولكن حين نجيء إلى السموات والأرض لا نجد أحداً قد ادعى أنه قد خلقها .

وقد أبلغنا الحق سبحانه أنه هو الذي خلقها ، وهي لمن ادّعاها إلى أن يظهر مُعارِض ، ولن يظهر هذا المعارض أبداً .

وكل هذا الخلق من أجل البلاء :

{ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً } [هود : 7] .

أي : ليختبركم أيكم أحسن عملاً ، ولكن من الذي يحدد العمل؟

إنه الله سبحانه وتعالى .

وهل الحق سبحانه في حاجة إلى أن يختبر مخلوقاته؟

لا ، فالله سبحانه يعلم أزلاً كل ما يأتي من الخلق ، ولكنه سبحانه أراد بالاختبار أن يطابق ما يأتي منهم على ما عمله أزلاً؛ حجة عليهم .

وهكذا فاختبار الحق سبحانه لنا اختبار الحجة علينا .

ثم يقول الحق سبحانه :

{ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُمْ مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الموت لَيَقُولَنَّ الذين كفروا إِنْ هاذآ إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ } [هود : 7] .

وهنا يصور الحق سبحانه وتعالى تكذيب المعاندين لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهم يلقون بالألفاظ على عواهنها من قبل أن تمر على تفكيرهم .

فلو أنهم قد مروا بهذه الكلمات على تفكيرهم؛ لاستحال منطقياً أن يقولوها .

والرسول صلى الله عليه وسلم يخبرهم ببلاغ الحق سبحانه وتعالى لهم بأنهم مبعوثون من بعد الموت .

وهذا كلام إخباري بأنهم إن ماتوا وهم سيموتون لا محالة سيبعثهم الله سبحانه ، فما كان منهم إلا أن قالوا :

{ إِنْ هاذآ إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ } [هود : 7] .

والخبر الذي يقوله لهم هو خبر ، فما موقع السحر منه؟ إنهم يعلمون أنه صلى الله عليه وسلم لم يقل ذلك إلا من نص القرآن الكريم ، وهم يقولون عن القرآن الكريم إنه سحر ، فكأن النص نفسه من السحر الذي حكموا به على القرآن .

وأوضحنا من قبل أن إبطال قضية السحر في القرآن الكريم دليله منطقي مع القول؛ لأنهم إن كانوا قد ادعوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو أن محمداً في عرفهم قد سحر القوم الذين اتبعوه .

فالساحر له تأثير على المسحور ، والمسحور لا دخل له في عملية السحر ، فإذا كان محمد قد سحر القوم الذين اتبعوه ، فلماذا لم يسحر هؤلاء المنكرين لرسالته؛ بنفس الطريقة التي سحر بها غيرهم؟

وحيث إنهم قد بقوا على ما هم عليه من عناد لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهذا دليل على أن المسألة ليست سحراً ، ولو كان الأمر كذلك لسحرهم جميعاً .

وقولهم : { إِنْ هاذآ إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ } [هود : 7] .

يدل على أنه سحر محيط ، لا سحر لأناس خاصين ، فكلمة { سِحْرٌ مُّبِينٌ } تعني : سحراً محيطاً بكل من يريد سحره .

وبقاء واحد على الكفر دون إيمان برسول الله يدل على أن المسألة ليست سحراً .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ العذاب إلى أُمَّةٍ }

وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (8)

وساعة تجد { لَئِنْ } فافهم اللام الأولى التي بعد « و » إنما جاءت؛ لتدل على أن الكلام فيه قسم مؤكد ، وإن كان محذوفاً ، واكتفى باللام عن القسم ، وتقديره : « والله لئن » .

والقسم يأتي لتأكيد المقسم عليه بالمقسم به ، وتأكيد المقسم عليه إنما يأتي لأن هناك من يشك فيه .

فأنت لا تُقسم لإنسان تلقاه وتقول له : والله لقد كنت عند فلان بالأمس .

إذن : فالقسم يأتي لشك طرأ عند السامع ، وأنت لا تقسم ابتداء .

ويأتي القسم على مقدار مراتب الشك ، وتأكيداً بأدواته .

والقرآن الكريم يقول هنا :

{ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ العذاب إلى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ } [هود : 8] .

فالواو هنا هي واو القسم ، وهنا أيضاً شرط ، والقسم يحتاج لجواب ، والشرط أيضاً يحتاج إلى جواب .

وإذا اجتمع الشرط والقسم فبلاغة الأسلوب تكتفي بجواب واحد ، مثلما نقول : « والله إن فعلت كذا لأفعلن معك كذا » .

وهكذا يُغْنِي جواب القسم عن جواب الشرط ، والمتقدم سواء أكان قسماً أو شرطاً هو الذي يغني جوابه عن الآخر .

مثلما نقول : « والله إن جاء فلان لأكرمته » ، فالقسم هنا متقدم ، وأغنى جوابه عن جواب الشرط . وإن قلت : إن جاءك فلان والله لتكرمه ، فهنا الشرط هو المتقدم .

والاثنان متحدان ، لكن غاية ما هناك أن القسم تأكيد والشرط تأسيس ، فإذا تقدم ذو خبر على الاثنين على الشرط وعلى القسم نأتي بجواب الشرط فوراً ، مثلما نقول : « زيد والله إن جاءك أكرمه »؛ لأن الشرط كما قلنا تأسيس ، والقسم تأكيد ، ويرجح هنا الشرط ، لأن التأسيس أولى من التأكيد .

وهنا يقول الحق سبحانه :

{ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ العذاب إلى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ } [هود : 8] .

والجواب هنا للقسم ، وهو يغني عن جواب الشرط .

أي : أن العذاب يُؤخَّر .

وقد أوعد الحق سبحانه الكافرين بمحمد صلى الله عليه وسلم بأن يعذبهم ، وكان العذاب للأمم السابقة هو عذاب استئصال ، منهم من أرسل الله سبحانه عليه عاصفة ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من أغرقه ، ومنهم من خسف به الأرض .

فكأن مهمة الرسل السابقين أن يبلغوا الدعوة ، ثم تتلوى السماء تأديب الكافرين بالرسالات .

ولكن الحق سبحانه وتعالى قد شاء أن يفضِّل أمة محمد صلى الله عليه وسلم على الأمم كلها ، وأن تعذِّب الكافرين في المعارك .

وحين يتوعدهم الرسول صلى الله عليه وسلم بعذاب ، فللعذاب ميلاد ، وقد يُؤخَّر ليرى المحيطون بالكافرين الضلال والفساد ، فإذا ما وقع عذاب الله سبحانه على هؤلاء الكافرين ، فلن يحزن عليهم أحد .

وهكذا أراد الله سبحانه الإمهال والإملاء ليكون لهما معنى واضح في الحياة ، والإملاء للظالم؛ لتزداد مظالمه زيادة تجعل الأمة التي يعيش فيها تكره ظلمه ، فإذا وقع عليه عذاب ، لا يعطف عليه أحد .

ونحن نعلم أن النفس البشرية بنت المشهد ، فحين يُقتل واحد وتمر سنوات على قضيته ، ثم يصدر الحكم بإعدامه ، فالناس تنسى لذعة القتل الأول ، وتعطف على القاتل حين يصدر الحكم بإعدامه .

ولذلك أقول دائماً :

إن من دواعي استمرار الجرائم إبطاءات المحاكمة ، تلك الإبطاءات التي تجعل عواطف الناس من المجرم؛ لأن مشهد المقتول أولاً قد انتهى من ذاكرتهم .

ولكن لو استحضر الناس وقت العقوبة ظرف الجريمة؛ لَفرِحوا بالحكم على القاتل بالقتل .

ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى حينما يريد أن يعذب أحداً يقول :

{ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ المؤمنين } [النور : 2] .

وذلك ليتم التعذيب أمام المجتمع الذي شقى بإفسادهم وشقى بمظالمهم ، فمن يُعتدَى على عرضه ، ويرى عذاب المعتدي فهو يُشْفى .

وهنا يبيّن الحق سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم : لقد توعدتهم بالعذاب . ونحن نبطن العذاب بالإمهال لهم ، ولكنهم جعلوا من ذلك مناط السخرية والاستهزاء والتهكم ، وتساءلوا : أين هو العذاب؟

ونحن نجد القرآن يقول على ألسنتهم .

{ وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الحساب } [ص : 16] .

والقط : هو جزاء العمل ، وهو مأخوذ من القط أي : القطع .

والعذاب إنما يتناسب مع الجرم ، فإن كانت الجريمة كبيرة فالعذاب كبير ، وإن كانت الجريمة صغير فالعذاب يكون محدوداً ، فكان العذاب موافقاً للجريمة .

ومن العجيب أن منهم من قال :

{ اللهم إِن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السمآء أَوِ ائتنا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } [الأنفال : 32] .

وجاء على ألسنتهم ما أورده القرآن الكريم في قولهم :

{ أَوْ تُسْقِطَ السمآء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً } [الإسراء : 92] .

ولا شك أن الإنسان لا يتمنى ولا يرجو أن يقع عليه العذاب ، ولكنهم قالوا ذلك تحديا وسخرية واستهزاءً .

وشاء الحق سبحانه وتعالى ألا يعذب الكافرين المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم مثلما عذب الكافرين الذين عاصروا الرسالات السابقة؛ لأن الحق سبحانه وتعالى هو القائل :

{ وَمَا كَانَ الله لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ } [الأنفال : 33] .

فضلاً عن أن هناك أناساً منهم ستروا إيمانهم؛ لأنهم لا يملكون القوة التي تمكنهم من مجابهة الكافرين ، ولا يملكون القوة ليرحلوا إلى دار الإيمان بالهجرة ، وحتمت عليهم ظروفهم أن يعيشوا مع الكافرين .

وهناك في سورة الفتح ما يوضح ذلك ، حين قال الحق سبحانه وتعالى :

{ هُمُ الذين كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ المسجد الحرام والهدي مَعْكُوفاً أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلاَ رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِّنْهُمْ مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ الله فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَآءُ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا الذين كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً } [الفتح : 25] .

أي : لو تميَّز الكافرون عن المؤمنين لسلّط الحق سبحانه العذاب الأليم على الكافرين ، لكن لو دخل المسلمون بجيشهم الذي كان في الحديبية على مكة ، ودرات هناك معركة ، فهذه المعركة

ستصيب كل أهل مكة ، وفيهم المؤمنون المنثورون بين الكافرين ، وهم غير متحيزين في جهة بحيث يوجد المسلمون الضربة للجانب الكافر .

إذن : فلو ضرب المسلمون المقاتلون ، لضربوا بعضاً من المؤمنين ، وهذا ما لا يريده الحق سبحانه وتعالى .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى :

{ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ العذاب إلى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ } [هود : 8] .

والأمة : هي الطائفة أو الجماعة من جنس واحد ، مثل أمة الإنس ، وأمة الجن ، وأمة النمل . . وغير ذلك من خلق الله .

والحق سبحانه هو القائل :

{ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأرض وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَّا فَرَّطْنَا فِي الكتاب مِن شَيْءٍ ثُمَّ إلى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ } [الأنعام : 38] .

والأمة : طائفة يجمعها نظام واحد وقانون واحد ، وأفرادها مستاوون في كل شيء ، فتكون كل واحدة من هذه الأمم أمة ، وهناك الأمة : الطائفة من الزمن . مثل قول الحق سبحانه :

{ وَقَالَ الذي نَجَا مِنْهُمَا وادكر بَعْدَ أُمَّةٍ } [يوسف : 45] .

أي : أن هذا الذي تذكر بعد فترة من الزمن ، وقد تكون الفترة المسماة « أمة » ، هي الزمن الذي يتحمل جيلاً من الأجيال .

الأمة إذن هي جماعة وطائفة لها جنس يجمعها ، ولها تميزات أفرادية ، وهي تلتقي في معنى عام . فأمة الإنسان هي حيوان ناطق مفكر ، وهناك قدر عام يجمع كل إنسان ، ولكن هناك تفاوتات في المواهب .

ولا توجد نفس بشرية واحدة تملك موهبة الهندسة والطب والتجارة والصيدلة والمحاسبة؛ لأن كل حرفة من تلك الحرف تحتاج إلى دراسة .

ولا يملك إنسان من العمر ما يتيح له التخصص في كل تلك المجالات؛ ولذلك يتخصص كل فرد في مجال؛ ليخدم غيره فيه ، وغيره يتخصص في مجال آخر ويخدم الباقين ، وهكذا .

وفي هذا تكافل اجتماعي ، يشعر فيه كل فرد بأنه يحتاج للآخرين ، وأنه لا يستطيع أن يحيا مستقلاً بذاته عن كل الخلق .

ولو عرف واحد كل الحرف التي في الدنيا ، من طب وهندسة وقضاء ، وسباكة ، ونجارة ، وزراعة ، وغيرها فلن يسأل عن الباقين؟

لذلك شاء الله سبحانه وتعالى أن تلتحم المجتمعات ضرورة وقسراً ، لا تفضُّلاً من أحد على أحد .

والذي يكنس الشارع أو يعمل في تنظيف الصرف الصحي لا يفعل ذلك تفضُّلاً ، بل يفعل ذلك احتياجاً؛ لأنه يحتاج إلى العمل والرزق؛ لأن جسمه يحتاج إلى الطعام ، وإلى الستر بالملابس ، وأولاده يطلبون الطعام والمأوى والملبس ، ولولا ذلك لما عمل في تلك المهنة .

وإذا أخلص في عمله فالله سبحانه يحببه فيها ، وإن ارتقت أحواله ، يظل في هذا العمل؛ لأنه عشق إتقان مهنته .

ولقد رأيت رجلاً كان يعمل في هذه المهنة ، ويحمل الأقذار على كتفه ، وحين وسَّع الله عليه ، اشترى عربة يجرها حمار ليحمل فيها ما ينزحه من تلك المجاري .

وحين وسَّع الله عليه أكثر ، اشترى سيارة فيها ماكينة شفط للقاذورات ، وصار يجلس على الكرسي ، ويدير « موتور » نزح المجاري لداخل خزان السيارة المخصص لذلك .

إذن : فارتباطات المجتمع لا بد أن تنشأ عن حاجة ، لا عن تفضُّل؛ لأن التفضل ليس فيه إلزام بالعمل ، لكن الحاجة هي التي فيها إلزام بالعمل؛ لتسير حركة الحياة .

ومن يعشق عمله على أي وضع كان ، يوفقه الله تعالى فيه أكثر؛ لأنه احترم قدر الله تعالى في نفسه ، ولم يستنكف ، ويعطيه الله سبحانه كل الخير من هذا العمل ، بقدر حبه للعمل وأخلاصه فيه .

وإن نظرت إلى العظماء في كل مهنة مهما صغرت ، فستجد أن تاريخهم بدأ بقبولهم لقدر الله سبحانه وتعالى فيهم .

ونحن نعلم أن قيمة كل امرىء فيما يحسنه؛ ولذلك تجد الأمة مكونة من مواهب متكاملة لا متكررة ، حتى يحتاج كل إنسان إلى عمل غيره .

ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى :

{ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً } [الزخرف : 32] .

لأن أحداً لا يسخَّر الآخر لعمل إلا إذا كان المسخَّر في حاجة إلى هذا العمل .

ولذلك تجد من يطرق بابك ويسأل : ألا تحتاج إلى سائق؟ ألا تحتاج إلى خادم؟

وصاحب الحاجة هو الذي يعرض نفسه؛ لعله يجد العمل الذي يتقنه .

ولذلك يجب ألا يتصور أهل أي إنسان أنه حين يخدم في أي حرفة من الحرف أنه يخدم المخدوم ، لا . . إنه يخدم حاجة نفسه .

وهكذا تترابط الأمة ارتباط حاجات ، لا ارتباط تفضل .

وقد قال الحق سبحانه وتعالى عن سيدنا إبراهيم عليه السلام :

{ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً } [النحل : 120] .

لأن هناك مواهب متعددة قد اجتمعت فيه ، وهي مواهب لا تجتمع إلا في أمة من الناس .

وكلمة « أمة » تطلق على الزمن ، وتطلق على الجماعة من كل جنس ، وتطلق على الرجل الجامع لكل خصال الخير .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى :

{ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ العذاب إلى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ } [هود : 8] .

وعادة ما تأتي كلمة { مَّعْدُودَةٍ } لتفيد القلة؛ مثل قول الحق سبحانه :

{ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ الزاهدين } [يوسف : 20] .

وما دام الثمن بَخْساً فلا بد أن تكون الدراهم معدودة .

والسبب في فهمنا لكلمة { مَّعْدُودَةٍ } أنها تفيد القلة ، هو أننا لا نُقبل على عَدِّ شيء إلا مظنة أننا قادرون على عَدِّه؛ لأنه قليل ، لكن مالا نُقبل على عدِّه فهو الكثير .

ومثال ذلك : أن أحداً لم يعد الرمل ، أو النجوم .

ولذلك جاء قول الحق سبحانه :

{ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ الله لاَ تُحْصُوهَا } [إبراهيم : 34] .

و « إن » كما نعلم تأتي للشك ، ونعم الله سبحانه ليست مظنة الحصر .

ورغم أن البشرية قد تقدمت في علوم الإحصاء فهل تفرَّغ أحد ليُحصي نعم الله؟

طبعاً لا . . وبطبيعة الحال يمكن إحصاء السكان والعاملين في أي مجال أو تخصص .

وقديماً كان القائمون على فتح صناديق النذور ليحسبوا ما فيها ، فيضعوا الورق من فئة المائة جنيه معاً ، والورق من فئة العشرة جنيهات معاً ، وكذلك بقية الفئات من الأوراق المالية ، إلى أن يصلوا إلى القروش ، فيقوموا بوزن كليو جرام منها ، ويحسبوا كم قرشاً في الكيلو جرام ، ويزنوا بعد ذلك بقية القروش؛ ليحسبوا المجموع على حساب عدد القروش التي حصروها في الكليو جرام الأول .

وقول الحق سبحانه هنا :

{ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ العذاب إلى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ } [هود : 8] .

كأنهم يتساءلون سخرية واستهزاء : لماذا يتأخر العذاب الذي توعَّدهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأن الإنسان لا يتشوق إلى ما يؤلمه ، ولا يقال مثل هذا الكلام إلا على سبيل التهكم .

ويأتي الرد عليهم بأداة التنبيه ، وهي « ألا » أي : تَنبَّهوا إلى هذا الرد .

ويقول الحق سبحانه وتعالى :

{ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ } [هود : 8] .

وهذا تأكيد أن العذاب سيأتي ، ولكن العباد دائماً يعجلون .

والله سبحانه لا يعجل بعجلة العباد؛ حتى تبلغ الأمور ما أراد ، وكل أمر له وقت وله ميلاد ، وسيأتيهم ما كانوا يستعجلون؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يقول :

{ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ } [هود : 8] .

وقد جاء تأكيد وصول العذاب إليهم بأشياء : أولها : « ألا » وهي أداة تنبيه ، وكذلك قوله سبحانه وتعالى : { يَوْمَ يَأْتِيهِمْ } ، وهذا خبر بأن العذاب آت لا محالة؛ لأن الذي يخبر به هو الله سبحانه وتعالى .

وأيضاً فهذا العذاب : { لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ } [هود : 8] .

أي : أنه عذاب مستمر .

وقول الحق سبحانه وتعالى :

{ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ } [هود : 8] .

يعني : أنه حل بهم ونزل عليهم ، ووقع لهم العذاب الذي استهزأوا به من قبل .

ونحن نعلم أن كلمة (حاق) فعل ماضٍ ، والكلام على أمر مستعجل ، ويُعبَّر عن الأمر المستعجل بالمضارع؛ لأن الفعل المضارع يدل على الحال أو الاستقبال ، فكيف يستعجلون أمراً ، ويأتي التعبير عنه بالفعل الماضي؟

ولكن القائل هنا هو الله الحق سبحانه وتعالى ، والكلام مأخوذ بقانون المتكلم ، وكل فعل يُنسَب إلى قوة فاعله ، والله سبحانه هو قوة القوى .

وقال الحق سبحانه وتعالى في موضع آخر من القرآن :

{ أتى أَمْرُ الله فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ } [النحل : 1] .

وكلمة « أتى » في عرفنا اللغوي فعل ماضٍ ، أي : أن الكلام جاء من المتكلم بعد وقوع النسبة خارجاً ، مثلما نقول : « نجح محمد » فهذا يعني أن النجاح قد حدث بالفعل .

وحين يقول الله سبحانه : { أتى أَمْرُ الله } نفهم أن { أتى أَمْرُ الله } نسبة كلامية سبقتها نسبة واقعية .

وقوله سبحانه بعد ذلك : { فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ } يدل على أن الأمر لم يقع ، ولكن المتكلم هنا هو الله سبحانه وتعالى .

والمعنى أن الأمر واقع لا محالة؛ ذلك لأن كل فعل إنما ينسب لقوة الفاعل .

ومثال ذلك من حياتنا ولله المثل الأعلى أنك قد ترغب في أن تنقل حقيبة ضخمة وثقيلة ، فيقول ابنك الشاب : دعني أحملها لك ، وهو يقول ذلك لأنه قادر على أن يحملها في زمن يناسب قوته .

وإن جاءك ابنك الصغير وقال : سأحملها أنا . فهو لن يحمل الحقيبة إلا في مقدار زمن يناسب

قوته ، وهي قوة ضعيفة .

إذن : ففي المجال البشري أنت تحكم على الماضي ، وقد يكون الحكم صادقاً أو كاذباً ، ولكنك بالنسبة لأمر مستقبل ، لا تستطيع أن حكم عليه؛ لأنك لا تملك من المستقبل شيئاً .

أما إذا كان قائل الكلام قادراً على إنفاذ ما يقوله الآن في المستقبل ، ولا عائق يعوقه ، فاعلم أن الأمر قادم لا محالة .

وهنا نجد الإخبار من الله سبحانه وتعالى ، ولا شيء في الكون يتأبَّى على الله سبحانه .

وما دام الحق سبحانه قد قال إنه أمرٌ قد أتى ، فهو آتٍ لا محالة .

ولذلك قال سبحانه :

{ وَحَاقَ بِهِم } [هود : 8] .

مع أن السياق في العرف البشري أن يقال : وسيحيق بهم ما كانوا به يستهزئون؛ لأنهم كانوا يستعجلون العذاب .

وجاء قول الحق سبحانه وتعالى : { وَحَاقَ } لأن الأمر بالنسبة له سبحانه لن يحول بينه وبين وقوعه أي عائق .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإنسان }

وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ (9)

وهنا أيضاً تبدأ الآية الكريمة بقوله سبحانه : { وَلَئِنْ } وهذا يعني أن اللام قد سبقت لتدل على القسم ، وكأنه يقول : لئن أذقنا الإنسان رحمة ، ثم نزعناها منه لوقع في الياس .

وهنا أيضاً قسم وشرط ، والقسم متقدم ، فالجواب يكون للقسم .

وكلمة { أَذَقْنَا } توضح أن الإذاقة محلها الأول الفم ، ومعناها : تناول الشيء لإدراك طعمه : حلو أو مر ، لاذع أوغير لاذع ، قلوي أو حامض .

ومن العجيب في دقة التكوين الإنساني أن كل منطقة في اللسان لها طعم تنفعل له ، فطرف اللسان ينفعل لطعم معين ، ووسط اللسان ينفعل لطعم آخر ، وجوانب اللسان تنفعل لطعم ثالث ، وهكذا .

كل ذلك في عضو واحد شاء له الحق سبحانه هذه الدقة في التركيب .

وكل « حلمة » من مكوِّنات اللسان لها شيء تحس به؛ ولذلك نجد الإنسان يذوق الطعام ، فيقول : إن هذا الطعام ينقصه الملح ، أو يذوب الحلوى مثل الكنافة فيقول : إن السكر المحلاة به مضبوط .

وكذلك حرارة الجسم ، يقيس الإنسان حرارته ، فإن وجدها سبعة وثلاثين درجة ونصف الدرجة؛ فيقول : إنها حرارة طبيعية . وإن نقصت حرارة الإنسان عن ذلك يقال : إنه مصاب بالهبوط .

وإن ارتفعت يقال : مصاب بالحمى .
وهذا قياس للحرارة بالجملة لجسم الإنسان ، ولها المنافذ الخاصة بها . ولكن كل عضو في الجسم تلزمه درجة حرارة خاصة به ليؤدي عمله .
فالكبد إن قلَّت درجة حرارته عن أربعين درجة لا يؤدي مهمته . وجسم الإنسان فيه جوارح متعددة؛ وحرارة العين مثلاً تسع درجات؛ لأنها لو زادت حرارتها عن ذلك لانفجرت العين ، وحرارة الأذن ثماني درجات .
وأنت لا تستطيع أن تأتي بأشياء مختلفة الحرارة وتضعها مع بعضها ، ولكن الحق سبحانه وتعالى شاء ذلك بالنسبة للجسم الإنساني .
وهنا يقول الحق سبحانه :
{ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإنسان } [هود : 9] .
والذوق هو للإدراك ، لا للأكل ، فأنت حين تشتري فاكهة يقول لك البائع : « تفضَّل ذُقْ » فتأخذ واحدة منها لتستطيب طعمها .
فالذوق إذن هو تناول الشيء لإدراك طعمه .
والنعمة حين يشاء الحق سبحانه وتعالى أن تصيب الإنسان ، ثم تُنزَع منه ، هنا يصاب الإنسان بالقلق أو الحزن أو الهلع ، أو اليأس .
والنعمة مهما قلَّت فالإنسان يستطيبها ، وإن نُزعت منه فهو يئوس كفور .
واليأس : هو قطع الأمل من حدوث شيء ، ولأن الإنسان لا يملك الفعل ، ولو كان يقدر عليه لما يئس .
والمؤمن لا ييأس أبداً؛ لأن الله سبحانه هو القائل :
{ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ الله إِلاَّ القوم الكافرون } [يوسف : 87] .
اليأس إذن هو أن تقطع الأمل من أمر مراد لك ، ولا تملك الوسائل لتحققه .
والذي ييأس هو الذي ليس له إله يركن إليه؛ لأن الله تعالى هو الركن الرشيد الشديد ، والمؤمن إن فقد شيئاً يقول : « إن الله سيُعوِّضني خيراً منه » .

أما الذي لا إيمان له بإله فهو يقول : « إن هذه الصدفة قد لا تتكرر مرة أخرى » .
فالإنسان الذي يُسْرَق منه جنيه قد يحزن ، ولكن إذا ما كان عنده في المنزل عشرة جنيهات فهو يحزن قليلاً على الجنيه المفقود .
والإنسان لا ييأس إلا عند عدم يقينه بمصدر يرد عليه ما يريده ، ولكن حين يؤمن بمصدر يرد عليه ما يريده فلا تجده يائساً قانطاً .
والمؤمن يعلم أن النعمة لها واهب ، إن جاءت شكر الله عليها ، وإن سُلبت منه ، فهو يعلم أن

الحق سبحانه قد سلبها لحكمة .

والحق سبحانه وتعالى يقول هنا :

{ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإنسان مِنَّا رَحْمَةً } [هود : 9] .

ونحن نعلم أن الإنسان مقصود به كل أبناء آدم عليه السلام وهم كثيرون ، منهم المؤمن ، ومنهم الكافر .

وهنا تأتي كلمة « الإنسان » على إطلاقها ، ولكن الحق سبحانه وتعالى يستثنى المؤمن في موضع آخر حين يقول الحق سبحانه :

{ والعصر * إِنَّ الإنسان لَفِى خُسْرٍ * إِلاَّ الذين آمَنُواْ } [العصر : 13] .

و « الإنسان » مفرد يدل على الإنسان في كل مدلولاته ، ويستثنى من نوع الإنسان من آمن به .

فإن رأيت كلمة إنسان فاعلم أن المراد بالإنسان أفراد الإنسان كلهم .

والإنسان لو عزل نفسه عن منهج الله تعالى فهو في خسران إلا إذا اتبع منهج الله ، فالمنهج يحميه من الزلل ، وتسير غرائزه إلى ما أراد الحق سبحانه لها .

فقد خلق الحق سبحانه الغرائز لمهام أساسية ، فغريزة الجوع تجعل الإنسان يطلب الطعام ، والعطش أراده الله سبحانه وتعالى لينتبه الإنسان إلى طلب الارتواء بالماء .

وغريزة بقاء النوع تدفع الإنسان للزواج ، وغريزة حب الاستطلاع هي التي تدفع الإنسان إلى كشف المخترعات .

والحق سبحانه وتعالى هو القائل عن الساهين عن استكشاف آيات الله تعالى :

{ وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السماوات والأرض يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ } [يوسف : 105] .

والباحث العلمي التجريبي المعلمي ينظر في ظواهر الكون ليستطلع أسرار الكون .

وهناك فارق بين حب الاستطلاع لاكتشاف أسرار الكون ، وحب الاستطلاع لأخبار الناس .

إن حب الاستطلاع عموماً هو مدار التقاءات الكون ، ولكن الدين والخلق هو الذي يوجه حب الاستطلاع .

إذن : فالقرائن لها مهمة يجب ألاّ تنفلت إلى غيرها ، والدين قد جاء ليعلي من الغرائز ويوجهها إلى مهامها .

لذلك نجد الحق سبحانه وتعالى يقول :

{ وَلاَ تَجَسَّسُواْ } [الحجرات : 12] .

أي : لا تتبعوا العورات؛ لأننا لو أبحنا لواحد أن يتتبع عورات الناس؛ لأبحنا لكل الآخرين أن يتتبعوا عوراته .

وحين منع الحق سبحانه وتعالى الإنسان من تتبُّع عورات غيره ، فهو قد حماه من تتبع عوراته .

وهنا يقول الحق سبحانه :

{ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإنسان مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ } [هود : 9] .

وكلمة « النزع » تفيد أن الإنسان حريص على ما وهبه له الله تعالى من خير وصحة وعافية ويُسْر . وحين تؤخذ منه النعمة فهو يقاوم .

والنزع يعني : استمساك المنزوع منه بالشيء المنزوع .

ولذلك يقول الحق سبحانه في سورة آل عمران :

{ قُلِ اللهم مَالِكَ الملك تُؤْتِي الملك مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ الملك مِمَّنْ تَشَآءُ } [آل عمران : 26] .

كأن الموجود في الملك يتشبث به جداً .

وهنا يقول الحق سبحانه :

{ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإنسان مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ } [هود : 9] .

وفي نفس السورة يأتي الاستثناء ، فيقول الحق سبحانه :

{ إِلاَّ الذين صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات أولئك لَهُمْ مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ } [هود : 11] .

وسنأتي لها بالخواطر من بعد ذلك .

ويقول الحق سبحانه وتعالى في المقابل لمن نُزِعَتْ منه الرحمة واليئوس الكفور : { وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ }

وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (10)

وهنا نجد الضراء هي الموجودة ، والنعماء هي التي تطرأ ، عكس الحالة الأولى ، حيث كانت الرحمة ، من خير ويسر هي الموجودة .

فالنزع في الأولى طرأ على رحمة موجودة ، والنعماء طرأت على ضرَّاء موجودة .

وهناك فرق بين نعماء ونعمة ، وضراء وضر؛ فالضر هو الشيء الذي يؤلم النفس ، والنعمة هي الشيء الذي تتنعم به النفس .

لكن التنعُّم والألم قد يكونان في النفس ، ولا ينضح أي منهما على الإنسان ، فإن نضح على الإنسان أثر النعمة يقال فيها « نعماء » ، وإن نضح عليه أثر من الضر يقال : « ضراء » .

وهنا يقول الحق سبحانه :

{ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السيئات عني } [هود : 10] .

ولا يفطن من يقول ذلك إلى المُذْهِب الذي أذهبَ السيئات؛ لأن السيئة لا تذهب وحدها .

ولو كان القائل مؤمناً لقال : رفع الله عني السيئات .

لكنه غير مؤمن؛ ولذلك يغرق في فرح كاذب وفخر لا أساس له .

ويصفه الحق سبحانه وتعالى بقوله :

{ إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ } [هود : 10] .

وكأن الفرح بالنعمة أذهله عن المنعم ، وعمن نزع منه السيئة .

وأما الفخر ، فنحن نعلم أن الفخر هو الاعتداد بالمناقب ، وقد تجد إنساناً يتفاخر على إنسان آخر بأن يذكر له مناقب وأمجاداً لا يملكها الآخر .

ونحن نعلم أن التميز لفرد ما يوجد في المجتمع ، ولكن أدب الإيمان يفرض ألا يفخر الإنسان بالتميز .

ولذلك نجد النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر » .

وفي أحدى المعارك نجده صلى الله عليه وسلم يقول :

« أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب » .

وقد اضطر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول ذلك؛ لأن الكافرين في تلك المعركة ظنوا أنهم حاصروه هو ومن معه وأنه سوف يهرب ، لكنه صلى الله عليه وسلم بشجاعته أعلن :

« أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب » وكان أقرب المسلمين إلى مكان الأعداء الكافرين وفي مواجهتهم .

ونحن نجد المتصارعين أو المتنافسين ، واحدهم يدخل على الآخر بصوت ضخم ليهز ثقة الطرف الآخر بنفسه .

والفخور إنسان غائب بحجاب الغفلة عن واهب المناقب التي يتفاخر بها ، ولو كان مستحضراً لجلال الواهب لتضاءل أمامه ، ولو اتجهت بصيرة المتكبر والفخور إلى الحق سبحانه وتعالى لتضاءل أمامه ، ولردَّ كل شيء إلى الواهب .

ومثال ذلك في القرآن الكريم هو قول الحق سبحانه على لسان صاحب موسى عليهما السلام :

{ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي } [الكهف : 82] .

وهذا سلوك العابد المتواضع .

أما حال الفخورين اللاهين عن الحق سبحانه وتعالى ، فقد صوره القرآن في قول قارون :

{ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُ على عِلْمٍ عندي } [القصص : 78] .

وكان مصيره هو القول الحق :

{ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأرض } [القصص : 81] .

ولذلك قلنا : إنك تحصِّن كل نعمة عندك بقولك عند رؤيتها : « بسم الله ما شاء الله »؛ لتتذكر أن هذه النعمة لم تأت بجهدك فقط ، ولكنها جاءت لك أولاً بمشيئة الله سبحانه وتعالى ، وذلك لتبقي عين الواهب حارسة للنعمة التي عندك .

أما حين تنسى الواهب فلن يحفظ تلك النعمة لك .

ونحن نلحظ أن الحق سبحانه وتعالى لم يمنع الفرح المنبعث عن انشراح الصدر والسرور بنعمة الله بل طلبه منا في قوله سبحانه :

{ قُلْ بِفَضْلِ الله وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ } [يونس : 58] .

ولكن الحق سبحانه يطلب من المؤمن أن لا يكون الفرح المنبعث لأتفه الأسباب ، والملازم له ، وإلا كان من الفرحين الذين ذمهم الله تعالى .

يقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك : { إِلاَّ الذين صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات }

إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (11)

وكلمة { صَبَرُواْ } هنا موافقة للأمرين الذين سبقا في الآيتين السابقتين ، فهناك نزع الرحمة ، وكذلك هناك « نعماء » من بعد « ضرَّاء » ، وكلا الموقفين يحتاج للصبر؛ لأن كلاّ منا مقدور للأحداث التي تمر به ، وعليه أن يصبر لملحظية حكمة القادر سبحانه .

وبدأ الحق سبحانه وتعالى هذه الآية بالاستثناء ، فقال جل وعلا :

{ إِلاَّ الذين صَبَرُواْ } [هود : 11] .

ولولا هذا الاستثناء لكان الكل كل البشر ينطبق عليهم الحكم الصادر في الآيتين السابقتين ، حكم باليأس والكفر ، أو الفرح والفخر دون تذكُّر واهب النعم سبحانه .

ولكن هذا الاستثناء قد جاء ليُطمئن الذين صبروا على ما قد يصيبهم في أمر الدعوة ، أو ما يصيبهم في ذواتهم؛ لا من الكافرين؛ لكن بتقدير العزيز العليم .

أو أنهم صبروا عن عمل إخوانهم المؤمنين .

إذن : فالصبر معناه حدُّ النفس بحيث ترضى عن أمر مكروه نزل بها . والأمر المكروه له مصادر عدة ، منها :

* أمر لا غريم لك فيه كالمرض مثلاً .

* أو أن يكون لك غريم في الأمر؛ كأن يُسرق منك متاع ، أو يُعتدى عليك ، وفي هذه الحالة تنشغل برغبة الانتقام ، وتتأج نفسك برغبة النيل من هذا الغريم ، أكثر مما تتأجج في حالة عدم وجود الغريم ، فحين يمرض الإنسان فلا غريم له .

وفي حالة الرغبة من الانتقام فالصبر يختلف عن الصبر في حالة وجود الغريم .

ولذلك عرض الحق سبحانه وتعالى لتأتِّي الصبر حسب هذه المراحل ، فسيدنا لقمان يقول لابنه :

{ واصبر على مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأمور } [لقمان : 17] .

وفي موضع آخر يقول الحق سبحانه :

{ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأمور } [الشورى : 43] .

وفي هذه الآية « لام » التوكيد لتؤكد أن هذا الأمر يحتاج إلى عزم قوي؛ لأن لي فيها غريماً يثير غضبي .

فساعة أرى من ضربني أو أهانني أو سرقني أو أساء إليَّ إساءة بالغة ، فالأمر هنا يحتاج صبراً وقوة وعزيمة .

أما في الحالة الأولى حالة عدم وجود غريم فالحق سبحانه يكتفي فقط بالقول الكريم :

{ واصبر على مَآ أَصَابَكَ } [لقمان : 17] .

ولكنه سبحانه أضاف في الآية الأخرى « اللام » لتأكيد العزم ، وليضيف سبحانه في حالة وجود غريم طلب الغفران ، فيقول سبحانه :

{ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأمور } [الشورى : 43] .

وهكذا نجد المستثنى ، وهم الصابرون على ألوانهم المختلفة .

وهنا يقول سبحانه :

{ إِلاَّ الذين صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات } [هود : 11] .

وما دام هنا صبر ، فالصبر لا يكون إلا على إيذاء . ولكن إياك أن يكون الإيذاء من خصمك في الإيمان ، أو من خصمك في ما دون الإيمان ، صارفاً لك عن نشاطك في طاعة الله سبحانه؛ لأن الصبر لا يعني أن تكبت غضبك وتعذب نفسك بهذا الكبت بما يصرفك عن مهامك في الحياة ، بل يسمح لك الحق سبحانه أن تتخلص من غلِّك وحقدك ، بمعايشة الإيمان الذي يُخفف من غَلْواء الغضب .

ولكسر حدة الغل أباح لك الحق سبحانه وتعالى أن تعتدي على من اعتدى عليك بمثل ما اعتدى؛ لأن سبحانه وتعالى لا يريد لك أن تظل في حالة غليان بالغضب أو القهر بما يمنعك من العمل ، بل يريد الحق سبحانه أن تتوجه بطاقاتك إلى أداء عملك .

ولذلك لا يلزمك الحق سبحانه إلا بحكم العدل فيقول عز وجل :

{ فَمَنِ اعتدى عَلَيْكُمْ فاعتدوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعتدى عَلَيْكُمْ } [البقرة : 194] .

ولكن هناك القادر على التحكم في نفسه ، ولذلك يقول الحق سبحانه :

{ والكاظمين الغيظ } [آل عمران : 134] .

ومعنى كظم الغيظ : أن الغيظ موجود ، لكن صاحبه لا يتحرك بنزوع انتقامي ، مثلما تقول : « كظمت القِرْبة » لأن حامل القربة لو لم يكظم الماء فيها ، لتفلَّت الماء منها ، أي : أنه يحبس الماء فيها .

وكظم الغيظ درجة ومنزلة ، قد لا تكون إيجابية؛ لأن الغيظ مازال موجوداً؛ ولذلك تأتي مرحلة أرقى ، وتتمثل في قول الحق سبحانه :

{ والعافين عَنِ الناس } [آل عمران : 134] .

أي : أن تُخرج الغيظ من قلبك وتتسامح .

إذن : فأنت هنا أمام مراحل ثلاث :

أن تردَّ الاعتداء عليك بمثله ، والمثليَّة في رد الاعتداء أمر لا يمكن أن يتحقق ، فمن صفعك صفعة ، كيف تستطيع أن تضبط كمية الألم في الصفعة التي ردها إليه؟

إن المتحكم في ردِّ الاعتداء هو الغضب ، والغضب لا يقيس الاعتداء بمثله ، فلا يتحقق العدل المطلوب؛ لهذا يكون الصبر خيراً مصداقاً لقوله تعالى :

{ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ } [النحل : 126] .

فإن أزدتَ من قوة صفعتك تكون معتدياً .

ولعلنا نذكر مسرحية « تاجر البندقية » لشكسبير ، وبطلها هذا التاجر اليهودي الذي أقرض رجلاً مالاً ، وكان صَكُّ القرض يفرض أن يقتطع اليهودي رطلاً من لحم المقترض إن تأخر في السداد .

وتأخَّر المقترض في السداد ، وأراد المرابي اليهودي أن يقتطع رطلاً من لحم المقترض ، وعُرِض الأمر على القاضي ، وكان القاضي رجلاً حكيماً ، وأراد أن يصدر حكماً يتلمس فيه العدالة ، فقال القاضي : لا مانع أن تأخذ رطلاً من لحم الرجل؛ هات السكين ، واقطع رطلاً واحداً بلا زيادة أو نقصان؛ لأننا سنأخذ مقابل تلك الزيادة من لحمك أنت بنفس السكين ، وكذلك إن قطعت من اللحم ما يقل عن الرطل ، فسنقطع الناقص لك من لحمك أنت عقاباً لك .

وتردَّد المرابي اليهودي؛ لأن الجزار أيَّ جزار لا يمكن أن يضبط يده ليقطع رطلاً مكتمل الوزن ، بل يقطع أحياناً ما يزيد عن الوزن المطلوب ، ويقطع أحياناً ما يقل عن الوزن المطلوب ، ثم يكمل أو ينقص الوزن حسب كل حالة .

وانسحب المرابي اليهودي وتنازل عن دعواه ، والذي دفعه إلى ذلك هو عدم قدرته على أخذ المثل ، فلو كان قد ارتقى قليلاً في مشاعره لما وصل إلى هذا الحكم .

والحق سبحانه وتعالى يحضنا على أن نرد العدوان بمثله ، وإن أردنا الارتقاء فلنكظم الغيظ ، وإن أردنا الارتقاء أكثر فلنخرج الغيظ من القلب ولنكن من العافين عن الناس؛ لننال محبة الله تعالى ، لأنه سبحانه وتعالى يقول :

{ والكاظمين الغيظ والعافين عَنِ الناس والله يُحِبُّ المحسنين } [آل عمران : 134] .

وفي هذا يرتقي المؤمن بمنهج الله سبحانه ، فيجعل المعتدَي عليه هو الذي يُحسن .

وحين تريد أن تفسر حب الله سبحانه للمحسنين فلسفيّاً أو منطقياً أو اقتصادياً ، ستجد القضية صحيحة ، والله سبحانه وتعالى يقول :

{ وَلْيَعْفُواْ وليصفحوا أَلاَ تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ الله لَكُمْ } [النور : 22] .

فإن أساء أخوك إليك سيئة ، فإما أن ترد بالمثل ، أو تكظم الغيظ أو ترقى إلى العفو ، وبذلك تكون من المحسنين؛ لأنك إذا كنت قد ارتكبت سيئة ، وعلمت أن الله سبحانه وتعالى يغفرها لك ، ألا تشعر بالسرور؟

إذن : فما دُمْت تريد أن يغفر الله تعالى لك السيئة عنده ، فلماذا لا تعفو عن سيئة أخيك في حقك؟

وقول الحق سبحانه :

{ أَلاَ تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ الله لَكُمْ } [النور : 22] .

وقد جاء الحق سبحانه هنا من ناحية النفس ، فجعل عفو العبد عن سيئة العبد بحسنة ، فلعفو العبد ثمن عند الله تعالى؛ لأن العبد سيأخذ مغفرة الله تعالى ، وفوق ذلك فأنت تترك عقاب المسيء والانتقام منه لربك ، وعند التسليم له راحة .

ولو اقتصصتَ أنت ممن أساء إليك ، فقصاصك على قدر قوتك ، أما إن تركته إلى قدرة الله تعالى ، فهذا أصعب وأشق؛ لأنك تركته إلى قوة القوي .

وهكذا ينال العافي عن المسيء مرتبة راقية؛ لأنه جعل الله سبحانه وتعالى في جانبه .

وهناك من يقول : كيف يأمر الدين الناس بأن يحسنوا لمن أساء إليهم؟ ويعلل ذلك بأنه أمر ضد النفس .

ونقول : إن الإحسان إلى المسيء هو مرحلة ارتقاء ، وليست تكليفاً أصيلاً؛ لأن الحق سبحانه قد أباح أن نرد العدوان بمثله ، ثم حثَّ المؤمن على أن يكظم غيظه ، أو يرتقي إلى العفو وأن يصل إلى الإحسان ، وكل هذه ارتقاءات اليقين بالله سبحانه وتعالى .

وانظر إلى نفسك ولله المثل الأعلى ومنزَّه سبحانه عن كل مَثلٍ إنْ أردت أن تطبق الأمر على ذاتك حين تجد ولداً من أولادك قد اعتدى على أخيه ، فقلبك وعواطفك وتلطفاتك تكون مع المعتدَى عليه .

ومن يقول : كيف يكلّفني الشرع بأن أحسن إلى من أساء إليَّ؟

نقول له : تذكَّرْ قول الحسن البصري رضي الله عنه : « أفلا أحْسِنُ لمن جعل الله في جانبي » .

ولو طبَّق العالم هذه القاعدة بيقينٍ وإخلاصٍ لصارت الحياة على الأرض جنة معجَّلة ، التسامح ، قوامها القرب ، ومنهجها الحب .

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق سبحانه وتعالى :

{ إِلاَّ الذين صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات أولئك لَهُمْ مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ } [هود : 11] .

وإن تسأل أحد : ولماذا ينالون المغفرة؟

نقول : لأنهم صبروا وغفروا؛ لذلك يهديهم الله تعالى مغفرة من عنده ، لأنه صبر على الإساءة ،

وغفر لمن أساء ، فلا بد أن يُثيبه الله تعالى ، لا بالمغفرة فقط ، ولكن بالأجر الكبير أيضاً .
ويقول سبحانه بعد ذلك : { فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يوحى إِلَيْكَ وَضَآئِقٌ بِهِ صَدْرُكَ }

فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (12)

وهنا نجد الحق سبحانه يأتي بصيغة الاستفهام في قوله تعالى :
{ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يوحى إِلَيْكَ } [هود : 12] .
وهو استفهام في معرض النهي .
ولله المثل الأعلى أنت قد تقول لابنك لتحثَّه على الاجتهاد : « لعلَّك سُررت من فشل فلان » وفَحْوَى هذا الخطاب ، استفهام في معرض النهي ، وهو استفهام يحمل الرجاء .
وهنا تجد أن الراجي هو ربك سبحانه وتعالى الذي أرسلك بالدعوة .
ولذلك يأتي قول الحق سبحانه مُبيّناً : لا يضيق صدرك يا رسول الله من هؤلاء المتعنتين ، الذين يريدون أن يخرجوك عن مقامك الذي تلحُّ دائماً في التأكيد عليه ، فأنت تؤكد لهم دائماً أنك بشرٌ ، وكان المفروض فيهم أن تكون مطلوباتهم منك على مقدار ما أقررت على نفسك ، فأنت لم تَقُلْ أبداً عن نفسك إنك إله ، ليطلبوا منك آيات تُخالف النواميس ، بل أنت مُبلّغ عن الله تعالى .
وإياك أن يضيق صدرك فلا تُبلغهم شيئاً مما أنزِلَ إليك؛ لأن البلاغَ هو الحُجَّة عليهم ، فلو ضاق صدرُك منهم ، وانقصتَ البلاغ الموكَّل إليك؛ لأنهم كلما أبلغوا بآية كذَّبوها ، فاعلمْ أن الله سبحانه وتعالى سوف يزيد عقابهم بقدر ما كذَّبوا .
وكلمة « ضائق » اسم فاعل ، ويعني أن الموصوف به لن يظل محتفظاً بهذه الصفة لتكون لازمة له ، ولكنها تعبِّر عن مرحلة من المراحل ، مثلما نقول : « فلان نَاجِر » أي : أنه قادر على القيام بأعمال النجارة مرَّة واحدة أو قليلاً ولا يحترف هذا العمل .
وكذلك كلمة « ضائق » وهي تعبِّر في مرحلة لا أكثر مِنْ فَرْط ما قابلوا الرسول صلى الله عليه وسلم من إنكار ، وما طالبوا به من أشياء تخرج عن نطاق إنسانيته ، فقد طالبوا هنا أن ينزل عليه كَنْزٌ .
وقد جاء الحق سبحانه بذكر مسألة الكنز؛ ليدلنا على مدى ما عندهم من قيم الحياة ، فقيمة القيم عندهم تركزَّتْ في المال؛ ولذلك تمنَّوا لو أن هذا القرآن قد نزل على واحد من الأثرياء ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :
{ وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ هذا القرآن على رَجُلٍ مِّنَ القريتين عَظِيمٍ } [الزخرف : 31] .
إذن : فلم يكن اعتراضهم على القرآن ، بل على مَنْ نزل عليه القرآن . وفي الآية الكريمة التي

نحن بصدد خواطرنا عنها ، طلبوا أن ينزل إليه كَنْزٌ ، وقد ظنوا أن الثراء سيلهيه هو ومَنْ معه عن الدعوة إلى الله تعالى ونسوا أنهم قد عرضوا الثروة عليه من قبل .

وهكذا وضح لمن عرض عليه هذا الأمر أن مسألة الكنز لا تشغله صلى الله عليه وسلم .

والكَنْزُ لغوياً هو الشيء المجتمع ، فإن كانت الماشية مثلاً مليئة باللحم يقال لها : « مُكْتَنِزَةٌ لحماً » ولكن كلمة « الكنز » أطلقت على الشيء الذي هو ثمن لأي شيءٍ ، وهو الذهب .

ولذلك قال الحق سبحانه :

{ والذين يَكْنِزُونَ الذهب والفضة وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ الله فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } [التوبة : 34] .

ونحن نعلم أن هناك فارقاً بين الرزق المباشر والرزق غير المباشر ، فالرزق الغير مباشر هو ما تنتفع به ، طعاماً أو شراباً ، وهناك شيء يأتي لك بالرزق الغير مباشر؛ لكنه لا يُغني عن الرزق المباشر المستمر .

فلو أن إنساناً في صحراء ومعه قناطير مقنطرة من الذهب ، ولا يجد طعاماً ولا شربة ماء ، ماذا يفعل له الذهب « ولو عرض عليه إنسانٌ آخر رغيف خبز وشربة ماء مقابل كل ما يملك من ذهب لوافق على الفور . وهنا لا يكون التقييم أن قنطار الذهب مقابل الرغيف وشربة الماء ، ولكن قنطار الذهب هنا مقابل استمرار الحياة وضرورة الحاجة .

إذن : معنى كلمة » كنز « هو نقد من الذهب والفضة مجتمعاً ، ويقال عنه بالعامية عندنا في مصر : » نقود تحت البلاطة « ، ولكن إذا أدَّى صاحب هذا النقد حقَّ الله تعالى فيما ادَّخره ، لا يُعتبر كَنْزاً؛ لأن الشرط في الكَنْزِ أن يكون مَخفيّاً ، والزكاة التي تُخرَج من المال المدَّخر توضح للمجتمع أن صاحب المال لا يُخفي ما عنده .

ولذلك لا يُسمَّى الكَنْزُ إلاَّ للشيء المجتمع وممنوع منه حق الله تعالى ، فإنْ أدَّى حقُّ الله سبحانه فقد رُفعَتْ عنه الكَنزية؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يقول :

{ والذين يَكْنِزُونَ الذهب والفضة وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ الله فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } [التوبة : 34] .

ومن هذا القول الكريم نفهم أن مَنْ يملك مالاً ويؤدِّي حقَّ الله فيه ، لا يُعتبر كَنْزاً ، وحين تُنقِص الزكاةُ المالَ في ظاهر الأمر ، فهي تدفع الإنسان إلى أن يُحْسِن استثمار هذا المال؛ حتى لا يفقده على مدار أربعين عاماً ، بحكم أن زكاة المال هي اثنان ونصف في المائة؛ ولذلك يحاول صاحب المال أن يُثمِّره ، وهو بذلك يُهيِّء فرصة لغير واجدٍ وقادرٍ لأن يعمل ، وبذلك تقلُّ البطالة .

وقد تكون أنت صاحب المال؛ لكنك لا تفهم أسرار التجارة والصناعة ، فتشارك مَنْ يفهم في التجارة أو الصناعة ، وبذلك تفتح أبواب فرص عمل لمن لا عمل له وقادر على إدارة العمل .

هذه هي إرادة الحق سبحانه وتعالى في أن يجعل من تكامل المواهب نماءً وزيادة ، تكامل مواهب الوَجْد النقود ومواهب الجَهْد ، وبين الوجد والجهد تنشأ الحركة ، ويتفق صاحب المال مع صاحب الجهد على نسب الربح حسب العرض والطلب؛ لأن كل تبادل إنما يخضع لهذا الأمر العرض والطلب لأن مثل هذا التعاون بين الواجد والقادر ينتج سلعة ، والسلعة لا هَوَى لها ، ولكن من يملك السلعة ومن يشتري السلعة لهما هوى ، فمالكُ السلعة يرغب في البيع بأعلى سعر ، ومن يرغب في شراء السلعة يريدها بأقل سعر ، لكن السلعة نفسها لا هوى لها .

وما دام العرض والطلب هو الذي يتحكَّم في السلع ، فهذا توازن في ميزان الاقتصاد .
وعلى سبيل المثال : إن عُرضت اللحوم بسعر مرتفع ، فكبرياء الذات في النفس البشرية تدفع غير القادر لأن يقول : إن تناول اللحم يرهقني صحيّاً . ويتجه إلى الأطعمة الأخرى التي يقدر على ثمنها؛ لأن السلعة هي التي تتحكم ، أما إذا تدخل أحدٌ في تسعير السلع ، بأن اكتنز المال ، ولم يخرجه للسوق لاستثماره ، حينئذ تختفي قدرة الحركة لصاحب المال ، ولا يجد صاحب الموهبة مجالاً لإتقان صنعته .
وقول الحق سبحانه وتعالى في هذه الآية :
{ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُ مَلَكٌ } [هود : 12] .
فكلمة « لولا » كما نعلم للتمني ، وهم تمنوا الكنز أولاً ، ثم طلبوا مجيء مَلَك ، وكيف ينزل المَلَك؟ أينزل على خِلقته أم على خِلْقته بأن يتجسد على هيئة رجل؟
والحق سبحانه وتعالى يقول :
{ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً } [الأنعام : 9] .
وإن نزل المَلَك على هيئة رجل فكيف يتعرَّفون إلى أصله كمَلَك؟ وهذا غباء في الطلب .
وأيضاً قال الحق سبحانه وتعالى :
{ وَمَا مَنَعَ الناس أَن يؤمنوا إِذْ جَآءَهُمُ الهدى إِلاَّ أَن قالوا أَبَعَثَ الله بَشَراً رَّسُولاً * قُل لَوْ كَانَ فِي الأرض ملائكة يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السمآء مَلَكاً رَّسُولاً } [الإسراء : 9495] .
ولو أنزله الحق سبحانه مَلَكاً فسوف يكون من نفس طبيعتهم البشرية ، وسوف يلتقي بهم ويتكلم معهم ، ولن يستطيعوا تمييزه عن بقية الناس وسوف يُكذِّبونه أيضاً .
وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق سبحانه رَدًّا له عن هذا الطلب : { إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ } [هود : 12] .
وهذا الكلام موجَّه من الله سبحانه للرسول صلى الله عليه وسلم ليُلقِّنه الحجة التي يرد بها عليهم ، وقد قال لهم الرسول صلى الله عليه وسلم عن نفسه إنه نذير وبشير ، وقد طلب غيركم الآيات ، وحين جاءت الآيات التي طلبوها لم يؤمنوا ، بل ظلُّوا على تكذيبهم؛ فنكَّل الحق سبحانه بهم .

إذن : فالعناد بالكفر لا ينقلب إلى إيمان بمجرد نزول الآيات ، والحق سبحانه هو القائل :

{ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بالآيات إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأولون } [الإسراء : 59] .

أي : أن الآيات التي طلبها الكافرون لم يأت بها الله سبحانه؛ لأن الأولين قد كذَّبوا بها؛ ولذلك يبلغ الحق سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم هنا بقوله :

{ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ } [هود : 12] .

وهو صلى الله عليه وسلم قد نزل عليه القرآن بالنذارة والبشارة .

ويُنهي الحق سبحانه وتعالى الآية بقوله :

{ والله على كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ } [هود : 12] .

وأنت حين توكِّل إنساناً في البيع والشراء والهِبَة والنَّقل ، وله حرية التصرف في كل ما خصك ، وترقب سلوكه وتصرُّفه ، فإنْ أعجبك ظللتَ على تمسكك بتوكيله عنك ، وإن لم يعجبك تصرُّفه فأنت تُلْغي الوكالة ، هذا في المجال البشري ، أما وكالة الله سبحانه وتعالى على الخَلْق فهي باقية أبداً ، وإن أبى الكافرون منهم .

يقول الحق سبحانه بعد ذلك : { أَمْ يَقُولُونَ افتراه قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ }

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (13)

وفي قول الحق سبحانه وتعالى هنا بيان لِلَوْنٍ آخر من مصادمة الكافرين لمنهج رسول الله صلى الله عليه وسلم والإيمان به ، فقالوا : إن محمداً قد افترى القرآن .

والافتراء : هو الكذب المتعمَّد ، ومعنى الكذب المتعمد أنه كلام يخالف واقعاً في الكون .

فإذا كان الواقع نَفْياً وأنت قلت قضيةَ إثبات؛ تكون قد خالفت الواقع ، كأن يُوجد في الكون شرٌّ ما ثم تقول أنت : لا يوجد شرٌّ في هذا المكان ، وهكذا يكون الواقع إيجاباً والكلام نفْياً .

وكذلك أن يكون في الواقع نَفْيٌ وفي الكلام إيجابٌ ، فهذا أيضاً كذبٌ؛ لأن الصدق هو أن تتوافق القضية الكلامية مع الواقع الكوني ، فإن اختلفتْ مع الواقع الكوني صار الكلام كاذباً .

والكذب نوعان : نوع متعمد ، ونوع غير متعمد . والكذب خرق واقع واختلاق غير موجود .

ويقال خرقت الشيء أي : أنك أتيت لواقع وبدَّلت فيه .

والحق سبحانه وتعالى يقول :

{ وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ } [الأنعام : 100] .

ويقول أيضاً الحق سبحانه :

{ وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً } [العنكبوت : 17] .

أي : تأتون بشيء من عدم ، وهو من عندكم فقط .

ويقول الله سبحانه تعالى :

{ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ } [الأنعام : 116] .

وحين اتهموا محمداً صلى الله عليه وسلم بهتاناً بأنه افترى القرآن جاء الرد من القرآن الكريم بمنتهى البساطة ، فأنتم معشر العرب أهل فصاحة وبلاغة ، وقد جاء القرآن الكريم من جنس ونوع نُبوغكم ، وما دمتم قد قُلْتم : إن محمداً قد افترى القرآن ، وأن آيات القرآن ليست من عند الله ، فلماذا لا تفترون مثله؟

وما دام الافتراء أمراً سهلاً بالنسبة لكم ، فلماذا لا تأتون بمثل القرآن ولو بعشْر سور منه؟ وأنتم قد عِشْتم مع محمد منذ صِغَره ، ولم يكن له شعْر ، ولا نثر ، ولا خطابة ، ولا علاقة له برياضاتكم اللغوية ، ولم يزاول الشعر أو الخطابة ، ولم يشترك في أسواق البلاغة والشعر التي كانت تُعقد في الجاهلية مثل سوق عكاظ .

وإذا كان مَنْ لا رياضة له على الكلام ولا على البلاغة ، قد جاء بهذا القرآن؛ فَلْيكُنْ لديكم وأنتم أهل قُدْرة ودُرْبة ورياضة على البلاغة أن تأتوا ببعض من مثله ، وإن كان قد افترى القرآن فلماذا لا تفترون مثله؟

وأنتم تعرفون المعارضات التي تُقام في أسواق البلاغة عندكم ، حين يقول شاعر قصيدة ، فيدخل معه شاعر أخر في مباراة ليلقي قصيدة أفضل من قصيدة الشاعر الأول ، ثم تُعقد لجان تحكيم تُبَيّن مظاهر الحُسْن ومظاهر السوء في أي قصيدة .

ولو كان محمدٌ صلى الله عليه وسلم قد افترى القرآن كما تقولون فأين أنتم؟ ألم تعرفوه منذ طفولته؟ ولذلك يأمر الحق سبحانه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول :

{ قُل لَّوْ شَآءَ الله مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ }

[يونس : 16] .

فهَل أثرَ عن محمد صلى الله عليه وسلم أنه قال شعراً أو ألقى خطبة أو تَبارَى في عكاظَ أو المربد أو ذي المجاز أو المَجَنَّة ، وتلك هي أسواق البلاغة ومهرجاناتها في تلك الأيام؟

هو لم يذهب إلى تلك الأماكن منافساً أو قائلاً .

إذن : أفليسَ الذين تنافسوا هناك أقدر منه على الافتراء؟ ألم يكن امرؤ القيس شاعراً فَحْلاً؟ لقد كان ، وكان له نظير يعارضه .

وكذلك كان عمرو بن كلثوم ، والحارث بن حِلَّزة اليشْكُري ، كما جاء في عصور تالية آخرون مثل : جرير والفرزدق .

إذن : فأنتم تعرفون مَنْ يقولون الشعر ومَنْ يعارضونهم من أمثالهم من الشعراء .

إذن : فهاتوا مَنْ يفتري مثل سور القرآن ، فإنْ لم تفتروا ، فمعنى ذلك أن القرآن ليس افتراء .

ولذلك يقول الحق سبحانه هنا :

{ أَمْ يَقُولُونَ افتراه قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ } [هود : 13] .

فهل كانوا قادرين على قبول التحدي ، بأنْ يأتُوا بعشر سُوَر من مثل القرآن الكريم في البيان الآسر وقوة الفصاحة وأسرار المعاني؟

لقد تحدَّاهم بأن يأتوا أولاً بمثل القرآن ، فلم يستطيعوا ، ثم تحدَّاهم بأن يأتوا بعشر سور ، فلم يستطيعوا ، وتحدَّاهم بأن يأتوا بسورة ، ثم تحدَّى أن يأتوا ولو بحديث مثله ، فلم يستطيعوا .

وهنا جاء الحق سبحانه بالمرحلة الثانية من التحدي ، وهو أنْ يأتوا بِعَشْر سُور ، ولم يكتف الحق سبحانه بذلك ، بل طالبهم أن يَدْعُوا مَجْمَعاً من البُلَغَاء ، فقال سبحانه :

{ وادعوا مَنِ استطعتم مِّن دُونِ الله } [هود : 13] .

أي : هاتوا كلَّ شركائكم وكل البُلغاء ، من دون الله تعالى .

الحق سبحانه وتعالى هنا يقطع عليهم فرصة الادّعاء عليه سبحانه حتى لا يقولوا : سوف ندعو الله؛ ولذلك طالبهم الحق سبحانه أن يُجَنّبوه { وادعوا مَنِ استطعتم مِّن دُونِ الله إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ } [هود : 13] .

أي : إن كنتم صادقين في أن محمداً صلى الله عليه وسلم قد افترى القرآن ، وبما أنكم أهل ريادة في الفصاحة فَلْتفتروا عَشْر سُوَرٍ من مثل القرآن ، أنتم ومَنْ تستطيعون دعوتهم من الشركاء .

لذلك كان الرد الحكيم من الله في قول الحق سبحانه بعد ذلك : { فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فاعلموا }

فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (14)

والخطاب هنا موجَّه إلى الذين ادَّعوا أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قد افترى القرآن ، أو أن الخطاب مُوجَّه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى قال في الآية السابقة : { قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وادعوا مَنِ استطعتم مِّن دُونِ الله إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ } [هود : 1314] .

أي : إن لم يردُّوا على التحدي ، فليعلموا وليتيقَّنوا أن هذا القرآن هو من عند الله تعالى ، بشهادة الخصوم منهم .

ولماذا عدَّل الحق سبحانه هنا الخطاب ، وقال :

{ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ } [هود : 14] .

أي : من تدعونهم ، ثم قال سبحانه :

{ فاعلموا أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ الله } [هود : 14] .

وقد قال الحق سبحانه ذلك؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم مُطالَبٌ بالبلاغ وما بلغه الرسول صلى الله عليه وسلم للمؤمنين مطلوب منه أن يُبلغوه ، وإنْ لم يستجيبوا للرسول صلى الله عليه

وسلم أو للمؤمنين ، ولم يأتِ أحد مع مَنْ يتهم القرآن بأنه مُفترًى مِن محمدٍ .
وقد يكون هؤلاء الموهوبون خائفين من التحدي؛ لأنهم عرفوا أن القرآن حق ، وإن جاءوا ليفتروا مثله فلن يستطيعوا ، ولذلك فاعلموا يا مَنْ لا تؤمنون بالقرآن أن القرآن : { أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ الله } [هود : 14] .
إذن : فالخطاب يكون مرَّة موجَّهاً للنبي صلى الله عليه وسلم ولأمته .
ولذلك عَدَلَ الحق سبحانه عن ضمير الإفراد إلى ضمير الجمع في قوله تعالى :
{ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فاعلموا أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ الله } [هود : 14] .
أي : ازدادوا علماً أيها المؤمنون بأن القرآن إنما نزل من عند الله .
والعِلْم كما نعلم مراحل ثلاث : علم يقين ، وعين يقين ، وحق يقين .
أو أن الخطاب مُوجَّه للكافرين الذين طلب القرآن منهم أن يَدْعُوا من يستطيعون دعاءه ليعاونهم في معارضة القرآن : { فاعلموا أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ الله } [هود : 14] .
وأعلى مراتب العِلْم عند الحق سبحانه الذي يعلم كل العلم أزلاً ، وهو غير علمنا نحن ، الذَي يتغير حسب ما يتيح لنا الله سبحانه أن نعلم ، فأنت قد تكون عالماً بشيءٍ وتجهل أشياء ، أوعلمتَ شيئاً وغابتْ عنك أشياء .
ولذلك تجد الأطباء ، وأصحاب الصناعات الدقيقة وغيرهم من الباحثين والعلماء يستدرك بعضهم البعض ، فحين يذهب مريض لطبيب مثلاً ويصف له دواءً لا يستجيب له ، فيذهب المريض إلى طبيب آخر ، فيستدرك على الطبيب الأول ، فيصف دواء ، وقد لا يستجيب له المريض مرة ثانية ، وهنا يجتمع الأطباء على هيئة « مجمع طبي » يُقرّر ما يصلح أو لا يصلح للمريض .
ويستدرك كلٌّ منهم على الآخر إلى أن يصلوا إلى قرار ، والذي يستدرك هو الأعلم؛ لأن الطبيب الأول كتب الدواء الذي أرهق المريض أو لم يَستجبْ له ، وهو قد حكم بما عنده من عِلْم ، كذلك بقية الباحثين والعلماء .

وما دام فوق كل ذي علمٍ عليمٌ؛ فالطبيب الثاني يستدرك على الطبيب الأول . . وهكذا .
ولكن أيوجد أحدٌ يستدرك على الله سبحانه وتعالى؟ لا يوجد .
وما دام القرآن الكريم قد جاء بعلم الله تعالى ، فلا علم لبشر يمكن أن يأتي بمثل هذا القرآن .
{ فاعلموا أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ الله وَأَن لاَّ إله إِلاَّ هُوَ } [هود : 14] .
وجاء الحق سبحانه هنا بأنه لا إله إلا هو؛ حتى لا يدَّعي أحدٌ أن هناك إلهاً آخر غير الله .
وذكر الله سبحانه هنا أن هذا القرآن قد نزل في دائرة :
{ لاَّ إله إِلاَّ هُوَ } [هود : 14] .

وما دام الحق سبحانه قد حكم بذلك فلنثق بهذا الحكم .

مثال ذلك : هو حكم الحق سبحانه على أبي لهب وعلى امرأته بأنهما سيدخلان النار فهل كان من الممكن أن يعلن أبو لهب إسلامه ، ولو نفاقاً؟ طبعاً لا؛ لأن الذي خلقَه علم كيف يتصرف أبو لهب .

لذلك نجد بعد سورة المسد التي قررت دخول أبي لهب النار ، قول الحق سبحانه :

{ قُلْ هُوَ الله أَحَدٌ } [الإخلاص : 1] .

أي : أن الحق سبحانه ما دام قد أصدر حكمه بأن أبا لهب سيدخل وزوجه النار ، فلن يقدر أحد على أن يُغيِّر من حكمه سبحانه ، فلا إله إلا هو .

ويُنهي الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله تعالى :

{ فَهَلْ أَنتُمْ مُّسْلِمُونَ } [هود : 14] .

وهذا استفهام ، أي : طلب للفهم ، ولكن ليس كل استفهام طلباً للفهم ، فهذا الاستفهام هنا صادر عن إرادة حقيقية قادرة على فرض الإسلام على من يستفهم منهم .

ولكنه سبحانه شاء أن يأتي هذا الاستفهام على لسان رسوله ليقابله جواب ، ولو لم يكن السائل واثقاً أنه لا يوجد إلا الإسلام لما قالها ، ولو لم يكن السائل واثقاً أنه لا جواب إلا أن يُسْلِم السامع ، ما جعل جواب السامع حجة على السامع .

وقائل هذا الكلام هو الخالق سبحانه ، ولله المثل الأعلى ، وهو سبحانه مُنزَّه عن كل مثل ، تجد إنساناً يحكي لك أمراً بتفاصيله ، ثم يسألك : هل أنا صادق فيما قلت لك؟ . . وهو يأتي بهذا الاستفهام؛ لأنه واثق من أنك ستقول له : نعم ، أنت صادق .

وإذا نظرنا في آية تحريم الخمر والميسر على سبيل المثال نجد الحق سبحانه وتعالى يقول :

{ إِنَّمَا يُرِيدُ الشيطان أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ العداوة والبغضآء فِي الخمر والميسر وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ الله وَعَنِ الصلاة فَهَلْ أَنْتُمْ مُّنتَهُونَ } [المائدة : 91] .

وكأن هذا الاستفهام يحمل صيغة الأمر بأن : انتهوا من الخمر والميسر ، واخجلوا مما تفعلون .

إذن : فقول الحق سبحانه في آخر الآية الكريمة :

{ فَهَلْ أَنتُمْ مُّسْلِمُونَ } [هود : 14] يعني : أسلموا ، واتركوا اللجاجة بأن القرآن قد جاء من عند محمد ، أو أنه افتراه ، بل هو من عند الله سبحانه الذي لا إله إلا هو .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { مَن كَانَ يُرِيدُ الحياة الدنيا }

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ (15)

وكان الكافرون قد تكلموا بما أورده الحق سبحانه على ألسنتهم وقالوا :

{ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ } [هود : 12] .

فهم إذن مشغولون بنعيم الدنيا وزينتها .

والحياة تتطلب المقومات الطبيعية للوجود ، من ستر عورة ، وأكل لقمة وبيت يقي الإنسان ويؤويه . أما الزينة فأمرها مختلف ، فبدلاً من أن يرتدي الإنسان ما يستر العورة ، يطلب لنفسه الصوف الناعم شتاء ، والحرير الأملس صيفاً ، وبدلاً من أن يطلب حجرة متواضعة تقيه من البرد أو الحر ، يطلب لنفسه قصراً .

وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

{ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشهوات مِنَ النساء والبنين والقناطير المقنطرة مِنَ الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث } [آل عمران : 14] .

وكل هذه أشياء تدخل في متاع الحياة الدنيا ، ويقول الحق سبحانه :

{ ذلك مَتَاعُ الحياة الدنيا والله عِنْدَهُ حُسْنُ المآب } [آل عمران : 14] .

إذن : ما معنى كلمة « زينة »؟

معنى كلمة « زينة » أنها حُسْنٌ أو تحسين طارىء على الذات ، وهناك فرق بين الحسن الذاتي والحسن الطارىء من الغير .

والمرأة على سبيل المثال حين تتزين فهي تلبس الثياب الجميلة الملفتة ، وتتحلّى بالذهب البرَّاق ، فهو المعدن الذي يأخذ نفاسته من كثرة تلألئه الذي يخطف الأبصار ، ولا تفعل ذلك بمغالاة إلا التي تشك في جمالها .

أما المرأة الجميلة بطبيعتها ، فهي ترفض أن تتزين؛ ولذلك يسمونها في اللغة : « الغانية » ، أي : التي استغنت بجمالها الطبيعي عن الزينة ، ولا تحتاج إلى مداراة كِبَرَ أذنيها بقُرْط ضخم ، ولا تحتاج إلى مداراة رقبتها بعقد ضخم ، ولا تحاول أن تداري معصمها الريان بسوار ، وترفض أن تُخفِي جمال أصابعها بالخواتم .

وحين تُبالغ المرأة في ذلك التزيُّن فهي تعطي الانطباع المقابل .

وقد يكون المثل الذي أضربه الآن بعيداً عن هذا المجال ، لكنه يوضح كيف يعطي الشيء المبالَغ فيه المقابل له .

وفي ذلك يقول المتنبي :

الطِّيبُ أنت إذَا أصَابكَ طِيبهُ ... والماءُ أنتَ إذا اغتسلتَ الغاسلُ

وهو هنا يقول : إن الطيب إذا ما أصاب ذلك الإنسان الموصوف ، فالطيب هو الذي يتطيَّب ، كما أن الماء هو الذي يُغْسَل إذا ما لمس هذا الإنسان ، وكذلك تأبى المرأة الجميلة أن تُزيِّن نَحْرَها بقلادة؛ لأن نحرها بدون قلادة يكون أكثر جمالاً .

ويقال عن مثل هذه المرأة « غانية »؛ لأنها استغنتْ بجمالها .

ويقال عن جمال نساء الحضر : إنه جمال مصنوع بمساحيق ، وكأن تلك المساحيق مثبتة على

الوجه بمعجون كمعجون دهانات الحوائط ، وكأن كل واحدة تفعل ذلك قد جاءت بسكين من سكاكين المعجون لتملأ الشقوق المجعدة في وجهها .

ولحظة أن يسيح هذا المعجون ترتبك ، ويختل مشهد وجهها بخليط الألوان؛ ولذلك يقال :

حُسْنُ الحضَارةِ مُجْلُوبٌ بِتَطْرِيةٍ ... وفي البدَاوةِ حُسْنٌ غيرُ مَجْلوبِ

إذن : فالزينة هي تحسين الشيء بغيره ، والشيء الحسن يستغني عن الزينة .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى :

{ مَن كَانَ يُرِيدُ الحياة الدنيا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ } [هود : 15] .

أي : إن كفرتم بالله فهو سبحانه لا يضن عليكم في أن يعطيكم مقومات الحياة وزينتها؛ لأنه رب ، وهو الذي خلقكم واستدعاكم إلى الوجود ، وقد ألزم الحق سبحانه نفسه أن يعطيكم ما تريدون من مقومات الحياة وزينتها؛ لأنه سبحانه هو القادر على أن يوفِّي بما وعد .

وهو سبحانه يقول هنا :

{ نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ } [هود : 15] .

أي : أنهم إن أخذوا بالأسباب فالحق سبحانه يُلزم نفسه بإعطاء الشيء كاملاً غير منقوص .

وهم في هذه الدار الدنيا لا يُبْخَسون في حقوقهم ، فمن يتقن عمله يأخذ ثمرة عمله .

وهذا القول الكريم يحُلُّ لنا إشكالاً كبيراً نعاني منه ، فهناك مَنْ يقول : إن هؤلاء المسلمين الذين يقولون : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، ويقيمون الصلاة ، ويبنون المساجد ، بينما هُمْ قومٌ متخلّفون ومتأخّرون عن رَكْب الحضارة ، بينما نجد الكافرين وهم يَرْفُلُون في نعيم الحَضَارة .

ونقول : إن لله تعالى عطاءَ ربوبية للأسباب ، فمن أحسنَ الأسباب حتى لو كان كافراً ، فالأسباب تعطيه ، ولكن ليس له في الآخرة من نصيب؛ لأن الحق سبحانه يقول :

{ وَقَدِمْنَآ إلى مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَآءً مَّنثُوراً } [الفرقان : 23] .

والحق سبحانه يجزي الكافر الذي يعطي خيراً للناس بخيرٍ في الدنيا ، ويجزي الصادق الذي لا يكذب من الكفار بصدق الآخرين معه في الدنيا ، ويجزي من يمدُّ يده بالمساعدة من الكفار بمساعدة له في الدنيا .

وكلها أعمال مطلوبة في الدِّين ، ولكنَّ الكافر قد يفعلها ، فيردُّ الله سبحانه وتعالى له ما فعل في الدنيا ، وإنْ كان قد فعل ذلك ليُقَال : إن فلاناً عَمِلَ كذا ، أو فلاناً كان شَهْماً في كذا ، فيُقال له : « علْمتَ لِيُقال وقد قِيل » .

وإذا كان الكافرون يأخذون بالأسباب؛ فالحق سبحانه يعطيهم ثمرة ما أخذوا من الأسباب .

ويجب أن نقول لمن يتهم المسلمين بالتخلُّف :

لقد كان المسلمون في أوائل عهدهم متقدمين ، وكانوا سادة حين طبَّقوا دينهم ، ظاهراً وباطناً ، شكلاً ومضموناً .

وعلى ذلك فالتخلُّف ليس لازماً ولا ملازماً للإسلام ، وإنما جاء التخلُّف لأننا تركنا روح الإسلام وتطبيقه .

وإنْ عقدنا مقارنة بين حال أوربا حينما كانت الكنيسة هي المسيطرة ، كنا نجد طل صاحب نشاط عقلي مُبْدِعٍ ينال القتل عقوبة على الإبداع ، وكانت تسمى تلك الأيام في أوربا « العصور المظلمة » .

وحينما جاءت الحروب الصليبية وعرفت أوربا قوة الإسلام والمسلمين ، ودحرهم المسلمون ، بدأوا في محاولة الخروج على سلطان البابا والكنيسة ، وعندما فعلوا ذلك تَقَدَّموا .

هم إذن عندما تركوا سلطان البابا تقدموا ، ونحن حين تركنا العمل بتعاليم الإسلام تخلَّفنا .

إذن : فأيُّ الجَرْعَتيْن خير؟

إن واقع الحياة قد أثبت تقدُّم المسلمين حين أخذوا بتعاليم الإسلام ، وتخلفوا حين تركوها .

وهكذا . . فمعيار التقدُّم هو الأخذْ بالأسباب ، فمن أخذ بالأسباب وهو مؤمن نال حُسْن خير الدنيا وحُسْن ثواب الآخرة ، ومَنْ لم يؤمن وأخذ بالأسباب نال خير الدنيا ولم يَنَلْ ثواب الآخرة .

والحق سبحانه وتعالى هو القائل :

{ والذين كفروا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظمآن مَآءً حتى إِذَا جَآءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ الله عِندَهُ } [النور : 39] .

وهكذا يُفاجأ بالإله الذي كذَّب به .

والحق سبحانه يقول :

{ مَّثَلُ الذين كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشتدت بِهِ الريح فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ على شَيْءٍ } [إبراهيم : 18] .

إذنْ : فمن أراد الدنيا وزينتها ، فالحق الأعلى سبحانه يوفِّيه حسابه ولا يبخسه من حقه شيئاً ، فحاتم الطائي على سبيل المثال أخذ صفة الكرم ، وعنترة أخذ صفة الشجاعة ، وكل إنسان أحسن عملاً أخذ أجره ، ولكن عطاء الآخرة هو لمن عمل عمله لوجه الله تعالى ، وآمن به .

وحتى الذين دخلوا الإسلام نفاقاً وحاربوا مع المسلمين ، أخذوا نصيبهم من الغنائم ، ولكن ليس لهم في الآخرة من نصيب .

إذن : فالوفاء يعني وجود عَقْد ، وما دام هناك عقد بين العامل والعمل ، وأتقن العاملُ العملَ فلا بد أن يأخذ أجره دون بَخْس؛ لأن البَخْسَ هو إنقاص الحق .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك : { أولئك الذين لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخرة }

أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (16)

إذن : فالنار مثوى هؤلاء الذين عملوا من أجل الدنيا دون إيمان بالله ، فقد أخذوا حسابهم في الدنيا ، أما عملهم فقد حبط في الآخرة ، والحَبَط هو انتفاخ الماشية حين تأكل شيئاً أخضر لم ينضح بعد ، ويقال في الريف عن ذلك : « انتفخت البهيمة » أي : أن هناك غازات في بطنها ، وقد يظنها الجاهل سِمْنةً ، لكن هذا الانتفاخ يزول بزوال سببه .

وعمل الكافرين إنما يحبط في الآخرة؛ لأنه باطل .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { أَفَمَن كَانَ على بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ }

أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (17)

والبيِّنة هي بصيرة الفطرة السليمة التي تُلْفِت الإنسان إلى وجود وجب الوجود ، وتوضّح للإنسان أن هذا الكون الجميل البديع لا بُدَّ له من واجد .

وهكذا تكون الهداية بالبصيرة والفطرة .

والعربي القديم حين سار في الصحراء ووجود بَعْراً مُلْقَى في الصحراء ، ورأى أثر قدم ، فقال : « البَعْرة تدل على البعير ، والأثر يدل على المسير ، وسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج وبحار ذات امواج ، أفلا يدل كُلُّ ذلك على اللطيف الخبير؟ » .

وهكذا اهتدى الرجل بالفطرة ، وهي بيِّنة من الله .

وقد أودع الله سبحانه في كل إنسان فطرة ، وبهذه الفطرة شهدنا في عالم الذَّرِّ .

وفي ذلك يقول الحق سبحانه :

{ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بني ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ على أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بلى شَهِدْنَآ } [الأعراف : 172] .

إذن : فالبيِّنة هي : إيمان الفطرة المركوز في ذرات الأشياء .

وقد تُضبِّب الشهوات هذا الإيمان ، فلا يحمل نفسه على المنهج فيرسل الحق سبحانه رحمة منه رسلاً تذكِّرنا بالبينات الأولى ، وتدلنا على العلل والأحكام حتى تنضمَّ البينة من الرسل على البينة من الفطرية في الكائن .

وهكذا يبيّن الحق سبحانه وتعالى مناط الاقتناع بدين الله ، فقد يكون هذا الأمر مجهولاً للخلق ، فيريد سبحانه أن يبيّن لنا أن هذا الجهل هو جهل غير طبيعي؛ لأن الفطرة السليمة تهتدي قبل أن يجيء رسولٌ يُلْفِتنا إلى القوة العليا التي تدبّر حركة هذا الكون .

وقد ضربت من قبل مثلاً لذلك بمن سقطتْ به طائرة في الصحراء ، لا ماء فيها ولا طعام ولا أنيس ولا مأوى ، ثم غلبه النوم فنام ، وحين استيقظ وجد مائدة منصوبة عليها أطايب الطعام وأطيب الشراب ، ووجد صواناً منصوباً ليأوي إليه؛ فلا بد لهذا الإنسان أن يدور بفكره سؤالٌ : من صنع هذا؟

وهو سيسأل نفسه هذا السؤال قبل أن يستمتع بشيء من هذا ، خصوصاً وأنه لم يجد أحداً يقول له : أنت في ضيافتي .

إذنْ : فلا بد أن يفكر بعقله .

وكذلك الإنسان الذي طرأ على الوجود ، وما ادَّعى واحدٌ من خَلْق الله تعالى أنه خلق هذا الوجود ، وما ادَّعى أحدٌ أنه خلق السموات والأرض ، وما ادَّعى أحدٌ أنه سخَّر كلَّ ما في الكون لخدمة الإنسان .

وكان من الواجب على الإنسان قبل أن ينعم بهذا ، أن يفكر : من الذي صنع له كل ذلك؟ فإذا جاء رسول من جنس الإنسان ليقول له : أنا جئت لأحل لك اللغز المطلوب لك .

هنا كان على الإنسان أن يرهف سمعه لذلك الرسول؛ لأنه قد جاء ليحلَّ للإنسان أمراً يشغل باله .

ومن لطف الله سبحانه بنا أنه يطلب منا مقدَّماً أن نفكر في ذلك ، بل تركنا فترة طويلة بلا تكليف في هذه الدنيا ، لينعم الإنسان بخير ربه ، وبعد ذلك إذا ما جاء اكتمال الرشد ونضج ، ولم يكن مكرهاً؛ فالحق سبحانه وتعالى يكلفه بتكاليف الإيمان .

ولا بد للإنسان أن يتساءل : فكل شيء مهما كان تافهاً لا بد له من صانع ، والمصباح الذي يضيء دائرة قطرها **20** متراً ، عرفنا صانعه ، ودرسنا المعامل التي أنجزته ، والإمكانات التي تم استخدامها ، والمواد التي صنع منها ، أفلا نعرف تاريخ هذه الشمس ، ومن جعلها لا تحتاج إلى صيانة ولا إلى وقود ولا إلى قطع غيار ، وتنير نصف الكرة الأرضية؟

هذه مسألة كان يجب أن نبحثها؛ لنرى آفاق تلك البينة ، بينة نور وقوة وفطرة ، يهبها الله للإنسان المفكر؛ ليهتدي إلى أن وراء هذه الكون خالقاً مدبراً .

فإذا ما جاء إنسان مثله ليقول له : إن خالق الدنيا هو الله تعالى ، وهو سبحانه يطلب منك كذا وكذا ، كان أمراً منطقياً وطبيعياً أن نسمع لهذا الإنسان ونطابق ما يقول على إحساس الفطرة ورؤية البينات .

إذن : فنحن نصل إلى المجهول أولاً بالفطرة ، وقد نصل بالبديهة التي لا تشوبها أدنى شبهة ، فأنت حين ترى دخاناً تعتقد بالبديهة أن هناك ناراً ، وحين تسير في الصحراء وترى خضرة؛ ألا تعتقد أن هناك مياهاً ترويها؟

هذه إذن أمور تعرفها بالبديهة ، ولا تحتاج إلى بحث أو جهد .

وهناك أمور قد تتطلب منك جهداً عقلياً تبحث به عما بعد المقدمات ، مثل الجهد العقلي الذي استدل به العربي على أن هناك إلهاً خالقاً يُدير هذا الكون ، فاستدل من البعرة على وجود البعير ، وأن أثر القدم يدل على المسير ، واستنتج من ذلك أن الكواكب ذات الأبراج ، والأرض ذات الفجاج ، والبحار ذات الأمواج ، كلها أمور تدل على وجود اللطيف الخبير .

كل هذه الأمور لم يقدر العقل إلا على الحكم عليها جملة ، وإن لم يعرف التفصيل .

لقد عرف العقل أن وراء هذا الكون خالقاً ، صانعاً ، حكيماً ، لكنه لم يعرف اسماً له ، وهذا أمر لا يعرفه الإنسان بالعقل ، ولا يعرف أيضاً ما هو المنهج المطلوب لهذا الخالق ، وبماذا يجزي المطيع له ، ولا بماذا يعاقب العاصي له .

إذن : لا بد من بلاغ عن الله تعالى يدل على القوة التي اقتنعت بها جملة .

والمفكرون بالعقل في الكون يعلمون أن وراء هذا الكون خالقاً ، لكن لا يعرفون اسمه ، ولا مطلوبه .

إذن : فأنت لا تعرف اسم الله إلا منه ، عن طريق الوحي إلى رسوله ، ولا تعرف مطلوب الله إلا من الرسول الذي أنزل عليه البلاغ .

ومن رحمة الله بالإنسان أنه سبحانه قد أرسل رسولاً ، ومع هذا الرسول معجزة هي القرآن؛ لأن العقل حتى حين يهتدي إلى قوة القادر الأعلى سبحانه ، فإنها ستظل بالنسبة له مبهمة ، وحين أنزل الحق سبحانه القرآن الكريم فقد أنزله رحمة بعباده وبينة لهم .

{ أَفَمَن كَانَ على بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ } [هود : 17] .

فالقرآن حجة ونور ، وهو يهدي البصيرة الفطرية والموجودة في الإنسان { وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ } [هود : 17] هو من أنزل عليه الوحي ، ويخبرنا عن الحق سبحانه وتعالى ما يوضح لنا أن الخالق الأعلى والقوة المطلقة هو الله سبحانه ويوضح لنا الشاهد مطلوب الله تعالى .

ونحن هنا أمام ثلاثة شهود :

الشاهد الأول : هو الحجة والبينة .

والشاهد الثاني : هو البرهان والبصيرة التي يهتدي إليها العقل ، والرسول هو من يبين لنا المنهج بعد الإجمال .

وهذا الرسول جاء من قبله كتاب موسى :

{ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ موسى إِمَاماً وَرَحْمَةً } [هود : 17] .

وهذا هو الشاهد الثالث .

ومن لا يلتفت إلى المدلول بالأدلة الثلاثة مقصّر؛ فمن عنده تلك البينة ، ومن سمع الشاهد من

الرسول ، والشاهد الذي قبله ، وهو كتاب موسى عليه السلام وشاهد بعده إلى نفس قوم موسى لا بد أن يقوده ذلك إلى الإيمان .

وقول الحق سبحانه :

{ أولئك يُؤْمِنُونَ بِهِ } [هود : 17] .

إشارة إلى من التفتوا إلى الأدلة : بينة ، وشاهداً ، وشاهداً من قبله .

ثم يقول الحق سبحانه :

{ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأحزاب فالنار مَوْعِدُهُ } [هود : 17] .

والكفر كما علمنا هو الستر ، والكفر في ذاته دليل على الإيمان ، فلا يفكر أحد بغير موجود . فوجود المكفور به سابق على الكفر ، والكفر طارىء عليه .

إذن : فالكفر طارىء على الإيمان؛ لأن الإيمان هو أصل الفطرة .

{ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأحزاب فالنار مَوْعِدُهُ } [هود : 17] .

وكلمة « أحزاب » جمع حزب . والحزب هو الجماعة الملتقية على مبدأ تتحمس لتنفيذه ، مثل الأحزاب التي نراها في الحياة السياسية ، وهي أحزاب بشرية تتصارع في المناهج والغايات ، وهم أحرار في ذلك؛ لأنهم يتصارعون بفكر البشر .

أما في العقيدة الأولى ، فَمنَ المُخطِّط الأعلى ، وهو الحق سبحانه وتعالى ، فالمنهج يأتي منه؛ لأن هذا المنهج يوصل إليه؛ لذلك قال الله سبحانه عمَّن يتبعون منهجه :

{ أولئك حِزْبُ الله } [المجادلة : 22] .

أي : أنهم يدخلون في حزب يختلف عن أحزاب البشر التي تختلف أو تتفق في فكر البشر .

وهنا يقول الحق سبحانه :

{ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأحزاب فالنار مَوْعِدُهُ } [هود : 17] .

والمقصود بهم كفار قريش عبدة الأوثان ، والصابئة واليهود والنصارى الذين لم يؤمنوا برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكل منهم جماعة تمثل حزباً ، ويقول عنهم الحق سبحانه :

{ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ } [المؤمنون : 53] .

ومن يكفر من هؤلاء برسالة رسول الله وبرسول الله فالجزاء هو النار ، وبذلك بيَّن لنا الحق سبحانه أن هنالك حزبين : حزب الله ، والأحزاب الأخرى ، وهما فريقان كلّ منهما مواجه للآخر .

ويقول الحق سبحانه لرسوله ، والمراد أيضاً أمة محمد صلى الله عليه وسلم :

{ فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ } [هود : 17] .

أي : لا تكن يا رسول الله في شك من ذلك؛ لأن رسالتك وبعثتك تقوم على أدلة البينة والفطرة والهدى والنور المطلوب من الله تعالى ، والشاهد معك ، كما شهد لك من جاء من قبلك أنك

جئت بالمنهج الحق :

{ إِنَّهُ الحق مِن رَّبِّكَ } [هود : 17] .

والحق كما علمنا من قبل هو الشيء الثابت الذي لا يعتريه تغيير ، وهذا الحق لا يمكن أن يأتي إلا من إله لا تتغير أفعاله .

ويُنهي الحق سبحانه الآية بقوله :

{ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يُؤْمِنُونَ } [هود : 17] .

وهؤلاء لا يؤمنون عناداً؛ لأن الأدلة منصوبة بأقوى الحجج ، ومَنْ يمتنع عليها هو مجرد معاند .

والحق سبحانه يقول في مثل هؤلاء المعاندين :

{ وَجَحَدُواْ بِهَا واستيقنتها أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً } [النمل : 14] .

أي : أنهم مع كفرهم يعلمون صدق الأدلة على رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى صدق بعثته ، فيكون كفرهم حنيئذ كفر عناد؛ لأن الأدلة منصوبة بأقوى الحجج ، فيكون من يمتنع على الإيمان بهذه الأدلة إنساناً معانداً .

يقول الحق سبحانه وتعالى : { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى عَلَى الله كَذِباً }

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (18)

هذه الآية تبدأ بخبر مؤكد في صيغة استفهام ، حتى يأتي الإقرار من هؤلاء الذين افتروا على الله كذباً ، والإقرار سيد الأدلة .

الواحد من هؤلاء المفترين إذا سمع السؤال وأدار ذهنه في الظالمين ، فلن يجد ظلماً أفدح ولا أسوأ من الذي يفتري على الله كذباً ، ويقر بذلك .

وهكذا شاء الحق سبحانه أن يأتي هذا الخبر في صيغة استفهام ، ليأتي الإقرار اعترافاً بهذا الظلم الفظيع .

وهؤلاء المكذبون يُعرَضون على الله مصداقاً لقول الحق سبحانه :

{ أولئك يُعْرَضُونَ على رَبِّهِمْ } [هود : 18] .

والعرض إظهار الشيء الخفي لنقف على حاله .

ومثال ذلك في حياتنا : هو الاستعراض العسكري حتى يبيّن الجيش قوته أمام الخصوم ، وحتى تُبلغ الدولة غيرها من الدول بحجم قوتها .

وكذلك نجد الضابط يستعرض فرقته ليقف على حال أفرادها ، ويقيس درجة انضباط كل فرد فيها وحسن هندامه ، وقدرة الجنود على طاعة الأوامر .

ومثال آخر من حياتنا : فنحن نجد مدير المدرسة يستعرض تلاميذها لحظة إعلان نتائج الامتحان ، ويرى المدير والتلاميذ خزي المقصر منهم أو الذي لم يؤد واجبه بالتمام .

فما بالنا بالعرض على الله تعالى ، حين يرى المكذبون حالهم من الخزي؟

ذلك أنهم سيفاجأون بوجود الله الذي أنكروه افتراءً؛ لأن الحق سبحانه يقول :

{ والذين كفروا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظمآن مَآءً حتى إِذَا جَآءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ الله عِندَهُ } [النور : 39] .

فأيُّ خزي إذن سيشعرون به؟!

ويُظهر الحق سبحانه وتعالى ما كان مخفيّا منهم حين يعرض الكل على الله تعالى مصداقاً لقوله سبحانه :

{ وَعُرِضُواْ على رَبِّكَ صَفّاً } [الكهف : 48] .

وكذلك يُعرضون على النار؛ لأن الحق سبحانه هو القائل :

{ النار يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً } [غافر : 46] .

وهكذا يظهر الخزي والخجل والمهانة على هؤلاء الذين افتروا على الله تعالى .

وهو سبحانه يعلم كل شيء أزلاً ، ولكنه سبحانه شاء بذلك أن يكشف الناس أمام بعضهم البعض ، وأمام أنفسهم ، حتى إذا ما رأى إنسان في الجنة إنساناً في النار ، فلا يستثير هذا المشهد شفقة المؤمن؛ لأنه يعلم أن جزاء المفتري هو النار .

ويا ليت الأمر يقتصر على هذا الخزي ، بل هناك شهادة الأشهاد؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يقول في نفس الآية :

{ وَيَقُولُ الأشهاد هؤلاء الذين كَذَبُواْ على رَبِّهِمْ } [هود : 18] .

والأشهاد جمع له مفرد ، هو مرة « شاهد » ، مثل « صاحب » و « أصحاب » ، ومرة يكون المفرد « شهيد » مثل « شريف » و « أشراف » .

والأشهاد منهم الملائكة؛ لأن الحق سبحانه يقول :

{ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ } [ق : 18] .

وكذلك الحق سبحانه :

{ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَاماً كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ }

[الإنفطار : 1012] .

أو شهود من الأنبياء الذين بلغوهم منهج الله؛ لأن الحق سبحانه يقول :

{ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ على هؤلاء شَهِيداً } [النساء : 41] .

وأيضاً الشهيد على هؤلاء هو المؤمن من أمة محمد عليه الصلاة والسلام ، فيبلِّغها إلى غيره ،

مصداقاً لقول الحق سبحانه :

{ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى الناس } [البقرة : 143] .

وكلمة « الشهادة » تعني : تسجيل ما فعلوا ، وتسجل أيضاً أنهم بُلِّغوا المنهج وعاندوه وخرجوا عليه ، فارتكبوا الجريمة التي تقتضي العقاب ، لأن العقوبة لا تكون إلا بجريمة ، ولا تجريم إلا بنص ، ولا نص إلا بإعلام .

ولذلك نجد القوانين التي تصدر من الدولة تحمل دائماً عبارة « يُعمل بالقانون من تاريخ نشره في الجريدة الرسمية » .

إذن : فعمل الأشهاد أن يعلنوا أن الذين أنكروا الرسالة والرسول قد بُلِّغوا المنهج ، وبُلِّغوا أن إنكار هذا المنهج وإنكار هذا الرسول هو الجريمة الكبرى ، وأن عقوبة هذا الإنكار هي الخلود في النار .

ولأن الحق سبحانه وتعالى هو العدل نفسه؛ لذلك فلا عقاب إلا بالتأكيد من وقوع الجريمة ، لذلك لا بد من شهادات متعددة ، ولذلك يأتي الشاهد من الملائكة ، وهو من جنس غير جنس المعروضين ، ويأتي الشاهد من الأنبياء وهو من جنس البشر إلا أنه معصوم .

وكذلك يأتي الشاهد من الإخوة المؤمنين الذين يشهدون أنهم قد بُلِّغوا منهج الإيمان ، ثم تأتي شهادة هي سيدة الشهادات كلها ، وهي شهادة الأبعاض على الكل .

يقول الحق سبحانه :

{ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ الله إِلَى النار فَهُمْ يُوزَعُونَ * حتى إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ * وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قالوا أَنطَقَنَا الله الذي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } [فصلت : 1921] .

فالجوارح تنطق لتقيم الحجة على أولئك المذنبين .

وسؤال المذنبين عن كيفية وقوع النطق لا لزوم له؛ لذلك نجد السؤال هنا « لِمَ »؛ لأن الجوارح كانت هي أدوات المذنبين في ارتكاب الجرائم؛ لأن اليد هي التي امتدت لتسرق ، واللسان هو الذي نطق قول الزور ، والقلب هو الذي حقد ، والساق هي التي مشت إلى المعصية .

والإنسان كما نعلم مركَّب من جوارح ، وهذه الجوارح لها أجهزة تكوِّن الكل الإنساني ، ومدير كل الجسم هو العقل ، فهو الذي يأمر اليد لتمتد وتسرق ، أو تمتد لتربت على اليتيم؛ والعين تأخذ أوامرها من العقل ، فإما أن يأمرها بأن تنظر إلى جمال الكون ، وتعتبر بما تراه من أحداث ، أو يأمرها بأن تنظر إلى الحرام .

إذن : الجوارح خادمة مطيعة مُسخَّرة لذلك الإنسان وإرادته ، لكن الأمر يختلف في الآخرة ، حيث لا أمر لأحد إلا الله .

والحق سبحانه القائل :

{ لِّمَنِ الملك اليوم لِلَّهِ الواحد القهار } [غافر : 16] .

فالجوارح تقول يوم القيامة لأصحابها : كنا نفعل ما تأمروننا به من المعاصي رغماً عنا؛ لأننا كنا مُسخَّرين لكم في الدنيا ، والآن انحلَّتْ إرادتكم عنا فقلنا ما أجبرتمونا على فعله .

وهكذا تعترف الأشهاد ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

{ وَيَقُولُ الأشهاد هؤلاء الذين كَذَبُواْ على رَبِّهِمْ أَلاَ لَعْنَةُ الله عَلَى الظالمين } [هود : 18] .

وما داموا قد كذبوا على ربهم ، فالمكذوب عليه هو الله ، ولا بد أن يطردهم من الرحمة ، وهم قد ارتكبوا قمة الظلم وهو الشرك به والإلحاد وإنكار الرسول صلى الله عليه وسلم والرسالة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { الذين يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ الله }

الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (19)

وهنا يحدثنا القرآن عن هؤلاء الذين كفروا بالله وآياته ورسوله صلى الله عليه وسلم ، ولم يكتفوا بكفرهم ، بل تمادوا وأرادوا أن يصدوا غيرهم عن الإيمان .

وبذلك تعدَّوا في الجريمة ، فبعد أن أجرموا في ذواتهم؛ أرادوا لغيرهم أن يُجرم .

وسبق أن أنزل الحق سبحانه خطاباً خاصّاً بأهل الكتاب ، الذين سبق لهم الإيمان برسول سابق على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن أعماهم الطمع في السلطة الزمنية فطمسوا الآيات المبشرة برسول الله في كتبهم ، وهم بذلك إنما صدُّوا عن سبيل الله ، وأرادوا أن تسير الحياة معوجَّة .

يقول الحق سبحانه :

{ قُلْ ياأهل الكتاب لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ الله مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجاً وَأَنْتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا الله بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ } [آل عمران : 99] .

وقد أرسل الحق سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم ليعدل المُعوجَّ من أمور المنهج . والعوج هو عدم الاستقامة والسوائية ، وقد يكون في القيم ، وهي ما قد خفي من المعنويات ، فتقول : أخلاق فلان فيها عوج ، وأمانة فلان فيها عوج .

ويقول الحق سبحانه :

{ الحمد لِلَّهِ الذي أَنْزَلَ على عَبْدِهِ الكتاب وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا } [الكهف : 1] .

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الله سبحانه :

{ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً } [هود : 19] .

أما في الأمور المحسة فلا يقال : « عِوَج » ، بل يقال : « عَوَج ، فأنت إذا رأيت شيئاً معوجاً في الأمور المحسة تقول : عَوَج .

لكننا نقرأ في القرآن قول الحق سبحانه :

{ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الجبال فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً * فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً * لاَّ ترى فِيهَا عِوَجاً ولا أَمْتاً } [طه : 105107] .

وقد أوردها الحق سبحانه هنا بهذا الشكل لدقة الأداء القرآني؛ لأن هناك عوجاً حسياً يحسه الإنسان ، مثلما يسير الإنسان في الصحراء؛ فيجد الطريق منبسطاً ثم يرتفع إلى ربوة ثم ينبسط مرة أخرى ، ثم يقف في الطريق جبل ، ثم ينزل إلى وادٍ ، وأي إنسان يرى مثل هذا الطريق يجد فيه عوجاً .

أما إذا كنت ترى الأرض مبسوطة مسطوحة كالأرض الزراعية ، فقد تظن أنها أرض مستوية ، ولكنها ليست كذلك؛ بدليل أن الفلاح حين يغمر الأرض بالمياه ، يجد بقعة من الأرض قد غرقت بالماء ، وقطعة أخرى من نفس الأرض لم تمسها المياه ، وبذلك نعرف أن الأرض فيها عوج لحظة أن جاء الماء ، والماء كما نعلم هو ميزان كل الأشياء المسطوحة .

ولذلك حين نريد أن نحكم استواء جدار أو أرض ، فنحن نأتي بميزان الماء؛ لأنه يمنع حدوث أي عوج مهما بلغ هذا العوج من اللطف والدقة التي قد لا تراها العين المجردة .

وفي يوم القيامة يأتي أصحاب العوج في العقيدة ، ويصورهم الحق سبحانه في قوله :

{ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الداعي لاَ عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الأصوات للرحمن فَلاَ تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْساً } [طه : 108] .

هم إذن يصطفُّون بلا اعوجاج ، كما يصطف المجرمون تبعاً لأوامر من يقودهم إلى السجن ، في ذلة وصَغَار ولا ينطقون إلا همساً .

وهنا يقول الحق سبحانه :

{ الذين يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ الله وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُمْ بالآخرة هُمْ كَافِرُونَ } [هود : 19] .

والسبب في صَدِّهم عن سبيل الله أنهم يريدون الحال مُعْوجاً ومائلاً ، وأن يُنفِّروا الناس من الإيمان ليضمنوا لأنفسهم السلطة الزمنية ويفسدون في الأرض؛ لأن مجيء الإصلاح بالإيمان أمر يزعجهم تماماً ، ويسلب منهم ما ينتفعون به بالفساد .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { أولئك لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي الأرض }

أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ (20)

والإعجاز هو الامتناع ، وأعجزت فلاناً ، أي : برهنت على أنه ممتنع عن الأمر وغير قادر عليه .

وقد تجلَّى الإعجاز على سبيل المثال في عجز هؤلاء الذين أنكروا أن القرآن معجزة أن يأتي بآية من مثله .

والمعجز في الأرض هو من لا تقدر عليه .

ويبيّن لنا الحق سبحانه في هذه الآية أن هؤلاء الكافرين لا يُعجزون الله في الأرض ، بدليل أن هناك نماذج من أمم قد سبقت وكفرت ، فمنهم من أخذته الريح ، ومنهم من خسف الله بهم الأرض ، ومنهم من غرق ، وإذا انتقلوا إلى الآخرة فليس لهم ولي أو نصير من دون الله؛ لأن الولي هو القريب منك ، ولا يقرب منك إلا من تحبه ، ومن ترجو خيره .

فإذا قَرُب منك إنسان له مواهب فوق مواهبك ، نضح عليك من مواهبه ، وإذا كان من يقرب منك قوياً وأنت ضعيف ، ففي قوته سياج لك ، وإن كان غنياً ، فغناه ينضح عليك ، وإن كان عالماً أفادك بعلمه ، إن كان حليماً أفادك بحلمه لحظة غضبك ، وكل صاحب موهبة تعلو موهبتك وأنت قريب منه ، فسوف يفيدك من موهبته .

والولي هو النصير أيضاً؛ لأنك أول ما تستصرخ سيأتي لك القريب منك .

وهؤلاء الذين يصدُّون عن سبيل الله لن يجدوا وليّاً ولا نصيراً في الآخرة وإن وجدوه في الدنيا لأن كل إنسان في الآخرة سيكون مشغولاً بنفسه :

{ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى الناس سكارى وَمَا هُم بسكارى ولكن عَذَابَ الله شَدِيدٌ } [الحج : 2] .

ويقول الحق سبحانه :

{ ياأيها الناس اتقوا رَبَّكُمْ واخشوا يَوْماً لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلاَ مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئاً } [لقمان : 33] .

وكذلك يقول الحق سبحانه :

{ يَوْمَ يَفِرُّ المرء مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وصاحبته وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امرىء مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ } [عبس : 3437] .

إذن : فهؤلاء الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله لا يُعجزون الله في الأرض ، ولا يجدون الولي أو النصير في الآخرة ، بل :

{ يُضَاعَفُ لَهُمُ العذاب } [هود : 20] .

ونحن نفهم الضِّعْفَ على أنه الشيء يصير مرتين ، ونظن أن في ذلك قوة ، ونقول : لا؛ لأن الذي يأتي ليسند الشيء الأول ويشفع له ، كان الأول بالنسبة له ضعيف .

إذن : فالمُضَاعفة هي التي تظهر ضعف الشيء الذي يحتاج إلى ما يدعمه .

ومُضَاعفة العذاب أمر منطقي لهؤلاء الذين أرادوا الأمر عوجاً ، وصدوا عن سبيل الله تعالى ، وأرادوا بذلك إضلال غيرهم .

وقول الحق سبحانه :

{ يُضَاعَفُ لَهُمُ العذاب } [هود : 20] .

لا يتناقض مع قوله الحق :

{ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أخرى } [الأنعام : 164] .

لأن هؤلاء الذين صدوا عن سبيل الله ليس لهم وزر واحد ، بل لهم وِزْران : ووزر الضلال في ذواتهم ، ووزر الإضلال لغيرهم .

وهناك آية تقول :

{ والذين لاَ يَدْعُونَ مَعَ الله إلها آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النفس التي حَرَّمَ الله إِلاَّ بالحق وَلاَ يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذلك يَلْقَ أَثَاماً * يُضَاعَفْ لَهُ العذاب } [الفرقان : 6869] .

أي : أن مَنْ يفعل ذلك يَلْقَ مضاعفة للعذاب . . لماذا؟

لأنه كان أسوة لغيره في أن يرتكب نفس الجرم .

والحق سبحانه وتعالى لا يريد للذنوب أن تنتشر ، ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى يحض على أن يرى المؤمنون من ارتكب الجُرْم لحظةَ العقاب ، مثلما يقول سبحانه في الزنا :

{ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ المؤمنين } [النور : 2] .

وحين يرى المؤمنون وقوع العقوبة على جريمة ما ، ففي ذلك تحذير من ارتكاب الجُرْم ، وحدّ من وقوع الجرائم .

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها يضاعف العذاب لأولئك الذين صَدُّوا عن سبيل الله ، وأرادوا إضلال غيرهم ، فارتكبوا جريمتين :

أولاهما : ضلالهم .

والثانية : إضلالهم لغيرهم .

ولذلك تجد بعضاً من الذين أضلُّوا يقولون يوم القيامة :

{ رَبَّنَآ أَرِنَا الذين أَضَلاَّنَا مِنَ الجن والإنس نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأسفلين } [فصلت : 29] .

ويقولون أيضاً :

{ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا السبيلا * رَبَّنَآ آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ العذاب والعنهم لَعْناً كَبِيراً } [الأحزاب : 6768] .

إذن : فالدعوة إلى الانحراف إضلال ، وعمل الشيء بالانحراف إضلال؛ لأنه أسوة أمام الغير .

ومضاعفة العذاب لا تعني الإحراق مرة واحدة في النار؛ لأن الحق سبحانه لو تركنا للنار لتحرقنا مرة واحدة لانتهى الإيلام؛ ولذلك أراد الحق سبحانه أن يكون هناك عذاب بعد عذاب .

يقول الحق سبحانه :

{ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ العذاب } [النساء : 56] .

فهو عذاب على الدوام .

أو أن العذاب الذي يضاعف له لون آخر ، فهناك عذاب للكفر ، وهناك عذاب للإفساد .

يقول الحق سبحانه :

{ زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ العذاب بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ } [النحل : 88] .

فالعذاب على الكفر لا يلغي العذاب على المعاصي التي يرتكبها الكافر .

فإذا كانت الشاة القرناء يُقتصُّ للشاة الجلحاء منها ، أي : أن الشاة التي لها قرون وتنطح الشاة التي لا قرون لها ، فيوم القيامة يتم القصاص منها ، رغم أنه لا حساب للحيوانات؛ لأنها لا تملك الاختيار ، ولكنها سوف تُستخدم كوسيلة إيضاح لميزان العدالة .

ويقول الحق سبحانه :

{ يُضَاعَفُ لَهُمُ العذاب مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ السمع وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ } [هود : 20] .

أي : ما كانوا يستطيعون الاستفادة من السمع رغم وجود آلة السمع ، فلم يستمعوا لبلاغ الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولا استطاعوا الاستفادة من أبصارهم ليروا آيات الله سبحانه وتعالى في الكون ، فكأنهم صُمٌّ عُمْيٌ ، أو يضاعف لهم العذاب مدة استطاعتهم السمع والإبصار .

وفي آية أخرى يقول الحق سبحانه :

{ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ } [مريم : 38] .

أي : أن سمعهم وأبصارهم ستكون سليمة وجيدة في الآخرة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { أولئك الذين خسروا أَنْفُسَهُمْ }

أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (21)

إذن : فهم خسروا أنفسهم؛ لأنهم بظلم النفس وإعطائها شهوة عاجلة زمنها قليل ، أخذوا عذاباً آجلاً زمنه خالد .

وفي هذا ظلم للنفس ، وهذه قمة الخيبة ، وهذا يدل على اختلال الموازين ،

وأنت قد تظلم غيرك فتأخذ من عنده بعضاً من الخير لتستفيد به ، وبذلك تظلم الغير لصالح نفسك .

وظلم النفس يعني أنك تعطيها متعة عاجلة وتغفل عنها عذاباً آجلاً ، والمتعة العاجلة لها مدة محدودة ، أما العذاب فلا مدة تحدده .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

{ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ } [هود : 21] .

أي : لم يهتد إليهم ما كانوا يعبدونهم من دون الله ، ولو كان لهؤلاء الذين عبدوهم قوة يوم

القيامة؛ لهرعوا إليهم ليستنقذوهم من العذاب ، ولكنهم بلا حول ولا قوة؛ لأن الحق سبحانه قد حكم على هؤلاء الكافرين ، وقال :

{ وَمَا لَهُمْ فِي الأرض مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ } [التوبة : 74] .

وكذلك هؤلاء الآلهة المعبودة من دون الله تعالى ، أو شركاء مع الله ، لا يهتدون إليهم ، حتى بفرض قدرتهم على النصرة ، فتلك الآلهة أو الشركاء لا يهتدون إليهم ، ولا يعرفون لهم مكاناً .

وقول الحق سبحانه : { وَضَلَّ عَنْهُمْ } [هود : 21] .

أي : غاب وتاه عنهم .

وقوله سبحانه : { مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ } [هود : 21] .

أي : ما كانوا يدَّعونه كذباً .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخرة }

لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (22)

واختلف العلماء في معنى كلمة { لاَ جَرَمَ } ، والمعنى العام حين تسمع كلمة { لاَ جَرَمَ } أي : حق وثابت ، أو لا بد من حصول شيء محدد .

وحين يقول الحق سبحانه :

{ لاَ جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النار } [النحل : 62] .

أي : حَقَّ وثبت أن لهم النار؛ نتيجة ما فعلوا من أعمال ، وتلك الأعمال مقدمة بين يدي عذابهم ، فحين نسمع { لاَ جَرَمَ } ومعها العمل الذي ارتكبوه ، تثق في أنه يحق على الله سبحانه أن يعذبهم .

وقال بعض العلماء : إن معنى : { لاَ جَرَمَ } حق وثبت .

وقال آخرون : إن معنى { لاَ جَرَمَ } هو لا بد ولا مفر .

والمعنيان ملتقيان لأن انتفاء البُدِّية يدل على أنها ثابتة .

وكان يجب على العلماء أن يبحثوا في مادة الكلمة ، ومادة الكلمة هي « الجرم » ، والجرم : هو القطع ، ويقال : جرم يده ، أي : قطع يده .

وقول الحق سبحانه هنا :

{ لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخرة هُمُ الأخسرون } [هود : 22] .

أي : لا قَطْع لقول الله فيهم بأن لهم النار ، ولا شيء يحول دون ذلك أبداً ، ولا بد أن ينالوا هذا الوعيد؛ وهكذا التقى المعنى ب « لا بد » .

إذن : فساعة تسمع كلمة « لا جرم » ، أي : ثبت ، أو لا بد من حدوث الوعيد .

وأيضاً تجد كلمة « الجريمة » مأخوذة من « الجرم » ، وهي قطع ناموس مستقيم ، فحين نقرر ألا

يسرق أحد من أحد شيئاً ، فهذا ناموس مستقيم ، فإن سرق واحد من آخر ، فهو قد قطع الأمن والسلام للناس ، وأيُّ جريمة هي قَطْع للمألوف الذي يحيا عليه الناس .

وأيضاً يقال : جرم الشيء أي : اكتسب شرَّه ، ومنه الجريمة ، ولذلك يقال : من الناس من هو « جارم » وهي اسم فاعل من الفعل : « جرم » ، مثل كلمة « كاتب » من الفعل « كتب » و « مجروم عليه » وهي اسم مفعول ، مثلها مثل « مكتوب » .

فإن أخذت الجريمة من قطع الأمر السائد في النظام ، فهؤلاء الذين افتروا على الله وظلموا وصدوا عن سبيل الله ، فلا جريمة في أن يعذبهم الله بالنار .

ومثل هذه العقوبة ليست جريمة؛ لأن العقوبة على الجريمة ليست جريمة ، بل هي مَنْع للجريمة .

وهكذا تلتقي المعاني كلها ، فحين نقول : { لاَ جَرَمَ } فذلك يعني أنه لا جريمة في الجزاء؛ لأن الجريمة هي الآثام العظيمة التي ارتكبوها .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

{ وَجَزَآءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا } [الشورى : 40] .

وقد سمَّاها الحق سيئة؛ لأنها تسيء إلى المجتمع أو تسيء إلى الفرد نفسه .

ولهذا يقول الحق سبحانه :

{ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ } [النحل : 126] .

وهكذا نجد أن هناك معاني متعددة لتأويل قول الحق سبحانه : { لاَ جَرَمَ } ، فهي تعني : لا قطع لقول الله في أن المشركين سيدخلون النار ، أو لا بد أن يدخلوا النار ، أو حق وثبت أن يدخلوا النار ، أو لا جريمة من الحق سبحانه عليهم أن يفعل بهم هكذا؛ لأنهم هم الذين فعلوا ما يستحق عقابهم .

ويقول الحق سبحانه :

{ لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخرة هُمُ الأخسرون } [هود : 22] .

وكلمة (الأخسرون) جمع « أخسر » وهي أفعل تفضيل لخاسر ، وخاسر اسم فاعل مأخوذ من الخسارة .

والخسارة في أمور الدنيا أن تكون المبادلة إجحافاً لواحد ، كأن يشتري شيئاً بخمسة قروش وكان يجب أن يبيعها بأكثر من خمسة قروش ، لكنه باعها بثلاثة قروش فقط ، فبعد أن كان يرغب في الزيادة ، باع الشيء بمنا ينقص عن قيمته الأصلية .

ومن يفعل ذلك يسمى « خاسر » ، والخسارة في الدنيا موقوتة بالدنيا ، ومن يخسر في صفقة قد يربح في صفقة أخرى .

ولنفترض أنه قد خسر في كل صفقات الدنيا ، فما أقصر وقت الدنيا! لأن كل ما ينتهي فهو

قصير ، لكن خسارة الآخرة لا نهاية لها .

ويقول الحق سبحانه وتعالى :

{ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بالأخسرين أَعْمَالاً * الذين ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الحياة الدنيا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً } [الكهف : 103104] .

وهكذا وصفهم الحق سبحانه مرة بأنهم الأخسرون ، ومرة يقول سبحانه واصفاً الحكم عليهم :

{ أَلاَ ذَلِكَ هُوَ الخسران المبين } [الزمر : 15] .

وهو خسران محيط يستوعب كل الأمكنة .

وشاء الحق سبحانه بعد ذلك أن يأتي بالمقابل لهؤلاء ، وفي ذلك فيض من الإيناسات المعنوية؛ لأن النفس حين ترى حكماً على شيء تأنس أن تأخذ الحكم المقابل على الشيء المقابل .

فحين يسمع الإنسان قول الحق سبحانه :

{ إِنَّ الأبرار لَفِي نَعِيمٍ } [الانفطار : 13] .

فلا بد أن يأتي إلى الذهن تساؤل عن مصير الفُجَّار ، فيقول الحق سبحانه :

{ وَإِنَّ الفجار لَفِي جَحِيمٍ } [الانفطار : 14] .

وهذا التقابل يعطي بسطة النفس الأولى وقبضة النفس الثانية ، وبين البسطة والقبضة توجد الموعظة ، ويوجد الاعتبار .

ويأتي الحق سبحانه هنا بالمقابل للمشركين الذين صدوا عن سبيل الله ، فصاروا إلى النار ، والمقابل هم المؤمنون أصحاب العمل الصالح .

فيقول الحق سبحانه : { إِنَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات }

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (23)

الإيمان كما نعلم أمر عقدي ، يعلن فيه الإنسان إيمانه بإله واحد موجود ، ويلتزم بالمنهج الذي أنزله الله سبحانه وتعالى على الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومن آمن بالله تعالى ولم يعمل العمل الصالح يتلقَّ العقاب؛ لأن فائدة الإيمان إنما تتحقق بالعمل الصالح .

لذلك نجد الحق سبحانه وتعالى يقول لنا :

{ قَالَتِ الأعراب آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ ولكن قولوا أَسْلَمْنَا } [الحجرات : 14] .

أي : اتبعتم ظاهر الإسلام .

وهكذا نعرف أنه يوجد مُتيقِّن بصحة واعتقاد بأن الإله الواحد الأحد موجود ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم مُبلِّغ عن الله عز وجل؛ لكن العمل الذي يقوم به الإنسان هو الفيصل بين مرتبة المؤمن ، ومرتبة المعلم .

فالذي يُحسن العمل هو مؤمن ، أما من يؤدي العمل بتكاسل واتِّباع لظواهر الدين ، فهو المسلم

، وكلاهما يختلف عن المنافق الذي يدَّعي الحماس إلى أداء العبادات ، لكنه يمكر ويبّيت العداء للإسلام الذي لا يؤمن به .

وكان المنافقون على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أسبق الناس إلى صفوف الصلاة ، وكانوا مع هذا يكتمون الكيد ويدبرون المؤامرات ضد النبي صلى الله عليه وسلم .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى :

{ إِنَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات وأخبتوا إلى رَبِّهِمْ } [هود : 23] .

هذا القول يبيّن لنا أن معيار الإيمان إنما يعتمد على التوحيد ، وإتقان أداء ما يتطلبه منهج الله سبحانه ، وأن يكون كل ذلك بإخبات وخضوع ، ولذلك يقال : رُبَّ معصية أورثت ذلاً وانكساراً ، خير من عبادة أورثت عزّاً واستكباراً .

أي : أن المؤمن عليه ألا يأخذ العبادة وسيلة للاستكبار .

وكلمة { وأخبتوا } أي : خضعوا خشية لله تعالى ، فهم لا يؤدون فروض الإيمان لمجرد رغبتهم في ألاَّ يعاقبهم الله ، لا بل يؤدون فروض الإيمان والعمل الصالح خشية لله .

وأصل الكلمة من « الخبت » وهي الأرض السهلة المطمئنة المتواضعة ، وكذلك الخبت في الإيمان .

ويصف الحق سبحانه أهل الإيمان المخبتين بأنهم :

{ أولئك أَصْحَابُ الجنة هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } [هود : 23] .

أي : الملازمون لها ، وخلودهم في الجنة يعني أنهم يقيمون في النعيم أبداً ، ونعيم الجنة مقيم ودائم ، على عكس نعيم الدنيا الذي قد يفوته الإنسان بالموت ، أو يفوت النعيم الإنسان بالسلب؛ لأن الإنسان في الدنيا عرضة للأغيار ، أما في الآخرة ، فأهل الإيمان أصحاب العمل الصالح المخبتون لربهم ، فهم أهل النعيم المقيم أبداً .

وهكذا عرض الحق سبحانه حال الفريقين : الفريق الذي ظلم نفسه بافتراء الكذب وعلى الله ، وصدوا عن سبيل الله ، وابتغوا الأمر عوجاً ، هؤلاء لن يُعجزوا الله ، وليس لهم أولياء يحمونهم من العذاب المضاعف .

وهم الذين خسروا أنفسهم ، ولن يجدوا عوناً من الآلهة التي عبدوها من دون الله ، ولا شيء بقادر على أن يفصل بينهم وبين العذاب ، وهم الأخسرون .

أما الفريق الثاني فهم الذين آمنوا وعملوا الصالحة بخشوع وخشية ومحبة لله سبحانه وتعالى ، وهم أصحاب الجنة الخالدون فيها .

إذن : فلكل فريق مسلكه وغايته .

لذلك يقول الحق سبحانه بعد ذلك : { مَثَلُ الفريقين كالأعمى والأصم }

مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (24)

والفريقان هما من تحدثنا عنهما من قبل .

وكلمة « الفريق » تعني : جماعة يلتقون عند غاية وهدف واحد ، مثلما نقول : فريق كرة القدم أو غيره من الفرق ، فهي جماعات ، كل جماعة منها لها هدف يجمعها .

ونحن نجد الحق سبحانه وتعالى يقول :

{ فَرِيقٌ فِي الجنة وَفَرِيقٌ فِي السعير } [الشورى : 7] .

وكلمة { الفريقين } جاءت في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها؛ لأن كل فرقة تضم جماعة مختلفة عن الجماعة الأخرى ، ولهؤلاء متعصبون ، وللآخرين متعصبون .

ويضرب الحق سبحانه وتعالى في هذه الآية المثل بسَيِّدَي الحواس الإداركية في الإنسان ، وهما السمع والبصر ، فهما المصدران الأساسيان عند الإنسان لأخذ المعلومات ، إما مسموعة ، أو مرئية ، ثم تتكون لدى الإنسان قدرة الاستنباط والتوليد مما سمعه بالأذن ورآه بالعين .

ولذلك قال لنا الحق سبحانه :

{ والله أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السمع والأبصار والأفئدة لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } [النحل : 78] .

إذن فما دام الحق سبحانه قد جعل السمع و الأبصار والأفئدة مصادر تأتي منها ثمرة ، هي المعلومات وتمحيصها ، فالحق سبحانه يستحق الشكر عليها .

ونحن نعلم أن الطفرات الحضارية وارتقاءات العلم ، إنما تأتي بمن سمع ومن رأى ، ثم جاءت من الاستنباط أفكار تطبيقية تفيد البشرية .

ومثال ذلك : هو من رأى إناء طعام وله غطاء ، وكان بالإناء ماء يغلي ، فارتفع الغطاء عن الإناء .

هذا الإنسان اكتشف طاقة البخار ، واستنبط أن البخار يحتاج حيّزاً أكبر من حيز السائل الموجود في الإناء؛ لذلك ارتفع الغطاء عن الإناء ، وارتقى هذا الاكتشاف ليطور كثيراً من أوجه الحياة .

ولو أن كل إنسان وقف عند ما يسمعه أو يراه ولم يستنبط منه شيئاً لما تطورت الحياة بكل تلك الارتقاءات الحضارية .

وهنا يقول الحق سبحانه :

{ مَثَلُ الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً } [هود : 24] .

ولن يشك كل من الأعمى أو الأصم أن من يرى أو من يسمع هو خير منه ، ولا يمكن أن يستوي الأعمى بالبصير ، أو الأصم بمن يسمع .

وهكذا جاء الحق سبحانه وتعالى بالأشياء المتناقضة ، ليحكم الإنسان السامع أو القارىء لهذه الآية ، وليفصل بحكم يُذكِّره بالفارق بين الذي يرى ومن هو أعمى ، وكذلك بين من يسمع ومن هو أصم ، ومن الطبيعي ألا يستويان .

لذلك يُنهي الحق سبحانه الآية بقوله تعالى :

{ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ } أي : ألا تعتبرون بوجود هذه الأشياء .

ونحن نعلم أن الله سبحانه وتعالى قد قال لنا :

{ فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي فِي الصدور } [الحج : 46] .

أي : أن الإنسان قد يكون مبصراً ، أو له أذن تسمع ، لكنه لا يستخدم حاسة الإبصار أو حاسة السمع فيما خلقت من أجله في التقاط مجاهيل الأشياء .

وبعد أن بيَّن الحق سبحانه وَصْفَ كل طرف وصراعه مع الآخر ، واختلاف كل منهما في الغاية ، والصراع الذي بينهما تشرحه قصص الرسل عليهم السلام .

ويقول الحق سبحانه في بعض من مواضع القرآن الكريم ، وفي كل موضع لقطات من قصة أي رسول ، واللقطة التي توجد في سورة قد تختلف عن اللقطة التي في سورة أخرى .

ومثال ذلك : أن الحق سبحانه قد تكلم في سورة يونس عن نوح وموسى وهارون ويونس عليهم السلام ، وهنا في سورة هود تأتي مرة أخرى قصة نوح عليه السلام ، فيقول سبحانه وتعالى : { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إلى قَوْمِهِ }

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (25)

والآية توضِّح مسألة إرسال نوح عليه السلام كرسول لقومه ، وعلى نوح الرسول أن يمارس مهمته وهي البلاغ ، فيقول :

{ إِنَّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ } [هود : 25] .

ونحن نلحظ أن همزة (إن) في إحدى قِرَاءَتَى الآية تكون مكسورة ، وفي قراءة أخرى تكون مفتوحة ، أما في القراءة بالكسر فتعني أن نوحاً عليه السلام قد جاء بالرسالة فبلغ قومه وقال :

{ إِنَّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ } [هود : 25] .

وأما في القراءة الأخرى بالفتح فتعني أن الرسالة هي :

{ إِنَّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ } [هود : 25] .

فكأن القراءة الأولى تعني الرواية عن قصة البلاغ ، والقراءة الثانية تحدد مضمون الرسالة : { إِنَّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ } [هود : 25] .

والقراءة الأولى فيها حذف القول ، وحذف القول كثير في القرآن ، مثل قوله تعالى :

{ وَالْمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ } [الرعد : 2324] .

وهذا يعني أن الملائكة يدخلون على المؤمنين في الجنة من كل باب ، وساعة الدخول يقول الملائكة :

{ سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ } [الرعد : 24] .

وقول نحو عليه السلام : { إِنَّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ } [هود : 25] .

نعلم منه أن النذير كما قلنا من قبل هو من يخبر بشرٍ لم يأت وقته بعد ، حتى يستعد السامع لملاقاته ، وما دام أن نبي الله نوحاً قد جاء نذيراً ، فالسياق مستمر؛ لأن الحق سبحانه قال في الآية التي قبلها :

{ مَثَلُ الفريقين } [هود : 24] .

أي : أن هناك فريقاً عاصياً وكافراً وله نذير ، أما الفريق الآخر فله بشير ، يخبر بخير قادم ليستعد السامع أيضاً لاستقباله بنفس مطمئنة .

والفريق الكافر الذي يستحق الإنذار ، يأتي لهم الحق سبحانه بنص الإنذار في قوله تعالى : { أَن لاَّ تعبدوا إِلاَّ الله }

أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (26)

ونحن نعلم أن نوحاً عليه السلام محسوب على قومه ، وهم محسوبون عليه؛ ولذلك نجده خائفاً عليهم؛ لأن الرباط الذي يربطه بهم رباط جامع قوي .

وكذلك نجد الحق سبحانه يُحَنِّن قلوب الرسل إليهم لعلهم يحسنون استقبال الرسول .

ومثال ذلك : قول الحق سبحانه :

{ وإِلى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً } [الأعراف : 65] .

ولأن الرسول أخ لهم فلن يغشَّهم أو يخدعهم .

واستقبل الملأ من قوم نوح الأمر بما يقوله الحق سبحانه عنهم : { فَقَالَ الملأ الذين كَفَرُواْ مِن قِوْمِهِ }

فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (27)

والملأ كما نعلم هم وجوه القوم ، وهم السادة الذين يملأون العيون مهابة ، ويتصدرون أي مجلس .

وهناك مثل شعبي في بلادنا يوضح ذلك المعنى حين نقول : « فلان يملأ العين » .

أي : أن العين حين تنظر إليه لا تكون فارغة ، فلا جزء في العين يرى غيره .

ويقال أيضاً : « فلان قَيْد النواظر » أي : أنه إذا ظهر تقيَّدت به كل النواظر ، فلا تلتفت إلى سواه ، ولا يمكن أن يكون كذلك إلا إذا كانت فيه مزايا تجذب العيون إليه بحيث لا تتحول عنه .

والمراد بذلك هو الحاشية المقربة ، أو الدائرة الأولى التي حول المركز ، فَحَوْل كل مركز هناك دوائر ، والملأ هم الدائرة الأولى ، ثم تليهم دائرة ثانية ، ثم ثالثة وهكذا ، والارتباك إنما ينشأ حين يكون للدائرة أكثر من مركز ، فتتشتت الدوائر .

وردَّ الذين يكوِّنون الملأ على سيدنا نوح قائلين :

{ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا } [هود : 27] .

أي : أنه لا توجد لك ميزة تجعلك متفوقاً علينا ، فما الذي سوَّدك علينا لتكون أنت الرسول؟ وقولهم هذا دليل غباء؛ لأن الرسول ما دام قد جاء من البشر ، فسلوكه يكون أسوة ، وقوله يصلح للاتباع ، ولو كان الرسول من غيرِ البشر لكان من حق القوم أن يعترضوا؛ لأنهم لن يستطيعوا اتخاذ الملاك أسوة لهم .

ولذلك بيَّن الحق سبحانه هذه المسألة في قوله تعالى :

{ وَمَا مَنَعَ الناس أَن يؤمنوا إِذْ جَآءَهُمُ الهدى إِلاَّ أَن قالوا أَبَعَثَ الله بَشَراً رَّسُولاً } [الإسراء : 94] .

وجاء الرد منه سبحانه بأن قُلْ لهم :

{ لَوْ كَانَ فِي الأرض ملائكة يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السمآء مَلَكاً رَّسُولاً } [الإسراء : 95] .

إذن : فالرسول إنما يجيء مُبلِّغ منهج وأسوة سلوك ، فإذا لم يكن من جنس البشر ، فالأسوة لن تصلح ، ولن يستطيع إلا البلاغ فقط .

ومثال ذلك : أنت حين ترى الأسد في أي حديقة من حدائق الحيوان ، يصول ويجول ، ويأكل اللحم النِّيء المقدم له من الحارس ، أتحدثك نفسك أن تفعل مثله؟ . . طبعاً لا ، لكنك إن رأيت فارساً على جواد ومعه سيفه ، فنفسك قد تحدثك أن تكون مثله .

وهكذا نجد أن الأسوة تتطلب اتحاد الجنس؛ ولذلك قلنا : إن الأسوة هي الدليل على إبطال من يدَّعي الألوهية لعزير أو لعيسى عليهما السلام .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى ما جاء على لسان الملأ الكافر من قوم نوح :

{ وَمَا نَرَاكَ اتبعك إِلاَّ الذين هُمْ أَرَاذِلُنَا } [هود : 27] .

والأراذل جمع « أرذل » ، مثل قولنا : « أفاضل قوم » ، وهي جمع « أفضل » .

والأرذل هو الخسيس الدنيء في أعين الناس . ورذال المال أي : رديئه . ورذال كل شيء هو نفايته .

ونرى في الريف أثناء مواسم جمع « القطن » عملية « فرز » القطن ، يقوم بها صغار البنين والبنات ، فيفصلون القطن النظيف ، عن اللوز الذي لم يتفتح بالشكل المناسب؛ لأن اللوزة المصابة عادة ما تعاني من ضمور ، ولم تنضج النضج الصحيح .

وكذلك يفعل الفلاحون في موسم جمع « البلح » ، فيفصلون البلح الجيد عن البلح المعيب .
إذن : فرذال كل شيء هو نفايته .
وقد قال الملأ من الكفار من قوم نوح :
{ وَمَا نَرَاكَ اتبعك إِلاَّ الذين هُمْ أَرَاذِلُنَا } [هود : 27] .
أي : أنهم وصفوا من آمنوا بنوح عليه السلام بأنهم نفاية المجتمع .
وجاء الحق على ألسنتهم بقولهم في موضع آخر :
{ واتبعك الأرذلون } [الشعراء : 111] .
ولم يَنْفِ نوح عليه السلام ذلك؛ لأن الذين اتبعوه قد يكونون من الضعاف ، وهَم ضحايا الإفساد؛ لأن القوى في المجتمع لا يقربه أحد؛ ولذلك فإنه لا يعاني من ضغوط المفسدين ، أما الضعاف فهم الذين يعانون من المفسدين؛ فما إن يظهر المُخلِّص لهم من المفسدين فلا بد أن يتمسكوا به .
ولكن ذلك لا يعني أن الإيمان لا يلمس قلوب الأقوياء ، بدليل أن البعض من سادة وأغنياء مكة استجابوا للدعوة المحمدية مثل : أبي بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف ، رضي الله عنهم .
ولكن الغالب في دعوات الإصلاح أنه يستجيب لها المطحونون بالفساد ، هؤلاء الذين يشعرون بالغليان في مراجل الألم بسبب الفساد ، وما إن يظهر داعية الإصلاح ويريد أن يزحزح الفساد ، فيلتفُّون حوله ويتعاطفون معه ، وإن كانوا غير عبيد ، لكن محكومين بالغير ، فهم يؤمنون علناً برجل الإصلاح ، وإن كانوا عبيداً مملوكين للسادة؛ فهم يؤمنون خفية ، ويتحمل القوي منهم الاضطهاد والتعذيب .
إذن : فكل رسول يأتي إنما يأتي في زمن فساد ، وهذا الفساد ينتفع به بعض الناس؛ وطغيان يعاني منه الكثيرون الواقع عليهم الفساد والطغيان .
ويأتي الرسول وكأنه ثورة على الطغيان والفساد؛ لذلك يتمسك به الضعفاء ويفرحون به ، وتلتف قلوبهم حوله .
أما المنتفعون بالفساد فيقولون : إن أتباعك هم أراذلنا . وكأن هذا القول طَعْن في الرسول ، لكنهم أغبياء؛ لأن هذا القول دليل على ضرورة مجيء الرسول؛ ليخلص هؤلاء الضعاف ، ويجيء الرسول ليقود غضبة على فساد الأرض ، ولينهي هذا الفساد .

وهي غضبة تختلف عن غضبة الثائر العادي من الناس ، فالثائر من الناس يرى من يصفق له من المطحونين بالفساد .

لكن آفة الثائر من البشر شيء واحد ، هي أنه يريد أن يستمر ثائراً ، ولكن الثائر الحق هو الذي يثور ليهدم الفساد ، ثم يهدأ ليبني الأمجاد ، فلا يسلط السيف على الكل ، ولا يفضِّل قوماً على قوم ، ولا يدلل مَنْ طُغِي عليهم ، ويظلم مَنْ طغوا .

بل عليه أن يحكم بين الناس بالعدل والرحمة؛ لتستقيم الأمور ، وتذهب الأحقاد ، ويعلم الناس كلهم أن الثائر ما جاء ضد طائفة بعينها ، وإنما جاء ضد ظلم طائفة لغيرها ، فإذا أخذ من الظالم وأعطى المظلوم؛ فليجعل الاثنين سواء أمام عينيه .

ومن هنا يجيء الهدوء والاستقرار في المجتمع .

إذن : فقد كان قول الكافرين من ملأ قوم نوح .

{ وَمَا نَرَاكَ اتبعك إِلاَّ الذين هُمْ أَرَاذِلُنَا } [هود : 27] .

هو قول يؤكد وجود الفساد في هذا المجتمع ، وأن الضعاف المطحونين من الفساد قد اتبعوا نوحاً عليه السلام .

ويقول الحق سبحانه :

{ بَادِيَ الرأي } [هود : 27] .

والبادي هو الظاهر؛ ضد المستتر .

وهناك قراءة أخرى هي { بَادِيءَ الرأي } ؟

أي : بعد بدء الرأي .

والآية هنا تقول :

{ بَادِيَ الرأي } [هود : 27] .

أي : ظاهر الأمر ، فساعة ما يُلْقى إلى الإنسان أيُّ شيء فهو ينظر له نظرة سطحية ، ثم يفكر بإمعان في هذا الشيء .

وساعة يسمع الإنسان دعوى أو قضية ، فعليه ألا يحكم عليها بظاهر الأمر ، بل لا بد أن يبحث القضية أو الدعوى بتروٍّ وهدوء .

وهم قد قالوا لنوح عليه السلام : أنت بشر مثلنا ، وقد اتبعك أراذلنا؛ لأنهم نظروا إلى دعوتك نظرة ظاهرية ، ولو تعقَّبوا دعوتك وتأمَّلوها ونظروا في عواقبها بتدبُّر لما آمنوا بها .

ويكشف الحق سبحانه هذا الغباء فيهم ، فقول الملأ بأن الضعفاء كان يجب عليهم أن يتدبروا الأمر ويتمعنوا في دعوة نوح قبل الإيمان به ، ينقضه إصرار الضعفاء على الإيمان؛ لأنه يؤكد أن جوهر الحكم عندهم جوهر سليم؛ لأن الواحد من هؤلاء الضعفاء لا يقيس الأمر بمقياس من

يملك المال ، ولا بمقياس من يملك الجاه ، ولا بمقياس من له سيادة ، بل قاس الضعيف من هؤلاء الأمر بالقلب ، الذي تعقَّل وتبصَّر ، وباللسان الذي أعلن الإيمان؛ لأن الإنسان بأصغريه : قلبه ولسانه .

إذن : فهذا الملأ الكافر من قوم نوح عليه السلام ، قد حكم بأن الضعاف أراذل بالمقاييس الهابطة ، لا بالمقاييس الصحيحة .

ولو امتنع هؤلاء الذي يُقال عنهم « أراذل » عن خدمة من يقال لهم « سادة » لذاق السادة الأمرَّين ، فهم الذين يقدِّمون الخدمة ، ولو لم يصنع النجار أثاث البيت لما كانت هناك بيوت مؤثثة .

ولو امتنع العمال عن الحفر والبناء لما كانت هناك قصور مشيدة .

ولو امتنع الطاهي عن طهي الطعام لما كانت هناك موائد ممتدة ، وكل خدمات هؤلا ء الضعاف تصب عند الغني أو صاحب المال أو صاحب الجاه .

وهكذا نرى أن الكون يحتاج إلى من يملك الثورة ولو عن طريق الميراث ليصرف على من يحتاجه المجتمع أيضاً ، وهم الضعاف الذين يعطون الخير من كدِّهم وإنتاجهم .

إذن : فالضعفاء هم تتمة السيادة .

وحين نمعن النظر لوجدنا أن سيادة الثَّريّ أو صاحب الجاه إنما تأتي نتيجة لمجهودات من يقال عنهم : إنهم أراذل .

ولو أنهم تخلَّوا عن الثرى أو صاحب الجاه ، لما استطاع أن يكون سيداً . ويذكر لنا الحق سبحانه بقية ما قاله الملأ الكافر من قوم نوح :

{ وَمَا نرى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ } [هود : 27] .

وهم بهذا القول قد أنكروا أن سيادتكم إنما نشأت بجهد من قالوا عنهم إنهم أراذل ، وأنكروا فضل هؤلاء الناس .

ويُلفتنا الحق سبحانه وتعالى إلى الآفة الي تنتاب بعض المجتمعات حين يذكر لنا ما قاله الكافرون :

{ وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ هذا القرآن على رَجُلٍ مِّنَ القريتين عَظِيمٍ * أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الحياة الدنيا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً } [الزخرف : 31 32] .

إذن : فالحق سبحانه هو الذي قسم المعيشة ، وآفة الحكم أن ننظر إلى المرفوع على أنه الغنى ، لا ، فليس المرفوع هو الغنى ، بل هو كل ذي موهبة ليست في سواه .

وما دام مرفوعاً في مجال فهو سيخدم غيره فيه ، وغيره سيخدمونه فيما رُفعوا فيه؛ لأن المسألة أساسها التكامل .

لذلك لا يُديم الله سبحانه غِنَى أحدٍ أبد الدهر ، بل جعل الدنيا دُوَلاً بين الناس .

إذن : فلو عرف هذا الملأ الكافر من قوم نوح عليه السلام معنى كلمة الفضل لما قالوها؛ لأن الفضل هو الزائد عن المطلوب للكائن ، في المحسوسات أو المعاني والفضل يقتضي وجود فاضل ومفضول .

ولينظر كل طاغية في حياته ليرى ما الفاضل فيها؟

إنه بعض من المال أو الجاه ، وكل مَنْ يخدم هذا الطاغية هم أصحاب الفضل؛ لأن سيادة الطاغية مبنية على عطائهم .

فهم أصحاب الفضل ، ما دام الفضل هو الأمر الزائد عن الضروري .

إذن : فحقيقة ارتباط العالم بعضه ببعض ، هو ارتباط الحاجة لا ارتباط السيطرة ، ولذلك حين نرى مسيطراً يطغى ، فنحن نقول له : تعقَّل الأمر؛ لأنك ما سيطرت إلا بأناس من الأراذل ، فإظهار قوته تكون بمن يُجيدون تصويب السلاح ، أو بمن تدربوا على إيذاء البشر ، فهو يبني سيادته ببعض الأراذل ، كوسائل لتحقيق سيطرته .

وقول الكافرين من ملأ نوح عليه السلام :

{ وَمَا نرى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ } [هود : 27] .

يكشف أنهم قد فهموا الفضل على أنه الغِنَى ، والجاه والمناصب ، وهم قد أخطأوا الفهم .

ويُنهي الحق سبحانه الآية بقوله :

{ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ } [هود : 27] .

والظن هو الراجح ، والمرجوح هو الوهم؛ وهذا يثبت أن في الإنسان فطرة تستيقظ في النفس كومضات فالمتكبر يمضي في كبره إلى أن تأتي له ومضة من فطرته ، فيعرف أن الحق حق ، وأن الباطل باطل .

وحين جاءت هذه الومضة في نفوس هذا الملأ الكافر ، قالوا :

{ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ } [هود : 27] .

ولم يقولوا : « نعتقد أنكم كاذبون » .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { قَالَ ياقوم أَرَأَيْتُمْ } .

قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ (28)

وقول نوح عليه السلام : { أَرَأَيْتُمْ } أي : أخبروني إن كنت على بين موهوبة من الله تعالى ونور وبصيرة وفطرة بالهداية ، وآتاني الحق سبحانه : { رَحْمَةً } أي : رسالة ، بينما خفيت هذه المسألة عنكم ، فهل أجبركم على ذلك؟ لا؛ لأن الإيمان لا بد أن يأتي طواعية بعد إقناع ملموس ،

وانفعال مأنوس ، واختيار بيقين .

وحين ننظر في قوله :

{ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ } [هود : 28] .

نجد الهمزة الاستفهامية ثم الفعل « نلزم » ثم كاف المخاطبة ، وهنا نكون أمام استفهام ، وفعل ، وفاعل مطمور في الفعل ، ومفعول أو هو كاف المخاطبة ، ومفعول ثان هو الرحمة .

إذن : فلا إلزام من الرسول لقومه بأن يؤمنوا؛ لأن الإيمان يحتاج إلى قلوب ، لا قوالب ، وإكراه القوالب لا يزرع الإيمان في القلوب .

والحق سبحانه يريد من خلقه قلوباً تخشع ، لا قوالب تخضع ، ولو شاء سبحانه لأرغمهم وأخضعهم كما أخضع الكون كله له ، سبحانه القائل :

{ أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السمآء } [النازعات : 27] .

فالحق سبحانه وتعالى أخضع السماء والشمس والقمر ، وكلَّ الكون ، وهو سبحانه يقول لنا :

{ لَخَلْقُ السماوات والأرض أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ الناس } [غافر : 57] .

والكون كله يخضع لمشيئة الله سبحانه وتعالى .

وقد خلق الحق سبحانه الملائكة وهم جنس أعلى من البشر ، وقال سبحانه عنهم :

{ لاَّ يَعْصُونَ الله مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ } [التحريم : 6] .

إذن : فالحق سبحانه وتعالى لو أراد قوالب لأخضع الخلق كلهم لعبادته ، ولكنه سبحانه وتعالى يريد قلوباً تخشع؛ ولذلك يقول تبارك وتعالى :

{ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ * إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِّنَ السمآء آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ } [الشعراء : 34] .

وهكذا نعلم أن الحق سبحانه مُنَزَّهٌ عن رغبة أخضاع القوالب البشرية ، بل شاء سبحانه أن يجعل الإنسان مختاراً؛ ولذلك لا يُكْرِهُ الله سبحانه أحداً على الإيمان .

والدِّين لا يكون بالإكراه ، بل بالطواعية والرضا .

والحق سبحانه وتعالى هو القائل :

{ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدين قَد تَّبَيَّنَ الرشد مِنَ الغي } [البقرة : 256] .

وهكذا يطلب الحق سبحانه من الخلق أن يعرضوا أمر الإيمان على العقل ، فالعقل بالإدراك ينفعل متعجباً لإبداع المبدع ، وعند الإعجاب ينزع إلى اختياره بيقين المؤمن .

يقول الحق :

{ إِنَّ فِي خَلْقِ السماوات والأرض واختلاف اليل والنهار لآيَاتٍ لأُوْلِي الألباب } [آل عمران : 190] .

والإكراه إنما يكون على أمر غير مُتَبَيَّن ، أما الدِّين فأمر يتبيَّن فيه الرشد؛ لأن المنهج حين يطلب

منك ألا تسرق غيرك ، فهو يضمن لك ألا يسرقك الغير ، وحين يأمرك ألا تنظر إلى محارم غيرك ، فهو يحمي محارمك ، وحين يأمرك ألا تغتاب أحداً ، وألا تحقد على أحد ، ففي هذا كله راحة للإنسان .

إذن : فما يطلبه المنهج هو كل أمر مريح للإنسان ، وأنت إن نظرت في مطلوبات المنهج فلن تجدها مطلوبة منك وحدك ، ولكن مطلوبة من الناس لك أيضاً .

وهو تبادل مراد من الله لإعمار الكون أخذاً وعطاء .

ولذلك لا يحتاج مثل هذا الرشد إلى إكراه عليه ، بل تجد فيه البينة واضحة فاصلة بينه وبين الغَيّ .

والآفة أن بعضاً من الناس يستخدمون هذه الآية في غير موضعها ، فحين تطلب من مسلم أن يصلّي تجده يقول لك :

{ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدين } [البقرة : 256] .

ولك أن تقول له : لا إكراه في الحَمْل على الدِّين والإيمان به ، لكنك إذا آمنت بالدِّين فإياك أن تكسره ، بتعطيل منهجه أو الإعراض عنه .

ولذلك يشدِّد الحق سبحانه عقوبة الخروج من الدين؛ لأن الحق سبحانه لم يُكرِه أحداً على الدخول في الدين ، بل للإنسان أن يفكر ويتدبر؛ لأنه إن دخَل في الدين وارتكب ذنباً فسيلقى عقاب الذنب؛ لأنه دخل برغبته واختاره بيقينه ، فالمخالفة لها عقابها .

إذن : فالدخول إلى الإيمان لا إكراه فيه ، ولكن الخروج من الدين يقتضي إقامة الحد على المرتدِّ ومعاقبة العاصي على عصيانه .

وعندما يعلم الجميع هذا الأمر فهم يعلمون أن الحق سبحانه وتعالى قد جعل الصعوبة في الدخول إلى الدين عن طريق تصعيب آثار الخروج منه .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك على لسان نوح عليه السلام : { وياقوم لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً }

وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (29)

ومثل هذا القول بمعناه جاء مع كل رسول ، ففي مواضع أخرى يقول الحق سبحانه :

{ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً } [الأنعام : 90] .

لأن العِوَض في التبادل قد لا يكون مالاً ، بل قد يكون تمراً ، أو شعيراً أو قطناً أو غير ذلك ، والأجر كما نعلم هو أعم من أن يكون مالاً أو غير مال؛ لذلك يقول الحق سبحانه هنا :

{ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الله } [هود : 29] .

وهكذا نجد أن الحق سبحانه قد أغْلَى الأمر .

وقول الرسول :

{ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الله } [هود : 29] .

هو قول يدل على أن الأمر الذي جاء به الرسول هو أمر نافع؛ لأن الأجرة لا تستحق إلا مقابل المنفعة .

ونحن نعلم أن مبادلة الشيء بعينه أو ما يساويه؛ تُسمَّى شراء ، أما أن يأخذ الإنسان المنفعة من العين ، وتظل العين ملكاً لصاحبها ، فمن يأخذ هذه المنفعة يدفع عنها إيجاراً ، فكان نوحاً عليه السلام يقول : لقد كنت أستحق أجراً لأنني أقدِّم لكم منفعة ، لكنني لن آخذ منكم شيئاً ، لا زُهْداً في الأجر ، ولكني أطمع في الأجر ممن هو أفضل منكم وأعظم وأكبر .

ولأن هذا الملأ الكافر قد وصف من اتبع نوحاً بأنهم أراذل؛ لذلك ياتي الرد من نوح عليه السلام :

{ وَمَآ أَنَاْ بِطَارِدِ الذين آمنوا } [هود : 29] .

ويوضح هذا الرد أن نوحاً عليه السلام لا يمكن أن يطرد إنساناً من حظيرة الإيمان لأنه فقير ، فاليقين الإيماني لا علاقة له بالثروة أو الجاه أو الفقر والحاجة .

ولا يُخْلِي رسولٌ مكاناً من أتباعه الفقراء ليأتي الأغنياء ، بل الكلُّ سواسية أمام الله سبحانه وتعالى .

والحق سبحانه يقول :

{ وَلاَ تَطْرُدِ الذين يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بالغداة والعشي يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظالمين } [الأنعام : 52] .

وقد جعل الحق سبحانه هؤلاء الذين يطلق عليهم كلمة « أراذل » فتنة ، فمن تكبَّر بسبب فقر وضعف أتباع الرسل ، فليغرق في كِبْره .

لذلك يقول الحق سبحانه :

{ وكذلك فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ ليقولوا أهؤلاء مَنَّ الله عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَآ أَلَيْسَ الله بِأَعْلَمَ بالشاكرين } [الأنعام : 53] .

وأيضا يأمر الحق سبحانه رسوله بأن يضع عينه على هؤلاء الضعاف ، وألا ينصرف عنهم أو عن أي واحد منهم ، فيقول الحق سبحانه :

{ واصبر نَفْسَكَ مَعَ الذين يَدْعُونَ رَبَّهُم بالغداة والعشي يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ } [الكهف : 28] .

جاء هذا القول حتى لا ينشأ فساد أو عداء بين المؤمنين برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا

يقال : « فلان مُقَرَّبٌ منه »؛ ولذلك كان صلى الله عليه وسلم إذا جلس؛ يوزع نظره على كل جلسائه ، حتى يظن كل جالس أن نظره لا يتحول عنه .

وفي هذه الآية الكريمة التي نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق سحبانه وتعالى على لسان سيدنا نوح عليه السلام وصفاً لهؤلاء الضعاف الذين آمنوا :

{ إِنَّهُمْ مُّلاَقُواْ رَبِّهِمْ } [هود : 29] .

وفي هذا بيانٌ أن نوحاً عليه السلام لن يطرد هؤلاء الضعاف المؤمنين ، فلو طردهم وهم الذين سيلقون الله تعالى ، أيسمح نوح عليه السلام أن يقال عنه أمام الحق تبارك وتعالى إنه قد طرد قوماً آمنوا رسالته؟ طبعاً لا .

ونحن نعلم أن الحق سبحانه يحاسب رسله ، والمرسَل إليهم ، فهو سبحانه القائل :

{ فَلَنَسْأَلَنَّ الذين أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ المرسلين } [الأعراف : 6] .

إذن : فنوح عليه السلام يعلم أنه مسئول أمام ربه ، ولكن هذا الملأ الكافر من قومه يجهلون؛ ولذلك يقول الحق سبحانه في نهاية هذه الآية الكريمة على لسان نوح عليه السلام :

{ ولكني أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ } [هود : 29] .

أي : أنهم لا يفهمون مهمة نوح عليه السلام ، وأنه مسئول أمام ربه .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك : { وياقوم مَن يَنصُرُنِي مِنَ الله }

وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (30)

وهنا يوضِّح نوح عليه السلام أنه لا يقدر على مواجهة الله إن طرد هؤلاء الضعاف؛ لأن أحداً لن ينصر نوحاً على الله عز وجل لحظة الحساب ، فهناك يوم لا ملك فيه لأحد إلا لله ، ولا أحد يشفع إلا بإذنه سبحانه ، ولا أحد بقادر على أن ينصر أحداً على الله تعالى؛ لأنه القاهر فوق كل خلقه ،

والنصر كما نعلم يكون بالغلبة ، أما الشفاعة فهي بالخضوع ، والحق سبحانه لا يأذن لأحد أن يشفع في طرد مؤمن من حظيرة الإيمان .

وفي هذا القول تذكير من نوح عليه السلام لقومه؛ ولذلك قال الحق سبحانه :

{ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ } [هود : 30]

أي : يجب ألاَّ تأخذكم الغفلة ، وتُنسيكم ما يجب أن تتذكروه .

وكما جاء الحق سبحانه بالتذكُّر ، وهو الأمر الذي بدوامه يبعد الإنسان الغفلة ، جاء الحق سبحانه أيضاً بالتفكُّر ، وهو التأمل لاستنباط شيء جديد عن طريق إعمال العقل بالتفكر ، الذي يجعل الإنسان في تأمل يقوده إلى تقديس وتنزيه الخالق ، وبهذا يصل الإنسان إلى الحقائق

التي تكشف له معالم الطريق .

وجاء الحق سبحانه أيضاً بالتدبر ، أي : ألا يأخذ الإنسان الأمور بظواهرها ، أو أن ينخدع بتلك الظواهر ، بل لا بد من البحث في حقائق الأشياء .

لذلك يقول الحق جَلَّ وعَلاَ :

{ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القرآن } [النساء : 82] .

أي : أفلا يبحثون عن الكنوز الموجودة في المعطيات الخلفية للقرآن .

والتدبر هو الذي يكشف المعاني الخفية خلف ظواهر الآيات ، والناس يتفاضلون في تعرضهم لأسرار كتاب الله حين ينظرون خلف ظواهر المعاني .

ولذلك نجد عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يقول : « ثَوِّروا القرآن » أي : قَلِّبوا معاني الآيات لتجدوا ما فيها من كنوز ، ولا تأخذوا الآيات بظواهرها ، فعجائب القرآن لا تنقضي .

ويقول الحق سبحانه وتعالى مواصلاً ما جاء على لسان سيدنا نوح : { وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ الله }

وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (31)

وهكذا يَسُدُّ نوح عليه السلام على هذا الملأ الكافر كل أسباب إعراضهم عن الإيمان ، فإن ظنوا أن الإيمان يتطلب ثراءً ، فنوح لا يملك خزائن لله ، وهو لا يملك أكثر من هذا الملأ ، وإن طلبوا أن يكشف لهم الغيب ، فالغيب علمه عند الله تعالى وحده .

ولم يَدَّعِ نوح أنه من جنس آخر غير البشر ، إنما هو بشر مثلهم ، لا يملك ما يجبرهم به على الطاعة ، ثراءً ، أو جاهاً ، أو علم غيب .

ولن يطرد نوح عليه السلام مَنْ آمن مِنَ الضِّعاف الذين تزدريهم وتحتقرهم وتتهكَّم عليهم عيون هذا الملأ الكافر؛ لأن نوحاً يخشى سؤال الله عَزَّ وجَلَّ له إن سَدَّ في وجوه الضعاف أبواب الإيمان .

ولا بد من وقفة هنا عند قول الحق سبحانه :

{ وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ الله وَلاَ أَعْلَمُ الغيب وَلاَ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلاَ أَقُولُ لِلَّذِينَ تزدري أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ الله خَيْراً } [هود : 31] .

ونلحظ هنا أن الخطاب قد حُوِّل إلى الغَيبة ، فلم يخاطب نوح عليه السلام الضعاف ويقول لهم : إن الله سيمنع عنكم الخير ، ذلك لأن الله سبحانه وتعالى هو العليم بما في نفوسهم ، ولو قال نوح لهم مثل هذا القول لكان من الظالمين .

واللام في كلمة { لِلَّذِينَ } تعني الحديث عن الضعاف ، لا حديثاً إلى الضعاف .

ومجيء « اللام » بمعنى « عن » له نظائر ، مثل قول الحق سبحانه :

{ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هاذآ إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ } [سبأ : 43] .

وهم هنا لا يقولون للحق ، ولكنهم يقولون عن الحق ، وهكذا جاءت « اللام » بمعنى « عن » .

وهكذا أوضح نوح عليه السلام أنه لو طرد من يقال عنهم « أراذل » ، لكان معنى ذلك أنه يعلم النوايا ، ونوح عليه السلام يعلم يقيناً أن الله هو الأعلم بما في النفوس؛ لذلك لا يضع نوح نفسه في موضع الظلم لا لنفسه ولا لغيره .

يقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك : { قَالُواْ يانوح قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا }

قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (32)

والجدال هو قول كلام يقابل كلاماً آخر ، والقصد عند كل طرف متكلم أن يزحزح الطرف الآخر عن مذهبه بحجة أو بشبهة ، بهدف إسقاط المذهب .

إذن : فالجدال هو مناقشة طرفين ، يتقاسمان الكلام بهدف أن يقنع أحدهما الآخر بأن ينصرف عن مذهبه هو إلى مذهب القائل .

وكلمة « الجدال » مأخوذة من « الجَدْل » أي : الفَتْل ، وفتل الحبل إنما يأتي من أخذ شعرات من الكتان أو الحرير أو أي مادة مثل هذا أو ذاك ، ثم ضَمِّ شعرتين إلى بعضهما ، ثم القيام بِلَفِّ كل شعرتين أخريين ، وهكذا حتى يتم اكتمال الحبل .

ويقال للرجل القوي : « مفتول العضلات » ، أي : أن عضلاته ليست رخوة أو ضعيفة ، بل مفتولة ، أي : متداخلة ومشدودة .

وحين تنظر إلى الجهاز العضلي فأنت تندهش لقدرة الحق سبحانه وتعالى الذي خلق كل عضلة بشكل وأسلوب معين ، يتيح لها أن تتآزر وتتعاون مع غيرها من العضلات لأداء الحركات المطلوبة منها .

فحين يرفع الإنسان رأسه فهو يحتاج لحركة أكثر من عضلة ، وحين تعمل اليد فهي تحرك أكثر من عضلة ، ولو تعطلت حركة عضلة واحدة ، لامتنعت الحركة المقابلة لها .

وهم قد قالوا لنوح عليه السلام :

{ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا } [هود : 32] .

ونحن نعلم أن نوحاً عليه السلام عاش ألف عام إلا خمسين عاماً ، ومعنى ذلك أن جداله معهم أخذ وقتاً طويلاً .

والجدال يختلف عن المِرَاء ، لأن الجدال إنما يكون لحقٍّ ، والمراء ، يكون بعد ظهور الحق .

الجدال إذن مطلوب ، والحق سبحانه هو القائل :

{ وَجَادِلْهُم بالتي هِيَ أَحْسَنُ } [النحل : 125] .

وكذلك يقول سبحانه وتعالى :

{ قَدْ سَمِعَ الله قَوْلَ التي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وتشتكي إِلَى الله } [المجادلة : 1] .

إذن : فالجدال مطلوب لنصل إلى الحق ، شرط أن يكون جدلاً حسناً ، لا احتكاك فيه ولا إيذاء .

وهناك فارق بين احتكاك الآراء ، وتحكُّك الآراء ، فالتحكك كالتلكُّك ، وهو الرغبة في عدم الوصول إلى الحق ، لكن الاحتكاك هو الذي يوصل إلى الحق ، مثلما نحكُّ الزناد بقطعة من حديد فتولد الشرر لنرى الحق ، أما التحكُّك فهو يواري ويطمس الحقيقة .

والمِرَاء هو الجدَال بعد أن يظهر الحق ، وهو مأخوذ من مَرَى الضَّرع ، فحينَ يقومون بإنزال اللبن من ضرع الناقة أو البقرة ، فالضرع يكون ملآن ، وينزل منه اللبن بشدة وقوة ، وبعد أن ينتهي حَلْبُ الضرع ، يظل مَنْ يحلبها مُمْسِكاً بجَلَمات الناقة أو الجاموسة ، ويستحلب ما بقى من اللبن ، ويُقال لهذا الجزء الأخير « المريى » .

ولذلك أخذوا من هذه العملية كلمة « المراء » ، وهو ما بعد ظهور الحق .

وهناك بجانب الجدال والمراء ، والاحتكاك ، والتحكُّك ، والحِجَاج؛ والمراد بالحجاج هو إظهار حجة الخصم على الخصم .

وبعد أن مَلُّوا من جدال نوح عليه السلام طلبوا أن ينزل بهم العذاب الذي أنذرهم به ، وقد استبطأوا مجيء هذا العذاب؛ لأن نوحاً عليه السلام عاش بينهم ألف سنة إلا خمسين ، وقالوا : { فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ الصادقين } [هود : 32] .

وكأنهم بهذا القول قد أخرجوا نوحاً مَخْرج من بيده أن يأتي بالعذاب ، أو يمنع العذاب ، وهذه مسألة لا يملكها نوح ، بل هي مِلْك لله سبحانه وتعالى .

ولذلك يُنبههم نوح عليه السلام : { قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ الله }

قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (33)

لأن الحق سبحانه هو الذي يقدِّر للعذاب أواناً ، ويقدِّر لكل تعذيب ميلاداً ، ولا يَعْجَلُ الله بعجلة العباد حتى تبلغ الأمور ما أراد .

وهم لن يعجزوا الله تعالى ولن يفلتوا منه؛ لأنه لا توجد قوة في الكون يمكن أن تمنع مشيئة الله تعالى ، أو أن تتأبَّى عليه .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك على لسان نوح عليه السلام : { وَلاَ يَنفَعُكُمْ نصحي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ }

وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (34)

والمعنى هنا : إن كان الله سبحانه يريد أن يغويكم فلن تنتفعوا بالنصيحة إن أردت أن أنصحكم؛ لأن الآية بها تعدُّد الشرطين .

ومثال ذلك من حياتنا : حين يطرد ناظر المدرسة طالباً ، عقاباً له على خطأ معين ، فالطالب قد يستعطف الناظر ، فيقول الناظر : « إن جئتني غداً أقبل اعتذارك إنْ كان معك والدك » .

وقول الناظر : « إن كان معك والدك » هو شرط متأخِّر ، ولكنه كان يجب أن يتقدَّم .

وفي الآية الكريمة التي نحن بصددها جاء الشرط الأول متأخِّراً ، ولكن هل يغوي الله سبحانه عِبادَه؟

لا ، إنه سبحانه يهديهم ، والغواية هي الضلال والبعد عن الطريق المستقيم .

والحق سبحانه يقول عن محمد صلى الله عليه وسلم :

{ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غوى } [النجم : 2] .

وقال سبحانه عن آدم عليه السلام حين أكل من الشجرة :

{ وعصى ءَادَمُ رَبَّهُ فغوى } [طه : 121] .

ونحن يجب ألاَّ نقع في الآفة التي يخطىء البعض بها ، حين يستقبلون ألفاظ العقائد على أساس ما اشتهر به اللفظ من معنى؛ فالألفاظ لها معانٍ متعددة .

لذلك لا بد أن نعرض كل معاني اللفظ لنأخذ اللفظ المناسب للسِّياق .

ومثال ذلك هو قول الحق سبحانه :

{ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ الصلاة واتبعوا الشهوات فَسَوْفَ يَلْقُونَ غَيّاً } [مريم : 59] .

وقوله سبحانه هنا : { فَسَوْفَ يَلْقُونَ غَيّاً } .

أي : سوف يلقون عذاباً ، لأن غَيَّهم كان سبباً في تعذيبهم ، فسمَّى العذاب باسم مُسبِّبه .

ومثل قول الحق سبحانه :

{ وَجَزَآءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا } [الشورى : 40] .

والحق سبحانه لا يُسيء لعباده ، ولكنهم هم الذين يُسيئون لأنفسهم ، فسمَّى ما يلقاهم من العذاب سيئةً .

وكذلك « الغَيُّ » يرد بمعنى « الإغواء » ، ويرد بمعنى الأثر الذي يترتب عن الغي من العذاب .

وقد عرض الحق سبحانه وتعالى في كتابه صوراً متعددة للإغواء ، فآدم عليه السلام حين تَنكَّبَ عن الطريق ، وأكل من الشجرة المحرَّمة رغم تحذير الحق سبحانه له ألاّ يقربها ، قال الحق سبحانه

وتعالى في هذا الموقف :

{ وعصى ءَادَمُ رَبَّهُ فغوى } [طه : 121] .

وقد فعل آدم عليه السلام ذلك بحكم طبيعته البشرية ، فأراد الله تعالى أن يعلمه أنه إذا خالف المنهج في « افعل » و « لا تفعل » ستظهر عورته وتبدو له سوءاته .

وهكذا أخذ آدم عليه السلام التجربة ليكون مُستعِداً لاستقبال المنهج والوَحْي .

وقد ذكر لنا الحق سبحانه كلمات الشيطان بقوله :

{ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأرض وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ } [الحجر : 39] .

ولكن هل أغوى الله سبحانه الشيطان؟

إن الحق سبحانه لا يُغْوِي ، ولكنه يترك الخيار للمكلَّف إن شاء أطاع ، وإن شاء عَصَى .

ولو أنه سبحانه وتعالى جعلنا مؤمنين لما كان لنا اختيار ، فإن أطاع الإنسان نال عطاء الله ، وإن ضَلَّ ، فقد جعل الله له الاختيار ، ووَجَّهه لغير المراد مع صلاحيته للمراد .

إذن : فالاختيار ليس مقصوراً على الإغواء بل فيه الهداية أيضاً ، والإنسان قادر على أن يهتدي ، وقادر على أن يضلَّ .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { أَمْ يَقُولُونَ افتراه قُلْ إِنِ افتريته }

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ (35)

جاء هذا القول في صُلْب قصة نوح عليه السلام وقد يكون مما أوحى به الله سبحانه لنوح عليه السلام ، أو يكون المراد به أنهم قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الكلام .

والافتراء كما نعلم هو الكذب المتعمّد الذي يناقض واقعاً .

وانظروا إلى كل ما جاء بالمنهج ليلتزم به الفرد ، ستجدون أنه مُلْزِمٌ للجميع ، وستكون الفائدة التي تعود عليك بالتزام الجميع بما فيهم أنت فائدة كبيرة ، فإن قال لك المنهج : لا تسرقْ؛ فهذا أمانٌ لك من أن يسرقك الناس .

ولذلك فساعة تسمع للمنهج ، لا تنظرْ إلى المأخوذ منك ، بل التفتْ إلى المأخوذ لك .

وعلى ذلك لا يمكن أن يكون المنهج افتراء .

ونحن نعلم أن المنهج يؤسِّس في المجتمعات مقاييس عادلة للاستقامة ، وحين يُشَرِّع الحق سبحانه تشريعاً ، قد يبدو لك أنه يُحِدُّ من حريتك ، ولكنه في الواقع يُحَقِّق لك منافع متعدِّدة ، ويحميك من أن يعتدي الآخرين عليك .

وكان الردُّ على الاتهام بالافتراء يتمثَّل في أمرين : إما أن يفتروا مثله ، أو أن يتحمَّل هو وِزْرُ إجرام الافتراء .

وإن لم يكن قد افتراه ، فعليهم يقع وِزْرُ إجرامهم باتِّهامه أنه قد افترى .

وأسلوب الآية الكريمة يحذف عنهم البراءة في الشطر الأول منها ، ولو جاء بالقول دون احتباك ، لقال سبحانه : قل إن افتريته فعليَّ إجرامي وأنتم براءه منه ، وإنْ لم أفْتَرِ فعليكم إجرامكم وأنا برىء .

وجاء الحذف من شِقّ المقابل من شِقّ آخر ، وهذا ما يسمَّى في اللغة « الاحتباك » .

والحق سبحانه وتعالى يقول :

{ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ الله } [البقرة : 249] .

والفئة القليلة تكون قلَّتُها في الأفراد والعَتَاد وكلّ لوازم الحرب ، والفئة الكثيرة ، تظهر كثرَتها في العُدَّة والعَدَد وكلّ لوازم الحرب ، والفئة القليلة إنما تَغْلِب بإذن الله تعالى .

وهكذا يوضّح الحق سبحانه أن الأسباب تقضي بغلبة الفئة الكثيرة ، لكن مشيئته سبحانه تغلب الأسباب وتصل إلى ما شاءه الله تعالى .

ولذلك يقول الحق سبحانه في آية أخرى :

{ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ التقتا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ الله وأخرى كَافِرَةٌ } [آل عمران : 13] .

وحذف سبحانه صفة الإيمان عن الفئة الأولى ، كما حذف عن الفئة الثانية صفة أنها تقاتل في سبيل الطاغوت والشيطان ، وهذا يسمَّى « الاحتباك » .

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها قال الحق سبحانه :

{ قُلْ إِنِ افتريته فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَاْ برياء مِّمَّا تُجْرِمُونَ } [هود : 35] .

ولكن الحق سبحانه وتعالى شاء أن يبين لنا قول رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم حين خاطب قومه ، فقال سبحانه :

{ قُل لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلاَ نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ } [سبأ : 25] .

فلم يَقُلْ : « عَمَّا تُجرمون » . فلم يقابل إيذاءهم القوليَّ والمادِّيَّ له بإيذاء قوليٍّ .

وكذلك ذكر الحق سبحانه ما جاء على لسان محمد صلى الله عليه وسلم :

{ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لعلى هُدًى أَوْ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ } [سبأ : 24] .

وهذا ارتقاء في الجدل يناسب رحمة رسول الله صلى الله عليه وسلم التي أنزلها الله على العالم كله .

وبعد ألف عام إلا خمسين من جدال نوح عليه السلام لقومه ، قال له الحق سبحانه وتعالى : { وَأُوحِيَ إِلى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ }

وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (36)

ومجيء « إلا » هنا ليس للاستثناء ، ولكنها اسم بمعنى « غير » أي : لن يؤمن من قومك غير الذي آمن .

ولهذا نظير في قمة العقائد حين قال الحق سبحانه :

{ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ آلِهَةٌ إِلاَّ الله لَفَسَدَتَا } [الأنبياء : 22] .

و « إلا » هنا أيضاً بمعنى « غير » ، ولو كانت « إلا » بمعنى الاستثناء لعنى ذلك أن الله سبحانه معاذ الله سيكون ضمن آلهة آخرين ، لذلك لا يصلح هنا أن تكون « إلا » للاستثناء ، بل هي بمعنى « غير » ، وتفيد معنى الوحدانية لله عَزَّ وجَلَّ وتَفرُّده بالألوهية .

والآية التي نتناولها بخواطرنا تؤكد أنه لا يوجد غير من آمن بنوح عليه السلام من قومه ، سوف يؤمن؛ فقد ختم الله المسألة .

وهذا يعطينا تبريراً لاجتراء نوح عليه السلام على الدعاء على الذين لم يؤمنوا من قومه بقوله :

{ رَّبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأرض مِنَ الكافرين دَيَّاراً * إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلاَ يلدوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً } [نوح : 26 27] .

وكان تبرير ذلك أنه عليه السلام قد دعاهم إلى الإيمان زماناً طويلاً فلم يستجيبوا ، وأوحى له الله تعالى أنهم لن يؤمنوا ، وقال له سبحانه :

{ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ } [هود : 36] .

والابتئاس هو الحزن المحبط ، وهم قد كفروا وليس بعد الكفر ذنب .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { واصنع الفلك بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا }

وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (37)

وهكذا علم نوح بمسألة الإغراق من خلال الوحي له بصنع السفينة . ومعنى « أصنع » أي : اعمل الصنعة ، وهناك فرق بين الصنعة والحرفة ، فالصنعة أنْ تُوجِدَ معدوماً ، كصانع الأكواب ، أو صانع الأحذية ، أو صانع النَّجَفَ ، أو صانع الكراسي ، أما الذي يقوم على صيانة الصنعة فهو الحرفيُّ .

وهناك عملية أخرى للاستنباطات مثل مهنة الزارع الذي يحرث الأرض ويبذر فيها الحَبَّ ويرويها ليستنبط منها النباتات ، ويسمَّى صاحب هذه المهنة « زارع » أو « فلاَّح »؛ لأن اقتيات الحياة المباشر يأتي من الزراعة .

أما الصانع فيأتي بشيء من متطلبات الحياة ، في تطورها ويوجد آلةً أو يصنع جهازاً لم يكن موجوداً ، و الحرفيُّ هو الذي يصون تلك الآلة ، أما التاجر فهو الذي يقوم بعمليةٍ تجمع كل ذلك ، ويكون هو الوسيلة بين منتج الشيء والمستهلك ، فالتاجر يكون لعرض الأشياء بغية البيع والشراء .

والحق سبحانه وتعالى يقول هنا لنوح عليه السلام :

{ واصنع الفلك } [هود : 37] .

أي : أوجد شيئاً من عدم ، إلا أن هذا الشيء سيصنع من شيء آخر موجود ، لأن نوحاً عليه السلام قد زرع من قبل شجرة وعاشت معه كل هذه المدة الطويلة ، وتضخَّمت في الجذع والفروع .

وبدأ نوح عليه السلام في عملية شقِّ الشجرة ليصنع منها السفينة التي بلغ طولها كما قيل ثلاثمائة ذراع وبلغ عرضها خمسين ذراعاً ، وبلغ ارتفاعها ثلاثين ذراعاً ومكوَّنة من ثلاثة أدوار لتسع المؤمنين ، وزوجين من كل نوع من حيوانات الأرض ودوابِّها وهوامها وسباعها ووحوشها .

ونحن قد علمنا أن الشجرة التي زرعها نوح عليه السلام قد تضخَّمت جداً لطول المدَّة التي قضاها نوح في دعوته لقومه؛ ونعلم أيضاً أن جذع الشجرة ينمو دائرياً بمقدار دائرة كل عام .

وحين نقطع جذع الشجرة نجد أن قطر الجذع مكوَّن من دوائر ، وكل دائرة تمثِّل عاماً من عمرها .

وهكذا بلغ حجم الشجرة ما يساعد نوحاً عليه السلام على أن يصنع السفينة .

وقد علَّمه الحق سبحانه بالوحي وإلهام الخواطر كيف يصنع السفينة ، ألمْ يُلهِم الله سبحانه نبيّه داود عليه السلام في مسألة الحديد؟ وقال لنا سبحانه أنه جلَّ وعَلا قد أمر الجبال أو تُؤَوِّب معه ، وكذلك الطير ، فألان له الحديد دون نار :

{ ياجبال أَوِّبِي مَعَهُ والطير وَأَلَنَّا لَهُ الحديد * أَنِ اعمل سَابِغَاتٍ } [سبأ : 1011] .

هكذا أخبرنا الحق سبحانه أن الحديد صار ليِّنًا دون نار بإذنه سبحانه ليصنع منه داود دروعاً كبير مستوفية للظهور والصدر ، لتحمي معاطب الإنسان .

وقد أوحى الحق سبحانه لداود عليه السلام أن يصنع تلك الدروع بطريقة عجيبة ، بأن يجعلها سابغات .

والسابغة هي المسرودة ، مثل الحصير ، حيث يُوضع العُود بجانب العود ، ويربط الأعواد كلها بطريقة تسهل من فَرْد الحصير أو لَفِّه .

وفي نفس الآية يبيِّن لنا الحق سبحانه كيفية الوحي لداود عليه السلام بتلك الصناعة الدقيقة ، فيقول سبحانه :

{ وَقَدِّرْ فِي السرد } [سبأ : 11] .

أي : أنك يا داود حين تنسج الحديد الليِّن بإذن الله تعالى لتجعله دروعاً عليك أن تصنع تلك الدروع بتقدير دقيق كي لا تكون الدِّرع ضيِّقة على صدر المقاتل فتضيق حركته ، وتقلِّل من قدرته على التنفس ، فيلهث بسرعة ، ولا يستطيع مواصلة القتال .

وكذلك يجب ألاَّ تكون الدِّرع واسعة على صدر المقاتل؛ حتى لا تساعد سعة الدِّرع سيف الخصم ، فيضرب الدِّرع نفسه صدر المقاتل ، وتكون قوة الدِّرع مضافة إلى قوة سيف الخصم ، ولكن

حين تكون الدِّرع قادرة على الإحاطة بالجسم دون أن يُكبِّل الحركة ، فهذه الدِّرع المناسبة للقتال .

وقد أتقن داود عليه السلام صناعة تلك الدُّروع بتلك الهندسة الدقيقة التي أوحى الحق سبحانه بها إليه ، فقد صنعها بأمر الحق الأعلى سبحانه حين قال له : { وَقَدِّرْ } [سبأ : 11] وكلمة قدر تعطي معنى التقدير والإتقان .

فعلى الذين يصنعون الأشياء عليهم أن يعلموا أن القرآن الكريم لحظة يوجِّه إلى الإتقان في الأداء والعمل ، فإنه يعلمنا طريقة التقدير والإتقان في العمل والإبداع فيه ، لتتخذ من هذا التوجيه نبراساً نسير عليه؛ ليكون العمل صالحاً ، وأنت ترى من يتقن صنعته وهو يقول : « الله » ، وكأن هذا القول اعتراف الفطرة الأولى بقدرة الحق سبحانه على أن يَهَبَ الإنسانَ طاقة الإتقان والإبداع .

ويقول الحق سبحانه أيضاً في تعليمه لداود عليه السلام :

{ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ } [الأنبياء : 80] .

وهكذا يلقي الله تعالى الخاطر في قلب الرسول أو النبي أن « افعل كذا »؛ فيفعل .

وحين ننظر إلى حضارة مصر القديمة ، نجد كلَّ علومها وفنونها في التحنيط والألوان والنَّحت ، كانت من اختصاص الكهنة الذين يُمثِّلون السلطة الدينية ، ولم يكتب هؤلاء الكهنة أسرار تلك العلوم ، فلم يستطع أحد من المعاصرين أن يتعرف عليها .

وهكذا نجد أن كل أمر في أصوله؛ مصدره السماء .

وفي قصة نوح عليه السلام نجد الحق سبحانه يقول :

{ واصنع الفلك بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الذين ظلموا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ } [هود : 37] .

ومعنى « بأعيننا » هو بحفظنا وبرعايتنا . وكلمة « بأعيننا » تفيد شمول الحفظ وكمال الرعاية .

ألم يقل الحق سبحانه في مسألة تخصُّ رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ؟

{ واصبر لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا } [الطور : 48] .

وكذلك قال سبحانه في قصة سيدنا موسى عليه السلام :

{ وَلِتُصْنَعَ على عيني } [طه : 39] .

وأنقذ الحق سبحانه موسى عليه السلام من الفرعون الذي كان يقتل أطفال بني إسرائيل ، وألقى الله تعالى المحبة لموسى في قلب زوجة الفرعون ، وقال سبحانه :

{ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي } [طه : 39] .

لأن موسى عليه السلام حين كان طفلاً رضيعاً قد ألقىَ في اليَمِّ ، والتقطه رجال الفرعون ، لكن زوجة الفرعون قالت لزوجها طالبة لموسى الحياة :

{ قُرَّةُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ } [القصص : 9] .

ونحن نجد أن عَدُوَّ موسى وقومه ، يلتقط موسى ليعيش في كنفه ورعايته ، وكأن الله سبحانه يقول لهم : سأجعلكم تُربُّون مَنْ يتولّى قهركم .

وقول الحق سبحانه :

{ واصنع الفلك بِأَعْيُنِنَا } [هود : 37] .

أي : إنك إن توقَّفتَ لأية عقبة ، فسوف نُلهمك بما تُواجه به تلك العقبة .

وحين صنع نوح عليه السلام الفُلْك احتاج لألواح خشبية ، ولا بد أن تتماسك تلك الألواح ، ولم تكن مسامير قد اختُرعتْ بَعْدُ ، فأوحى له الله تعالى أن يربط الألواح بالحبال المجدولة ، وقد فعل هذا أحد مكتشفي أمريكا في العصر الحديث ، حين صنع سفينة من نبات البَرْدِى وربطها بالحبال المجدولة القوية .

وقال الحق سبحانه في طريقة صنع سفينة نوح عليه السلام :

{ وَحَمَلْنَاهُ على ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ } [القمر : 13] .

أي : أن نوحاً عليه السلام قد أحضر من الخشب وربطها بحبال مجدولة ، وأحْكَمَ الرَّبط بقدر مقتدر بما لا يسمح بتسرب الماء إلى داخل السفينة .

مثلما تصنع البراميل الخشبية في عصرنا ، حيث يصنعها الصانع من قطع خشبية مستطيلة ، ويرتّبها ثم يُحْكم رَبْطَها بإطار قويٍّ ، وحين يوضع فيها أي سائل ، فالخشب يتشرَّب من هذا السائل ويتمدَّد ليسدَّ المسَام ، فلا ينضح السائل من البرميل؛ لأن الخشب هو المادة الوحيدة التي تتمدّد بالبرودة على العكس من كل المواد التي تتمدّد بالحرارة .

ولذلك نجد النَّجَّار الحاذق في صنعته هو مَنْ يصنع الأثاث أو الأبواب أو الشبابيك في الفصول الرتيبة؛ لأنه إن صنعها في الصيف ، سنجد الخشب وهو منكمش؛ فإذا ما جاء الشتاء تمدَّد ذلك الخشب وسبَّب عدم إحكام إغلاق الأبواب والنوافذ ، وكذلك إن صنعها في الشتاء والخشب متمدِّد سيأتي الصيف وتنكمش الأبواب ، وتكون لها متاعبها ، فلا يسهل ضبط إغلاق الأبواب أو ضبط أي صندوق أو شبَّاك بإحكام .

ثم يقول الحق سبحانه :

{ وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الذين ظلموا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ } [هود : 37] .

أي : لا تحدّثني في أمر المغفرة لمن ظلموا أنفسهم بالكفر ، وهم مَن ارتكبوا الظلم العظيم ، وهو الكفر في القمة العقدية ، وهي الإيمان بالله تعالى واحداً أحداً لا شريك له؛ لذلك استحقوا العقاب ، وهو الإغراق .

وهكذا عَلِمَ نوح عليه السلام أنَّ صُنْعِ السفينة مرتبط بلون العقاب الذي سيقع على مَنْ كفروا

برسالته ، فهو ومَنْ آمنوا معه سوف ينجون ، أما مَنْ كفر فلسوف يغرق .

ويبيّن الحق سبحانه وتعالى حين يقول : { وَيَصْنَعُ الفلك وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ }